وليم فوكنر

راتب جندي

ترجمة
مصطفى ناصر

رواية





راتب جندي

راتب جندي

وليم فوكنر

ترجمة: مصطفى ناصر

عدد الصفحات: ٤٠٠

١٠٠٠/٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ



سورية ـ دمشق ـ ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتـــف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

ninawa@scs-net.org E-mail:
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

الإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني ـ دار نينوى

راتب جندي

وليم فوكنر

رواية

ترجمة
مصطفى ناصر

العنوان الأصلي للكتاب

Soldiers' Pay
Welem Foknar

الرواية والمؤلف:

تعتبر رواية (راتب جندي) *Soldiers' Pay* ـ للروائي الأمريكي الشهير وليم فوكنر الفائز بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٤٩، أول رواية يكتبها ذلك الروائي الكبير الذي كتب روائع الروايات وعلى رأسها (الصخب والعنف) وكان له بالغ الأثر على الأدب في القرن العشرين.

تكشف هذه الرواية عن الموهبة الفذة لهذا الروائي منذ زمن مبكر ونجد فيها أثاراً واضحة وأفكاراً بقيت تتكرر في بقية رواياته وهي معاناة السود في الجنوب الأمريكي، حيث يمكن اعتبار رواياته كلها فصولاً من رواية طويلة، أو ملحمة اصطلح النقاد على تسميتها (يوكناباتاوفا).

كتب فولكنر الرواية في صيف عام ١٩٢٥ حينما كان يعمل في نيو أورلينز بعد أن التقى بالكاتب الأمريكي الشهير شيروود اندرسون الذي اكتشف فيه تلك القدرة الواعدة وشجعه على كتابة رواية. فكتب هذه الرواية، ثم انطلق بعدها سيل من الأعمال الإبداعية لم يتوقف تدفقه ابتدأ برواية (مقتحم الغبار) و (ضوء في آب) وغيرها...

نبذة عن المترجم

- شهادة البكالوريوس بتفوق في اللغة الانكليزية عام ١٩٧٨.
- عمل في مجال الترجمة لمدة تزيد على عشرين سنة في مختلف الميادين الأدبية والعلمية والقانونية. وأصدر العديد من الكتب قبل التفرغ تماماً لحقل الأدب، ومنها: (إدارة المفاوضات)، (قاموس مصطلحات الطيران)، (مخاطر الطيور على الطائرات)، (تحليل إخفاق العناصر المعدنية) وغيرها.
- له رواية مترجمة (في انتظار الماهاتما) ٢٠٠٦. ـ دراسات في الأدب الايرلندي ٢٠٠٨. ـ (كيف تقرأ القصيدة؟) تأليف تيري ايغلتون، (مجلة الثقافة الأجنبية) العدد ٣ / ٢٠٠٨. ـ رواية (العين الأكثر زرقة) لتوني موريسون. (خارج السياق الثقافي للفن) عن الفنان التشكيلي العراقي (صدر الدين أمين) تأليف خالد خضير الصالحي (للإنكليزية). ـ رواية (نمش الماء) للقاصة فليحة حسن (إلى الانكليزية).

جندي:

«الشكوى المكتومة التي تبثها الرياح للأشجار الجريحة

تهز العشب في الدروب والأزقة.

والأسى والزمن بحار ذهبية بلا تيار.

صمتاً ! صمتاً ! ها قد عاد إلى الوطن».



الفصل الأول

(١)

أخيل: **هل حلقت ذقنك هذا الصباح، أيها التلميذ؟**

هرمس: **نعم، سيدي.**

أخيل: **بأي شيء، أيها التلميذ؟**

هرمس: **كالمعتاد، سيدي.**

أخيل: **انصرف، أيها التلميذ.**

(مسرحية قديمة: حوالي ١٩٠)

كان قد مضى على جوليان لوي، الذي يحمل رقم... مدة وجيزة ليس إلا وهو تلميذ متدرب في سلاح الطيران، سرب أومبتيث. عرف بلقب (جناح أول) من قبل الأبطال الصغار الآخرين في وحدته، وكان على الدوام ينظر إلى العالم بعين كئيبة ساخطة. لقد عانى من الشعور بالكراهية والعداء ذاته الذي كابده كثيرون ممن يفوقونه براعة ودهاء، ابتداءً من قادة الجناح، ومروراً بالجنرالات ونزولاً إلى الرتب الصغيرة الذين كان يفوح منهم عبق الطيبة والبراءة، (ولا داعي لأن نذكر وحش الميدان ذاك الذي يتعذر وصف حالته؛ والذي اعتبره الفرنسيون طياراً واعداً)؛ لقد انتهت الحرب بالنسبة إليه.

وهكذا جلس وقد اعترته حالة من الحزن المكتوم المقيت، غير مكترث حتى لمزايا مقصورته المريحة في القطار، فيما كان يقلب قبعته على إبهامه، ويداعب رباطها الأبيض القذر.

- «أطاحت الريح بأنفك؟ هاي! يا رفيقي؟» قال يافانك، وكان عائداً إلى وطنه أيضاً وتفوح منه حتى عنان السماء رائحة الوسكي الرخيص.

- «آه، اذهب إلى الجحيم» أجاب بفظاظة ورفع يافانك قبعته البالية.

ـ هكذا، طبعاً، أيها الجنرال ـ أم ينبغي أن أقول ملازم؟ عفواً، سيدتي. إنني أثرثر كثيراً، وقد تعرضت للغازات السامة في الميدان، ورائحتي مقرفة، وشكلي تغير كثيراً عن ذلك الزمن. هيا بنا إلى برلين! نعم، طبعاً، إننا في الطريق إليك يا برلين. إنني قادم، قادم إليك يا برلين. لقد أخذت رقمك. الرقم هو صفر، ألف صفر، مئة، وصفر آخر لعين، الجندي... (خاص جداً) جو جيليجان، متأخر عن العرض، متأخر عن الأشغال، متأخر عن الإفطار حتى عندما يأتي الإفطار متأخراً. يبدو ان تمثال الحرية لم يرني أبداً، وإذا ما رآني، فسوف يلكمني في وجهي.

رفع تلميذ الطيران لوي عينيه بتكلف. «يا هذا، ما الذي تشربه على أية حال؟».

ـ يا أخي، لست أدري. الرجل الذي كان يعمله منح ميدالية من قبل الكونغرس يوم الثلاثاء الماضي لأنه اكتشف خطة لإيقاف الحرب. ندخل كل الألمان في جيشنا ونجعلهم يشربون الكثير من شرابه التافه يومياً ولمدة أربعين يوماً، أترى؟ سوف تمنى أي حرب بالفشل. هل فهمت الفكرة؟

ـ سأقول لك رأيي.. لن يمكنهم أن يعرفوا إن كانت حرباً أم رقصة، هاه؟

ـ «طبعا، يمكنهم معرفة ذلك، النساء جميعاً سوف يرقصن هناك. اسمع، كانت لدي صديقة رائعة اسمها جيني قالت لي ذات مرة: «بحق المسيح، إنك لا تعرف الرقص». فقلت لها: «يمكنني أن أرقص بشكل جنوني» واخذنا نرقص ثم قالت: «ماالذي تفعله، على كل حال!» فقلت: «لماذا تريدين معرفة ذلك؟ يمكنني أن أرقص جيداً مثل أي جنرال أو رائد أو حتى عريف، لأني ربحت تواً أربعمئة دولاراً في لعبة البوكر» وقالت: «اوه، هل ربحت حقاً؟» وقلت: «طبعاً، ابقي معي، يا صغيرتي،» وقالت: «أين النقود؟» لكني لم أكن لأريها إياها وبعد ذلك أتى ذلك الشخص إليها وقال: «هل ترقصين مع هذا؟» وقالت: «نعم، لكن هذا لا يعرف الرقص» حسنٌ. لقد كان عريفاً، أضخم رجل رأيته في حياتي. يا رجل، لقد كان

مثل ذلك الشخص في أركانسو الذي واجه بعض المتاعب مع زنجي وقال له أحد الأصدقاء: «حسنٌ، سمعت بأنك قتلت زنجياً بالأمس» فقال: «نعم، كان يزن مئتي رطل» وكأنه دب. تحمل حركة ترنح القطار بخفة وقال لوي: «بحق المسيح!»

- «اشرب» قال الآخر بإلحاح: «إنه لن يسبب لك الأذى، بالرغم من كل شيء. لقد جربت ذلك بنفسي. رفض كلبي أن يشرب شيئاً منه طبعاً في بداية الأمر، لكنه فيما بعد أساء التصرف حين كان يتجول حول مقر اللواء. إنه التذكار الوحيد الذي بقي لدي من زمن الحرب. لم يزعق عليه أبداً ضابط لعدم أدائه التحية. يا هذا، كن لطيفاً واشرب قليلاً لنطرد عنا الدموع الغزيرة التي تذرف على هذا البلد اللعين؟ السعادة كلها تصبح بين يديك، ولن تكترث لمذاقه كثيراً بعد أول كأسين. يجعلني أشتاق للوطن: مثلما اشتاق إلى كراج، هل سبق أن عملت في كراج؟».

كان زميل يافانك في السفر جالساً على الأرضية بين مقعدين، محاولاً أن يشعل سيكاراً مفلطحاً ومبللاً. مثل فرنسا المدمرة، فكر لوي وهو يسبح في مخيلته عبر ما تبقى من ذكريات بعيدة عن النقيب بلايث، الذي كان طياراً في سلاح الجو البريطاني منتدباً مؤقتاً لتعزيز ديموقراطيتهم.

- «عجباً لك، أيها الجندي المسكين» قال صديقه وقد استبد به الحزن: «تركوك، وحدك في الأرض الحرام بلا حتى أعواد ثقاب. أليست الحرب جحيماً؟ إنني أسألك» حاول أن يلكز الآخر بساقه، ثم ركله ببطء «تحرك أيها البحار العجوز، تحرك أيها الحقير اللعين. يا للأسف، حمقى ومساكين أو شيء مثل ذلك (لقد رأيت ذلك في إحدى المسرحيات، أتعرف؟ إنه سطر جميل) هيا، هيا: ها هو ذا الجنرال بيرشنغ جاء ليحتسي كأساً مع الجنود المساكين». وخاطب لوي «انظر إليه: ألا يبدو غارقاً في الفسق والرذيلة؟».

- «معركة كونياك» تمتم الرجل الذي جلس على الأرضية. «قُتل عشرة رجال ربما خمسة عشر. ربما مئة. الأطفال المساكين في الوطن ينادون «أين أنت يا أليس؟».

ـ نعم، يا أليس. أين أنت بحق الجحيم؟ ناولني الزجاجة الأخرى تلك. ما الذي تريد ان تفعله بها؟ تبقيها لكي تسبح فيها عندما تذهب إلى البيت؟

قال الرجل الذي جلس يبكي على الأرضية: «إنك تسيء فهمي مثلما يفعل الجميع. أتتهمني بإخفاء صك رهن المنزل؟ إذن خذ هذه الروح وهذا الجسد؛ خذ كل شيء. اسلبني، أيها الفتى».

ـ «أسلب زجاجة خل منك، على أية حال» تمتم الآخر، وهو منشغل بالبحث عن شيء تحت المقعد. نهض مبتهجاً وهو يمسك زجاجة جديدة بإحكام. «اسمع! أصوات المعركة والخيل الضاحكة تقترب، لكن هل سيطيحون بهذا الرأس المسكين الأخرق؟ كلا! لكن أرغب في رؤية واحد من تلك الخيول الضاحكة. لابد أنها خيول إناث كلها على الإطلاق. يا صاحب السمو» ـ مد يده بالزجاجة بتهذيب بالغ ـ «هل تتكرم وتتلطف وتتنازل وتضفي شرفاً على هؤلاء الغرباء اللطفاء التافهين في هذه الأرض الغريبة؟».

تناول التلميذ لوي الزجاجة، شرب قليلاً، تقيأ ولفظ ما شربه. وهنا اخذ الرجل الآخر الذي كان قد شجعه على الشرب يسند ظهره ويدلكه. «هيا، هيا، مذاقه ليس سيئاً إلى هذا الحد».

وصار يربت بحنان على كتف لوي المواجه له براحة يده، ودس الزجاجة داخل فمه ثانية. أخرج لوي الزجاجة مدافعاً عن نفسه. «حاول مرة أخرى ها قد أمسكت بك. اشرب الآن».

ـ «بحق المسيح» قال لوي وهو يبعد رأسه.

انتبه المسافرون إلى ما كان يجري هناك وأخذ يافانك يهدّئه «هيا، هيا، إنه لن يؤذيك أبداً. أنت بين أصدقائك. نحن الجنود ينبغي أن نتكاتف في بلد أجنبي كهذا. هيا، اشربها كلها. لا شيء يستحق ولا احد يساوي شيئاً، ابصق على كل شيء هكذا».

ـ سحقاً، يا رجل، لا أستطيع ان اشرب.

ـ عجباً لك، طبعاً تستطيع ذلك. اسمع، فكر بالأزهار، فكر بأمك

المسكينة ذات الشعر الأشيب وهي تنتظر عند البوابة الأمامية وتنتحب من أعماق فؤادها المكدر. اسمع، فكر بأنك ستضطر للذهاب إلى العمل ثانية عندما تصل إلى وطنك. أليست الحرب جحيماً؟ كنت سأصبح عريفاً على الأقل، لو أنها استمرت سنة واحدة أخرى ليس إلا.

- سحقاً، لا أستطيع.

- «عجيب امرك، يجب أن تتجرع ذلك» قال له صديقه الجديد وهو يلاطفه، ودفع الزجاجة فجأة في فمه ورفعها للأعلى. كان عليه إما أن يختنق أو يزدرد الشراب، لذلك فقد شرب منها قليلاً وأبقاها معه. ثم انتفخت بطنه وظلت لفترة هكذا. ثم هبطت بتثاقل.

- هذا شيء رائع الآن. لم يكن ذلك سيئاً أبداً، أليس كذلك؟ تذكر هذا. يحز في نفسي أن أرى شرابي اللذيذ يؤثر فيك أكثر مما ينبغي. لكن بالرغم من ذلك فإن له مذاق البانزين؟ أليس كذلك؟

صارت معدة لوي تتلوى بعنف من الألم، وكأنما كانت تحاول تقطيع اوتارها العضلية، كما لو أنها كانت منطاداً مربوطاً بحبل. فتح فمه وتثاءب وبدا أن أعضاءه الحيوية قد غطست في لجة برودة تبعث نشوة في الأعماق. ودس صديقه الزجاجة مرة ثانية في فمه.

- اشرب، هيا بسرعة! ينبغي عليك أن تعزز موقفك، انت تدرك ذلك.

فاض جوفه بالشراب، وانجرف التيار مرة أخرى إلى الأعماق وفيما كان يزدرد جرعات أخرى، انساب دفق ناري عذب في أحشاءه، وجاء قاطع التذاكر إلى المقصورة وألقى عليهما نظرة اشمئزاز يائسة.

- «انت ... باه» قال يافانك، ووثب على قدميه. انتبهوا إلى الضباط! انهضوا، يا رجال، وأدوا التحية لهذا الأميرال. امسك يد قاطع التذاكر ورفعها. «يا شباب، هذا الرجل كان قد قاد الأسطول» قال: «عندما حاول العدو احتلال جزيرة كوني كان هو موجودا هناك. أو في مكان ما بين ذلك وشيكاغو على أية حال، ألم تكن أنت أيها الكولونيل؟».

- «احذروا يا رجال، لا تتمادوا في ذلك». لكن يافانك كان قد قبّل يده.

ـ حسنٌ، والآن اذهب، أيها الرقيب. ولا ترجع حتى يكون العشاء جاهزاً.
ـ اسمعوا، عليكم أن تكفوا عن هذا. سوف تدمرون قطاري.
ـ «بارك الله فيك، أيها النقيب، لا يمكن لقطارك أن يكون أكثر أماناً مع غيرنا، إننا نعامله كما لو كان ابنتك تماماً». تحرك الرجل الذي كان جاثماً على الأرضية فشتمه يافانك. «لا تتحرك ألا يمكنك أن تبقى ساكناً؟ يا رفاق، زميلنا الذي هنا يتصور أن الوقت ليلٌ. ألا يمكنك أن ترسل خادماً يضعه في السرير؟ إنه يسد الطريق تماماً هنا؟».
ظن قاطع التذاكر أن لوي كان الشخص الوحيد الذي ليس ثملاً، فخاطبه قائلاً:
ـ بالله عليك، أيها الجندي، ألا تستطيع أن تفعل شيئاً معهم؟
ـ «طبعاً» قال لوي: «اذهب أنت، سوف أتولى أمرهم، سوف يكون كل شيء على ما يرام».
ـ حسنٌ، افعل شيئاً معهم. لا أستطيع أن أدخل إلى شيكاغو بقطار على متنه جيش كامل من السكارى. يا إلهي، لابد أن شيرمان كان على حق.
حدق يافانك فيه بهدوء. ثم استدار نحو رفاقه. «يا رجال» صاح بوقار، «إنه لا يريدنا هنا. وهذه هي الجائزة التي تمنح لنا من وراء تضحيتنا بدمائنا في سبيل بلادنا. نعم، أيها السادة. لا يريد أن يرانا هنا، يستكثر علينا الصعود في قطاره، إلى هذه الدرجة. يا هذا، افرض أننا لم ننهض لكي نلبي نداء الوطن، فهل تعرف أي نوع من القطارات سيكون لديك؟ قطار مليء بالألمان. قطار مليء برجال يأكلون السجق ويشربون البيرة، وكلهم ذاهبون إلى ميلواوكي، هذا ما ستحصل عليه».
ـ «لن يكون ذلك أسوأ من قطار مليء بأشخاص من أمثالكم لا يعرفون حتى إلى أين هم ذاهبون» أجاب قاطع التذاكر.
ـ «حسنٌ» أجاب يافانك. «إذا كنت تشعر بهذا، سوف ننزل من قطارك اللعين، هل تتصور أن هذا هو القطار الوحيد في العالم».
ـ «كلا، كلا» قال قاطع التذاكر على عجل، «لا شيء أبداً، لا أريد

منكم النزول. أريد منكم فقط التزام الهدوء وألا تزعجوا المسافرين الآخرين».

ترنح الرجل الذي كان يجلس ببلادة وواجه الجندي لوي نظرات تحملق فيه بفضول.

- «كلا» قال يافانك. «كلا! لقد رفضت تقديم واجب الضيافة في قطارك إلى منقذي بلادك. كان يمكن أن نتوقع معاملة أفضل من هذه في ألمانيا، وحتى في تكساس» استدار نحو لوي. «يا رجال، سوف ننزل من قطاره هذا في المحطة القادمة، مرحى أيها الجنرال؟».

- «رباه» كرر قاطع التذاكر. «لو عشنا فقط فترة سلام اخرى، لا أعرف ما الذي ستفعله السكك الحديدية. تصورت بأن الحرب كانت شيئاً سيئاً، لكن يا إلهي».

- «انصرف من هنا» قال له يافانك. «اذهب، ربما لن تتوقف من أجلنا، لذلك أعتقد بأننا سنضطر للقفز من القطار. أهذا هو العرفان بالجميل! أين العرفان بالجميل، عندما ترفض القطارات أن تقف لكي تسمح للجنود المساكين بالنزول؟ أعرف ما الذي يعنيه كل ذلك. سوف يملؤون القطارات بجنود مساكين ويلقون بهم في المحيط الباسفيكي. لن يكونوا في حاجة لتغذيتهم بعد الآن. يا للجنود المساكين! لم تكن تعاملني هكذا يا وودرو».

- «يا هذا، ما الذي تفعله؟» لكن الرجل تجاهله، ودفع زجاج النافذة بعنف إلى الأعلى وجر حقيبة سفر بالية من فوق ركبتي رفيقه. وقبل أن يتمكن لوي أو قاطع التذاكر من عمل شيء كان قد رمى بالحقيبة إلى خارج النافذة. «لينزل الجميع يا رجال!».

نهض رفيقه المبلل متحاملاً على نفسه من الأرضية. «ما هذا! تلك كانت حقيبتي التي رميتها؟».

- حسنٌ، ألن تنزل معنا؟ سوف نرمي كل الحقائب، وعندما يبطئ القطار نقفز كلنا.

- «لكنك رميت حقيبتي أولاً» قال الآخر.

ـ نعم، طبعاً. لقد وفرت عليك المتاعب، أترى ذلك؟ والآن لا تتزعج بشأن ذلك؛ يمكنك أن ترمي حقيبتي إذا أردت، وبعد ذلك نرمي حقيبة بيرشنغ هذا، وبإمكان الأدميرال أن يرمي حقيبة كل واحد منكم بالطريقة ذاتها. لديك حقيبة، أليس كذلك؟» سأل قاطع التذاكر. «احضروا حقائبكم، هيا بسرعة لكي لا نضطر للمشي مسافة بعيدة جداً».

ـ «اسمعوا أيها الجنود» قال قاطع التذاكر فيما كان لوي يفكر في ألبا، يفكر في أحشائه الملتوية ولهيب كحولي خافت ما زال يضطرم في داخله، وكان ينظر إلى اللون الذهبي النظامي الذي يغطي قبعة الرجل. بدت صورة نيويورك وهي تطفو سابحة على السطح وقد مرت بهم؛ كانت بوفالو قريبة، وكذلك الغروب.

ـ «اسمعوا، أيها الجنود» قال قاطع التذاكر ثانية. «لدي ابن في فرنسا. إنه في الأسطول البحري السادس. لم تسمع والدته خبراً عنه منذ تشرين الأول. سوف أفعل أي شيء من أجلكم يا أولادي، أتفهمون، لكن بحق السماء تصرفوا بتهذيب».

ـ «كلا» رد الرجل. «لقد رفضت استضافتنا، لهذا سوف ننزل. متى يتوقف القطار؟ أم سنضطر لأن نقفز؟».

ـ كلا، كلا، يا أولادي أجلسوا الآن. أجلسوا هنا وكونوا مهذبين وسيكون كل شيء على ما يرام. لا داعي للنزول.

تحرك متمايلاً على الممشى ورفع الرجل المبلل سيكاره التالف. «لقد رميت حقيبتي إلى الخارج» قال مرة أخرى.

امسك يافانك بذراع التلميذ لوي. «اسمع، أليس هذا شيئاً مخيباً للأمل؟ يعلم الله أني كنت أحاول مساعدة صديقي هذا على دخول حياة جديدة، وما الذي تراني أناله؟ شكوى تلو الأخرى». خاطب صديقه ثانية. «حسنٌ، نعم لقد رميت حقيبتك، ماذا تريد أن تفعل الآن؟ انتظر حتى نصل إلى بوفالوا ثم ندفع ربع دولار لكي يتم البحث عنها؟».

ـ «لكنك رميت حقيبتي إلى الخارج» قال الآخر ثانية.

- حسنٌ، لقد فعلت. ما الذي ستفعله بشأن ذلك؟

انتصب الرجل واقفاً، مستنداً إلى النافذة، ثم سقط بشدة عند قدمي لوي. «بحق المسيح» قال رفيقه، وهو يدفعه نحو مقعده. «انتبه لما تفعله».

- «انزلوا» تمتم الرجل الثمل.

- هه؟

- «انزلوا أنتم أيضاً» هتف محاولاً النهوض ثانية. وقف وهو يترنح، مرتطماً هنا وهناك، واتجه صوب النافذة المفتوحة، ودفع رأسه خارجها. أمسك التلميذ لوي به من الحافة القصيرة لبلوزته.

- توقف، توقف، ارجع أيها المعتوه اللعين. لا يمكنك أن تفعل ذلك.

- «لماذا، طبعاً هو يقدر أن يفعل ذلك» اعترض يافانك. «دعه يقفز إذا أراد، لن يذهب إلى بوفالو ليس إلا».

- سحقاً، سوف يقتل نفسه.

- «رباه» قال قاطع التذاكر من جديد، ورجع يعدو بسرعة متثاقلاً. انحنى على كتف لوي وأمسك بساق الرجل. تمايل الرجل بمرونة واسترخاء، كأنه كيس حبوب وقد أصبح رأسه وجذعه خارج النافذة. ودفع يافانك لوي جانباً محاولاً إبعاد قبضة قاطع التذاكر بساقه الأخرى.

- اتركه، لا أصدق بأنه سوف يقفز.

- لكن، يا إلهي، لا يمكنني المجازفة، احذر، احذر، أيها الجندي اسحبوه إلى الداخل!

- «أوه بحق المسيح، دعه يذهب» قال لوي وهو يتخلى عن مساعدته.

- «نعم» قال الآخر مؤيداً، «دعه يقفز، أود أن أره يفعل ذلك، ما دام قد اقترح ذلك بنفسه. علاوة على هذا، فهو ليس حتى ذلك النوع من الشباب الذين نحب ان نختلط بهم. إنه إجراء سليم، دعه ينزل»، أضاف ذلك وهو يدفع جسد الرجل الثقيل. سقطت قبعة الرجل الذي كان يدعي بأنه يحاول الإنتحار من رأسه فعملت الريح على إعادة رشده إليه ولو مؤقتاً. صار يكافح من أجل إرجاع نفسه إلى الداخل. عدل عن قراره. وأخذ يتصدى رفيقه

ويقاومه بعنف.

- هيا، هيا، لا تفقد شجاعتك الآن. امضِ إلى هناك واقفز.

- «النجدة!» صرخ الرجل في مواجهة الريح العابثة، ثم ردد قاطع التذاكر وراءه «النجدة!» وهو ما زال يتشبث به، وجاء اثنان من المسافرين مذعورين وكذلك البواب لمساعدته. تغلبوا على يافانك أخيراً، وجذبوا الرجل الذي أصابه الذعر إلى داخل العربة بكامل جسده. أوصد قاطع التذاكر النافذة بقوة.

- «أيها السيدان» قال مخاطباً المسافرين، «هلا جلستما هنا ومنعتم هؤلاء من رميه من تلك النافذة؟ سوف أتولى أمر إنزالهم جميعاً حالما نصل إلى بوفالو. أستطيع أن أوقف القطار، افعل ذلك الآن لو أردت، لكنهم سيقتلونه حالما يجدونه بمفرده. هنري»، قال مخاطباً البواب. «اطلب مفتش القطار وأخبره أن يبعث تلغرافاً إلى بوفالو بأن لدينا اثنين من المجانين على متن القطار».

- «نعم، يا هنري» قال يافانك للزنجي موافقا، «أخبرهم بأن يأتوا بفرقة موسيقية إلى هناك ويحضروا معهم ثلاث زجاجات ويسكي. وإن لم يكن لديهم فرقة خاصة بهم، قل لهم أن يستأجروا واحدة، سوف أدفع لهم» سحب رزمة ملوثة من الأوراق النقدية من جيبه واستل ورقة منها، ثم دفعها إلى البواب. «هل تريد فرقة موسيقية أنت أيضاً؟» قال موجهاً كلامه إلى لوي. «كلا» رد على نفسه، «كلا، لست في حاجة لأي شيء من ذلك، يمكنك الاستفادة من فرقتي، انصرف الآن».

- «نعم، سيدي، النقيب» كانت الأسنان البيضاء تشبه بيانو انفتح فجأة.

- «راقبوهم، يا رجال» قال قاطع التذاكر للحارسين الذين عينهما تواً.

«أنت يا هنري!» صاح وهو يتبع أثر السترة البيضاء التي كانت تبتعد.

كان رفيق يافانك الشاحب اللون الذي يتفصد جبينه عرقاً على وشك أن يتقيأ، جلس يافانك ولوي باسترخاء قبالة بعضهما بعضاً، كان أحدهما خفيف الظل، والآخر متحفزٌ دوماً للعراك، تدافع الأشخاص القادمون الآن

إلى المقصورة من أجل تقديم الأسناد على نحو مشترك، كانوا مذعورين ومع ذلك فقد أبدوا استعداداً لتقديم المساعدة الممكنة. ورفع مسافرون آخرون رؤوسهم أيضاً غير مكترثين بالكتب والصحف التي بأيديهم فيما كان القطار يمضي مسرعاً مخترقاً حمرة الغروب.

- «حسنٌ، أيها السادة» بدأ يافانك يتكلم محاولاً تلطيف الجو.

قفز الرجلان المدنيان كالنابض وقال أحدهما، «مهلاً، مهلاً» وقد وضع يده بلطف على الجندي «اهدأ أرجوك، أيها الجندي وسوف نتولى العناية بك. نحن الأمريكان نقدر لك صنيعك».

- «هانك وايت» تمتم الرجل العجوز.

- «هه؟» تساءل الآخر.

- «هانك وايت» قال ثانية.

استدار الآخر نحو الرجل المدني وهو يشعر بالنشوة. «حسنٌ، حمداً لله، إذا كان هذا الرجل هو هانك وايت العجوز بلحمه ودمه، ذلك الذي نشأت معه! يا لها من مصادفة! هانك، لقد سمعنا أنك توفيت، أو أنك كنت تعمل عازفاً على البيانو أو شيء يشبه ذلك. لم يطردوك من الخدمة، أليس كذلك؟ لا أرى أي بيانو معك الآن؟».

- «كلا، كلا» أجاب الرجل باستغراب. «إنك مخطئ. اسمي سكلوس. أمتلك مخزناً كبيراً للملابس الداخلية النسائية»، وأخرج هويته.

- «حسنٌ، حسنٌ، لم يكن ذلك لطيفاً، يا هذا» انحنى على الآخر في مودة. «إنك لا تحمل معك أية نماذج من الملابس النسائية؟ كلا؟ كنت أخشى ذلك. لكن لا تهتم. سأحصل لك على بيانو في بوفالو، لا اشتريه لك، بالطبع! لكن أستأجر لك واحدا فحسب، ربما يمكنك أن تدعوني في الوقت الراهن هوراس» قال مخاطباً التلميذ لوي. «أين تلك الزجاجة؟».

- «ها هي ذي، أيها الرائد»، أجاب لوي وهو يخرج الزجاجة من تحت بلوزته. قدمها يافنك إلى الرجلين المدنيين.

- «فكرا بشيء بعيد، بعيد جداً، واشربا بسرعة» قال لهما ناصحاً.

- «حقاً، أشكرك» قال الرجل الذي يدعى سكلوس وهو يقدم الزجاجة بلطف شديد إلى رفيقه، خفضا رأسيهما باحترام وأخذا يشربان. وشرب يافانك والتلميذ لوي من دون أن يحنيا رأسيهما.

- «كونا على حذر، أيها الجنود» قال سكلوس محذراً.

- «طبعاً» قال التلميذ لوي. وشربوا مرة ثانية.

- «ألا يشرب الرجل الآخر شيئاً؟» سأل الرجل الذي بقي صامتاً لحد الآن وهو يشير إلى رفيق يافانك في السفر. كان متكوماً بوضع أخرق في الزاوية. هزه صديقه وانزلق في ليونة حتى سقط على الأرضية.

– «يا لذلك الشيء المرعب الذي يكمن في الرمّ الشيطاني، يا أصدقائي!» قال يافانك بوقار وشرب جرعة أخرى. وتناول التلميذ لوي جرعة أخرى ثم أعطى الزجاجة.

- «كلا، كلا» قال سكلوس بانفعال: «لا أريد المزيد بعد الآن».

- «إنه لا يعني ذلك» قال يافانك: «إنه فقط لا يفكر» حدق مع التلميذ لوي في الرجلين المدنيين. «امنحه بعض الوقت وسوف يعود إلى رشده».

بعد وهلة أخذ الرجل الذي يدعى سكلوس الزجاجة.

- «ذلك حسن» قال يافانك مخاطباً لوي كأنما يفشي له سراً. «للحظة فكرت أنه سوف يهين البدلة النظامية. لكنك لم تكن تنوي اهانتي، أليس كذلك؟».

- «كلا، كلا. ليس هناك من يحترم البدلة النظامية مثلي. اسمع، كنت أحب لو قاتلت إلى جانبكم، تعرف ذلك؟ لكن على بعض الناس أن يهتم بالأعمال الأخرى حينما يذهب شبابنا إلى القتال، أليس ذلك صحيحاً؟» قال وهو ينظر إلى لوي متوسلاً.

- «لست أدري» قال لوي وهو يشعر بولع قتالي لا يخلو من دماثة خلق، «لم يكن لدي أبداً وقت لأمارس أي نوع من الأعمال».

- «حسنٌ، حسنٌ» قال يافانك موبخاً: «لم يكن أي واحد منا في شبابه محظوظاً مثلك».

- «كيف أكون محظوظاً؟» أجاب لوي على تلك الاتهامات بعنف.

- حسنٌ، اخرس ولا تتفوه بأي شيء حول ذلك، حتى لو لم تكن محظوظاً فذلك لا يهمنا بشيء.

- «طبعا» أضاف سكلوس بسرعة، «كل منا لديه شيء يهتم به» وتذوق قليلاً من محتويات الزجاجة ثم قال الرجل الآخر:

- هيا، لا تتردد، اشرب منها.

- كلا، كلا، شكراً، لقد شربت الكثير.

كانت عينا يافانك تبدوان مثل عيني الأفعى «هيا اشرب قليلاً. هل تريدني أن أستدعي قاطع التذاكر فأخبره بأنك تضايقنا لكي نعطيك الويسكي عنوة؟».

أعطاه الرجل الزجاجة بسرعة. استدار نحو المدني الآخر «ما الذي يجعله يتصرف بشكل مضحك هكذا؟».

- «كلا، كلا» قال سكلوس: «اسمع، أنتم أيها الجنود اشربوا إذا أردتم؛ ونحن سنعتني بكم».

أضاف الرجل الذي كان صامتاً بصوت أخوي عطوف وقال يافانك:

- إنهم يتصورون بأننا نحاول أن نسممهم. يعتقدون بأننا جواسيس ألمان، أتصور ذلك.

- كلا، كلا! عندما أرى بدلة نظامية. فإني أبدي لها احتراماً مثلما أحترم أمي.

- إذن، هيا اشرب.

ازدرد سكلوس جرعة ثم ناول الزجاجة للآخر. شرب رفيقه منها أيضاً وتصببت قطرات العرق منهما.

- «ألن تشرب أنت شيئاً؟» كرر الرجل الصامت قوله ونظر يافانك إلى الجندي الآخر بإشفاق.

- «واحسرتاه، يا هانك المسكين» قال: «الفتى المسكين مرهق، أخشى ذلك، إنها نهاية صداقة طويلة، أيها الرجال». قال التلميذ لوي طبعا، وهو

يرى شبحين بعيدين لصورة هانك؛ وتابع الآخر يقول «انظروا إلى ذلك الوجه الحنون، الذي يوحي بالشجاعة. كنا أطفالاً نلعب معاً، نقتطف الورود في المروج المزهرة؛ هو وأنا اشتركنا في فريق الملاكمة الذي لا يقهر من الوزن المتوسط في ذلك الوقت؛ هو وأنا دمرنا فرنسا معاً. والآن انظروا إليه».

- «هانك! ألا تعرف هذا الصوت الذي ينتحب، هذه اليد الحنون التي على جبينك؟ يا جنرال»، استدار نحو لوي: «هل تتلطف بأن تتولى أمر العناية بالجثمان؟ سوف أكلف هؤلاء الغرباء اللطفاء لأن يقفوا معي عند أول مشغل نجارة يصادفنا على الطريق لكي أحضر تابوتا مناسباً مصنوعاً من خشب القرانيا نكتب عليه الحروف الأولى هـ. و ونضع فوقه باقة من زهور لا تنسني».

حاول سكلوس والدموع تترقرق من عينيه أن يربت بذراعه على كتفي يافانك «كفى، كفى. الموت ليس فراقاً أبدياً تشجع؛ تناول قليلاً من الشراب، وبعدها ستشعر بالتحسن».

- «نعم، أعتقد بأني سأفعل ذلك» أجاب: «إن قلبك مفعم بالحنان، أيها الرجل. انبطحوا ارضا عندما تسمعوا اطلاق النار، أيها الأولاد ».

مسح سكلوس وجهه بمنديل متسخ تفوح منه رائحة عفنة، وشربوا مرة ثانية. مرت بهم مناظر نيويورك متموجة وسط وهج مشرق تشوبه ضبابية الكحول والغروب، مفضية إلى بوفالو، ونظروا إلى المحطة وقد توهجت في صدورهم نشوة حماس بالغة. وكان هانك المسكين الآن ينام بسلام وقد ألقى رأسه على وعاء البصاق.

نهض التلميذ لوي وصديقه واسندا رفاقهما وهما يشعران بمغص فاتر في المعدة. أبدى سكلوس نفوراً واضحاً من النزول. قال إن هذه لا يمكن أن تكون بوفالو أبداً، وإنه قد ذهب إلى بوفالوا عدة مرات من قبل. طبعاً، قالوا له وهم يساعدونه على النهوض ليقف على قدميه، وحدق قاطع التذاكر فيهم لوهلة ثم اختفى. مد لوي ويافانك يديهما وساعدا الرجلين المدنيين في اجتياز الممشى.

- إنني سعيدة حتماً لأن ابني لم يبلغ السن القانونية ليصبح جندياً.
علقت امرأة أثناء مرورها من بينهم بصعوبة، وقال لوي ليافانك:
- قل لي، ماذا عنه؟
- «من؟» سأل الآخر، وقد التصق بسكلوس.
- «ذلك الرجل الذي هناك» أشار لوي إلى الجندي المريض.
- أوه، هو؟ يمكنك أن تأخذه معك. إذا أردت.

في الخارج كانت هناك ضجة ودخان ينبعثان من المحطة. رأوا من خلال النوافذ أناساً وحمالين يحثون الخطى، وأجاب يافانك وهو يجتاز الممشى.

- سحقاً، كلا، لم أره أبداً من قبل. دع البواب يلقي به إلى الخارج أو احتفظ به أنت، أفعل ما يريده هو.

سحبا الرجلين المدنيين تارة، وحملوهما تارة أخرى، وقاد يافانك الطريق بدهاء شيطاني عبر ممشى القطار ونزل من حافلة جلوس. على الرصيف وضع سكلوس ذراعه حول رقبة الجندي.

- «اسمعوا أيها الرفاق» قال بانفعال: «إنكم تعرفون اسمي ولديكم العنوان، اسمعوا. سوف أثبت لكم بأن أمريكا تُقدّر لكم ما فعلتموه. كل رايات المجد تلك التي على الأرض والبحر ترفرف من أجلكم. اسمعوا، ليس لدي شيء أبخل به على جندي، لا شيء على الإطلاق، وحتى إذا لم تكونوا جنوداً فأنا بالرغم من ذلك أقف إلى جانبكم، إنني أحبكم مئة بالمئة. اقسم بأنني أحبكم».

- «حقاً، انه شيء مؤكد» قال الآخر موافقاً وهو يسنده. بعد وهلة لمح رجل شرطة وقاد خطوات رفيقة باتجاه الضابط. تبعهما لوي مع رفيقه الصامت. «انهض، ألا تستطيع ذلك؟» أطلق صوتاً مثل هسيس الأفعى، لكن عيني الرجل كانتا مغمورتين بحزن أخرس. كأنهما عينا كلب. «افعل ما تقدر عليه إذن» أضاف التلميذ لوي وقد أصبحت لهجته لينة قليلاً ووقف يافانك أمام الشرطي وقال:

- أتبحث عن رجلين ثملين، أيها الرقيب؟ هؤلاء الرجال كانوا يزعجون

جميع الركاب في القطار. ألا يمكن عمل شيء لحماية الجنود من الإزعاج؟ إذا تخلصنا من العرفاء فإننا نواجه السكارى.

ـ «أود فقط رؤية ذلك الذي يمكن أن يزعج الجنود» أجاب رجل الشرطة. «اذهب أنت، الآن».

ـ لكن يجب أن أقول لك، هؤلاء الرجال خطرون. ما فائدتك إن كنت لا تستطيع الحفاظ على الأمن؟.

ـ اذهب، قلت لك، أتريدني أن أحتجزكم جميعاً؟.

ـ إنك تقترف خطأ، أيها الرقيب هؤلاء هم الذين تبحث عنهم.

قال الشرطي: «أبحث عنهم؟» ونظر إليه بشيء من التهذيب.

ـ بالتأكيد، ألم تستلم برقيتنا؟ لقد أبرقنا لكم لكي تكونوا بانتظار القطار.

ـ أوه، هؤلاء هم المجانين، أليس كذلك؟ أين ذلك الرجل الذي كانوا يحاولون قتله؟.

ـ بالطبع، هم مجانين، هل تتصور أن رجلاً عاقلاً يمكن أن يوصل نفسه إلى هذه الحالة المزرية؟.

رمق الشرطي الرجال الأربعة بعين لا مبالية، «اذهبوا الآن، أنتم جميعاً مجرد سكارى، اغربوا عن وجهي، وإلا سوف أحتجزكم».

ـ حسناً. احتجزنا. إذا اضطررنا للذهاب إلى مركز الشرطة من أجل أن نتخلص من هؤلاء المجانين فسوف نذهب.

ـ أين مفتش هذا القطار؟

ـ إنه مع أحد الأطباء، يهتم بالجريح.

أقول لكم، أيها الرجال من الأفضل لكم أن تكونوا على حذر. ما الذي تحاولون فعله، أتسخرون مني؟

هز يافانك رفيقه بعنف. «انهض» قال وهو يهز الرجل. «إنني أحبك مثل أخ لي» تمتم الآخر. «انظر إليه» قال، «انظر إليهما معاً هناك رجل مصاب على ذلك القطار. هل ستبقى واقفاً هنا من دون أن تفعل شيئاً؟».

ـ كنت أعتقد بأنكم تسخرون مني. هؤلاء هم الأشخاص أليس كذلك؟.

نفخ بصافرته فجاء شرطي آخر يهرول. «ها هم، يا أود، أنت راقبهم وسوف أذهب لأرى أمر ذلك الرجل الذي يموت. أما أنتم أيها الجنود فابقوا هنا، أتفهمون؟».

ـ «طبعاً، أيها الرقيب» قال يافانك مؤيداً. وركض الشرطي بتثاقل ثم استدار نحو الرجلين المدنيين. «حسنٌ، يا شباب. ها قد جاء الخدم ليحملوكما إلى الخارج حيث سيبدأ الأستعراض. اذهبا معهم وسنعود أنا وهذا الشرطي الآخر بعد أن نبحث عن مفتش القطار والبواب. إنهما يريدان المجيء للمشاهدة أيضاً».

احتضنه سكلوس مرة أخرى بين ذراعيه.

ـ إنني أحبك مثل أخي. سأعطيك كل ما أملك. اطلب مني أي شيء.

ـ «طبعاً» أجاب. «راقبهما أيها الرقيب، إنهما مجنونان تماماً.» والآن اذهبا مع هذا الرجل اللطيف».

ـ «أنتما» قال الشرطي، «انتظرونا هنا».

هنا سمع هدير من القطار وكان وجه قاطع التذاكر كأنه قمر برز للعيان على حين غرة وكان يجأر بصوت كالخوار. «أتريد الانتظار لكي تراه ينفجر وهو على متنه؟» تمتم يافانك. أسرع الشرطي الذي يسند الرجلين باتجاه عربة القطار. «تعالا إلى هنا» صاح بيافانك ولوي.

عندما ابتعد عنهما تكلم يافانك مع لوي باستعجال.

ـ «تعال. أيها الجنرال» قال، «لنذهب، الوداع، أيها الشباب ... دعنا نذهب يا صغيري».

صاح الشرطي، «قفا، أنتما معا!» لكنهما تجاهلاه، وأسرعا الخطى نحو السقيفة الطويلة، تاركين الأشياء المعلقة المثيرة للإهتمام لكي تتخثر من تلقاء ذاتها، تاركين إياها جميعاً.

خارج المحطة ضمن حمرة الشفق كانت المدينة قد ألقت ظلالها القاتمة

بشدة وصرامة على المساء الشتوي، وكانت الأضواء طيوراً تومض بأجنحة ذهبية ساكنة، ونغمات ناقوس يرن في تردد مكتوم وصور قبيحة تنتشر في كل مكان تختفي وراء ستار من سحر الألوان المشعة المتقهقرة.

طعام يسد جوع المعدة، وشتاء، بالرغم من أن الربيع كان هو السائد في كل مكان من العالم، ومن الجنوب هبت رياح كأنها نغمات موسيقا منسية. افتتن كلاهما بسحر هذا التغيير ووقفا وهما يتلمسان رقة الربيع الغض في الهواء البارد كما لو أنهما قد وفدا على عالم جديد منذ زمن قريب ليس إلا، كانا يحسان بضآلتهما ويعتقدان أيضاً بأن ثمة شيئاً ما يكمن بانتظارهما. شيء جديد تشوبه الغرابة. وكانا يشعران بالخجل والنفور من هذا كله والصمت كان شيئاً مريراً، لا يمكن أن يطاق.

- «حسنٌ، يا رفيقي» صفع يافانك التلميذ لوي على قفاه بشدة، «ذلك استعراض عسكري سنغيب عنه بلا إذن مشروع طبعاً، هه؟».

(٢)

من الذي هبّ للدفاع ليكون درعاً لأرضه
وكان يحس بوطأة الندم منذ ذلك الحين؟
أيها الجندي!
من الذي لا يستطيع أن يعطي موعد غرام لفتاة
موعداً طويلاً مثل المسارات التي تطوي العالم؟
أيها الجندي!

بعد أن ملأا معدتيهما بالطعام، وفيما كان الجندي المتدرب لوي قد خبأ ربع زجاجة ويسكي تحت ذراعه صعدا ثانية إلى أحد القطارات.

ـ «إلى أين نذهب؟» تساءل لوي: «هذا القطار لا يتجه إلى سان فرانسيسكو، أليس كذلك؟».

ـ «اسمع» قال يافانك: «اسمي هو جو جيليجان، جيليجان، ج. ي. ل. ي. ج. ا. ن، جيليجان، ج. و. جو، جو جيليجان ولقد استرد أجدادي القدماء مينابولس من أيدي الإيرلنديين واتخذوا اسماً هولندياً، أتفهم ذلك؟ هل سبق لك ذات مرة أن عرفت رجلاً يدعى جيليجان ثم خيب ظنك؟ إذا كنت تريد الذهاب إلى سان فرانسيسكو فأنا موافق. وإذا أردت الذهاب إلى سانت بول أو أوميهاو، فهذا يناسبني أيضاً. وعلاوة على ذلك سوف احرص على إيصالك إلى هناك، سأحرص على أن تذهب إلى الأماكن الثلاثة كلها إذا شئت. لكن لماذا بحق الجحيم تريد أن تقطع كل تلك المسافة البعيدة إلى سان فرانسيسكو؟».

ـ «لست أدري» أجاب لوي. «لا أريد الاتجاه إلى أي مكان بالتحديد. إنني أحب هذا القطار ـ قدر تعلق الأمر بي ـ لكني أقول لك، دعنا نحسم هذا الخلاف هنا تماماً. لكن، مهلاً، أهلي يعيشون في سان فرانسيسكو، أظن

أن ذلك هو سبب ذهابي إلى هناك».

- «حقاً، حسنٌ» قال الجندي جيليجان موافقاً بسرعة. «أحياناً لا يحب أن يرى الرجل عائلته، خصوصاً إذا لم يتوجب عليه أن يعيش معهم لست أعيب عليك تصرفاتك. إنني معجب بك لذلك السبب، أيها الزميل، لكن هل لي أن أطلب شيئاً، بوسعك أن تذهب إلى البيت في أي وقت تشاء. ما أقوله لك هو، ولكن دعنا نلقي نظرة أولاً على هذا الوطن الرائع الذي قاتلنا من أجله».

- سحقاً، لا يمكنني ذلك. كانت والدتي تبعث لي في كل يوم برقية منذ أن حصلت الهدنة وتقول لي أن أحلق بارتفاع واطئٍ وأن أكون حذراً، وأن أعود إلى البيت حالما يسرحونني من الخدمة. أراهن أنها قد أرسلت برقية إلى الرئيس لكي يخلي سبيلي بأسرع وقت ممكن.

- طبعاً، ذلك شيء مؤكد، طبعاً، كانت تفعل ذلك. وما الذي يمكن أن يضاهي حب الأم؟ ما عدا احتساء جرعة طيبة من الويسكي. أين تلك الزجاجة؟ ألم يسبق لك أن خدعت إحدى العذارى، أليس كذلك؟

- «ها هي ذي» أخرجها لوي وضغط جيليجان على الجرس.

- «كلود» قال لأحد الخدم الموجودين، «هات لنا قدحين وزجاجة شراب جيدة أو أي شيء مشابه لذلك، إننا اليوم نسافر وسط أناس مهذبين وننوي أن نتصرف كرجال مهذبين».

- «لماذا تريد قدحين؟» سأل لوي: «الزجاجة تفي بالغرض بشكل أفضل».

- عليك أن تتذكر أننا سنكون وسط أناس غرباء الآن. ولا نريد القيام بتصرفات همجية. انتظر إلى أن تصبح مسافراً محترفاً، وسوف تتذكر مثل هذه الأشياء، قدحين، يا عطيل.

وسرعان ما تحول الخادم بسترته الرسمية إلى رمز يعبر عن الغرور والكبرياء. «لا يمكنكما تناول المشروبات في هذه العربة. عليكما الذهاب إلى عربة المطعم».

- أوه، هيا يا كلود. ليكن في قلبك شيء من الرحمة.

- «لا يسمح بالشرب في هذه العربة. اذهبا إلى عربة المطعم إذا أردتما ذلك» وتنقل من مقعد إلى آخر في العربة المتمايلة.

استدار الجندي جيليجان نحو رفيقه وقال. «حسنٌ! ما رأيك بهذا؟ أليست هذه طريقة مستهجنة في التعامل مع الجنود؟ أقول لك، يا جنرال هذه أسوء حرب تافهة رأيتها في حياتي».

- تباً، دعنا نشرب من الزجاجة.

- كلا، كلا! ينبغي أن تكون هذه مسألة كرامة، حسنٌ، تذكر شيئاً، علينا أن ندافع عن بدلتنا النظامية ضد الإهانة. انتظر هنا وسوف أذهب ، يا زميلي؟ لكي أرى مفتش القطار. لقد اشترينا تذاكرَ، يا زميلي!

بعد أن رحل الضباط وزوجاتهم

بحثاً عن الأيام الخوالي الرائعة من حياتهم ...

سماء معتمة، وأرض تذوب برتابة في سديم رمادي، تتلاشى بكآبة، تمر عليها أشجار ومنازل بين حين وآخر؛ وقرى مثل فقاعات أو نغمات لحن شجي تنتظم في سلك من الفولاذ ...

من الذي بقي في نقطة الحراسة يعض على القضبان

يقول لتذهب إلى الجحيم حروب الحكومات.

أيها الجندي!

وها قد عاد جيليجان ثانية، يقول: "استرح، تشارلس".

ربما كان ينبغي عليّ أن أعرف بأنه سوف يلتقي بشخص آخر، فكر لوي وهو ينظر إلى الأعلى. رأى حزاماً وجناح طيران، ونهض والتقى بوجه شاب يلوح فوق حاجبه أثر جرح بغيض. رباه، فكر وهو يشعر بالغثيان. أدى التحية وأخذ الآخر يحدق به بذهول، وشيء من التكلف. أمسك جيليجان بذراعه، وقاده نحو المقعد. حول الرجل نظرته المرتبكة إلى جيليجان وتمتم، «شكراً».

- «أيها الملازم» قال جيليجان، «إنك تشاهد هنا فخر البلاد. يا جنرال، دق الجرس ليأتوا لنا بماء مثلج. هذا الملازم مريض».

ضغط لوي على الجرس، وكان يلقي نظره على شارة الرجل وجناح الطيران ونياشينه النحاسية وقد عاد إلى ذاكرته ذلك العداء القديم بين المجندين الأمريكان والضباط من كل البلدان الأخرى حتى أنه لم يتساءل عما يمكن أن يفعله ضابط بريطاني في مثل حالته تلك وهو يسافر في أمريكا. هل كنت ماهراً أو محظوظاً إلى حدٍّ كافٍ، كان يمكن لهذا أن يحصل لي، فكر في ضغينة.

وظهر الخادم ثانية.

- «لا يسمح بتناول المشروبات في هذه العربة، قلت لكما» قال. وأخرج جيليجان ورقة نقدية. «كلا، يا سيدي. ليس في هذه العربة».

ثم رأى رجلاً ثالثاً قادماً. انحنى عليه بسرعة وصار ينقل نظراته بين جيليجان ولوي بارتياب.

- «ما الذي تفعلانه به؟» سأل.

- أوه، إنه مجرد غريب ضائع وجدته هناك. حسنٌ، يا أرنست.

- «ضائع؟ إنه ليس ضائعاً. إنه من جورجيا. سوف أهتم بأمره. أيها النقيب»، - قال موجهاً كلامه للضابط - «هل أنت على ما يرام مع هؤلاء الأشخاص».

نظر جيليجان ولوي إلى بعضهما الآخر. «بحق المسيح، لقد تصورت بأنه غريب» همس جيليجان.

رفع الرجل عينيه إلى وجه الخادم المتلهف. «نعم» قال ببطء، «إنهما على ما يرام».

- هل ترغب في البقاء هنا معهما، أم تريدني أن أصطحبك إلى مكانك؟

- «دعه يبق هنا» قال جيليجان. «إنه يريد أن يشرب».

- لكنه لا يستطيع أن يشرب، إنه مريض.

- «أيها الملازم» قال جيليجان. «أتريد أن تشرب؟».

- نعم أريد أن أشرب، نعم.

ـ لكن ينبغي عليه ألا يشرب الويسكي، يا سيدي.

ـ لن أدعه يشرب كثيراً سوف أعتني به. هيا، الآن أجلب لنا بعض الأقداح، لو سمحت؟

وبدأ الخادم يردد من جديد. «ولكن لا ينبغي عليه ... ».

ـ «قل لي، أيها الملازم» قاطعه جيليجان. «ألا يمكنك أن تطلب من صديقك هذا أن يجلب لنا بعض الأقداح لنشرب بها؟».

ـ أقداح؟

ـ نعم! إنه لا يريد إحضارها لنا.

ـ هل تريد أقداحاً، أيها النقيب؟

ـ نعم، أحضر بعض الأقداح، لو سمحت!

ـ «حسنٌ، أيها النقيب» وتوقف ثانية. « سوف تعتني به، أليس كذلك؟» سأل جيليجان.

ـ طبعاً، طبعاً.

ذهب الخادم، ونظر جيليجان إلى ضيفه بعين الحسد، «لابد أنك من جورجيا ولذلك فأنت تحظى بالخدمة الممتازة على هذا القطار. لقد عرضت عليه نقوداً ولكنها لم تهز شعرة فيه أبداً، قل لي، يا جنرال» قال موجهاً كلامه إلى لوي، «أليس من الأفضل لنا أن نبي الملازم معنا، هه؟ ربما يكون مفيداً».

ـ «طبعاً، » قال لوي موافقاً.ً«قل لي، يا سيدي، أي نوع من الطائرات كنت تقود؟».

ـ «أوه، بحق المسيح» قاطعه جيليجان، «دعه وشأنه. كان يعمل على تدمير فرنسا، والآن هو يحتاج إلى الراحة. أنت، أيها الملازم؟».

من تحت جبينه المتغضن المليء بالندب وآثار الجروح، كانت نظرة الرجل تبدو حائرة لكنها مشوبة بالعطف، ثم ظهر الخادم ثانية حاملاً الأقداح وزجاجة جعة الزنجبيل. أخرج وسادة ووضعها بعناية تحت رأس الضابط ، ثم

أحضـر وسـادتين للـرجلين الآخـرين، وطلـب منهمـا بلطـف مختلط بشـيء مـن الحزم في آن واحد أن يسترخيا. كـان يتصـرف معهمـا بفضـول ثقيـل ويتحـرك برشـاقة مشـركاً إياهمـا معـا بكياسـة لطيفـة في فعالياتـه، وكأنـه في ذلـك كان القضاء والقدر الذي عليهما القبول بـه، وبمـا أنـه لم يكـن معتـاداً على مثل هذا التصرف، فقد أصيب الجندي جيليجان بالضجر.

- أنت يا هذا، اهدأ ولو للحظة، يا جورج، دعني أسكب الشراب لنفسي قليلاً. سأتولى أنا إفراغ هذه الزجاجة لو سمحت.

وتوقف وهو يقول: «هل يكفي هذا، أيها النقيب؟».

- «نعم يكفي، شكراً» أجاب الضابط. ثم أضاف «اجلب قدحك لكي تشرب».

تناول جيليجان الزجاجة وأخذ يمـلأ الأقداح.. صدر عن جعة الزنجبيل صوت هسيس عذب وحاد. «هيا اشربوا، يا رجال».

امسك الضابط كأسه بيده اليسرى ثم لاحظ لوي أن يده اليمنى كانت ملتوية ومشلولة.

- «في صحتك!» قال.

- «أجعلها تمِل نحو الأرض» تمتم لوي. نظر الرجل إليه وقد أمسك كأسه بتوازن. نظر إلى القبعة التي كانت على ركبة لوي وأصبح ذلك الشيء التائه المرتبك الذي يختفي وراء عينيه واضحاً وحاداً؛ وكأن ذلك قد حدث بفعل نشاط ذهني مفاجئ، وتصور لوي أن شفتيه كانتا تطرحان سؤالاً ما.

- «نعم، يا سيدي. التلميذ» أجاب، وهو يشعر بامتنان بالغ، يشعر مرة ثانية بكبرياء مفعم بالنشاط الواضح يختلج في جسد،.

لكن النشاط كان أكثر مما يحتمل، ومرة أخرى عادت نظرة الضابط مرتبكة وذاهلة.

رفع جيليجان كأسه وهو ينظر إليها شزراً. «هذا نخب السلام» قال. «المئة سنة الأولى هي الأكثر صعوبة».

وعاد الخادم ثانية حاملاً قدحه. «ها هو ذا شخص آخر يزج بنفسه إلى المعمعة» قال جيليجان في شكوى وضجر، ثم ساعده في الدخول. ربت الزنجي على الوسادة وأعاد تسويتها تحت رأس الضابط. «عذراً، أيها النقيب، لكن هل يمكنني أن أجلب لك شيئاً ما لرأسك؟».

- كلا، كلا، شكراً، إنني على ما يرام.

- لكنك مريض، يا سيدي، لا تشرب كثيراً جداً.

- سأكون حريصاً.

- «طبعاً» قال جيليجان مؤيداً. «سنعمل على مراقبته».

- دعني أنزل ستارة النافذة لكي أبعد الضوء عن عينيك.

- كلا، لست أبالي بالضوء. اذهب أنت لشأنك. سوف أستدعيك إذا أردت أي شيء.

عرف الزنجي بغريزة بني جنسه أن تصرفاته الكيسة كانت تغدو غير محبذة، ومع ذلك فقد جازف مرة أخرى.

- أراهن أنك لم تبرق إلى أهلك لكي يكونوا في استقبالك. لم لا تدعني أبرق إليهم بدلاً عنك؟ بوسعي الاهتمام بك طالما أنا قريب منك لكن من الذي سيعتني بك، بعد أن أذهب؟

- كلا، إنني على ما يرام، أقول لك يمكنك الاعتناء بي طالما أنا موجود بالقرب منك. سوف أتدبر شأني بعد ذلك.

- «حسنٌ. لكني سأخبر والدك ذات يوم عن الطريقة التي تتصرف بها. لا بد أن تعرف شيئاً أفضل من ذلك كيما تفعله، أيها النقيب». ثم قال موجهاً كلامه لجيليجان ولوي: «وأنتما أيها السيدان يمكن أن ترسلا في طلبي إذا تدهورت حالته».

- «نعم، اذهب الآن، عليك اللعنة. سوف أستدعيك إذا ساءت حالتي». نظر جيليجان خلف ظهره المتراجع إلى الضابط بإعجاب. «أيها الملازم، كيف تمكنت أن تقول ذلك؟».

لكن الرجل رمقهما بنظرته الحائرة فحسب. ثم أنهى شرابه، وبينما كان جيليجان يصب له ثانية، أعاد لوي ما قاله وكأنه كلب صيد.

ـ قل لي، يا سيدي، أي نوع من الطائرات كنت تقود؟

نظر الرجل إلى لوي بإشفاق، لم يرد بشيء وقال جيليجان:

ـ اسكت؛ دعه وشأنه. ألا ترى بأنه لا يتذكر شيئاً عن نفسه؟ هل تظن بأنك تتعرف إليه، مع وجود ذلك الجرح؟ دع عنك حديث الحرب جانباً. أنت أيها الملازم؟

ـ لا أعرف. من الأفضل أن نحتسي كأساً أخرى.

ـ ليكن ما تريد. ابتهج يا جنرال. إنه لا يقصد أية إساءة، إنه فقط يترك الأمور تسير على هواها للحظة؛ كلنا لدينا ذكريات مريعة عن الحرب. أنا مثلاً كنت قد خسرت تسعة وثمانين دولاراً ذات مرة في لعبة كرابس، لنترك الخسارة جانباً مثلما يقول ذلك الكاتب المبتذل، ذلك الذي يمكن أن تجد أمثاله في شاتر تيري. إذن ما رأيكم بقليل من الويسكي، يا رجال؟

ـ «في صحتك» قال الضابط ثانية.

ـ «ما الذي تعنيه بقولك، إنها شاتو ثييري؟» قال لوي وكأنه كان صبياً خائباً أحس بأنه قد تم تجاهله بتقصد من قبل شخص كان القدر قد أنصفه أكثر مما فعل معه هو.

ـ هل تتكلم عن شاتر تيري؟

ـ إنني أتكلم عن مكان لم يسبق لك أن رأيته في حياتك بأية حال من الأحوال.

ـ لقد كنت هناك بروحي، يا حبيبي. ذلك ما يهم.

ـ لم يكن في وسعك أن تذهب إلى هناك بأية طريقة أخرى، فلا وجود لمثل هذا المكان في الواقع.

ـ سحقاً، لا وجود له! دعنا نسأل هذا الملازم لتعرف مدى صدق كلامي. ما رأيك أيها الملازم؟

لكنه كان نائماً، ألقى نظرة على وجهه، كان ما يزال في ريعان الشباب، ومع ذلك فقد بدا طاعناً في السن تماماً مثل ذلك العالم، من تحت ذلك الجرح المفزع. حتى أن طيش جيليجان كان قد فارقه للحظة. «رباه! إنه يجعلك تصاب بالغثيان، أليس كذلك؟ أتساءل إن كان يعرف كيف يبدو شكله؟ وماذا تظن سوف يقول أهله عندما يرونه؟ أو صديقته ... إن كانت لديه صديقة. أراهن على أن لديه صديقة».

ومرت نيويورك بهم على عجل ثم تلاشت. حل وقت الظهيرة، في داخل العربة عرفوا ذلك من الساعة، لكن الأفق الرمادي القريب لم يكن قد طرأ عليه أي تبدل. قال جيليجان: «إذا كانت لديه صديقة، أتدري ما الذي ستقوله؟».

كان لوي يحس بالقنوط الذي تنطوي عليه تلك المحاولة غير المجدية، لكنه سأل، «ماذا؟».

ومرت نيويورك بهم واستلقى ماهون ببدلته الحربية. (هل سأنام؟ فكر لوي؛ هل أحمل جناحاً، حذاء، هل سأنام؟) وبدا جناح طيرانه وكأنه يندفع بقوة ورشاقة، وهو مستدق الطرفين بحدة فوق الوشاح. أبيض، أرجواني، أبيض، فوق جيبه، فوق قلبه (لنفرض ذلك). وتتقل لوي بنظره بين ريش تاج شامخ وثلاثة أحرف، ثم ارتفعت نظراته صوب الوجه الجريح الغافي. «ماذا؟» عاد يقول.

- سوف تقطع علاقتها به، يا رفيقي.

- آه، مهلاً. طبعا هي لن تفعل ذلك.

- بلى، ستفعل ذلك، أنت لا تعرف شيئاً عن النساء. ما إن يسأمن من القديم حتى يأتي شخص ما كان قد بقي في بيته وأصبح غنياً، أو فتى يرتدي حذاءً من الجلد البراق ولم يسبق له أن ذهب إلى أي مكان يمكن أن يتعرض فيه للأذى، مثلي ومثلك.

وجاء الخادم ثانية وصار يحوم حول الرجل النائم.

- «لم تتدهور حالته، أليس كذلك؟» همس.

قالا له كلا؛ وعدل الزنجي وضع رأس الرجل النائم. «أيها السيدان اعتنيا به وتذكرا أن تستدعياني إذا طلب أي شيء، إنه رجل مريض».

وافق جيليجان ولوي وهما ينظران إلى الضابط، ، وأسدل الخادم ستارة النافذة. «أتريدان المزيد من جعة الزنجبيل؟».

- «نعم» قال جيليجان مقلداً صوت الخادم الذي كان يهمس، ثم انسحب الزنجي. وجلس الإثنان صامتين، في رفقة سلاح تضم أولئك الذين كانت حياتهم قد أصبحت بلا معنى بسبب الغموض المطلق لمجرى الأحداث، غموض الواقع المرير المثير للسخرية. أحضر الخادم جعة الزنجبيل وجلسا يشربان فيما كان منظر نيويورك قد تبدل وحل مكانه منظر أوهايو.

كان جيليجان، ذلك الثرثار العابث يرى حلماً مع نفسه، بينما كان لوي ذلك الشاب الخائب الأمل إلى حد بعيد قد عرف كل الأحزان القديمة التي كابدتها عائلة جيسون في ذلك العالم الذي كان يرى مراكبهم تغرق حتى قبل أن تغادر الميناء.. ومن تحت جرحه المتقرح كان الضابط يبدو نائماً وسط ظلال كل تلك الصور الزائفة لأجنحته وأشرطته الجلدية وقطعه النحاسية، وتوقفت امرأة عجوز قبيحة المنظر، وقالت:

- هل هو جريح؟

أفاق جيليجان من حلمه. «انظري إلى وجهه» قال بمشاكسة: «لقد سقط من على كرسي فوق امرأة عجوز كان يتحدث معها وفعل ذلك بنفسه».

- «يا له من شيء مهين» قالت المرأة وهي تحملق بجيليجان. «لكن ألا يمكن عمل شيء له؟ يبدو لي انه مريض».

- نعم، سيدتي، يمكن عمل شيء له. وهو ما نقوم به الآن - أن نتركه وشأنه.

حدقت هي وجيليجان في بعضهما الآخر، ثم نظرت إلى لوي، ذلك الشاب المحارب اليائس، ونظرت ثانية إلى جيليجان. قالت وفي نفسها غصة من الشعور

بقساوة الطبيعة البشرية عندما يسيطر عليها المال:

ـ سأخبر مفتش القطار عنكم. ذلك الرجل مريض وهو يحتاج إلى عناية.

ـ حسنٌ، يا سيدتي، لكن قولي للمفتش إنه إذا أزعجه الآن، فسوف أطيح برأسه اللعين.

حدقت المرأة العجوز في جيليجان من تحت قبعة سوداء عادية لكنها متماشية مع الموضة وقال صوت فتاة:

ـ اتركيهم وشأنهم، يا سيدة هندرسون، سوف يعتنون به كما يجب.

كانت تلك فتاة سمراء. ولو أن جيليجان ولوي كانا قد شاهدا في أيما وقت مضى شخصاً يدعى أوبري بردسلي، لكانا قد عرفا بأن بردسلي كان قد سئم منها إلى حد المرض؛ لقد رسمها عدة مرات وهي ترتدي ثوباً مثل ذيل الطاووس في ألوانه، بيضاء ونحيفة وفاسدة وسط أشجار ذات ألوان مبهرجة ونافورات رخامية عجيبة الأشكال. ونهض جيليجان.

ـ «ذلك صحيح يا آنستي. إنه على ما يرام ونائم هنا معنا والخادم يعتني به..

» ثم أردف قائلاً وهو يتساءل مع نفسه عن السبب الذي يدعوه لأن يعلل لها.. «ونحن نصطحبه إلى البيت. فقط دعيه وشأنه. وشكراً لاهتمامك».

ـ «ولكن لابد من عمل شيء ما بشأن ذلك» عادت المرأة العجوز تقول بإلحاح، وقادتها الفتاة إلى الخارج وانطلق القطار هادراً مترنحاً في تلك الظهيرة. (حتماً كان ذلك وقت الظهيرة. أشارت إلى ذلك ساعة بيد لوي. ربما كان ذلك أي وقت تحت الشمس، لكنها كانت الظهيرة على أية حال. الظهيرة أو المساء أو الصباح أو الليل، قدر تعلق الأمل بالضابط. لقد كان نائماً).

عجوز وقحة لعينة، تمتم جيليجان، وهو يحرص على عدم إيقاظه.

ـ «انظر كيف وضع ذراعه» قالت الفتاة، وقد عادت وحركت يده الذابلة من على فخذه (يده أيضاً كانت تبحث عن ذلك المعنى المشوه الملوث من وراء عظامه تحت ذلك الجلد المتقرح) «أوه، يا لوجهه المشوه المسكين قالت، وهي

تعدل وضع الوسادة تحت رأسه:

- «اهدئي، يا سيدتي» قال جيليجان.

تجاهلته، ولأن جيليجان كان يتوقع أن يراه مستيقظاً، فقد اعترف بهزيمته وتابعت هي تقول:

- هل يذهب إلى مكان بعيد؟

- «إنه يسكن في جورجيا»، قال جيليجان. وأحس هو ولوي أنها لم تكن مجرد عابرة سبيل بهما فنهضا. وألقى لوي نظرة على ملامحها الشاحبة، شعرها الأسود والندبة الحمراء التي على فمها، وثوبها الداكن الضيق، وأحس بحسد صبياني من النائم. لكنها تجاهلت لوي بنظرة عجلى. وكم كانت غامضة، كم كانت متحفظة وهي تتجاهلهما.

- «لا يمكنه الوصول إلى بيته بمفرده» أعلنت ذلك باقتناع تام. «هل ستذهبان معه كلاكما؟».

- «طبعاً» قال لها جيليجان مؤكداً. رغب لوي أن يقول شيئاً ما، شيئاً يترك أثراً في ذهنها، شيئاً يعبر من خلاله عن نفسه إليها. لكنها ألقت نظرة على الكؤوس، والزجاجة بحيث أن لوي أحجم عن ذلك وأحس بأنه مجرد مغفل.

- «يبدو أنكم تتدبرون أموركم بشكل جيد اعتماداً على أنفسكم» قالت.

- إنه دواء الأفاعي، يا آنستي لكن ألا تشربي شيئاً؟

راقب لوي فمها وهو يغبط جيليجان على جرأته وسرعة بديهته. وتجولت نظراتها في أرجاء المقصورة.

- أعتقد بأني سأشرب، إذا كان لديكم قدح آخر.

- «طبعاً بالتأكيد، يا جنرال، دق الجرس» وجلست بجانب ماهون فيما عاد جيليجان ولوي للجلوس. كانت تبدو.. شابة؛ وربما كانت تهوى الرقص، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تبدو صغيرة في السن - بدت كما لو أنها كانت تعرف كل شيء. (إنها متزوجة وفي حوالي الخامسة والعشرين فكر

جيليجان) (إنها في حوالي التاسعة عشرة، وهي ليست مغرمة بأحد، قرر لوي ذلك مع نفسه) ونظرت إلى لوي.

- ما هو صنفك أيها الجندي؟

- «تلميذ طيران» أجاب لوي بحماس وبطء. «في سلاح الجو» كانت مجرد طفلة: لكنها بدت كبيرة السن ليس إلا.

- أوه. إذن أنتما تعتنيان به طبعاً. إنه طيار أيضاً، أليس كذلك؟

– «انظري إلى جناحه» أجاب لوي. «إنه بريطاني، من سلاح الجو البريطاني. إنهم رجال طيبون جداً».

- «تباً» قال جيليجان. «إنه ليس أجنبياً».

- ليس من المفروض عليك أن تكون أجنبياً عندما تكون مع البريطانيين أو الفرنسيين. خذ مثلاً لوفبيري. لقد كان مع الفرنسيين إلى أن دخلنا الحرب.

نظرت الفتاة إليه، وقال جيليجان الذي لم يكن قد سمع بلوفبيري أبداً «أياً كان الرجل، فهو على ما يرام. إنه معنا على كل حال. وليكن من يكون».

قالت الفتاة: «أنا واثقة من ذلك».

وظهر الخادم من جديد «النقيب على ما يرام؟» همس بذلك وهو ينظر إليها من دون اندهاش مثلما هي عادة بني جنسه.

- «نعم» قالت له «إنه على ما يرام».

فكر لوي مع نفسه: أراهن أنها تعرف الرقص وأضافت هي: «لا يمكن لأي شخص أن يعتني به أفضل من هذين السيدين» كم هي متوقدة الذكاء! فكر جيليجان. لا بد أنها قد عرفت خيبة الأمل. «أتساءل إن كان بوسعي أن أشرب في مقصورتك؟».

نظر الخادم لها ملياً ثم قال: «نعم، سيدتي سوف آتي لكما بزجاجة جديدة من جعة الزنجبيل. هل ستعتنين به؟».

- نعم، لفترة قصيرة.

انحنى قليلاً عليها. «إنني من جورجيا أيضاً. كان ذلك منذ فترة طويلة مضت».

ـ هل هذا صحيح؟ إنني من الاباما.

ـ نعم، هذا صحيح. ينبغي لنا أن نبحث عن أهلنا، أليس كذلك؟ سوف آتي لك بقدح حالاً.

كان الضابط ما يزال نائماً، ورجع الخادم صامتاً ومتلهفاً، وجلسوا يشربون ويتحدثون بأصوات خفيضة. اختفى منظر نيويورك وحل محله منظر أوهايو، وأضحت أوهايو سلسلة من المنازل الفقيرة المتشابهة ذات بوابة واحدة، فيما كان يتصاعد منها الدخان واللظى. وها هي ذي سنسناتي تقترب. ومن تحت الظل الشاحب ليدها كان قد بدأ يفيق باسترخاء.

ـ «هل وصلنا؟» تساءل. كان ثمة سوار ذهبي أملس. ولم تكن تلبس خاتم خطوبة (ربما راهنت عليه، فكر جيليجان. لكنها لم تكن تبدو فقيرة).

ـ أيها الجنرال، هات قبعة الملازم.

انحنى لوي فوق ركبتي جيليجان وقال جيليجان:

ـ هذه صديقة قديمة لنا، أيها الملازم. أقدم لك السيدة باورز.

تناولت يده وساعدته في النهوض على قدميه، وظهر الخادم من جديد.

ـ «انا دونالد ماهون» قال وكأنه الببغاء. وعاد لوي مع الخادم، وهما يحملان قبعة، وعصا، ومعطف خنادق، وحقيبتين صغيرتين. وتولى الخادم مساعدته في ارتداء المعطف.

ـ «سوف أجلب معطفك، سيدتي»، قال جيليجان، لكن الخادم المراوغ سبقه إلى ذلك. كان معطفها خشناً، وثقيلاً، وفاتح اللون. ارتدته بلا اهتمام وأخذ جيليجان والتلميذ لوي يجمعان أمتعتهما المتناثرة. وأعطى الخادم للضابط قبعته وعصاه ثم اختفى حاملاً الأمتعة التي تعود لهم. وألقت نظرة سريعة على ارجاء المقصورة.

ـ أين أشيائي.

- «نعم سيدتي» صاح الخادم من الباب، من وراء أكتاف المسافرين المغطاة بالمعاطف، «لقد حملت أشياءك معي سيدتي».

كان قد أحضرها معه وأنزلت يده السوداء الرقيقة الضابط بعناية إلى الرصيف.

- «عليك أن تساعد الملازم الذي هناك» قال المفتش بتطفل، لكن الخادم كان قد أنزل الضابط على الرصيف.

- سوف تعتنين به، سيدتي؟

- نعم، سأعتني به.

تحركوا تحت سقيفة المحطة ونظر التلميذ لوي إلى الوراء، لكن الزنجي كان رجلاً كفوءاً، وماهراً، ومنشغلاً مع المسافرين الآخرين. وبدا كما لو أنه قد نسي أمرهم. وتحول التلميذ لوي بنظره من الخادم المنشغل بالحقائب وتجميع أرباع وأنصاف الدولارات إلى الضابط بمعطفه وعصاه، منتبهاً إلى وضع قبعته التي كانت تميل إلى الخلف بمرونة على جبينه المجروح، واستغرب قليلاً من تلك الأحاسيس التي كانت تراوده.

لكن هذا كله سرعان ما تبدد وسط العتمة الرقيقة للمساء في أحد الشوارع التي تمر بين بنايات من الأحجار الصلبة، وسط الأضواء، وتحركت ظلالهم على خلفية الصورة الداكنة أمام مدخل المدينة، جيليجان في بدلته الخاكي الرثة، والفتاة في معطفها الخشن وقد أمسك كل منهما بإحدى ذراعي دونالد ماهون.

(٣)

استلقت السيدة باورز على سريرها وكانت منتبهة واعية لجسدها الطويل الذي كان يتمدد تحت الأغطية الغريبة، وسمعت أصوات الليل المكتومة الآتية من ذلك الفندق - وقع أقدام منخفض على ممرات مفروشة تكتم الأصوات، فتح وإغلاق لأبواب بشكل حذر. ومن مكان ما كان يأتي صوت خفق مدمدم لكائن - كل ذلك إلى جانب ذلك الإحساس الطبيعي الغريب الذي كان سيبدو في أي مكان آخر شيئاً لطيفاً مريحاً للنفس، لكنه عندما يداهم المرء في فندق يجعله يميل لأن يبقى مستيقظاً. أصبح ذهنها وجسدها المفعمان بالدفء مع الإحساس المزمن بالتآلف مع النعاس متجردين تماماً من كل شيء، فارغين من كل شيء، وبعد ذلك وفيما كانت ترخي جسدها على السرير محاولة جعله يتكيف استعداداً للخلود إلى النوم، امتلأت جوانحها بحزن مزعج طرأ على الذاكرة فجأة.

أخذت تفكر في زوجها الذي مات وهو في ريعان الشباب في فرنسا، وعاد ذلك بها إلى الإحساس بسخط مضطرب وبأنها كانت ضحية الإنخداع من قدر عابث. وتلك مزحة لا يمكن أن تبهج أحداً. فما أن اقتنعت على نحو هادئ بأنهما كانا قد انتهزا وقوع هيستريا كونية من أجل أن يحظى كل منهما بنشوة قصيرة الأمد، وما إن اقتنعت على نحو هادئ أنه كان من الأفضل لهما الأبتعاد عن بعضهما الآخر بحيث لا يبقى شيء يشوه ذكرى أيامهما الثلاثة التي أمضياها معاً، وكانت قد كتبت له بشأن ذلك، متمنية له الحظ السعيد، حتى كان من المحتم إخبارها عرضياً وغيابياً أنه قتل في ميدان المعركة. على ذلك النحو العرضي، الغيابي، كما لو أن ريتشارد

باورز الذي أمضت معه ثلاثة أيام، كان رجلاً وريتشارد باورز الذي يقود فصيلاً في الفرقة.. كان رجلاً آخر.

وبما أنها كانت ما تزال شابة فقد توجب عليها مرة ثانية أن تكابد كل ما تعنيه مرارة الفراق، وتلك الرغبة العارمة للتشبث بشيء ملموس في عالم مظلم، رغماً عن أنف كل الدوائر ذات العلاقة بالحرب. ولم يكن هو حتى قد استلم رسالتها! وبدا لها هذا على نحو ما كأنه نوع من الخيانة الزوجية: أن يموت وهو ما يزال يحس في قرارة نفسه بالثقة بها، بالرغم من أن كليهما ربما كانا يحسان بالضجر من بعضهما الآخر.

استدارت وهي تشعر بملمس الأغطية التي فوقها وكأنها الماء، صارت تلك الأغطية دافئة من حرارة جسدها، من فوق ساقيها.

أوه، اللعنة، اللعنة. يا لها من لعبة قذرة تلك التي خدعتني بها. استذكرت تلك الليالي التي كانا خلالها يحاولان محو كل يوم من أيام الغد عن العالم. إنهما خدعتان قذرتان، هكذا فكرت. على أية حال، إنني أعرف ما الذي سأفعله بالتأمين، أضافت وهي تتساءل عما يمكن أن يكون قد فكر فيه بشأن ذلك .. لو انه كان يعرف أو يهتم بكل ذلك فعلاً.

كان كتفها يستدير متجها للأعلى، نحو مستوى تصوراتها المتجلية لها، وكان إيحاء جسدها المستدير المغطى يموج ويتلاشى شيئاً فشيئاً باتجاه أسفل السرير. واستلقت وهي تحملق في نفق حجرتها، ترقب الزوايا غير المحسوسة للأثاث متلمسة بنظراتها ملامح الجدران النظيفة الملساء، مصغية إلى همس كالإشاعة التي تشي بقدوم الربيع هناك في الخارج. كان عمود التهوية مغموراً بنبوءة نيسان الآتي إلى العالم ثانية. مثل معتوه طائش، يأتي الربيع إلى عالم كان قد نسي الربيع. كان الباب الأبيض الذي يفصل غرفتها عن الغرفة المجاورة يحمل مظهراً غامضاً لنافذة مستعرضة ويبقى ذلك المنظر متعلقاً في سطحٍ مستوٍ مخفف للصوت يبعث ضوءاً وهاجاً،

ونهضت مستجيبة لنداءٍ حافزٍ غامضٍ ولبست روباً على عجل.

انفتح الباب بهدوء تحت يدها. كانت تلك الغرفة، مثل غرفتها هي، تحتوي على أثرٍ ضئيلٍ للأثاث، ذلك الأثر الغامض ذاته. صار بوسعها أن تسمع أنفاس ماهون وتلمست بأصابعها حتى عثرت على مفتاح الضوء. تحت جبينه المتقرح كان ينام، لم يزعجه الضوء الغامر والمفاجئ الذي سقط على عينيه المغمضتين. وعرفت بومضة غريزية ما الذي كان يعانيه، ولماذا كانت حركاته مترددة، عقيمة.

إنه يفقد بصره، قالت لنفسها وهي تنحني فوقه. وكان هو نائماً وبعد لحظة تسربت أصواتٌ آتيةٌ من خارج الباب. اعتدلت بسرعة ثم توقفت الضوضاء. بعد ذلك انفتح الباب بمفتاحٍ متخبطٍ ودخل جيليجان وهو يسند التلميذ لوي الذي كانت عيناه كامدتين، كان ثملاً تماماً.

قال جيليجان وهو يساعد رفيقه المتراخي الأطراف على الوقوف:

- مساء الخير، سيدتي.

وغمغم لوي المخمور بشيء ثم تابع جيليجان يقول:

- «انظري إلى هذا الملاح التائه الذي معي هنا. ابحر بعيداً أيها الملاح المفعم بالكبرياء». قال ذلك للرجل الثقيل الذي يتعلق بأذياله وهو شارد النظرات. غمغم لوي بشيءٍ ما ثانيةً، شيءٌ غير مفهوم كانت عيناه كأنهما محارتان.

- «هه؟» سأل جيليجان. «هيا كن رجلاً، قل شيئاً للسيدة اللطيفة» أعاد التلميذ لوي ما قاله بغموضٍ رخيم وهمست هي: «ششش... كن هادئاً».

- «أوه» قال جيليجان بتعجب. «الملازم نائم، هه؟ ما الذي يجعله ينام في هذا الوقت من النهار؟».

حاول لوي بتفاؤل لا يهمد أن يتلفظ بشيءٍ ما ثانية، وقال جيليجان وقد فهم قصده:

- «ذلك ما أردت قوله، أليس كذلك؟ لماذا لا تتصرف كرجل وتقول ما

تريد؟ إنه يريد الذهاب للفراش، لسبب ما» أوضح ذلك للسيدة باورز.

- «ذلك هو مكانه الطبيعي» قالت؛ وقاد جيليجان رفيقه المخمور بعناية إلى السرير الآخر وبحذر السكير المبالغ فيه وضعه فوقه. تنهد لوي وهو يسحب ركبتيه إلى الأعلى ويدير ظهره لهما، لكن جيليجان ظل يسحب ساقيه حتى خلع عنه حذاءه وجواربه وهو يجثو على الأرض عند قدميه، ثم أخذ كل حذاء بيد ووضعه على طاولة. انحنت فوق مؤخرة سرير ماهون، وقد أطبقت فخذها الطويل على الحاجز الصلب، إلى أن انتهى من ذلك.

أخيراً استدار لوي نحو الحائط وهو يتنهد، وقد تحرر من حذاءه وقالت هي:

- إلى أي حد أنت سكران، يا جو؟

- ليس كثيراً، سيدتي ما الأمر؟ هل يحتاج الملازم لشيء ما؟

كان ماهون نائماً ونام التلميذ لوي في الحال.

- «أريد التحدث إليك، جو بشأنه» وأضافت بسرعة، وهي تشعر بنظرات جيليجان المفترسة. «هل يمكنك أن تسمع أم تفضل الذهاب إلى الفراش وأن نتحدث عن ذلك في الصباح؟».

أجاب جيليجان وهو يحاول أن يركز نظرات عينيه:

- لماذا، الآن وقت يناسبني. إنني دائماً في خدمة السيدات.

وقالت وقد اتخذت قرارها فجأة:

- تعال إلى غرفتي إذن.

- طبعاً؛ دعيني أجلب زجاجتي وسأكون في خدمتك.

عادت إلى غرفتها، بينما كان يبحث عن زجاجته وعندما انضم اليها وجدها تجلس على سريرها وقد شبكت ركبتيها معاً، والتفت ببطانية. سحب جيليجان كرسياً.

- «جو، هل تعرف بأنه سيصاب بالعمى؟» قالت فوراً.

بعد فترة من الزمن استعاد وجهها سحنته البشرية وقال وهو يتأمل ذلك

الوجه في خياله:

- أعرف أكثر من ذلك. إنه سوف يموت.

- يموت؟

- «نعم، سيدتي، كنت قد رأيت الموت في وجه رجل، رأيته مرسوماً على وجهه. اللعنة على هذا العالم،» انفجر غاضباً فجأة.

- «ششش!» همست.

- «ذلك صحيح، لقد نسيت» قال بسرعة.

شبكت ركبتيها، وتكورت تحت الغطاء، مغيرة وضع جسدها وقد أصبح متشنجاً، شعرت بملمس اللوح الخشبي للسرير عند الرأس، تساءلت لماذا لم تكن هناك أسرة حديدية، ولماذا كان كل شيء مثلما هو عليه - أسّرة حديدية؛ لماذا اخترت عن قصد بعض الناس لكي يضعوا حداً لوحدتك الأليفة، ولماذا مات هؤلاء، ولماذا اخترت غيرهم مع كل ذلك.. هل سيكون موتي هكذا قلقاً ومثيرا للسخط؟ هل أنا باردة الطبع، أم تراني قد استنفذت كل ما أختزنه من حرارة العاطفة، بحيث إني لم أعد أحس بالأشياء مثلما يحس بها الآخرون؟ دك، دك.. أيها القبيح الميت.

جلس جيليجان على كرسيه وقد انتابه الأنفعال، وأخذ يحاول أن يركز نظراته بصعوبة. بعد أن تملصت منه وسائل التبصر تلك، بخفة ورشاقة مثل بيض متكسر. كانت الأضواء تشكل دائرة متكاملة، مداراً؛ هي صارت ذات وجهين وتجلس على سريرين، تشبك اربعة اذرع حول ركبتيها.. لماذا لا يستطيع المرء أن يكون سعيداً جداً أو تعيساً جداً؟ فقط نوع من المزيج الباهت للشيئين معاً. مثل البيرة عندما تريد أن تحتسي جرعة منها - أو شربة ماء. لا هذا ولا ذاك.

تحركت وسحبت الغطاء عليها. الربيع عمود يتمايل مع الهواء، إشاعة بقدوم الربيع؛ لكن في الغرفة كانت حرارة البخار توحي بذلك الشتاء المضمحل.

ـ دعنا نشرب شيئاً، جو.

نهض بتؤدة وهو يترنح، ومشى بتثاقل وتردد حتى أحضر إبريقاً زجاجياً وأقداح. سحبت طاولة صغيرة قربهما وأخذ جيليجان يملأ كأسين. شربت ثم وضعت الكأس جانباً، أشعل سيجارة لها.

ـ إنه عالم فاسد حقير، جو.

ـ إنك على حق تماماً. والموت ليس اسوء منه.

ـ الموت؟

ـ فيما يتعلق بهذه الحالة، أقصد بأن المشكلة هي، أنه ربما لن يموت في وقت قريب إلى حد كاف.

ـ لا يموت في وقت قريب إلى حد كاف؟

شرب جيليجان كأسه. «لقد فكرت في أمره ملياً، تعرفين ذلك. إن لديه فتاة في البيت! الأهل خطبوها له عندما كانا يافعين، قبل أن يذهب للحرب. وهل تعرفين ما الذي ستفعله عندما ترى وجهه!» تساءل وهو يحدق فيها. أخيراً أصبح وجهها وجهاً واحداً وكان شعرها أسود. كان فمها كأنه ندبة.

ـ «أوه، كلا، يا جو، إنها لن تفعل ذلك» اعتدلت في جلستها، وانزلق الغطاء من كتفيها فأعادته إلى مكانه وهي تراقبه بإصرار.

قال جيليجان وهو يحاول جاهداً أن يحطم مدار الأشياء المرئية:

ـ لا تخدعي نفسك. لقد رأيت صورتها والرسالة الأخيرة التي تلقاها منها.

ـ «هو لم يريك إياها!» قالت بسرعة.

ـ ذلك شيء غير مهم، لقد رأيتها.

ـ جو، أنت لم تعبث بأشيائه؟

ـ سحقاً، يا سيدتي، ألست أنا وأنت نحاول مساعدته؟ لنفرض أنني فعلاً عملت شيئاً ما لا يتماشى تماماً مع التعاليم المقدسة: إنك تعلمين تماماً أن بوسعي مساعدته ـ ذلك إذا لم أدع الكثير من العراقيل تقف في طريقي.

وإذا كنت أعرف بأنني على حق فليس ثمة أية عراقيل أو أي شيء آخر يمكن أن يقف في طريقي.

نظرت إليه وسارع هو بالقول:

ـ أقصد، أنا وأنت نعرف ما الذي يمكن أن نفعله من أجله، لكن إذا كنت دائماً تسمحين لشخص ما بالتدخل فيقول أحدهم لا تفعل هذا ويقول آخر لا تفعل ذلك، فلن تتمكني من مساعدته. هل تفهمين؟

ـ لكن ما الذي يجعلك متيقناً هكذا من أنها سوف تخذله؟

ـ عجباً، أقول لك بأني قد رأيت تلك الرسالة؛ كل ذلك الهراء القديم حول فرسان ينزلون من السماء وقصص المعارك الخيالية، بحيث أن ذلك يجعل حتى الفتيات الحمقاوات الشنيعات المنظر ينسحبن سريعاً مع مرور الزمن حالما تنتهي المتعة والإثارة عندما لا تغدو البدلات النظامية وجروح المعارك وحدها ملائمة للموضة الحديثة بعد الآن، وإنما تصبح اشياء مثيرة للإزعاج.

ـ لكن ألست تصدر حكماً مستعجلاً، وأنت حتى لم ترها من قبل؟

ـ لقد رأيت تلك الصورة؛ إنها واحدة من أولئك الفتيات الجميلات المتقلبات المزاج ذوات الشعر الغزير. بالضبط من ذلك النوع الذي ينتهز الفرصة للارتباط معه في خطوبة.

ـ كيف تعرف أن الخطوبة ما زالت مستمرة؟ ربما كانت لا تتذكره. وربما لم يعد هو يتذكرها، تعرف ذلك.

ـ تلك ليست هي المسألة. إذا لم يكن يتذكرها فهو على ما يرام. لكن إذا رأى أهله فسوف يريد أن يصدق بأن شيئاً ما في عالمه لم ينقلب رأساً على عقب.

ساد الصمت بينهما للحظة، ثم قال جيليجان: «أتمنى لو أنني كنت أعرفه من قبل، إنه من ذلك النوع من الأبناء الذي كنت أتمنى أن أرزق به» شرب ما تبقى من كأسه.

ـ جو، كم عمرك؟
ـ اثنتان وثلاثون، يا سيدتي.
ـ «كيف استطعت أن تعرف كل هذه الأشياء عنا؟» سألت باهتمام وهي ترقبه.
ابتسم قليلاً. «إنها ليست معرفة، إنه مجرد كلام. أعتقد أني فعلت ذلك من خلال التمرين بأن أتحدث كثيراً» أجاب بمزاج تهكمي. «إنني أتحدث كثيراً بحيث لا بد أن أقول الشيء الصواب عاجلاً أم آجلاً. أنت لا تتحدثين كثيراً؟».
ـ «ليس كثيراً» قالت موافقة. تحركت بلا روية فانزلق الغطاء تماماً، فظهر ثوب نومها الخفيف؛ رفعت ذراعيها وأدارت جسمها لكي تعيده إلى مكانه فكشفت بذلك عن ساقها الطويلة وكاحلها المستدير وقدمها العارية.
قال جيليجان من دون أن يتحرك: «سيدتي دعينا نتزوج».
التفت بسرعة بالغطاء ثانية، وهي تحس الآن بشيء من الإشمئزاز من نفسها.
ـ سامحك الله يا جو، ألا تعرف بأني سيدة؟
ـ طبعاً. وأعرف أيضاً بأنك غير مرتبطة بأي زوج، لست أدري أين هو أو ما الذي فعلته به، لكن ليس لديك زوج الآن.
ـ رباه، بدأت أخاف منك، إنك تعرف الشيء الكثير، إنك على حق: لقد قتل زوجي العام الماضي.
قال جيليجان وهو ينظر إليها: «حظ عاثر،» أحنت رأسها على ركبتيها المقوستين المتشابكتين، وقد أحست ثانية بحزن خافت يموج بالدفء.
ـ «حظ عاثر، كان كذلك بالفعل، وهكذا الحال بالنسبة لكل شيء وحتى الحزن أصبح شيئاً مزيفاً الآن» رفعت وجهها، وجهها الشاحب اللون من تحت شعرها الأسود، الذي ترك عليه فمها أثراً لجرح. «جو، تلك هي كلمة

المواساة الصادقة الوحيدة التي قيلت لي على الإطلاق، تعال إلى هنا».

اقترب جيليجان منها فأخذت يده، وضعتها على خدها، ثم رفعتها وهزت شعرها إلى الخلف.

- إنك شخص طيب، جو، لو كنت أشعر بالرغبة في الزواج من أي شخص الآن، لاخترتك أنت، إنني آسفة لأني مارست تلك اللعبة يا جو.

- «لعبة؟» كرر جيليجان وهو يحدق في شعرها الأسود. ثم قال أوه، على نحو غير معبر عن شخصيته ذات الطابع الفريد من نوعه.

- «لكننا لم نقرر ما الذي نفعله مع ذلك الفتى المسكين الذي هناك،" قالت بنشاط مفاجئ، وهي تحضن غطاءها. «ذلك ما أردت التحدث معك بشأنه، هل تشعر بالنعاس؟».

- «ليس أنا»، أجاب: «لا أعتقد أنني سأرغب في النوم ثانية أبداً».

- «ولا أنا» تحركت عبر السرير، وأسندت ظهرها إلى لوح مقدمة السرير. «استلق هنا ودعنا نتوصل إلى قرار ما».

- «حسنٌ» قال جيليجان موافقا، «من الأفضل لي أن أخلع حذائي أولاً. وإلا فإنني سألحق الضرر بسرير الفندق».

- «ليذهب سرير الفندق إلى الجحيم» قالت له: «ضع قدميك عليه».

استلقى جيليجان وغطى عينيه بيده، وبعد فترة من الزمن قالت:

- حسنٌ، ما الذي ينبغي عمله؟

- «علينا أن نوصله إلى أهله أولاً». قال جيليجان. «سوف أبرق إلى أهله غداً - أبوه العجوز يعمل واعظاً، تعرفين ذلك. لكن تلك الفتاة اللعينة هي التي تقلقني، ينبغي له حقاً أن يترك ليموت في سلام. لكن ما الذي سنفعله غير هذا؟ لست أدري. ربما أعرف بعض الأشياء الأخرى». قال موضحاً: «لكن على كل حال فان النساء جميعاً قادرات على التكهن وهن يمكن أن يقتربن من الصواب بشكل افضل من أي شيء يمكنني التوصل إليه».

- لا أعتقد أن بوسع أي شخص أن يفعل شيئاً أكثر منك. سوف أضع

نقودي كلها تحت تصرفك في كل الأوقات.

تحرك وهو يغطي عينيه ثانية، «لست أدري، إنني على ما يرام لحد الآن، لكن يجب أن يكون لدى المرء أكثر من مجرد حسن التقدير. قولي لي، لماذا لا تأتي معنا أنا والجنرال؟».

- «إنني أنوي ذلك يا جو» جاء صوتها من خلف يده التي تغطي وجهه. "أتصور بأني أنوي ذلك دائماً."

(إنها تحبه) لكنه قال فقط:

- حسناً تفعلين. لكني كنت أعرف بأنك ستفعلين الشيء المناسب. هل سيوافق ذووك على ذلك؟

- نعم، لكن ماذا عن النقود؟

- النقود؟

- حسنٌ.. أي شيء قد يحتاج إليه. أنت تعرف، ربما تتدهور حالته في أي مكان.

- «رباه، لقد حققت ربحاً كبيراً في لعبة البوكر ولم يكن لديَّ الوقت الكافي لصرف ذلك، النقود متوفرة. تلك ليست مسألة مهمة» قال بحدة.

- نعم، النقود متوفرة، تعرف أن لدي راتب زوجي.

تمدد وهو صامت، مغطياً عينيه. كانت ساقاه المكسوتان بالبدلة العسكرية تعكران السرير وتنتهيان بحذاء قذر. احتضنت ركبتيها، وهي تجثم تحت غطائها. بعد فترة من الصمت قالت:

- هل أنت نائم يا جو؟

- «إنه عالم عجيب، أليس كذلك؟» تساءل مبتعداً عن الموضوع، من دون أن يتحرك.

- عجيب؟

- حتماً، جندي يموت ويترك لك النقود، وأنت تصرفين النقود في مساعدة جندي آخر لكي يموت مرتاحاً. أليس ذلك شيئاً عجيباً؟

ـ أعتقد ذلك.. كل شيء عجيب، عجيب إلى حد رهيب.

ـ «على كل حال. شيء لطيف أن يتم تعديل كل ذلك» قال بعد لحظة. «سيكون سعيداً لأنك ستأتين».

(عزيزي دك الراحل) (ماهون من تحت جرحه، ينام) (دك، يا أعز إنسان لدي).

أحست بلوح السرير تحت رأسها وخلال شعرها، أحست بعظام ساقيها الطويلتين على ذراعيها المسكتين بهما، المحتضنتين لهما، رأت الغرفة الأنيقة، الغريبة كأنها قبر كامل التجهيز (كم، وكم من الأحزان، الرغبات، العواطف، كانت قد قبرت فيه) عالياً فوق عالم من الفرح والأسى ونشوة الحياة، عالياً فوق أشجار صماء يسكنها الحنين والربيع ليس إلا. (دك، دك. أيها الميت القبيح. دك، ذات يوم كنت حياً ويافعاً ومشبوب العاطفة وقبيحاً، وبعد مدة صرت ميتاً، عزيزي دك: ذلك اللحم، ذلك الجسد، الذي أحببته ولم أحبه؛ جسدك الجميل، اليافع، القبيح، عزيزي دك،يصبح الآن وكراً يعج بالديدان، كأنه حليب فاسد. عزيزي دك).

نام جيليجان، جوزيف، الذي كان منذ حين جندياً، وديمقراطياً متطوعاً. والذي كان يحمل رقماً كأنه سجين، إلى جوارها، فيما كان حذاؤه (الذي أعطي له مجاناً من قبل ديمقراطيين أعلى شأناً بين ديمقراطيين آخرين) يبدو بمظهر ساذج أخرق فوق قطعة بيضاء من القماش المستأجر النظيف والغريب.

سحبت غطاءها فجأة بذراعها الممدودة فاكتست الغرفة بالظلام. وانزلقت تحت الأغطية وقد وضعت خدها على راحة يدها. وغط جيليجان في نومه بلا انزعاج، مغرقاً الغرفة بصوت حميم، مريح (دك. عزيزي، أيها الميت القبيح..).

(٤)

في الغرفـة المجـاورة أفـاق تلميـذ الطـيران لـوي مـن حلـم سـبب لـه الاضطراب، فتح عينيه وحدق بتجرد، بغرابة الآلهة، في الأضواء المتوهجة من حوله. وبعد وهلة تذكر جسده، تذكر أين كان، وبجهد أدار رأسه في السرير الآخر كان الرجل ينام من تحت وجهه البغيض (أنا جوليان لوي، أنا آكل، أنا أهضم أتغوط: لقد حلقت عالياً. هذا الرجل.. هذا الرجل الذي هنا، النائم تحت جرحه.. أين نحن؟ أوه، رباه، أوه، رباه، انتبه إلى جسده، إلى معدته).

رفع يده وتلمس جبينه السليم. لا جرح هناك. وبالقرب منه فوق كرسي كانت قبعته التي يقطعها حزام أبيض، وفوق الطاولة كانت قبعة الرجل الآخر ذات التاج المصنوع من القماش والذي يرتد إلى الخلف ويلتقي بشعار برونزي من حروف أولية.

أحسن بمذاق الحموضة في فمه، وانتبه إلى آلام معدته المنهكة، أن أكون هو! صار يأن. فقط أن أكون هو. ليأخذ جسدي السليم هذا! ليأخذه، أن تكون لدي أجنحة على صدري. أن تكون لدي أجنحة وأن يكون جرحه على وجهي أيضاً، فأنا على استعداد لأن أموت غداً. فوق كرسي بدت سترة ماهون القصيرة وكان الجناح الذي على جيب الصدر الأيسر يخترق دائرة مكونة من حروف أولية تحت تاج، تتجه إلى الأسفل بخطوط مائلة في اندماج مكبوح موشى بالزخارف؛ كانت رغبة رمزية.

أن أكون هو، أن تكون لدي أجنحة، لكن أن يكون جرحه على وجهي أيضاً! استدار لوي نحو الحائط وقد احس بإحباط وانفعال شديد وكأنه ثعلب كان يقضم أحشاءه، عاد لوي ليحلم هو أيضاً، كان نائماً ويئن، بينما اللعاب ما زال يسيل من فمه.

(٥)

أخيل: ما هي التحضيرات التي تقوم بها قبل رحلة طيران عبر البلاد، أيها التلميذ؟
هرمس: افرغ مثانتي واملأ خزان الوقود، سيدي.
أخيل: تابع، أيها التلميذ.

مسرحية قديمة (حوالي ٩١٠؟)

انتبه التلميذ لوي وقد أفاق إلى حلول الصباح، وإلى جيليجان وهو يدخل الغرفة وقد ارتدى ملابسه. نظر إليه جيليجان وقال:

- كيف أصبحت، أيها البطل؟

كان ماهون ما يزال نائماً تحت جرحه، وقد ألقيت سترته القصيرة فوق كرسي واندفع الجناح بحركة رشيقة، من فوق الجيب الأيسر، مرسلاً انعكاسات متكسرة إلى الأسفل سقطت فوق الوشاح. أبيض أرجواني، أبيض.

- «أوه، رباه» تأوه لوي.

توقف جيليجان في حركة رشيقة مفاجئة وهو يشعر بثقة بالنفس مستمدة من نشوة جسدية.

- ابق كما أنت، سأخرج لاطلب شيئاً للفطور، ابق هنا إلى أن يفيق الملازم، هه؟

أحس لوي بحموضة فمه وتأوه ثانية، ونظر جيليجان إليه. «أوه، ستكون على ما يرام، أليس كذلك؟ سأعود بعد قليل».

انغلق الباب وراءه ونهض لوي وهو يفكر بالماء، وشق طريقه مترنحاً عبر

الغرفة نحو إبريق ماء. غرافة(*). كأنها زرافة أو حانة؟ تساءل. كان الماء طيباً، لكنه ما إن خفض الإناء حتى شعر فوراً بالغثيان، وبعد لحظة عاد إلى السرير وارتمى عليه.

غلبه النعاس ونسي معدته، وعندما عاد ليتذكرها رأى حلماً فأفاق. كان بإمكانه أن يحس برأسه وكأنه شيء منتفخ بليد، وبعدها تمكن من تمييز مؤخرة سريره وعندما فكر بالماء ثانية انقلب على وسادة ورأى سريراً مماثلاً آخر وملامح باهتة لروب هامد ملقى بجانبه. انحنت فوق رأس ماهون المتقرح بينما كان يستلقي على ظهره، وقالت: «لا تنهض».

قال لوي، لن أفعل، أغلق عينيه، تذوق طعم فمه، رأى جسدها الطويل النحيل مقابل جفنيه الحمراوين، فتح عينيه على الضوء فظهر له فخذها وارتد منزوياً على قطعة قماش غريبة، ربما كان يرى كاحليها بجهد. ستكون قدماها هناك، أخذ يفكر وهو غير قادر على إتمام المحاولة المجهدة، ومن وراء عينيه المغمضتين فكر بأن يقول شيئاً ما كان سيؤدي لأن يضع فمه على فمها. أوه، رباه، فكر وهو يشعر بأن لا أحد قد أصيب بالغثيان هكذا، وتخيل بأنها ستقول أحبك، هي أيضاً. لو كانت لدي أجنحة وجرح.. ليذهب الضابط إلى الجحيم، فكر، ثم نام ثانية:

ليذهب الضباط إلى الجحيم، على كل حال، لن أكون ضابطاً لعيناً. أفضل أن أكون رقيباً. أفضل أن أكون ميكانيكياً. انطلق أيها التلميذ. سحقاً، نعم، لم لا؟ الحرب انتهت، ابتهج، ابتهج، أوه، رباه، جرحه: جناحه، مرة أخرى.

كان بعد فترة وجيزة يدور في دوامة اخرى، واعياً لدهان التزييت وكبح بطيء رقيق لسطوح مستوية متعانقة، شعر بالهواء يهب وبالعصا في يده، وراقب أذرعاً متراقصة متأرجحة على الأفق، وضعت أنفها على الأفق كبندقية مصوبة. بحق المسيح، ما الذي يقلقني؟ أرى أنفها يرتفع إلى أن

(*) غرافة: إبريق زجاجي.

يختفـي الأفـق، أرى قـوس جنـاح هـابط يكشـفه مـرة أخـرى، أراهـا تغـدو ساكنة فجأة، بينمـا يـدور عـالم مجنـون في دوامـة حـول مقعـدة. «طبعـاً، مـا الذي يقلقك؟» تساءل صوت ورأى جيليجان وهو يفيق جالساً بجانبه وقد حمل كأس ويسكي.

- «اشربها حتى الثمالة، يا جنرال» قـال جيليجـان حـاملاً الكـأس قريبـاً من أنفه.

- أوه، رباه، أبعدها، أبعدها.

- هيا، الآن؛ اشرب: ستشعر بتحسن، الملازم نهض وهو معهم، والسيدة باورز. لماذا سكرت هكذا يا بطل؟

- «أوه، ربـاه، لسـت أدري» أجـاب لـوي وهـو يـدير رأسـه في تـألم. «دعني وشأني».

قال جيليجان: «هيا، اشرب، الآن» قال لوي بانفعال، ابتعد.

- دعني وشأني، سأكون على ما يرام.

- حتماً ستكون على ما يرام. حالما تشرب هذا.

- لا أستطيع، اذهب.

- «لابـد مـن ذلـك، هـل تريـد مـني أن أدق عنقـك؟» سـأل جيليجـان لكـن بعطف، ورفع رأسه، كان صوته حنوناً وقاسياً في آنٍ واحد، راوغه لوي ومد جيليجان يده تحت جسمه وقام برفعه.

- «دعني أنام» قال لوي متوسلاً.

- وتبقى هنا إلى الأبد؟ علينا أن نذهب إلى مكان ما، لا يمكننا البقاء هنا.

- «لكـني لا أسـتطيع الشـرب» كانـت أحشـاء لـوي تتلـوى بانفعـال، إنهـا نشوة «بالله عليك، دعني وشأني».

- «أيها البطل» قال جيليجان وهو يرفع رأسه، «لابـد مـن ذلـك، يمكنـك أن تشـرب هـذا بنفسـك. وإذا لم تفعـل، سـأفرغه في بلعومـك، والقـدح أيضـاً

سأدخلها في فمك. هيا، اشرب الآن».

كانت الكأس قد اصبحت بين شفتيه، لذلك فقد أخذ يشرب، متجرعاً على مضض، متوقعاً أن يتقيأ، لكنه وهو يتجرع، أصبح الشراب سائغاً في فمه على الفور، كان ذلك كما لو أن حياة جديدة تدفقت فيه، أحسّ بعرق رقيق ورفع جيليجان القدح الفارغ عنه. وجلس ماهون، الذي كان قد ارتدى ملابسه عدا حزامه، بجانب طاولة، واختفى جيليجان من خلال أحد الأبواب فيما نهض هو، وأحس بأنه يرتجف لكن مع شيء من التحسن الجسدي والعقلي. تناول كأساً أخرى. كان الماء يتدفق في الحمام بشدة وعاد جيليجان يقول على عجل: «هيا يا صغيري».

دفع لوي نحو الحمام. «ادخل، يا بطل،» أضاف.

أحس بوخز إبر الماء العذب البراق وهي تلهب كتفيه، راقب جسده الذي كان ينزلق منه نسيج مائي فضي غير متناه، وتفوح منه رائحة الصابون: وراء كل ذلك كانت غرفتها، حيث كانت هي هناك طويلة وحمراء وبيضاء وسوداء، جميلة سأقول لها في الحال، توصل إلى قرار وهو يلقي نظرة على جسده الصلب اليافع الملتف بمنشفة خشنة الملمس، أخذ وهو محتدم بالانفعال ينظف أسنانه، ثم تناول كأساً أخرى تحت نظرات ماهون الهادئة المقلوبة ونظرات جيليجان الساخرة، ارتدى ملابسه، سمعها تتحرك في غرفتها. ربما هي تفكر بي، قال لنفسه فيما كان يرتدي بدلته الخاكي على عجل.

أحس بنظرة الضابط المحدقة، الرقيقة، المرتبكة وقال الرجل:

- كيف حالك؟

- «لم أشعر بأنني أفضل حالاً منذ طلعتي المنفردة» أجاب، ثم أراد أن يغني. «أقول لك شيئاً، لقد تركت قبعتي في غرفتها الليلة الماضية» قال لجيليجان: «أعتقد أن من الأفضل أن آتي بها».

- «ها هي قبعتك» أخبره جيليجان بلهجة حادة وهو يخرجها.

- «حسنٌ، إذن، أريد ان اتكلم معها. ما رأيك بذلك؟» سأل لوي وهو يندفع متوعداً ومتحدياً.

- «حسنٌ، بالطبع، أيها الجنرال» وافق جيليجان على الفور. «ليس في وسعها أن ترفض واحداً من منقذي بلادها» وصار يطرق على بابها. «سيدة باورز».

- «نعم» كان صوتها مكتوماً.

- «الجنرال بيرشنغ هنا يريد التحدث معك.. بالطبع.. حسنٌ» انزوى جانباً وفتح الباب. «هيا ادخل، يا بطل».

تجاهل لوي غمزته وأحس بأنه يكرهه، ثم دخل؛ كانت تجلس على السرير وقد وضعت صينية الإفطار على ركبتيها. لم تكن قد ارتدت ملابسها ونظر لوي إلى ناحية بعيدة باحتشام. لكنها قالت بصوت رقيق:

- بصحتك، أيها التلميذ! كيف حال الجو اليوم؟

أشارت إلى كرسي فسحبه بالقرب من السرير، كان حريصاً ألا يبدو عليه أنه يحدق بحيث يصبح ارتباكه ملفتاً للنظر. نظرت إليه بسرعة ولطف وقدمت له القهوة. أحس بالجوع فجأة بسبب التأثير القاسي للويسكي على معدة فارغة، تناول الكوب.

- «صباح الخير» قال بمجاملة في غير محلها محاولاً التظاهر بأن يبدو عمره أكبر من تسع عشر. (لماذا تخجل تسع عشرة سنة من نفسها؟) إنها تعاملني مثل طفل، أخذ يفكر في هيجان وقد اكتسب شيئاً من الشجاعة، وراقب بجرأة متزايدة كتفيها الظاهرين وتساءل باهتمام إن كانت تلبس الجوارب.

لماذا لم أقل شيئاً عندما دخلت؟ (شيئاً لطيفا وحميماً)؟ اسمعي، عندما رأيتك لأول مرة كان حبي لك مثل.. حبي كان مثل .. حبي لك .. رباه لو أنني فقط لم أشرب كثيراً جداً في الليلة الماضية لاستطعت أن أقولها حبي لك هو حب هو مثل... ووجد نفسه يراقب ذراعيها وقد تحركتا وسقطت أكمامها

السائبة عنهما، يقول، نعم، كان سعيداً لأن الحرب انتهت ويقول لها بأنه قد حقق سبعاً وأربعين ساعة من الطيران وأنه كان سيحصل على جناح طيران خلال أسبوعين آخرين وأن والدته في سان فرانسيسكو كانت تتوقع قدومه.

إنها تعاملني كطفل، فكر بسخط، ورأى انحدار كتفيها والمكان الذي يقبع فيها صدرها.

- «كم هو فاحم السواد شعرك» قال، وقالت:

- لوي، متى ستذهب إلى بيتك؟

- لست أدري، لماذا يجب عليّ أن أذهب إلى البيت؟ أعتقد بأني سأتجول في أنحاء البلد أولاً.

- «لكن والدتك!» نظرت إليه.

- «أوه، حسنٌ» قال بتبجج: «إنك تعرفين حال النساء - دائماً يجعلن المرء قلقاً».

- لوي! كيف لك أن تعرف الشيء الكثير عن الأمور؟ النساء؟ أنت لست متزوجاً، أليس كذلك؟

- «أنا أتزوج؟» كرر لوي بحماسة مبالغ فيها، «أنا أتزوج؟ ليس الأمر كما تتصورين. لدي الكثير من الفتيات، لكن أن أتزوج؟» قال بصوت مستهجن وبشيء من الإنفعال غير الضروري. «ما الذي جعلك تتصورين ذلك؟» سأل باهتمام.

- أوه، لست أدري. إنك تبدو هكذا - ناضجاً جداً تعرف ذلك.

- آه، الطيران هو الذي يجعلني أبدو هكذا، انظري إلى ذلك الذي هناك.

- هل الأمر كذلك؟ لقد لاحظت شيئاً فيك.. كان من الممكن لك أن تصبح بطلاً أيضاً، لو أنك واجهت بعض الألمان، أليس كذلك؟

رمقها بنظرة سريعة، كأنه كلب مذعور، ها قد عاد إليه يأسه القديم

المضجر.

- «إنني آسفة جداً» قالت بسرعة بلهجة توحي بالصدق. «لم أكن أتصور: بالطبع كنت ستصبح كذلك، على كل حال، لم يكن ذلك خطأك أنت، لقد فعلت ما بوسعك، أعرف ذلك».

- «أوه، بحق المسيح» قال وهو متألم، «ما الذي ترغبن فيه أنتن ايتها النساء، على كل حال؟ إنني طيار جيد مثل أي واحد آخر في الجبهة.. طيار أو أي شيء آخر» جلس، والكآبة تبدو واضحة عليه فيما كانت ترمقه بعينيها ثم نهض فجأة. «قولي لي، ما اسمك، على كل حال؟».

- «مارغريت» قالت له، اقترب من السرير حيث كانت تجلس وقالت: «تريدين مزيداً من القهوة!» جعله ذلك يقف بلا حراك. «لقد نسيت كوبك، إنه هناك على الطاولة».

قبل أن يفكر بأي شيء كان قد عاد وجلب كوبه، واعطي قهوة لم يكن يرغب فيها، أحس بأنه أشبه بمعتوه وكره أن يكون في ريعان الشباب. هذا شيء حسن بالنسبة إليك، وعدها بذلك وجلس ثانية في غيظ مكبوت. ليذهبن جميعاً إلى الجحيم.

- «لقد آذيتك، أليس كذلك؟» تساءلت، «لكن، لوي، إنني أحس بأني في حالة سيئة جداً، وأنت كنت على وشك أن تمارس الحب معي»

- «لماذا تتصورين ذلك؟» سأل متألماً ومغموماً.

- أوه، لست أدري. لكن النساء يمكنهن معرفة ذلك، وأنا لا أريد أن يمارس أحد الحب معي، جيليجان كان قد حاول ذلك من قبل.

- جيليجان! تباً، سوف أقتله إذا كان قد آذاك.

- كلا، كلا: إنه لم يؤذني، ليس أكثر مما فعلت أنت. كانت مجرد مغازلة، لكن لماذا كنت ستمارس الحب معي؟ لقد فكرت في ذلك قبل دخولك، أليس كذلك؟

قال لها لوي بعفوية: «لقد فكرت في ذلك في القطار عندما رأيتك لأول

مرة، عندما رأيتك عرفت بأنك المرأة المناسبة لي، أخبريني، أنت لا تحبيه أكثر مني لأن لديه جناح طيران وجرح في وجهه، أليس كذلك؟».

- «عجباً، بالطبع لا» نظرت إليه للحظة وهي تمعن التفكير ثم قالت: «السيد جيليجان يقول إن الرجل يموت».

- «يموت؟» كرر ذلك وأضاف. «يموت؟» كيف تمكن الرجل من التغلب عليه في كل جولة! كما لو أنه ليس كافياً أن يكون لديه جناح طيران وجرح في وجهه. لكن أن يموت.

- «مارغريت» قال بجزع شديد إلى حد أنها حدقت فيه بإشفاق سريعاً (كان يافعاً جداً) «مارغريت؟ هل تحبينه؟» (كان يعلم بأنه لو كان امرأة لأحبه).

- «كلا، بالتأكيد لا، ليس لدي علاقة حب مع أي أحد، لقد قتل زوجي في أيسني، تعرف ذلك» قالت له بلطف.

- «أوه، مارغريت» قال بإخلاص مرير. «كان يمكن أن أقتل هناك لو شاء لي القدر ذلك، أو أجرح مثله، ألا تعرفين ذلك؟».

- «طبعاً يا حبيبي» وضعت الصينية جانباً. «تعال إلى هنا».

نهض لوي ثانية وذهب إليها. «كان يمكن أن يحدث لي ذلك لو كانت هناك فرصة» كرر قوله.

سحبته إلى جانبها، وأحس بأنه كان يقوم بدور الطفل الذي فرضته عليه، لكنه لم يستطع رفض ذلك، كانت خيبة أمله ويأسه أكبر من أي شيء آخر الآن، ها هي ذي ركبتيها تحت وجهه تلمسانه بعذوبة ووضع ذراعيه حول ساقيها.

- «لقد أردت أن يحدث لي ذلك» اعترف على نحو أكبر مما كان يتصور. «كنت سأحمل جرحاً مثله وكل شيء آخر».

- وأن تموت، مثلما سيموت هو؟

لكن ما الذي كان يعنيه الموت بالنسبة للتلميذ لوي، غير شيء حقيقي

ومهيب وحزين؟ رأى قبراً، كان مفتوحاً، ورأى نفسه وهو يلبس الحذاء والحزام، وجناح الطيران يزين صدره، وشارة الجريح أيضاً.. ما الذي يمكن أن يطلب المرء من القدر أكثر من هذا؟

- «نعم، نعم» أجاب.

- «حسنٌ، لقد طرت أنت أيضاً» قالت له، ووضعت وجهه على ركبتيها. «كان يمكن أن تكون مكانه، لكنك كنت محظوظاً، ربما كنت تطير بصورة جيدة بحيث لم تصب طائرتك مثلما حدث له، هل فكرت في ذلك؟"

- لست أدري، أعتقد بأني كنت سأجعلهم يمسكون بي، لو أنني كنت مكانه، أنت تحبينه.

- «أقسم بأني لست كذلك» رفعت رأسه لكي ترى وجهه. «سأقول لك لو أنني كنت أحبه.. ألا تصدقني؟» كانت عيناه منكسرتين، صدقها.

- إذن، إذا كنت غير مغرمة به، ألا يمكنك أن تعطي وعداً بأن تنتظريني؟ سأكون أكبر سناً عما قريب وسأعمل بجهد وأكسب المال.

- ما الذي ستقول أمك؟

- سحقاً، لست مضطراً للاهتمام بما تقلول، مثل طفل إلى الأبد، إنني في التاسعة عشرة، بمثل عمرك، وإذا كانت لا تحب ذلك، فيمكنها أن تذهب إلى الجحيم.

- «لوي!» قالت له موبخة، لم تقل له أن عمرها أربع وعشرون، «لدي فكرة! اذهب إلى البيت وأخبر أمك - سوف أعطيك رسالة لها - ويمكنك أن تكتب لي ما تقوله».

- لكني أفضل الذهاب معك.

- لكن يا عزيزي، ما فائدة ذلك؟ إننا سنأخذه إلى البيت، وهو مريض ألا تفهم، عزيزي، لا نستطيع أن نفعل أي شيء حتى نسوي أمره، وأنت لن تفعل شيئاً سوى أن تقف في الطريق؟

- «في الطريق؟» كرر بألم حاد.

ـ إنك تعرف ما الذي كنت أعنيه ـ لا يمكننا أن نفكر في أي شيء إلى أن نوصله إلى البيت، ألا تفهم؟

ـ لكنك لست مغرمة به؟

ـ أقسم بأني لست كذلك، هل يرضيك ذلك؟

ـ إذن، هل تحبينني؟

وضعت وجهه على ركبتيها ثانية. «أيها الطفل المحبوب» قالت؛ «بالطبع لن أقول لك ـ الآن».

وكان عليه أن يقتنع بهذا، حضن أحدهما الآخر في صمت لبعض الوقت. «يا لرائحتك الطيبة» قال لوي أخيراً.

تحركت. «تعال إلى هنا قربي» قالت بنبرة آمرة، وعندما أصبح بجوارها أخذت وجهه بين يديها وقبلته، وضع ذراعيه حواليها، وأنزلت رأسه نحو صدرها، وبعد لحظات أخذت تمسد شعره وتكلمت:

ـ والآن، هل ستذهب إلى البيت حالاً؟

ـ «هل يجب عليّ ذلك؟» سأل ببلادة.

ـ «يجب عليك» أجابت، «اليوم. أرسل لها برقية فوراً. وسوف أعطيك رسالة لها».

ـ أوه، سحقاً، تعرفين ما الذي ستقوله.

ـ بالطبع أعرف، ليس لديك أي أخوات وإخوة، أليس كذلك؟

ـ «كلا» قال بتعجب، تحركت وأحس برغبتها في التحرر، اعتدل في جلسته، «كيف عرفت؟» سأل باستغراب.

ـ لقد خمنت فحسب، لكنك سوف تذهب، أليس كذلك؟ عدني بهذا.

ـ حسنٌ سأفعل إذن، لكني سأعود إليك.

ـ طبعاً ستعود، سأنتظر عودتك، قبلني.

عرضت وجهها ببرود وقبلها كما أرادت ببرود، من بعيد وضعت يديها على خديه، «يا ولدي العزيز» قالت وهي تقبله ثانية، مثلما كانت تقبله أمه.

- «أقول لك شيئاً، تلك ليست الطريقة التي يقبل بها المخطوبان بعضهما» قال معترضاً.

«كيف يقبل المخطوبان بعضهما؟» تساءلت، وضع ذراعيه حولها، أحس بلوحي كتفيها، وجذب فمها إلى فمه على النحو الذي تعلمه، تحملت قبله للحظة ثم أبعدته عنها.

- «هل هكذا يقبل المخطوبان بعضهما؟» تساءلت ضاحكة. «أحب هذه الطريقة أكثر» وضعت وجهه بين راحتي يديها، ولثمت فمه برقة وبرود. «الآن اقسم بأنك ستبرق إلى أمك حالاً».

- لكن هل ستكتبين لي؟

- حتماً. لكن اقسم بأنك ستذهب اليوم، بغض النظر عما يمكن أن يقوله لك جيليجان.

- «اقسم» أجاب وهو ينظر إلى فمها: «ألا يمكنني أن أقبلك ثانية؟».

- «عندما نتزوج» قالت وعرف بأنه يُطلب منه الإنصراف. كان يفكر ويحس بأنها تراقبه، فيما اجتاز الغرفة بكبرياء من دون أن يلتفت إلى الوراء.

وكان جيليجان والضابط ما يزالان هناك، قال ماهون:

- صباح الخير يا رفيقي القديم.

نظر جيليجان إلى جبهة لوي المتحدية في متعة تهكمية ساخرة.

- هل أحرزت نصراً، يا هذا، أيها البطل؟

- «اذهب للجحيم» رد لوي. «أين تلك الزجاجة؟ إنني عائد للبيت اليوم».

- «ها هي، يا جنرال، اشرب حتى الثمالة، عائد للبيت؟» كرر قوله. «ونحن أيضاً، يا هذا، أيها الملازم؟».

الفصل الثاني

(١)

كان اسم الرجل جونز، جانيواريوس جونز، ولد من أبٍ لا يكترث كثيراً لمعرفة أي شيء عنه، أصبح اسمه جونز وفقاً للترتيب الأبجدي، وجانيوراي من خلال اقتران التاريخ مع البيولوجيا، وجانيواريوس من خلال الإقتران العكسي لنجمه مع دافع الغذاء والملبس ـ انحنى جانيواريوس جونز، الذي كان يرتدي بدلة رمادية من الصوف الخشن لكونه كان مؤخراً زميلاً للغة اللاتينية في كلية صغيرة، فوق بوابة من القضبان الحديدة المتشابكة تخترق حاجزاً من الخضرة وشجيرات أزهار العسل النجمية غير الناضجة، مراقباً ما يفعله نيسان في مزهر الياقوتية. كانت قطرات الندى تلمع على العشب، والنحل يقتحم زهرات التفاح في شمس الصباح فيما كانت طيور السنونو تمرق كأنها أوتار ترسل موسيقا مناسبة للمشهد عبر سماء شاحبة تعصف بها الرياح. كان ثمة وجه ينظر إليه من فوق مالج معلق وكانت المشابك المعدنية لحمالة بنطلون متقاطعة ترسل بريقاً بهيجاً.

قال الكاهن: «صباح الخير، أيها الشاب» كانت قبة منزله اللامعة تبعث في النفس الرضا والابتهاج إزاء حائط مغطى باللبلاب وفوق ذلك كان التناسق المتكامل الجميل بين برج وصليب مطلي بالذهب يبدو وقد اتخذ مجرى متقوس على سحب صغيرة ساكنة.

تمتم جانيواريوس جونز الذي كان مفتوناً بصورة البرج المضللة الموحية بانهيار بطيء. «أرقبه وهو يهوي، سيدي» كانت الشمس تسقط على أشدها فوق وجهه الفتي المستدير.

نظر إليه البستاني بفضول محبب. «يهوي؟ آه، إنك ترى طائرة» قال

موضحاً. «كان ولدي في ذلك السلاح أثناء الحرب» كان يبدو ضخماً في بنطلون أسود وحذاء ممزق. «إنه يوم جميل للطيران» قال من تحت يده التي تشبه الكوب. «أين الطائرة التي تراها؟».

- «كلا، يا سيدي» رد جونز. «لا توجد طائرة، يا سيدي، لقد أشرت في نوبة تجرد لا يغتفر إلى برجك، كانت متعة طفولتي دائماً أن أقف تحت برج، بينما تتحرك الغيوم فوق رأسي. إن وهم السقوط البطيء يكون بالغاً إلى حد الكمال. هل سبق لك أن جربت هذا، يا سيدي؟».

- لكي أكون دقيقاً فقد فعلت ذلك، بالرغم من أنه كان - دعني أقلْ - منذ سنوات أكثر مما أكترث لأن أتذكرها، لكن واحداً من لحمي ودمي كان معرضا لأن يجعل روحه تذوب في خضم حماسته من أجل الأرواح الأخرى التي ...

- «التي لا تستحق الخلاص فحسب، لكنها لا ترغب فيه على وجه الدقة». أكمل جونز.

وبخه الكاهن فوراً، كانت العصافير مهتاجة في شجيرات اللبلاب وصارت الواجهة المتعرشة لبيت الكاهن حلماً في مرج النسرين والعشب المجزوز. ينبغي أن يكون هنا أطفال، فكر جونز في ذلك، قال:

- ينبغي عليّ بتواضع أن أستميحك عذراً على وقاحتي يا دكتور، أؤكد لك بأني .. آه .. قد استفدت من الموقف من دون أي حافز خفي أياً كان.

- إنني أفهم ذلك، ولدي العزيز كان توبيخي لك حنوناً بالروحية نفسها. هناك تقاليد معينة يجب أن نلاحظها في هذا العالم؛ أحدها هو الاحترام الظاهري لذلك الثوب الذي أرتديه أنا بلا جدارة، ربما، وقد وجدت هذا الأمر على وجه التحديد مفروضاً علينا نحن من .. ما الذي أقوله؟».

"Integer vitae scelerisque puras

Non eget Mauris iaculis neque arcu

Nec venenatis gravida sagittis,

Fusce, pharetra –"

بدأ جونز، وقاطعه الكاهن منشداً:

" - sive per Syrtis iter aestuosas

Sive Facturus per inhospitalem

Caucasum vel quae loca Fabulosus

Lambit Hydaspes"

اختتما ذلك في لحن ثنائي سريع ووقفا في صمت عقب ذلك يحدقان في بعضهما الآخر بحماس عبقري.

- «لكن تعال، تعال» صاح الكاهن، كانت يداه لطيفتين. «هل سأترك الرجل الغريب يقف طويلاً خارج بوابتي؟» انفتحت بوابة الحديد المشبك على مصراعيها وكانت يده الخشنة ثقيلة على كتف جونز. «تعال لنرى البرج».

كان العشب جذاباً. وترددت آلاف من حشرات النحل بين البرسيم وأزهار التفاح، بين أزهار التفاح والبرسيم، ومن الكتلة القوطية الطراز للكنيسة والبرج ارتفعت صلاة لم تكن تتلاشى في الوسط البرونزي، نقية في مظهرها الوهمي الموحي بالخراب البطيء عبر سحب صغيرة ساكنة.

- «أيها الأبرشي المخلص» تمتم الكاهن المبجل. كان ضوء الشمس كأنه ريشة ذهبية متموجة تحوم على رأسه الأصلع، وكان وجه جانيواريوس جونز مرآة مدورة ربما كانت تعبث أمامها آلهة الحقول والقطعان والحوريات عندما كان العالم يافعاً.

- «أبرشي، أنا قلت ذلك؟ إنه أكثر من ذلك، بشيء مثل هذا ربما يكون للإنسان أن يقترب أكثر من الله، وكم هم قلة أولئك الذين سيؤمنون بهذا! كم هم قلة، كم هم قلة!» حدق من دون أن يطرف له جفن في السماء المغمورة بضوء الشمس وغرق في عينيه يأس كان قد ازداد فتوراً وهدوءاً منذ عهد بعيد.

- «ذلك صحيح جداً، سيدي، لكننا الذين ننتمي إلى هذا العصر نعتقد بأن ذلك الذي ربما نقترب منه بصورة غير رسمية، من دون وساطة من أي نوع، فهو لا يستحق الاقتراب منه، إننا نشتري خلاصنا مثلما نحصل على ممتلكاتنا الثابتة. إن إلهنا» تابع جونز يقول، «ليس في حاجة لأن يكون رحيماً وليس في حاجة لأن يكون ذكياً جداً لكن يجب أن تكون لديه كرامة».

رفع الكاهن يده الضخمة الملوثة. «كلا، كلا، إنك تقترف شيئاً ظالماً، لكن من الذي يعرف العدالة وهو في مرحلة فترة الشباب، أو أي من تلك الفضائل الشاقة التي تغذي شراييننا وأرواحنا المتصلبة؟ فقط هم الشيوخ الذين يحتاجون إلى التقاليد والقوانين لكي يجمعوا بأنفسهم شيئاً من جمال هذا العالم. بدون القوانين فإن الشباب سوف يسرقون ذلك منا مثلما اجتاح القراصنة في الماضي البحار الزرقاء".

كان الكاهن صامتاً للحظة. كانت الظلال المتقطعة للأوراق الجديدة، صيحات طيور صارت مرئية، والعصافير في شجيرات اللبلاب نقاط من ضوء الشمس أصبحت مسموعة. وتابع الكاهن كلامه:

- لو قدر لي أن أتولى مهمة تنظيم هذا العالم فيتوجب عليّ أن أحدد نقطة معينة، لنقل مثلاً عند حوالي سن الثلاثين، لدى بلوغها فإن الإنسان سوف ينحدر آلياً إلى مستوى لا يعود فيه عقله ينشغل بعد ذلك بالذكريات العقيمة عن المغريات التي كان قد قاومها وعن الجمال الذي فشل في ادخاره لنفسه، إنها الغيرة كما أتصور هي التي تجعلنا نرغب في أن نمنع الشباب من عمل الأشياء التي لم تكن لدينا الشجاعة أو الفرصة نحن أنفسنا لإنجازها ذات مرة، وليس لدينا القدرة على عملها الآن.

تساءل جونز عن الإغراءات التي كان قد قاومها ثم تذكر النساء اللاتي ربما كان سيغويهن ولم يفعل ذلك، قال: «وماذا بعد ذلك؟ ما الذي سيفعله الناس الذين لا يكونوا محظوظين في بلوغ الثلاثين من العمر؟».

ـ عنـد هـذا المستوى لـن تكـون هنـاك أمـور ماديـة مزعجـة مثـل ضـوء الشمس والفـراغ والطيـور علـى الأشـجار ـ لكـن فقـط أشياء غير مهمـة مثل وسائل الراحة المادية: الأكل والنوم والإنجاب.

ما الذي يمكن أن تريده أكثر من ذلك؟ فكر جونز. هذا مكان رائع. يستطيع المرء بسهولة تامة أن يقضي كل وقته في الأكل والإنجاب، تصور جونز ذلك، كان يتمنى لو أن الكاهن (أو أي شخص يمكنه أن يتخيل عالماً يتألف من الطعام والنساء ليس إلا) لديه القدرة على خلق الأشياء وأنه هو، جونز، يمكنه أن يبقى إلى الأبد في الواحدة والثلاثين من العمر، لكن بالرغم من ذلك فقد بدا أن الكاهن يحمل أفكاراً مختلفة.

ـ «ما الذي سيفعلونه لقضاء الوقت؟» سأل جونز للاستمرار في النقاش عما سيفعله الآخرون لقضاء الوقت. ما الذي سيحدث إذا تم انتزاع الأكل والنوم والرذيلة من حياتهم.

ـ إن نصفهم سوف يصنع الأشياء، والقسم الآخر سوف يبحث عن الذهب والفضة لكي يشتري بها هذه الأشياء. وبالطبع سيكون هناك أماكن لخزن العملة والأشياء الأخرى، وبهذا تتوفر فرص العمل لبعض الناس. أما الآخرون فسوف يضطرون طبعاً لحراثة الارض.

ـ لكن كيف نتخلص أخيراً من العملة وتلك الأشياء الأخرى؟ بعد مدة من الزمن يكون لدينا متحف واحد هائل ومصرف، كلاهما مملوء بأشياء غير مفيدة أو ضرورية. وتلك هي الآن اللعنة التي تتميز بها حضارتنا ـ الأشياء، الممتلكات، التي نحن عبيد لها، والتي تتطلب منا إما الكدح بشرف على الأقل ثماني ساعات في اليوم أو نقترف عملاً غير شرعي لكي نبقيها جميلة ومنسقة وفقاً لآخر طراز أو مملوءة بالويسكي أو البنزين.

ـ «صحيح تماماً. وهذا يذكرنا بشكل فاجع وعنيف بالعالم الذي بقى مثلما هو عليه، ولا حاجة للقول بأني قد أعددت العدة لكلٍ من هذين الاحتمالين. فالعملة يمكن أن تعاد ثانية إلى سبيكة وتسك من جديد، و..»

نظر الكاهن المبجل إلى جونز في نشوة.. «ربات البيوت يمكنهن استخدام الأشياء كوقود يطبخن الطعام عليه».

عجوز معتوه، فكر جونز، وقال: «مدهش، رائع! إنك رجل يهواه قلبي، يا دكتور».

نظر الكاهن إلى جونز بعطف. «آه، يا ولدي، ليس هناك شيء يهواه قلب الشباب، الشباب ليس له قلب».

- لكن، يا دكتور هذا الشيء يشبه الطعن في الذات الملكية، كنت أعتقد بأننا قد أعلنا هدنة فيما يتعلق بالثوب الذي يرتديه كل منا.

تحركت ظلال أثناء حركة الشمس ودغدغ احد الاغصان جبين الكاهن. جوبيتر مكلل بالغار.

- ما هو ثوبك؟

- «لماذا؟» قال جونز.

- «إنه ما يزال من الديابر[*]، ولدي العزيز، لكن اعذرني»، أضاف بسرعة لدى رؤية وجه جونز، كانت ذراعه ثقيلة وصلبة كأنها غصن سنديان على كتف جونز. «أخبرني، ما هي في رأيك أكثر الفضائل روعة؟».

كان جونز هادئاً. «التكبر الخالص» أجاب في الحال، ودوت ضحكة الكاهن طويلا كأجراس رنانة تحت ضوء الشمس، وأرسلت العصافير مذعورة بعيداً كأنها أوراق تعصف بها الرياح بحركة دائرية.

- هل نغدو أصدقاء مرة أخرى إذن؟ تعال، سوف أقدم تنازلاً، سوف أريك زهوري، إنك في ريعان الشباب بحيث تستطيع أن تقدر قيمتها من دون أن تشعر بأنك مضطر للتعليق بشيء.

كانت الحديقة تستحق المشاهدة، والممر المشجر بالورود يحاذي طريقاً مفروشاً بالحصى يجتاز بقعة من ضوء الشمس تحت شجرتي سنديان متقوستين ويمضي إلى ما وراء أشجار السنديان، على حائط من أشجار

(*) الديابر: نسيج حريري أو كتاني مضلع أو مشجر.

الحور في صف متصل منتظم كانت هناك أعمدة معبد اغريقي، إلا أن أشجار الحور ذاتها في خضرتها الهزيلة الغامضة كانت تبدو ذات أجنحة مرفرفة ومختالة بجمالها مثل فتيات يرتدين الفريز[*]، وعلى سياج من نباتات الفاغيا التي ستغدو عما قريب زنابق مثل راهبات في دير منعزل وأزهار ياقوت زعفراني تهز أجراساً ولا تصدر صوتاً، تحلم بليسبوس. وفوق حائط مشبك ستحترق الوستاريا[**] قريباً في شعلة أرجوانية بطيئة مقلوبة، وبعد ذلك مرا أخيراً بشجرة ورد منفردة. كانت الأغصان ضخمة ومليئة بالعقد مع تقادم عمرها، ثقيلة وداكنة كأنها عمود برونزي متوج بذهب شاحب زائل اللون، أخذت يد الكاهن تمسد عليها بهيام ورهافة.

ـ «الآن، هذه» قال، «هي ابني وابنتي، حبيبة قلبي وغذاء روحي: إنها يدي اليمنى واليسرى، كثيرة هي الليالي التي وقفت فيها بالقرب منها بعد أن أزلت الأغلفة عنها قبل الآوان، أحرق ورق الجرائد لكي أمنع الصقيع. أتذكر ذات مرة أنني كنت في بلدة مجاورة لحضور مؤتمر. كان الجو ـ حدث ذلك في آذار ـ لطيفاً للغاية وكنت قد ازحت عنها الغطاء.

ـ كانت البراعم متفتحة منذ مدة، آه، يا ولدي، لم ينتظر شاب مجيء محبوبته بصبر لا ينفد أكثر مني. عندما كنت أنتظر تفتح أول برعم على هذه الشجيرة (من كان ذلك الوثني القديم الذي وضع طاسه البيزنطي بجوار سريره وأخذ يقبله ببطء حتى أبلى الحافة؟ هناك تماثل جزئي).. لكن ما الذي كنت أقوله؟ آه، نعم لذلك فقد تركت الشجيرة مكشوفة حسب تقديري وذهبت إلى المؤتمر واستمر الجو معتدلاً حتى اليوم الأخير، ثم تنبأت تقارير المناخ بحدوث تغير. كان من المؤمل ان يحضر المطران؛ وتيقنت أني لن أتمكن من الوصول للبيت بالقطار ثم أعود في الوقت المناسب، وأخيراً استأجرت سائق عربة لكي يقلني إلى البيت.

(*) الفريز: نسيج صوفي غليظ.

(**) الوستاريا: نبات معترش ذو زهر عنقودي أزرق أو أبيض أو أرجواني.

ـ «كانت السماء قد تلبدت بالغيوم، والجو يزداد برودة. وبعد ذلك على مبعدة ثلاثة أميال من البيت، وصلنا إلى جدول ووجدنا الجسر قد اختفى، وبعد أن أطلقنا صيحات قليلة، جذبنا أنتباه رجل كان يحرث الأرض عبر الجدول فأتى نحونا في زورق صغير، طلبت من سائقي أن يبقى بانتظاري، وعبرت مع الرجل وذهبت ماشياً إلى البيت، وغطيت وردتي، ثم رجعت ماشياً نحو الجدول ووصلت في الوقت المناسب، وفي تلك الليلة» ابتسم الكاهن إلى جانيواريوس جونز بابتهاج.. «سقطت الثلوج!».

استلقى جونز على ظهره بتكاسل فوق عشب فاتن المنظر، انغلقت عيناه تفادياً لضوء الشمس، وأخذ يحشو غليونه. «هذه الوردة، دخلت التاريخ تقريباً، لقد احتفظت بالشجرة لبعض الوقت، أليس كذلك؟ أحياناً يرتبط الإنسان بالأشياء التي عرفها منذ زمن طويل» لم يكن جانيواريوس جونز مهتماً بالأزهار على وجه التحديد.

ـ لدي سبب أفضل من ذلك. في هذه الشجيرة يكمن جزء من شبابي، مثلما يختزن النبيذ في جرة، لكن مع وجود هذا الاختلاف: إن جرة نبيذي دائماً تجدد نفسها.

ـ «أوه» علق جونز في جزع. «توجد قصة هنا، إذن».

ـ نعم، ولدي العزيز، إنها قصة طويلة جداً. لكنك لست مرتاحاً في تمددك هنا.

ـ «من ذا الذي يعرف الراحة التامة» اندفع جونز يتكلم مستغلاً الموقف، «إلا إذا كان نائماً؟ إنه الإنهاك الناجم عن اتصال الإنسان المحتوم مع الأرض التي تحمله، سواء كان جالساً، واقفاً أو مستلقياً حيث يبقى ذهنه في حالة قلق متواصل حول أشياء لا جدوى منها. إذا أمكن تحرير الإنسان، إنسان واحد للحظة من قوى الجاذبية، مركزاً ثقله على تلك النقطة من جسده التي تلامس الأرض، فما هو الشيء الذي لن يستطيع ان يفعله؟ إنه يمكن أن يصبح إلهاً، سيد الحياة، يجعل الآلهة في عليائها تهتز فوق عروشها، سوف

يهدر كالرعد عند بوابات اللانهاية تماماً كأنه فارس مصفح بالدروع، ومثلما هي الحال، فيجب عليه دائماً أن يبقي وراء ذهنه اندهاش فاتر من أي شيء مؤلف من النار والهواء والماء وقوة كلية القدرة في نسب متعادلة يمكن أن يكون بهذه القسوة اللعينة».

ـ ذلك صحيح، لا يمكن للإنسان أن يبقى في موقف واحد لفترة طويلة كافية لأن يفكر بشكل حقيقي، لكن على مقربة من شجرة الورد..

ـ «انظر إلى الصقر» قاطعه جونز بحماس، مكافحاً للحصول على بعض الوقت، «بمساندة الهواء وحده: أي كرامة، أي تفرد في الهدف! ما الذي يهمه إن كان سميث أو غيره حاكماً؟ وهل يهمه إن كان غالبية الناس يفوضون سنوياً أشخاصاً غرباء نسبياً لا يعرف أي شيء عنهم عدا أنهم ليس لديهم ميل نحو الكدح، للتطفل على شؤون غالبية الناس؟».

ـ لكن، يا ولدي العزيز، هذا شيء يقترب من الفوضوية.

ـ الفوضوية؟ حتماً إنها يد العناية الإلهية المتقرحة بسبب أعمال الصيرفة، تلك هي الفوضوية.

ـ على الأقل أنت تعترف بوجود يد العناية الإلهية.

ـ «لست أدري هل أعترف بذلك؟» سحب جونز علبة أعواد ثقاب من سترته؛ وقد وضع قبعته فوق عينيه وكان غليونه ظاهراً تحتها. أخرج عوداً وأخذ يحكه على العلبة، لم يشتعل العود فرماه بخفة داخل شجيرات بنفسج، حاول إشعال عود آخر، حاول مرة ثانية. «اقلب العلبة» تمتم الكاهن، فعل ذلك فاشتعل العود.

ـ «كيف وجدت يد العناية الإلهية؟» نفخ دخان غليونه.

جمع الكاهن أعواد الثقاب المطفأة من بين شجيرات البنفسج. «على هذا النحو، إنها تمكن المرء من النهوض وحراثة التربة، وبذلك يمكنه أن يحصل على طعامه، هل تعتقد بأنه سينهض ويعمل إذا كان في وسعه أن يبقى مستلقياً على ظهره بكسل لمدة طويلة؟ حتى ذلك الجزء من الجسد

الذي صممه الخالق للجلوس عليه فهو يخدمه فقط لفترة قصيرة ثم يتمرد، ثم يأخذ هذا الجزء أيضاً يجعل عظامه الكسولة تنتفض وتجبره على الحركة. وليس ثمة سبيل لمساعدته إلا عن طريق النوم».

- «لكنه لا يستطيع أن ينام لأكثر ربما من ثلث وقته المتيسر» أشار جونز إلى تلك النقطة. «وبعد وقت قصير لن يمثل ذلك حتى ثلث وقته، إن الجنس البشري يضعف، ينحدر، إننا لا نستطيع أن نتحمل تقريباً نفسها فترة النوم مثلما كان أسلافنا القريبون نسبياً (من الناحية الجيولوجية طبعاً)، ليس حتى الفترة نفسها التي يمكن أن ينامها معاصرونا الأكثر بدائية، لأننا نحن الناس المتحضرون المبهرجون الآن أصبحنا متمرنين على الإحساس بعقولنا وشرايينا بدلاً من بطوننا وغريزتنا، مثلما كان عليه أجدادنا وبعض معاصرينا الأحرار.

- الأحرار؟

- اجتماعياً، طبعاً. يعتقد دو بأن دو وسمث ينبغي ويجب أن يعملا هذا الشيء أو ذاك لأن سمث يعتقد أن سمث ودو ينبغي ويجب أن يفعلا هذا الشيء أو ذاك.

- «آه، نعم» رفع الكاهن ثانية عينيه الحانيتين، اللتين كانتا لا تطرفان نحو الشمس مباشرة، كان الندى قد تبخر عن العشب، وأزهار النرجس تبدو ناعسة كأنها فتيات بعد أنتهاء حفلة راقصة. «إننا نقترب من الظهر، لنذهب إلى الداخل، يمكنني أن أقدم لك شراباً منعشاً وغداء، إذا لم تكن مرتبطاً بموعد ما».

نهض جونز. «كلا، كلا، شكراً لك ألف مرة، لكني لن أزعجك»، كان الكاهن ودوداً. «لا إزعاج، لا إزعاج أبداً، إنني وحدي حالياً..».

تظاهر جونز بالرزانة، كان يشعر بالرغبة في تناول الطعام، وغريزة تدفعه إلى ذلك. كان عليه فقط أن يدخل منزلاً لكي تعلمه غريزته ما إذا كان الطعام جيداً أم لا، لكن جونز، مراعاة للياقة في مسألة الأكل لم

يرد إيجابياً على دعوة الكاهن.

تجاهل الكاهن إرادته بالرغم من كل ذلك بدماثة خلق وحماس. لم يكن الكاهن ليقبل الرفض، أمسك بيد جونز ومشيا، وهما يدوسان على ظليهما عبر الأرض المعشبة يسوقانهما معهما تحت زخارف الضوء المتناسق اللطيف المنبعث من نافذة مروحية ذات زجاج باهت الألوان محبب إلى النفس بالرغم من عدم التنظيف، وعلى ضوء الصباح الصافي المكشوف، كان مدخل الصالة يموج بوهج النار الحمراء. تعثر جونز الذي أصيب بالعمى الوقتي، فوق شيء ما بعنف وتعلقت يد دلو بكاحله بإصرار. صاح الكاهن: إيمي! وهو يجره وراءه مع الدلو، ثم اعتدل، شكر حسن حظه لأنه لم يكن قد التصق بالأرضية، فقد نهض كزهرة مخضلة مزيحاً الدلو عنه. لامست قدماه المتدليتان الأرضية وأحس بساق بنطلونه وقد اعتراه اليأس والاضطراب. كان مثل رافعة، أخذ يفكر في غضب.

صاح الكاهن إيمي ثانية، كان هناك رد مفاجئ من أعماق المنزل ومرت بهما سريعاً فتاة ترتدي ثوباً قطنياً مخططاً. هدر صوت الكاهن المرتفع كأنه أمواج متكسرة في أرجاء المكان الضيق، وفتح باباً على طوفان من الضوء وقاد جونز المبلل نحو غرفة القراءة.

- «لن أعتذر» بدأ الكاهن بالكلام. «عن بساطة المسكن الذي أدعوك إليه، إنني أعيش وحدي حالياً، كما ترى، لكننا نحن الفلاسفة على كل حال نحتاج إلى الخبز لملء البطن وليس من أجل تذوق الطعم، إيه؟ تعال، تعال».

كان جونز يشعر بالجزع. ساق بنطلون مبلل، وخبز للبطن فحسب والله وحده يعرف ما الذي يعنيه هذا الكاهن السمين بالخبز للبطن وليس الخبز للتذوق، قشور، ربما، وفيما يتعلق بالطعام فقد كان جونز محباً للانغماس في الملذات والترف بدلاً من أن يكون ميالاً لحب الجمال أو حتى متفلسفاً. وقف مغموماً وهو يؤرجح ساقه التي كان يقطر منها الماء.

ـ «ولدي العزيز، إنك مبلل!» هتف مضيفه. «تعال، اخلع بنطلونك».

اعترض جونز بوهن «إيمي!» هدر صوت الكاهن ثانية.

ـ حسنٌ، أيها العم جو، سأنشف هذا الماء حالاً.

ـ لا تكترثي للماء الآن، أسرعي إلى غرفتي وأحضري بنطلوناً.

ـ لكن السجادة ستتلف!

ـ ليس إلى الحد الذي لا يمكن معالجته، آمل ذلك، سوف نجازف، أحضري لي البنطلون، والآن ولدي العزيز اخلع البنطلون، إيمي سوف تجففه في المطبخ وبعدها يمكنك أن تستعيد وضعك الصحيح.

استسلم جونز في جزع بليد، كان في واقع الأمر قد سقط بين أيدي لصوص لديهم اخلاق. داهمه الكاهن بحنو لا يرحم وظهرت الفتاة التي ترتدي القماش القطني المخطط ثانية عند الباب، وهي تحمل واحداً من أثواب الكاهن السوداء غير الرسمية على ذراعها.

ـ إيمي، أقدم لك السيد ـ لا أتذكر أني سمعت باسمك؟ سيكون ضيفاً على الغداء. وانظري، إيمي، إذا كانت سيسلي ترغب في المجيء أيضاً.

زعقت المرأة التي لم تتزوج في حياتها عندما رأت جونز. كان يبدو مضحكاً في قميصه، وساقيه القرنفلتين السمينتين، والبنطلون الذي قذف برزانة ولامبالاة في الغرفة. «جونز» قال جانيواريوس جونز بصوت خافت، لكن إيمي كانت قد ذهبت.

ـ «آه، نعم، السيد جونز» داهمه الكاهن من جديد، وهو يعمل أشياء خرقاء وغريبة بخصر وأسفل البنطلون، ووقف جونز بتهذيب وقد ارتدى ثياباً فضفاضة وكأنه خروف داهمته عاصفة هوجاء بينما كان الكاهن يمسكه بقوة.

ـ «والآن» صاح مضيفه. «استرح (أحس جونز بسخرية كامنة حتى في هذا) بينما أبحث أنا عن شيء يروي عطشنا».

استعاد الضيف هدوءه في غرفة أنيقة مزرية المظهر، فوق سجادة بالية

كان ثمة طاولة عليها زهر ياقوتية بيضاء داخل كوب شاي بدون يد، وصورة واحدة معلقة فوق رف مدفأة مزدحم بغليونات ولفافات ورق. كانت هناك كتب في كل مكان.. على رفوف، على حافات النوافذ، على الأرضية، رأى جونز العهد القديم باليونانية بعدة أجزاء، كتاب ضخم لمؤلف مغمور عن القانون الدولي، جين أوستن وكتاب (الكونتيسة درولاتيك) الذي كانت صفحاته مطوية الزوايا بعناية وهي تعانق المساند. دخل الكاهن ثانية حاملاً حليباً في إبريق من الزجاج الأزرق وكوزين، أخرج من أحد الأدراج زجاجة من الويسكي الاسكتلندي.

- «شيء بسيط لاسترضاء أصحاب السلطة والنفوذ» قال وهو ينظر شزراً إلى جونز ببراءة تخفي تلميحا بالفسق، «كلب عجوز وحيل جديدة، يا ولدي لكن أستميحك عذراً، ربما لا تحب هذه التوليفة؟».

ارتفعت معنويات جونز كالمنطاد. «سأجرب أي نوع من الشراب لمرة واحدة» قال كأنه جيرغن.

- جربه، على كل حال، إذا لم تكن تحبه فأنت حر تماماً لتطبيق معادلتك الخاصة.

كان الشراب لذيذ المذاق أكثر مما توقع، ارتشف باستمتاع. «ألم تقل إن لك ولداً، يا سيدي؟».

- «كان اسمه دونالد، لقد قُتِلَ في الفلاندرز الربيع الماضي» نهض الكاهن وأنزل الصورة من فوق رف المدفأة، أعطاها لضيفه، كان الفتى في حوالي الثامنة عشرة ولا يرتدي معطفاً، ومن تحت شعر جامح رأى جونز وجهاً نحيلاً بذقن دقيق مدبب وعينين طائشتين واهنتين. كانت عينا جونز صامتتين وصفراوين، فاحشتين ومتمرستين في الخطيئة كعيني معزة.

- «الموت يبدو واضحاً على وجهه» قال جونز.

تناول مضيفه الصورة وحدق فيها، «الموت دائماً يكون واضحاً على وجوه الشباب في الروح، الشباب الأبدي، الموت لهم أنفسهم أو للآخرين،

والخزي، لكن الموت، حتماً، ولماذا لا؟ لماذا يتوجب على الموت أن يرغب في تلك الأشياء التي لم تعد الحياة تستفيد منها؟ من ذا الذي يجمع الورود الذابلة؟» استغرق الكاهن للحظة في حلم غامض محملقاً في الفراغ، بعد فترة أضاف قائلاً: «لقد حمل لنا أحد رفاقه أشياء قليلة تعود إليه» أسند الصورة في وضع عمودي على الطاولة وأخرج صندوقاً من أحد الأدراج، تلمست اليد الضخمة طريقها بحثاً عن المقبض.

- «اسمح لي، يا سيدي» عرض جونز مساعدته وقد أحس أنه من غير المجدي التطوع لعمل ذلك، ربما كان الكاهن يفعل ذلك في كل يوم لكن الغطاء أذعن، فيما كان يتكلم وأخذ الكاهن ينثر على الطاولة المحتويات المثيرة للشفقة: قميص نسوي تحتي، نسخة رخيصة من (صبي شروبشاير). بصيلة زنبق متيبسة، التقط الكاهن البصيلة فتكسرت في يده إلى ذرات متناثرة.

- «لا، لا! يا لي مِنْ مهمل!» هتف فجأة وجرف بقايا الزهور داخل مغلف بعناية. «كثيراً ما شعرت بالأسف على ضخامة يدي، كان ينبغي أن تعطيا إلى شخص يستطيع استخدامهما في شيء آخر غير تقليب صفحات الكتب أو النبش في المزاهر، كانت يدا دونالد على النقيض فهما صغيرتان تماماً، مثل يدي أمه، كان يتمتع بيدين رشيقتين، كان يمكن أن يصبح جراحاً ماهراً».

وضع الأشياء على الطاولة أمام الصورة المسندة على رف المدفأة وكأنه يؤدي طقوساً، وأسند رأسه إلى يديه الغليضتين واستغرق في حلمه العقيم عن ابنه بينه وبين نفسه كأنه يستنشق دخان التبغ.

- «حقاً، هناك حياة وموت وخزي في وجهه، هل انتبهت إلى إيمي؟ قبل سنوات، تقريباً في الوقت الذي أخذت فيه هذه الصورة.. لكن تلك قصة قديمة، حتى إيمي ربما تكون قد نسيتها.. سوف تلاحظ أنه لا يرتدي معطفاً ولا رباط عنق، كثيراً ما كان يظهر بعد أن تكون والدته قد

ألبسته بشكل جميل وأنيق في الشارع، في الكنيسة، في التجمعات الرسمية، حاملاً قبعة، معطفاً، وباقة ازهار بيديه. كثيراً ما كنت أسمعه يقول «لأن الجو حار جداً» لم تكن لديه الثقافة المستمدة من الكتب: التعليم المدرسي الذي حصل عليه بسبب رغبة في الذهاب إلى المدرسة، القراءة مارسها لأنه أراد أن يقرأ، على الأقل أنا لم أعلمه سوى الثبات. ما هو الثبات؟ الضمور العاطفي، شر قاتل..» رفع وجهه ونظر إلى جونز. «ما رأيك؟ هل كنت محقاً، أم كان ينبغي عليّ أن أجعل ابني مطابقاً لأنموذج معين؟».

ـ ذلك الوجه يصبح مطابقاً لأنموذجٍ معين؟ (إذن كانت إيمي سابقاً قد أصيبت بالخزي، ذات مرة على كل حال) كيف يمكنك ذلك؟ (إني أضمر الضغينة لذلك الإنسان المخزي أيضاً) هل كنت تستطيع أن تلبس (فون)(*) ثياباً رسمية؟

تنهد الكاهن. «آه، سيد جونز، من يدري؟» أعاد ببطء الأشياء إلى مكانها في الصندوق المعدني وجلس، وهو يحتضن الصندوق بيديه. «كلما تقدمت في العمر، سيد جونزر، أصبح مقتنعاً تماماً أننا لا نتعلم إلا النزر اليسير ونحن نجتاز هذا العالم، وإننا لا نتعلم شيئاً على الإطلاق يمكن أن يساعدنا، أو يكون ذا فائدة محددة لنا أيضاً، لكن على الرغم من ذلك...» تنهد ثانية بعمق.

(*) أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

(٢)

ظهرت إيمي، تلك العذراء المخزية ثانية وهي تقول: «ما الذي تريده على الغداء، أيها العم جو؟ فطيرة الفراولة أم الجيلاتي؟» تفادت عين جونز وقد احمر وجهها خجلاً.

نظر الكاهن إلى ضيفه في رثاء. «ما الذي تريده، سيد جونز؟ لكني أعرف رأي الشباب في الجيلاتي، هل تفضل الجيلاتي؟».

لكن جونز كان رجلاً لبقاً اكثر من أقرانه، وبما أنه نفسه كان يعرف الشيء الكثير عن الطعام فقد امتلك مهارة فائقة في توقع ردود أفعال الناس الآخرين إزاء الطعام. «إذا كنت ستطلب الشيء نفسه، يا دكتور، لتكن فطيرة.».

- «فطيرة، يا إيمي» أصدر الكاهن توجيهاته بانفعال. انسحبت إيمي «هل تعرف» تابع بامتنان واعتذار، «هل تعرف، عندما يصبح المرء عجوزاً، عندها بدلاً من أن يستخدم معدته، فإن معدته تقوم باستخدامه، لأن دوافعه المادية الأخرى تغدو أكثر ضغطاً وانحداراً، عند ذاك فإن ميوله تجاه الطعام الذي يحبه تأخذ بالإفصاح عن نفسها بنفسها».

- «لا، أبداً، يا سيدي» قال له جونز مؤكداً. «إنني شخصياً أفضل الحلوى الدافئة على المثلجات».

- إذن يجب عليك أن تعود عندما يكون هناك خوخ. سوف أقدم لك شراب الخوخ، مع الزبدة والقشدة.. لكن آه لقد مارست معدتي سطوة بائسة عليّ.

- ولماذا لا تفعل ذلك يا سيدي؟ السنوات تسرق منا الحوافز الجنسية، فلم لا نملأ الفراغ بحوافز للطعام؟

نظر الكاهن إليه بعطف عميق. «إنك مخادع، لا تحتاج حياة الإنسان دوماً لأن تغدو مليئة بحوافز الجنس أو الطعام، أليس كذلك؟».

لكن عندها سمع صوت وقع أقدام على الصالة غير المفروشة ودخلت وهي تقول: «صباح الخير، أيها العم الجو»، بصوتها الذي كان ما يزال يخرج من فمها عبرت الغرفة باندفاع ورشاقة، ولم تر جونز في أول الأمر، ثم نظرت إليه وتوقفت كطائر محلق لفترة قصيرة، نهض جونز ورمقها وهي تميل متبخترة بخطوات رشيقة وبتكلف، بوعي جسماني نحو الطاولة. انحنت بلطافة كشجرة فتية وقبلها الكاهن. غمرتها عينا جونز الخبيثتين وتفحصتها بصفراوية.

ـ «صباح الخير، يا سيسلي» نهض الكاهن. «لقد توقعت قدومك قبل الآن في يوم كهذا، لكن ينبغي على الفتيات اليافعات أن يحظين بنوم جميل بغض النظر عن حالة الجو» ختم كلامه بمرح أخرق. «هذا هو السيد جونز، يا سيسلي، الآنسة سوندرز، يا سيد جونز».

أحنى جونز رأسه برشاقة سريعاً عندما واجهته بالرغم من مظهره الذي يوحي بالبدانة، لكن عندما لاحظ تعابيرها الساكنة المرهفة أحس بالذعر. بعدها تذكر بنطلون الكاهن اللعين وأحس بألم بطيء عند رقبته وأذنيه، وعرف أنه لم يكن فقط يبدو سخيفاً، وإنما هي تفترض أنه معتاد على ارتداء مثل هذه الأشياء. لم يتكلم ولعن جونز الكاهن البدين الكثير النسيان ببطء وبشدة. لعن الله هذا الرجل. في لحظة ما كانت إيمي وهو لا يرتدي بنطلوناً أبداً؛ وفي اللحظة التالية فتاة غريبة جذابة وهو يلتف بأغطية تحتية كأنه منطاد قذر. كان الكاهن يتفوه بكلمات ملاطفة وكأنه القدر.

ـ لقد توقعت حضورك قبل الآن ـ كنت قد قررت أن أدعك تأخذين بعض أزهار الزنبق.

ـ «أيها العم جو! يا له من شيء را.... ئع!» كان صوتها خشناً، مثل شبكة من الأسلاك الذهبية، سحبت نظراتها الفاتنة من جونز، وبما أنه كان

يكرههما معاً فقد أحس جونز بالعرق المتفصِّد تحت شعره.. «لماذا لم أحضر قبل الآن؛ لكني دائماً أفعل الشيء الخاطئ، مثلما سيعرف السيد.. سيد جونز، من خلال عدم حضوري بالوقت المناسب لأخذ الزنبق».

نظرت إليه ثانية، مثلما يمكن أن تنظر إلى وحش غريب المنظر. انقلبت حيرة جونز إلى غضب؛ وأخيراً عثر على لسانه.

- نعم، إنه لشيء سيء جداً كونك لم تحضري قبل الآن. كنت سترينني في وضع أكثر تشويقاً من هذه الحالة أيضاً، يبدو أن إيمي تعتقد ذلك على الأقل.

- «عفواً؟» قالت.

نظر إليه الكائن بدماثة وارتباك، ثم فهم ما يقصده. «آه، نعم، سيد جونز، كان قد وقع له حادث طفيف وكان مضطراً لارتداء أحد أثوابي».

- «شكراً لقولك (كان مضطراً)، قال جونز بحدة. «نعم، لقد تعثرت بدلو ماء وضعه الدكتور بالضبط عند الباب الأمامي، من دون أن يكون لديه شك في النتيجة التي تجعل أبناء أبرشيته متأكدين من أنهم حقاً سيحتاجون إلى مساعدة من السماء، في الزيارة الثانية»، قال موضحاً بطريقة مبهمة، موجهاً لكرامته الضربة القاضية بيده هو. «أنت، كما أتصور معتادة على ذلك وبإمكانك تفاديه».

حولت نظرها من وجه جونز الغاضب المتقع اللون إلى وجه الكاهن الطافح بالحنان والمرتبك وصرخت ضاحكة.

- «سامحني» أجابت بسرعة في رزانة. «أنا ببساطة لم أستطع السيطرة على نفسي، يا سيد جونز، أنت سوف تسامحين، أليس كذلك؟».

- طبعاً، حتى إيمي استمتعت بذلك، دكتور، لا يمكن أن تكون إيمي قد أثيرت إلى هذا الحد أبداً، كادت تصاب بصدمة لدى رؤية أي رجل..

غطت على هذه السخافة بكلماتها المندفعة. «إذن فقد شاهد السيد جونز أزهارك؟ ينبغي سماع إطراء السيد جونز حقاً، إنه تنازل حتماً من العم جو»

قالت بتملق وهي تستدير نحو الكاهن متملقة ومرائية مثل سونينة فرنسية. «هل السيد جونز رجل مشهور إذن؟ لم تقل لي بأنك تعرف رجالاً مشهورين».

أطلق الكاهن العنان لضحكته. «حسنٌ، سيد جونز، يبدو أنك قد أخفيت شيئاً ما عني»، (ليس بالقدر الذي كنت أود إخفاءه، فكر جونز) «لم أكن أعرف بأني أستضيف رجلا مشهوراً».

استرد جونز حدة مزاجه المتكاسل المميز له وأجاب بشيء من التهذيب. «ولا أنا يا سيدي».

- آه، لا تحاول إخفاء شهرتك يا سيد جونز، النساء يعرفن هذه الأشياء، إنهن يخترقن أعماقنا فوراً.

- «أيها العم جونز» كانت قد انتبهت بسرعة إلى هذه الملاحظة التعيسة، ونظرت إلى جونز، لكن جونز كان يحس بالأمان الآن.

- كلا، لست أتفق معك، لو أنهن كن يعرفن ما في دواخلنا فلن يتزوجن منا أبداً.

كانت تشعر بالامتنان وأظهرت نظرتها اهتماماً قليلاً (ما هو لون عينيها؟)

- أوه، ذلك هو رأي السيد جونز. إنه خبير بالنساء.

انتفخ جونز كبرياءً وغروراً وقال الكاهن، «اسمحي لي» جلب كرسياً من الصالة، أسندت فخذها على المكتب والتقت عيناها (هل كانتا رماديتين أم زرقاوين أم خضراوين؟) بنظراته الجريئة غير المرتبكة. خفضت نظراتها ونظر هو إلى فمها الجميل الخجول، سيكون هذا شيئاً سهل المنال، فكر. وضع الكاهن الكرسي لها وجلست. وعندما كان الكاهن قد احتل كرسي مكتبه ثانية، استعاد جونز كرسيه. كم هي طويلة الساقين، فكر، وهو ينظر إلى شكل ثوبها الأبيض القصير فوق جذعها، أحست بنظراته المتفحصة الجريئة ونظرت إلى الأعلى.

- «إذن فالسيد جونز متزوج» قالت: فعلت شيئاً ما لعينيها وبدا لجونز أنها

قد لمسته بيديها. لقد فهمت إشارتك، فكر بابتذال. أجاب:

ـ «كلا، ما الذي يجعلك تفكرين بذلك؟» عبأ الكاهن غليونه وأخذ ينظر إليهما بحنان.

ـ أوه، لقد أسأت الفهم إذن.

ـ ذلك ليس السبب في أنك فكرت بذلك.

ـ كلا؟

ـ «السبب في ذلك هو أنك تحبين الرجال المتزوجين» قال لها بجرأة، «هل أنا كذلك حقاً؟» قالت بلا اهتمام، بدا لجونز أنه كان بوسعه أن يرى اهتماماً قد انحسر عنه، أحس بأن ذلك الاهتمام يبرد.

ـ ألست كذلك؟

ـ عليك أن تعرف.

ـ «أنا؟» سأل جونز، «كيف لي أن أعرف؟».

ـ «ألست خبيراً في النساء؟» أجابت بصراحة وعذوبة. سكت وهو يشعر أن بإمكانه أن يخنقها، صفق الكاهن.

ـ كش مات، سيد جونز؟

لتلتقِ نظراتنا ثانية فحسب، أقسم، لكنها لن تنظر إليه، جلس صامتاً وتحت نظرته المحدقة المهتاجة تناولت الصورة من المكتب وأمسكتها بهدوء لبعض الوقت. ثم أعادتها إلى مكانها ومدت يدها عبر المكتب ووضعتها على يد الكاهن.

ـ «كانت الآنسة سوندرز مخطوبة لولدي» قال الكاهن موضحاً لجونز.

ـ «نعم؟» قال جونز، مراقباً صورتها الجانبية، انتظر منها أن تنظر إليه ثانية. ظهرت إيمي، تلك العذراء التعيسة عند الباب.

ـ «حسنٌ، أيها العم جو» قالت، ثم اختفت فوراً.

ـ «آه، الغداء» أعلن الكاهن، ونهض، نهضا هما أيضاً.

ـ «لا أستطيع البقاء» قالت معترضة، مستسلمة ليد الكاهن التي على

ظهرها، بقي جونز خلفهما «يجب ألا أبقى في الواقع» قالت موضحة.

تحركوا عبر الصالة المظلمة وراقب جونز ثوبها الأبيض يتمايل على نحو غير مميز مع مشيتها، تخيل قبلتها، لعنها في سره، عند أحد الأبواب توقفت وانحرفت جانباً بدماثة، مثلما يفعل رجل. وقف الكاهن أيضاً واضطر جونز للوقوف؛ وهنا كانت مسرحية كوميدية فيما يتعلق بحق التقدم على الآخرين. أحس جونز في حرج مزيف بملمس فخذها الرقيق غير المخصر على ظهر يده وكانت نظرتها الحادة مثل ماء مثلج، دخلوا إلى الغرفة «لقد جعلتك تنظرين إليّ إذن» تمتم.

لم يلاحظ الكاهن شيئاً، قال:

- «اجلس هنا، سيد جونز» ورمقته العذراء إيمي بنظرة متغطرسة معادية. رد عليها بنظرة ماكرة بعيدة المدى، سوف أنظر في أمرك لاحقاً وعدها بذلك في ذهنه، جلس إلى مائدة مغطاة بكتان نظيف، سحب الكاهن كرسي الضيف الآخر وجلس هو عند رأس المائدة.

- «إن سيسلي لا تأكل كثيراً جداً» قال وهو يقطع لحم دجاجة، «كذلك فإن العبء سيقع عليك وعليّ أنا، لكني أعتقد بأنه يمكن الاعتماد علينا، إيه سيد جونز؟».

أسندت مرفقها في الجانب المقابل له، وسوف أتولى أمرك، أيضاً وعدها جونز خفية، كانت ما تزال تتجاهل نظرته الماكرة وقال: «بالتأكيد، يا سيدي» متبعاً عنها سياق التفكير القديم الذي كان يستخدمه في المدرسة عندما كان يتهيأ للانتقال إلى مرحلة معينة لكنها تجاهلته قدرة تامة بحيث أنه أحس بارتياب مفاجئ مزعج، شك واهن. أتساءل إن كنت محقاً؟ فكر ملياً سأتأكد من ذلك، قرر ذلك فجأة.

- «كنت تقول، يا سيدي» - كان ما يزال يراقب وجهها المتجاهل الضحل - «عندما دخلت الآنسة سوندرز بفتنتها هذه، بأنني حسن المظهر جداً، لكن على المرء دائماً أن يستخرج فكرة عامة حول الفسوق. فقط بعد -».

- «سيد جونز» هتف الكاهن بصوت مرتفع:

- ... الفسوق يُقترف إذا ما تحدث عنه المرء أيضاً، ثم يخضع الأمر للاستقراء، يصبح - حسب تعبيرك - حسن المظهر إن الإنسان الذي يقبل ويلغو لا يعتبر زميلاً بكل معنى الكلمة، أليس كذلك».

- «سيد جونز» قال الكاهن محتجاً.

- «سيد جونز!» رددت بعده «يا لك من رجل فظيع! حقاً أيها العم جو».

قاطعهما جونز بضراوة «بقدر تعلق الأمر بالقبلة ذاتها، فإن النساء لا يكترثن على وجه التحديد بمن يقوم بالتقبيل، كل ما يهمهن هو القبلة ذاتها..».

- «سيد جونز!» قالت ثانية وهي تحدق فيه، ثم صوبت نظرها بعيداً. ارتجفت.

- «هيا، هيا، يا سيدي هناك سيدات موجودات هنا» نطق الكاهن بحكمته المأثورة.

دفع جونز طبقه بعيداً عنه، أبعدت يد إيمي الواهنة المترددة الباهتة الطبق وهنا كان جبين ذهبي غاضب متوج بالفراولة، لعنة الله عليّ إن أنا نظرت إليها، أقسم على ذلك، وقدم فعل ذلك فعلاً، كانت نظرتها تأتي من مكان بعيد وعلى نحو غامض خضراء وباردة مثل ماء البحر، وحول جونز عينيه عنها أولاً. استدارت نحو الكاهن وهي تتحدث بعذوبة عن الزهور. كان يتم تجاهله بأدب وأخذ يحرك معلقته بمزاج مناكد عندما ظهرت إيمي ثانية.

كانت إيمي تتصرف بعدوانية واضحة ونظرت من جونز إلى الفتاة وقالت:

- هناك سيدة تريد رؤيتك أيها العم جونز.

حرك الكاهن ملعقته بتوازن «من هي يا إيمي؟».

- لا أعرف، لم أرها من قبل أبداً، إنها تنتظر في غرفة القراء.

- هل تناولت الغداء؟ اسأليها الآن.

(إنها تعرف بأني أراقبها، فكر جونز في غضب ونشوة صبيانية).

- «إنها لا تريد أن تأكل شيئاً، قالت إنها لا تريد إزعاجك وستنتظر حتى تنتهي من تناول الغداء، من الأفضل أن تذهب وترى ما الذي تريده» قالت إيمي مجدداً.

مسح الكاهن فمه ونهض «أعتقد أن عليّ الذهاب، أنتما أيها الشابان أجلسا هنا إلى أن أعود، استدعيا إيمي إذا أردتما أي شيء».

جلس جونز في صمت متجهم الوجه، مقلباً أحد الأقداح بين أصابعه، أخيراً نظرت إلى وجهه الفظيع المحني.

- «إذن فأنت غير متزوج، بالرغم من كونك رجلاً مشهوراً» قالت.

- «إنني مشهور لأني غير متزوج» أجاب بشيء من الإبهام.

- وأنت مجامل بسبب أي منهما؟

- كما تحبين.

- حسنٌ، بصراحة إنني أفضل المجادلة.

- هل تختصين بها دائماً.

- «دائماً.. في آخر الأمر» لم يرد بشيء واستمرت هي تقول «ألا تؤمن بالزواج؟».

- «بلى، طالما لا توجد نساء في الأمر» هزت كتفيها في استهجان ولا مبالاة، لم يستطع جونز تحمل أن يبدو مغفلاً أمام أي شخص ضحل الفهم مثلما كان يعتبرها وقال بلا تفكير محاولاً تخليص نفسه من المأزق «أنا لا أحظى بإعجابك، أليس كذلك؟».

- «أوه، إنني أعجب بأي شخص يؤمن بأنه قد يكون هناك شيء لا يعرفه»، ردت بدون اهتمام.

- «ما الذي تقصدينه بذلك؟» (هل هما خضراوان أم رماديتان؟) كان جونز من أتباع نظرية ممارسة الوقاحة مع النساء، نهض ودارت المنضدة قليلاً عندما تحرك عنها، تمنى ببرود لو أنه كان أكثر لباقة. ذلك البنطلون التعيس جداً! لا يمكنك أن تلوحها فكر بنزاهة، ما الذي كنت سأفكر

فيه لو أنها ظهرت في أحد أثواب جدتها! نظر إلى شعرها الفاحم الضارب إلى الحمرة والانحدار الدقيق لكتفها (سوف أضع يدي هناك وأتركها تنزلق على ذراعها عندما تستدير).

قالت فجأة من دون أن تنظر إلى الأعلى: «ألم يخبرك العم جو بشيء عن دونالد؟» (أوه، سحقاً فكر جونز) «أليس ذلك شيء مضحك» أصدر كرسيها صريراً بفعل ركبتيها المستويتين. «لقد فكرنا معاً بالتحرك في الوقت نفسه؟» نهضت، اعترض الكرسي طريقها ببلادة، وانتصب جونز بحماقة وإحباط «خذ كرسيي وأنا سآخذ كرسيك» أضافت واستدارت حول المنضدة.

- «أيتها العاهرة» قال جونز آخذاً بثأره بصورة كاملة وباغتته عيناها الخضراوان - الزرقاوان بعذوبة كالماء.

- «ما الذي جعلك تقول ذلك؟» سألت بهدوء بعد أن استرخت مشاعر جونز إلى حد ما، تصور إنه رأى اهتماماً جديداً بادياً على ملامحها (كنت على حق، تأمل في رضا وحبور).

- إنك تعرفين لماذا قلت ذلك.

- «إنه لشيء مضحك كيف أن بعض الرجال يعرفون أن النساء يحببن أن يتكلموا معهن بتلك الطريقة» قالت مبتعدة عن صلب الموضوع.

أتساءل إن كانت تحب شخصاً ما؟ لا أعتقد ذلك - مثلما يحب النمر اللحم «لست مثل الرجال الآخرين» قال لها.

تصور إنه رأى سخرية في نظرتها الهزيلة، لكنها تثاءبت بكياسة فحسب في آخر الأمر فهو كان قد صنفها ضمن مملكة الحيوانات حورية الغابة، نحيفة مزينة بالجواهر.

- «لماذا لا يأتي جورج إليّ» قالت كما لو أنها ترد على هواجسه الدفينة، وهي تربت على فمها بأطراف أصابع مشاكسة رقيقة «أليس ذلك مملاً، أن أنتظر شخصاً ما؟».

- نعم، من هو جورج، إذا سمحت لي بالسؤال؟

ـ طبعاً، يمنك أن تسأل.

ـ حسنٌ، من هو (لا أحب هذا النوع من النساء على كل حال) لقد فهمت بأنك كنت مرتبطة بذلك الراحل المأسوف عليه.

ـ الراحل المأسوف عليه؟

ـ ذلك الذي يشبه وجه الثعلب هنري أو أوزولد أو شيء آخر.

ـ أوه، دونالد، هل تقصد دونالد؟

ـ حتماً، ليكن دونالد إذن.

نظرت إليه باهتمام (لا أستطيع حتى أن أجعلها تغضب، فكر بسخط) «هل تعرف أنك لا تطاق».

ـ «حسنٌ، هكذا أنا» أجابت بغضب: «لكني عندئذ لم أكن مخطوبة لدونالد وجورج لا يأتي لزيارتي».

ـ ما الذي يجعلك غاضباً هكذا؟ لأني لن أسمح لك بأن تضع يديك عليّ.

ـ سيدتي العزيزة لو أردت أن أضع يدي عليك لكنت قد فعلت ذلك.

ـ «نعم؟» كان الارتفاع في حدة صوتها يوحي بسخرية مهذبة مجنونة.

ـ «بالتأكيد ألا تصدقين ذلك؟» منحه صوته الشجاعة.

ـ لا أدري.. لكن ما فائدة ذلك بالنسبة إليك؟

ـ لا فائدة إطلاقاً، ذلك هو السبب في أني لا أريد ذلك.

استحوذت عليه عيناها الخضراوان ثانية. أرسلت أواني فضة قديمة موزعة فوق خزانة أدوات المائدة ظلاً ثقيلاً تحت نافذة مروحية عالية ذات زجاج ملون مماثل للزجاج الذي فوق المدخل ثوبها الأبيض الرقيق القصير عبر المائدة من جانبه، كان في وسعه أن يتخيل ساقيها الطويلتين الرقيقتين، كأنهما مضمار الركض في أتلانتا.

ـ «لماذا تكذب على نفسك؟» سألت باهتمام.

ـ للسبب نفسه الذي لديك.

ـ أنا؟

ـ طبعاً ، أنت تريدين تقبيلي ومع ذلك فإنك تتحملين كل هذا العناء المقيت من أجل ذلك.

ـ «هل تعرف» قالت متأملة «أعتقد بأني أكرهك».

ـ لاأشك في هذا ، إنني أعرف حقاً بأنني أكرهك.

تحركت في كرسيها ، تاركة الضوء ينزلق عبر كتفيها ، مطلقة سراحه ومتحولة تماماً إلى شخص آخر. «لنذهب إلى غرفة القراءة هيا بنا؟».

ـ «حسنٌ، لابد أن العم جو قد أنتهى من زائرته الآن» نهض وواجه كل منهما الآخر عبر المائدة المقطوعة ـ لم تنهض.

ـ «حسنٌ؟» قالت.

ـ «من بعدك يا سيدتي» ردَّ باحترام زائف.

ـ لقد غيرت رأيي، أعتقد بأني سأنتظر هنا وأتحدث إلى إيمي، إذا لم يكن لديك اعتراض.

ـ لماذا إيمي؟

ـ ولماذا ليس إيمي؟

ـ «آه، فهمت يمكنك أن تشعري بشيء من الأمان مع إيمي ربما هي لن تريد أن تضع يديها عليك. ذلك هو السبب، أليس كذلك؟» رمقته بنظرة سريعة «الذي تقصدينه حقاً هو أنك سوف تبقين إذا خرجت من الغرفة أليس كذلك؟».

ـ «تصرف كما تحب» أصبحت عديمة الاهتمام به، كسرت قطعة بسكويت فوق طبق وسكبت ماءً عليها من كأس. تحرك جونز ببدانة في بنطلونه المستأجر، ملتفاً حول المائدة ثانية، عندما اقترب منها استدارت قليلاً من كرسيها، مدت يدها، أحس بعظامها النحيلة في راحة يده السمينة الرطبة، بلحمها المرتجف العقيم. إنها لا تصلح لأي شيء. إنها عديمة الفائدة لكنها جميلة مع افتقارها إلى أية صفة مميزة، إنها يد جميلة، أذهله ضعفها بالذات وجعله يقف متسمراً مثل حاجز صخري.

ـ «أوه، إيمي» صاحت بصوت رخيم «تعالي إلى هنا، يا حبيبتي، لديك شيء أريه لك».

رمقتهما إيمي بنظرة مشؤومة من الباب وقال جونز بسرعة: «هلا أحضرت لي بنطلوني، يا آنسة إيمي؟».

نظرت إليهما إيمي واحداً بعد الآخر متجاهلة الطلب الباهت للفتاة (أو هو، إن إيمي لديها سمكتها لتقليها، فكر جونز) اختفت إيمي ووضع يديه على كتفي الفتاة.

ـ الآن ما الذي ستفعلين؟ تستدعين الكاهن؟

نظرت إليه من فوق كتفها من خلف حاجز يتعذر الوصول إليه. تزايد غضبه وضغطت يداه على ثوبها باستهتار.

ـ «لا تدمر ملابس، أرجوك» قالت ببرود «هنا، إذا كان لا بد من ذلك» رفعت وجهها وأحس جونز بالخجل، لكن غروره الصبياني ما كان ليدعه يتوقف الآن، التصق وجهها، بجماله ذي المستويات الضحلة الخالة من أية صفات مميزة بوجهه، كان فمها عديم الحركة ومبهماً، مذعناً وبارداً، صار وجهها الغارق في العتمة يوحي مرة أخرى بجمال ضحل يفتقر إلى ملامح مميزة، صار متجمداً ونائياً وقال جونز الخجول من نفسه والغاضب منها بتهكم ثقيل: «شكراً».

ـ «لا داعي للشكر، إذا كنت تشعر بأيةمتعة في ذلك فأنت موضوع ترحيب تماماً»، نهضت «دعني أمر أرجوك».

انحنى جانباً بفظاظة. كانت لا مبالاتها الفاترة المؤدية شيئاً لا يحتمل كم كان مغفلاً! لقد دمر كل شيء.

ـ «آنسة سوندرز» قال بلا تفكير، «أنا.. سامحني، إنني لا أتصرف عادة على ذلك النحو، أقسم بأني لست كذلك».

تكلمت من فوق كتفها «لست مضطراً لذلك، كما أعتقد؟ أتصور بأنك عادة تكون ناجحاً تماماً معنا؟».

ـ إنني أسف جداً، لكني لا ألومك.. الإنسان يكره أن يَحكُمْ على نفسه بالغباء.

بعد فترة قصيرة عندما لم يعد يسمع صوت أية حركة أخرى نظر إلى قدميه، كانتا مثل ساق زهرة أو شجرة فتية متراخية على المائدة كان ثمة شيء فيها، شيء سريع الزوال، مؤقت لأن العنف والقوة لم تكن أشياء ضرورية، إلا أن ذلك الشيء كان قوياً بالرغم من كل شيء مثلما يكون خشب الحور قوياً من خلال غياب عنصر القوة تماماً؛ كنت تعرف بأنها حية، إن وجودها الواضح المعالم الدقيق كان يزهو بضوء الشمس والعسل إلى أن يغدو الهضم عملية جميلة.. لا أرى شيئاً مثل الظل يغطيها، في مكان ما بين عينيها وفمها المشاكس الجميل، في الاسترخاء الجلي ذاته لجسدها، والذي جعله يسرع نحونا حدقت في عينيه الماكرتين الجامدتين، فيما كانت يداه تنزلقان على ذراعيها وتلتقيان عند مستدق ظهرها، ولم يكن جونز يعرف أن الباب كان قد فتح إلى أن أبعدت فمها بقوة متشنجة عن فمه وكبتت نفسها برشاقة من قبضته.

لاح شخص الكاهن عند الباب، محدقاً في الغرفة كما لو أنه لم يكن يعرفها، إنه لم يرنا أبداً، كان جونز يعرف ذلك، ثم قال بعد أن رأى وجه الكاهن: «إنه مريض».

تكلم الكاهن «سيسلي»

ـ «ما الأمر، أيها العم جو؟» ردت في رعب حاد، ذهبت إليه «ألست على ما يرام؟».

حاول الكاهن أن يوازن جسده الضخم وذلك بوضع يديه على جانبي المدخل.

ـ «سيسلي، دونالد عائد» قال.

(٣)

تسللت تلك الرائحة الكريهة الحادة، رائحة التنافر والعداء على نحو لا يمكن تفاديه نحو غرفة كانت تجلس فيها شابتان (جميلتان) تتفحص إحداهما الأخرى باهتمام باهت. كانت السيدة باورز منشغلة مؤقتاً في إنجاز مأثرة بارعة ليست مرتبطة بذاتها، ولكنها كانت وسط ناس غرباء أيضاً، فقد جعلها ذلك غير واعية وكثيرة النسيان تماماً؛ لكن سيسلي، التي لم يسبق لها أبداً أن انشغلت في عمل من أي نوع لا علاقة له بذاتها، ولأنها كانت وسط ناس تعرفهم، فقد أخذت تتفحص المرأة الأخرى عن كثب بتلك الخاصية التي تمتلكها النساء للحصول على انطباعات غريزية صائبة عن شخصية إنسان آخر، الملابس، الأخلاق، إلخ. نظر جونز إلى الزائرة بمكر بين الحين والآخر لكنه كان يعود بنظره دائماً إلى سيسلي التي تجاهلته.

مشى الكاهن بتثاقل جيئة وذهاباً «مريض؟» دوى صوته «مريض؟ لكننا سنعالجه أحضريه إلى البيت هنا حيث الطعام الجيد والراحة والعناية وسوف نجعله يتحسن خلال أسبوع، أوه سيسلي؟».

- «أوه، أيها العم جو لا أستطيع تصديق ذلك لحد الآن، إنه سليم حقاً» نهضت فيما عبر الكاهن بكرسيها وسقطت مترنحة إلى حدٍ ما بين ذراعيه، كأنها موجة رقيقة، كان ذلك شيئاً جميلاً.

- «هذا هو دواؤه، سيدة باورز» قال بكياسة بالغة، معانقاً سيسلي، متكلماً من فوق رأسها باتجاه وجه المرأة الأخرى الهادئ المحملق المتأمل في شحوب غير طبيعي، «كفى، كفى، لا تبكي» أضاف يقول، وقبلها. راقب

الحاضرون هذا، السيدة باورز باهتمام تأملي حيادي وجونز بتأمل نكر المزاج.

- «ذلك لأني فرحة للغاية - من أجلك يا عزيزي العم جو». أجابت. وتحولت إلى شخصية حلوة الشمائل كأنها ساق وردة تسنو على جذع الكاهن المتشح بالسواد «ونحن جميعاً نُدين بالفضل للسيدة - السيدة باورز» وتابعت تقول بصوتها الأجش قليلاً مثل كتلة متشابكة من الأسلاك الذهبية، «كان لطفاً جماً منها أن جاءت به إلينا» اندفعت نظرتها العجلى مارقة بجونز وخفقت كسكين باتجاه المرأة الأخرى، (المعتوهة الصغيرة اللعينة تتصور بأني حاولت إغواءه، فكرت السيدة باورز) تحركت سيسلي نحوها بحافز مدروس «هل لي أن أقبلك؟ هل تسمحين لي؟».

كان ذلك شيئاً مثل تقبيل لوح فولاذي أملس ناعم وقالت السيدة باورز بوحشية: «لا داعي لذلك، كنت سأفعل الشيء نفسه لأي شخص مريض مثله، أسود كان أو أبيض» وأنت ستفعلين ذلك، أيضاً»، أضافت تقول بخبث مقنع.

- «نعم، كان ذلك شيئاً جميلاً جداً منك» قالت سيسلي ثانية ببرود ملتبس مظهرةً ساقاً نحيلة من ذراع كرسي الزائر؛ وراقب جونز تلك الكوميديا بجمود منعزل.

- «هراء» قال الكاهن معترضاً «لقد رأته السيدة باورز منهكاً من أثر الترحال، إنني واثق تماماً من أنه سوف يكون رجلاً مختلفاً غداً».

- «آمل ذلك» أجابت السيدة باورز بضجر مفاجئ متذكرة وجهه المشوه وذلك الجبين الفظيع، جموده التام المتراخي من غير وضوح، ومعنوياته المنحطة، لقدم فات الآوان، فكرت، هل سأخبرهم عن الجرح؟ تأملت وفكرت ملياً أمنعُ انفجاراً عاطفياً عندما ترى ذلك.. هذه المخلوقة (شعرت بجسم الفتاة ملتصقاً بكتفها) لكن لا، لن أفعل، قررت ذلك وأخذت تراقب الكاهن وهو يطوف حاشياً كالأسد منتشياً بسعادته المؤقتة.. يا لي

من جبانة كان ينبغي لجو أن يأتي: ربما كان يعرف بأني لن أحسن التصرف بهذا الأمر على نحو ما.

أحضر الكاهن صورته. أخذتها: وجه نحيل يلوح عليه سكون وحشي، التغير الصافي الانفعالي للإله فون؛ وتلك الفتاة المنحنية على الفرع السندياني لذراع الكاهن، تعتقد بأنها متيمة بالفتى، أو بخياله تتظاهر بأنها كذلك على كل حال، كلا، كلا لن أكون خبيثة، ربما تكون كذلك - بقدر ما تكون قادرة على أن تحب أي شخص. ذلك شيء رومانسي تماماً، أن يسلب منك حبك وبعد ذلك يعود على نحو غير متوقع لكي يقع بين ذراعيك وأن يكون عابراً أيضاً، أي حظ يمكن أن يسعف تلك الفتاة في تمثيلها ذلك الدور المخادع، حتى الله يساعدها.. أيتها القطة، إنها جميلة، وأنت غيورة، ماذا ما دهاك، فكرت في نفسها بضجر مرير. ما الذي يجعلني غاضبة إلى هذا الحد، لماذا ألاحقه، إني مغرمة به! أوه، نعم، أنا مغرمة به! إنني أحب أن أضع رأسه المسكين المشوه على صدري ولا أدعه يستفيق ثانية أبداً، أوه، سحقاً، يا له من مأزق، ذلك الأمر كله! وذلك الإنسان البدين الكئيب هناك يلبس بنطلون شخص آخر، إنه يراقبها بعينيه الماكرتين الجامدتين.. عينان مغرمتان. أعتقد بأنها تمضي الوقت معه.

- «.. كان عمره ثمانية عشر عاماً في ذلك الوقت،» كان الكاهن يقول ذلك «لم يكن يقبل ارتداء قبعة أو ربطة عنق لم تكن والدته تستطيع إقناعه بذلك. كانت تحرص على أن يرتدي ملابسه بشكل أنيق، لكنه لم يكن ليكترث حتى وإن كانت المناسبة رسمية، كان دائم الظهور بدونها».

احتكت سيسلي بذراع الكاهن كأنها قطة «أوه، أيها العم جو، إنني أحبه كثيراً!».

وتمتم جونز الذي كان يشبه قطة سمينة أخرى، ناظراً بعينين ماكرتين تطرفان باستمرار، بعبارة مثيرة للاشمئزاز كان الكاهن غافلاً عن الكلام، وسيسلي في احتجابها الرشيق لكن السيدة باورز سمعت بعض

الكلام، رأت بعض الأشياء ونظر جونز إلى الأعلى فالتقت عيناه بنظرتها المحدقة المعادية. حاول أن يتفحصها لكن نظراتها كانت غامضة كأنها تشرحهم؛ لذلك فقد حول بصره وتلمس طريقه بحثاً عن غليونه.

بعد ذلك سمع صوت جهاز تنبيه سيارة آتٍ من الخارج، وقفزت سيسلي على قدميها.

- أوه، هناك.. هناك صديق لنا. سوف أصرفه وأعود حالاً، هلا سَمحتَ لي للحظة، أيها العم جو؟

- «إيه؟» قطع الكاهن كلامه «أوه، نعم».

- «وأنت، سيدة باورز؟» تحركت باتجاه الباب ومرت نظرتها على جونز ثانية، «وأنت سيد جونز؟».

- «جورج عنده سيارة، أليس كذلك؟» سأل جونز عندما مرت به «أراهن بأنك لن تعودي؟».

رمقته بنظرتها الباردة ومن خلف باب غرفة القراءة سمعت صوت الكاهن وهو يعيد سرد القصة.. قصة دونالد بالطبع وأنا الآن مخطوبة ثانية، فكرت وهي تشعر بالرضا عن نفسها، وتمعن النظر إلى وجه جورج في توقع لما يحصل عندما ستخبره بأن المرأة الطويلة السوداء كانت تمارس الحب معه.. أو هو معها، أعتقد أن ذلك هو ما حصل من خلال ما أعرفه عن دونالد - أوه، حسنٌ، هكذا هم الرجال، أتصور ذلك، ربما سيرغب في أن يأخذنا كلينا.. نزلت على مهل درجات السلم نحو ضوء الشمس، عانقها ضوء الشمس في لطف ومرح، كما لو أنها كانت ابنة ضوء الشمس، كم أحب أن يكون لي زوج وزوجة، أتساءل إن كنت أريد زوجاً أو أريد أن أتزوج علي.. أتصور أن الأمر يستحق المحاولة لمرة واحدة. أحب أن أرى وجه ذلك البدين الفظيع إذا ما تمكن من أن يسمعني أقول ذلك، فكرت. أتساءل لماذا سمحت له بتقبيلي؟ يا له من شيء مقرف!

حنى جورج رأسه ودخل سيارته وهو يراقب خطواتها المكبلة المتهادية

بشهوة خافقة «هيا، هيا» صاح.

لم تزد سرعة مشيتها أبداً، فتح الباب على مصراعيه، لم يكلف نفسه عناء النزول بنفسه «رباه، ما الذي أخرك كثيراً؟» سأل بصوت كئيب «ليلعنني الله لو كنت قد فكرت بأنك ستأتينحتى».

- «أنا لست آتية» قالت له، وضعت يدها على الباب كان ثوبها الأبيض يبدو في شمس الصباح متوهجاً بألق لا تحتمله العين انزلق على قامتها القصيرة الباهتة المرنة. ومن ورائها، عبر الأرض المعشوشبة، كانت ثمة إيماءة مرنة أخرى بالرغم من أن هذه كانت مجرد شجرة، شجرة موز.

- هه؟

- أنا لست آتية، خطيبي سيصل اليوم.

- ليذهب إلى الجحيم، اصعدي.

- «دونالد سيأتي اليوم» قالت ثانية وهي تتفحصه. كان وجهه يبدو مضحكاً، فارغاً أجوف مثل طبق، ثم صعق في ذهول بطيء.

- «ماذا، إنه ميت» قالت له بعذوبة «لقد جاءت سيرة صديقة له كان يسافر معها إلى هنا وأخبرتنا، لقد أصبح العم جو كالمنطاد».

- آه، هيا، يا سيسلي، إنك تمزحين معي.

- اقسم بأني لا أمزح، إنني أقول لك الحقيقة.

انتصب وجهه الأملس الخالي من أي تعبير أمامها كأنه قمر تبدو عليه الوسامة لكنه فارغ كوعد خائب، ثم امتلأ بتعبير من نوع ما.

- سحقاً، لديك موعد معي الليلة ما الذي ستفعلينه بشأن ذلك؟

- وما الذي يمكنني عمله؟ دونالد سيكون هنا في هذه الأثناء.

- إذن لقد أنتهى كل شيء بيننا؟

حدقته فيه، ثم نظرت بعيداً بسرعة، إنه لشيء مضحك حقاً كيف يتمكن شخص غريب من المجيء إليها بخبر قرب رواية دونالد، عودته أحنت رأسها في صمت، وقد بدأت تشعر بالتعاسة والضياع.

مدّ يده من السيارة وأمسك بيدها «اصعدي إلى هنا» قال بلهجة آمرة.

ـ «كلا، كلا، لا أستطيع» اعترضت محاولة التراجع لكنه أمسك برسغها، «كلا، كلا، دعني أذهب، إنك تؤلمني».

ـ «أعرف ذلك» أجاب بصوت مقيت «اصعدي».

ـ لا تفعل ذلك يا جورج، لا تفعل! يجب أن أعود.

ـ حسنٌ، متى أستطيع أن أراك؟

ارتعش فمها «أوه، لست أدري، أرجوك يا جورج، ألا ترى كم أنا تعيسة؟» أصبحت عيناها مزرقتين، داكنتين، وجعل ضوء الشمس حركة جسدها الملتوي أكثر جرأة، وكذلك ذراعها النحيلة المتوترة «أرجوك، يا جورج».

ـ هل ستصعدين أم تريدين مني أن أحملك وأضعك في السيارة؟

ـ سوف أصرخ حالاً، الأفضل لك أن تدعني أذهب.

ـ أوه، اللعنة، لماذا يا حلوتي، لم أقصد أن أتصرف على هذا النحو، فقط أردت رؤيتك يجب أن نرى بعضنا، إلا إذا كان كل شيء سينتهي بيننا، هيا تعالي، لقد كنت طيباً معك طول الوقت.

تراخت حركتها قليلاً «حسنٌ، لكن لنذهب فقط حول قطاع المباني هذا إذن، ينبغي عليّ أن أعود إليهم بسرعة» رفعت إحدى قدميها ووضعتها على عتبة السيارة «هل تعدني بذلك؟» قالت بإصرار.

ـ «طبعاً، نذهب حول هذا القطاع إذن، لن أهرب بك إذا كنت لا تريدين ذلك».

صعدت وعندما تحركت بهما السيارة نظرت إلى المنزل على عجل كان هناك وجه يبدو من النافذة، وجه مستدير الملامح.

(٤)

تحرك جورج من الشارع وانعطف نحو زقاق هادئ محاط بأشجار، بين جدران مغطاة بشجيرات أزهار. أوقف السيارة وقالت بسرعة:

ـ كلا، كلا، يا جورج! تحرك من هنا.

لكنه أطفأ المحرك «أرجوك» قالت ثانية، استدار في مقعده.

ـ سيسلي، إنك تمزحين معي، أليس كذلك؟

شغلت المحرك وحاولت الوصول إلى دواسة البنزين بقدمها أمسك بيديها، ضمها إليه «انظري إلي».

أصبحت عيناها كئيبتين وهما تتوقعان شراً وشيكاً.

ـ إنك تمزحين معي، أليس كذلك؟

ـ «لست أدري، أوه، جورج لقد حصل كل ذلك فجأة! لا أعرف ما الذي يمكن أن أفكر به، عندما كنا هناك نتحدث عنه بدا كل شيء رائعاً جداً أن يعود دونالد، على الرغم من وجود تلك المرأة التي معه، وأن أكون مخطوبة لرجل سيغدو شهيراً عندما يصل إلى هنا.. أوه، لقد بدا لي في ذلك الوقت أنني أحبه فعلاً، كان ذلك هو الشيء الذي ينبغي لي القيام به لكني الآن أنا لست مستعدة للزواج. ولقد مضى عليه وقت طويل وهو غائب، وأن أستأنف علاقتي معه على الرغم من وجود امرأة أخرى، إنه في طريقه إليّ.. لست أدري ما الذي أفعله. أشعر أنني.. سأبكي». توقفت عن الكلام فجأة وضعت ذراعها الملتوية على ظهر المقعد وأخفت وجهها في مرفقها. وضع ذراعه حول كتفيها وحاول سحبها إليه، رفعت يديها بينهما وقد جعلت ذراعيها في وضع مستقيم.

كلا، كلا، أرجعني.

- لكن، سيسلي..

- يجب ألا تفعل ذلك! ألا تعرف بأني مخطوبة وسأتزوج؟ ربما سيريد الزواج غداً وسأضطر لفعل ذلك.

- لكن لا يمكنك عمل ذلك، إنك لا تحبينه.

- لكني مضطرة، أقول لك!

- هل تحبينه؟

- ارجعني إلى منزل العم جو، أرجوك.

كان هو الأقوى فقد جذبها قربه، حتى أحس بعظامها الصغيرة، بجسمها اللدن المتشنج تحت ثوبها «هل تحبينه؟» قال ثانية.

خبأت وجهها في معطفه.

- «انظري إليّ» رفضت أن ترفع وجهها ودسَّ يده تحت ذقنها، رفع وجهها «تحبينه؟».

- «نعم، نعم» قالت بضراوة وهي تحدق فيه «أرجعني!».

- إنك تكذبين، لن تتزوجي منه.

كانت تنتحب «بلى، سأتزوجه إنني مضطرة لذلك، إنه توقع ذلك والعم جو يتوقع ذلك أيضاً، ينبغي عليّ، أقول لك».

- «حبيبتي، لا يمكنك ذلك، ألست تحبينني! تعرفين أنك تحبينني، لا يمكن الزواج منه» توقفت عن المقاومة وارتمت عليه وهي تنتحب «هيا قولي بأنك لن تتزوجي منه».

- «جورج، لا أستطيع» قالت بجزع «ألا تفهم بأني مضطرة للزواج منه؟».

التصق أحدهما بالآخر، شابين تعيسين. تراخى المساء الهادئ النعسان حولهما في الزقاق الخالي من المارة، وحتى العصافير بدت نعسانة ومن برج الكنيسة كانت الحمائم تبدو نائية ومملة المنظر غير ملفتة للنظر مثل النوم، رفعت وجهها.

- قبلني، يا جورج.

تذرف الدموع، كان وجهاهما يتلامسان ببرودة، سحبت رأسها إلى الوراء متفحصة وجهه «تلك هي المرة الأخيرة، يا جورج».

ـ «كلا، كلا» قال معترضاً، مشدداً ذراعيه، قاومت للحظة ثم قبلته بانفعال.

ـ حبيبتي!

ـ حبيبي!

اعتدلت في جلستها، مسحت عينيها بمنديله، «كفى! أشعر بأني أفضل الآن، خذني إلى البيت، يا سيدي الحنون».

ـ «لكن، يا سيسلي» قال معترضاً وهو يحاول معانقتها من جديد، لكنها أبعدته ببرود.

ـ لن تفعل شيئاً من هذا بعد الآن أبداً، خذني إلى البيت مثل ولد لطيف.

ـ لكن، يا سيسلي..

ـ هل تريدني أن أنزل وأذهب مشياً؟ يمكنني ذلك، أنت تعرف، المكان ليس ببعيد.

شغل المحرك وساق السيارة في أسى شبابي كئيب، أخذت تسوي شعرها، توهجت أصابعها فيه بخفة، وانعطف نحو الشارع ثانية عندما نزلت عند البوابة قام بمحاولة أخيرة يائسة.

ـ سيسلي، بحق السماء!

نظرت من فوق كتفها إلى وجهه الحزين «لا تكن سخيفاً، يا جورج بالطبع سوف أراك ثانية، إنني لست متزوجة... لحد الآن».

كان ثوبها الأبيض في الشمس قد تحول إلى وميض لا يطاق وهو ينزلق مع حركة جسدها وعبرت من ضوء الشمس إلى الظل، مرتقبة الدرجات عند الباب استدارت رشقته بابتسامة، ولوحت بيدها، ثم خفت بريق ثوبها الأبيض خلف نافذة مروحية ذات لون باهت معتم بتقادم الزمن وفاتن مع افتقاره للتنظيف، تاركة جورج يحدق في جوف المنزل الفارغ في أمل ويأس ولهفة.

(٥)

رآهما جونز من مكانه قرب النافذة يبتعدان، كان وجهه المستدير مبهماً كرأس إله، لم تظهر عيناه الفاحشتان الصاخبتان أية عاطفة، إنك طيب، إنك كذلك فعلاً، فكر في إعجاب حقود، عليك مخادع، أنا أتنازل عنها لك، كان ما يزال مستغرقاً في التفكير بها عندما كانت المرأة الخبيثة ذات الشعر الأسود تقاطع ذكريات الكاهن التي لا تنتهي عن فترة صبا وشباب ابنه، واقترحت شيئاً وقالت بأن الوقت قد حان للذهاب إلى المحطة.

صار الكاهن على علم بغياب سيسلي، التي كانت في تلك اللحظة جالسة في سيارة واقفة في زقاق مظلم، تبكي على كتف رجل لم يكتب اسمه دونالد. كان جونز وهو الشخص الوحيد الذي لاحظ الطريقة التي ذهب بها، لسبب ما لم يتمكن من معرفة كنهه بوثوق مرتبك التفكير غير واضح الملامح. ذكر الكاهن في جزءٍ أن سيسلي التي كانت في تلك اللحظة تقبل رجلاً لم يكن اسمه دونالد، ما كان ينبغي عليها الذهاب في ذلك الوقت، لكن المرأة الأخرى (أراهن بأنها كانت خبيثة كالجحيم، هكذا فكر جونز) قاطعته ثانية، قائلة إنه من الأفضل عمل ذلك.

- «لكن كان ينبغي عليها الذهاب إلى المحطة لتلتقي به» قال الكاهن بانزعاج.

- كلا، كلا، تذكر بأنه مريض، كلما قلت الإثارة كلما كان ذلك أفضل له، وإلى جانب ذلك فمن الأفضل لهما أن يلتقيا لوحدهما.

- آه، نعم، ذلك صحيح تماماً، صحيح تماماً، اعتمد على امرأة في مثل

هذه الأمور، يا سيد جونز، ولذلك السبب فربما يكون من الأفضل لك أن تنتظر أيضاً ألا تعتقد ذلك؟

ـ إنني موافق على ذلك، يا سيدتي، سوف أنتظر وأقول للآنسة سوندرز لماذا ذهبت بدونها، ستكون متلهفة بلا شك لمعرفة ذلك.

بعد أن وصلت سيارة الأجرة وذهبا، عبأ غليونه وكان ما يزال واقفاً بمزاج عصبي نكد، تجول في أرجاء الغرفة بلا خوف حدق من خلال النوافذ باضطراب، نافخاً دخان غليونه؛ ثم توقف لكي يدس عود ثقاب مطفأ تحت السجادة بإصبع قدمه، واتجه من فوره نحو مكتب الكاهن. فتح درجين وأغلقهما قبل أن يعثر على الدرج المقصود.

كانت الزجاجة تربض هناك سوداء وعليها علامة تعكس الضوء على نحو بهيج. أعادها إلى مكانها، فرك فمه بظهر يده. وفي الوقت المناسب تماماً أيضاً لأن خطواتها السريعة الواهنة اجتازت الشرفة وسمع صوت سيارة تتراجع.

كان منظر الباب يؤطر دهشتها الخفيفة. قالت «أوه، أين الآخرون».

ـ «ما الأمر؟ لديه إطار مثقوب؟» قال جونز في هجوم مقابل بشكل بذيء. حومت عيناها كالطيور، وتابع يقول: «الآخرون؟ لقد ذهبوا إلى المحطة، محطة السكة الحديدية. تعرفين: حيث تنقل القطارات ابن الكاهن أو شيء مثل هذا سيعود هذا المساء، إنها أخبار طيبة، أليس كذلك؟ لكن ألا تدخلين؟».

دخلت بتردد وهي تراقبه.

ـ أوه، هيا ادخلي، أيتها الأخت، لن أؤذيك.

ـ لكن لماذا لم ينتظروني؟

ـ لقد اعتقدوا بأنك لا تريدين الذهاب، أتصور ذلك، ألم تكوني قد تركت ذلك الانطباع؟

وسط صمت المنزل كان هناك صوت ساعة يتردد مثل تنفس منتظم،

وكان صوت إيمي مسموعاً بخفوت في مكان ما ، هذه الأصوات أعادت إليها الثقة ومشت خطوات قليلة نحو الداخل «رأيتني ذاهبة ، ألم تخبرهم أين كنت؟».

ـ أخبرتهم بأنك ذهبت إلى الحمام.

نظرت إليه في فضول، وعرفت بطريقة ما أنه لم يكن يكذب، «ولماذا فعلت ذلك؟».

ـ إنه شيء يخصك فيما يتعلق بالمكان الذي تذهبين إليه، وليس ذلك من شأني، إذا أردت منهم أن يعرفوا فكان ينبغي عليك إخبارهم بنفسك.

جلست في توجس واحتراس «إنك رجل من نوع يدعو للضحك، ألست كذلك؟».

تحرك جونز من غير قصد في غير اتجاه محدد «مضحك إلى أي حد؟».

نهضت، «أوه، لا أعرف بالضبط.. إنني لا أحظى بإعجابك ومع ذلك فقد كذبت من أجلي».

ـ سحقاً ، إنك لا تقصدين بأني أهتم بالكذب، أليس كذلك؟ قالت متأملة:

ـ «إنني لن أئتمنك على شيء.. إذا كنت تعتقد بأنه في وسعك استغلاله في المزاح..» تفحصت عينيه وتحركت باتجاه الباب.

قيد البنطلون حركتها لكن وبالرغم من ذلك فقد كانت خفتها تدعو للذهول، وكانت منتبهة وأضفت عليها رشاقتها المدروسة سيطرة وسرعة عضلية، ولذلك فقد كان ما لمسه لوحاً خشبياً صقيلاً ناعماً ، غاب ثوبها عن النظر، وسمع صوت مفتاح، وضحكتها المكتومة الساخرة.

ـ «ليلعنك الله» تكلم في عاطفة هادئة ونبرة غامضة، «افتحي الباب؟».

كان الخشب ناعماً وغامض المعالم، مقيداً للحركة، معترضاً طريقه بأعماقه الصقلية التي ارتسمت عليها الصورة الضبابية لوجهه الأبيض السجين، حبس تنفسه ولم يسمع شيئاً بعد ذلك سوى صوت ساعة في مكان ما.

- «افتحي الباب» قال ثانية، لكن لم يكن ثمة صوت، هل ذهبت أم لا؟ تساءل مشنفاً أذنيه، انحنى على صورته (النرجسية)(*) الضخمة ببدلته التويدية المرسومة على الخشب الثقيل فكر، في النوافذ ومشى بهدوء مجتازاً الغرفة، وجد نسيجاً ثابتاً في الأسلاك المعدنية. عاد إلى وسط الغرفة من دون أن يحاول كتم خطواته ووقف وهو يشعر بغضب متصاعد لعنها بتمهل ثم رأى مقبض الباب يتحرك.

قفز نحو الباب «افتحي الباب، أيتها العاهرة الصغيرة، وإلا سوف أحطم نسيج النوافذ».

طقطق المفتاح وجذب الباب بقوة فانفتح على اليمين وبنطلونه فوق ذراعها، واجهته بعينيها الخائفتين المعاديتين.

- «أنت..» بدأ جونز بالكلام، مشت بعيداً عن الظلال، وأحنت رأسها احتراماً مثل زهرة تعبث على السخرية.

- «كش مات، سيد جونز» جونز شبح الكاهن بصوته العالي وكأنه نغم يصدر من مزمار «هل تعرف..».

- «نعم» قالت سيسلي بسرعة وهي تمسك بذراع إيمي «لكن أخبرنا بذلك في الشرفة» سارت أمامهم وتبعهم جونز وهو يخفي إعجاباً على مضض، جلست هي وإيمي الصامتة المشؤومة التي سبقته على أرجوحة الشرفة، بينما كان ضوء المساء يبحث له عن فرجات ينفذ من خلالها في شجيرات الوستارية الأرجوانية بأزهارها المبكرة، كان ضوء المساء يتدفق فوقهما، وينحسر وهما تتأرجحان؛ وكانت أطراف سيقانهما الحريرية والقطنية على التعاقب يسقط عليها ضوء الشمس ثم يختفي في ضربات سطحية متعاقبة.

- «اجلس سيد جونز» تابعت كلامها في عاطفة محمومة «أخبرنا عن

(*) Narcissus (نرسيسوس) شاب جميل تزعم الأسطورة الإغريقية أنه افتتن بجمال صورته في الماء فذوى جسده وتحول إلى نرجسة.

نفسك، إننا متشوقتان إلى ذلك، ألسنا كذلك، يا عزيزتي إيمي؟» كانت إيمي منتبهة لكنها خرساء، كأنها حيوان «إن إيمي يا عزيزي السيد جونز، كان قد فاتها سماع حديثك كله وهي معجبة بك مثلنا جميعاً.. إننا ببساطة لا نستطيع مقاومة ذلك، يا سيد جونز.. إنها متلهفة بطبيعتها إلى أن تضع زينتها استعداداً لتلك المناسبة».

وضع جونز عود ثقاب بين راحتي يديه وكان هناك شعلتان صغيرتان تنعكسان في عينيه، تتقافزان وتضمحلان إلى نقطتين صغيرتين مثل رأس الدبوس.

- إنك صامت، سيد جونز؟ إيمي وأنا نحب معاً أن نسمع بعض الأشياء الأخرى التي كنت قد عرفتها عنا من خلال تجربتك الغرامية الواسعة، أليس كذلك، يا حبيبتي إيمي؟

- «كلا، لن أفسد المفاجأة عليكما» أجاب جونز بخبث «إنك على وشك معرفة بعض المعلومات المباشرة بنفسك، وبالنسبة للآنسة إيمي، سوف أعلمها في وقت لاحق بيني وبينها».

استمرت إيمي في تفحصه بارتياب شديد على نحو بغيضٍ أبكم.

قالت سيسلي: «بصورة مباشرة؟».

- ألست ستتزوجين غداً؟ يمكنك التعلم من أوزوالد. لابد أنه قادر على تلقينك، وهو كما يبدو قد سافر مع رفيقة محنكة لقد وقعت في الشرك أخيراً أليس كذلك؟

ارتعشت، بدت ضعيفة جداً، وفي حاجة ماسة لشخص يعتني بها، بحيث أن جونز وقد استرد رجولته وأصبح رقيق العاطفة أحس ثانية بشهوانية حمقاء، أشعل غليونه ثانية وقالت إيمي التي اقنعت نفسها أخيراً بالقدرة على الكلام:

- ها قد جاؤوا.

كانت سيارة أجرة قد اقتربت من البوابة، وقفزت سيسلي على

قدميها، وركضت عبر الشرفة نحو درجات السلم، نهض جونز وإيمي ثم اختفت إيمي في مكان ما بينما نزل أربعة أشخاص من السيارة، إذن فذلك هو، فكر جونز في ذهنه المشوش، تبع سيسلي، راقبها وهي تقف بلا حراك على الدرجة العليا مثل طائر، وقد وضعت يدها على صدرها، ثق بها!

نظر ثانية إلى الجماعة وهم يمرون خلال البوابة، كان الكاهن يبدو للعيان فوقهم جميعاً، كان هناك شيء ما قد تغير في الكاهن، بدا أن الزمن قد باغته فجأة، ولم يقاوم، داهمه مثل قاطع طريق، إنه حتماً مريض، قال جونز لنفسه، تركت المرأة، تلك السيدة التي لا يعرف اسمها، الجماعة وأسرعت الخطى إلى الأمام، ارتقت درجات السلم نحو سيسلي.

- «تعالي يا حبيبتي» قالت وهي تأخذ ذراع الفتاة «تعالي إلى الداخل، إنه ليس على ما يرام، والضوء يؤذي عينيه، ادخلي والتقي به هناك، ألا تفضلين هذا؟».

- كلا، كلا هنا، لقد أنتظرته زمناً طويلاً.

كانت المرأة الأخرى لطيفة لكن عنيدة، وقادت الفتاة نحو المنزل. صاحت سيسلي بدون وعي وقد ارتد رأسها إلى الوراء: «أيها العم جو! وجهه! هل هو مريض؟».

كان وجه الكاهن يبدو كئيباً وخامداً كأنه ثلج ملوث، وعند الدرجات تعثر قليلاً ووثب جونز إلى أمام، أمسك بذراعه «شكراً، يا رفيق» قال الرجل الثالث الذي يرتدي زي جندي، والذي كان يضع يده تحت مرفق ماهون، صعدوا الدرجات واجتازوا الشرفة مارين من تحت النافذة المروحية، باتجاه الصالة المظلمة.

- «انزع غطاء رأسك، أيها الملازم» تمتم الرجل المجند، رفع الآخر غطاء الرأس وناوله إياه، سمعوا وقع خطوات سريعة تجتاز إحدى الغرف وانفتح باب غرفة القراءة سامحاً بتسرب طوفان من الضوء سقط عليهم، وصاحت سيسلي:

ـ «دونالد! دونالد! إنها تقول بأن وجهك مصا... أوووه!» وتوقفت عن الصراخ بعدما رأته.

أضفى عليها الضوء الذي مر من خلال شعرها الناعم هالة نورانية وأحيط ثوبها الرقيق بسحابة ضوئية باهتة تخللت جسدها النحيل فأصبحت مثل شجرة حور مهترئة، تحركت السيدة باورز بسرعة وأمسكت بها، لكن ليس قبل أن يصطدم رأسها بعضادة الباب.

الفصل الثالث

(١)

قالت السيدة سوندرز «اخرج الآن، دع أختك وحدها» كان الفتى روبرت سوندرز مغتاظاً لكنه مع ذلك متفائل، اشترك ثانية في تلك المعركة القديمة بين الوالدة وطفلها، مفعماً بالأمل على الرغم من اندحار مستديم في الماضي.

ـ لكن ألا أستطيع أن أطرح عليها سؤالاً مهذباً؟ فقط أريد أن أعرف ما هذا الجرح الذي..

ـ تعال الآن.. تعال مع ماما.

ـ لكني فقط أريد أن أعرف ما هذا الجر..

ـ روبرت.

ـ «لكن ماما» حاول القول ثانية وهو يائس، دفعته أمه بقوة إلى داخل الباب.

ـ اركض نحو الحديقة وقل لأبيك أن يأتي إلى هنا، اذهب الآن.

غادر الغرفة بسخط لكن أمه كانت ستصعق لو أنها تمكنت من قراءة أفكاره، كانت شخصاً مختلفاً تماماً. إنهن جميعاً متشابهات، خمن ذلك بتبجح مثلما فعل الكثير من الرجال قبله ومثلما سيفعل الكثيرون بعده. لم يكن ينوي إيذاء القطة العجوز المرعوبة.

استلقت سيسلي بعد أن تحررت من ملابسها، وهي مسحوقة وحزينة تحت أغطية كتانية معتدلة البرودة، يحيط بها مزيج من روائح الكولونيا والنشادر، وقد غطت وجهها النحيل بمنشفة، سحبت أمها كرسياً إلى جنب السرير وأخذت تتفحص وجه ابنتها الجميل الرقيق الملامح، وانسدال أهداب

عينيها على خدها الشاحب، وذراعيها الممدودتين في موازاة جسدها تحت الأغطية، ومعصميها الدقيقين بأوردتهما الزرقاء، ويديها الطويلتين النحيلتين المسترخيتين، وراحتيهما المتجهتين إلى الأعلى بجانبها، بعد كل ذلك نال الفتى روبرت سوندرز انتقامه، لكن من دون أن يعي ذلك.

ـ حبيبتي، كيف كان يبدو وجهه؟

ارتجفت سيسلي، أدارت رأسها على الوسادة «أوه ه ه ه، لا، لا ماما! لا أ.. أستطيع أن أتحمل التفكير في ذلك» (لكني فقط أريد أن أسألك سؤالاً مهذباً) «لا بأس، لا بأس، لن نتحدث في ذلك إلى أن تشعري بالتحسن».

ـ لن نتحدث في ذلك أبداً، أبداً إذا كنت سأراه ثانية فسوف.. فسوف أموت حتماً، لا أستطيع التحمل، لا أستطيع التحمل.

كانت تنتحب ثانية بصدق كأنها طفل، حتى أنها لم تخف وجهها، نهضت أمها وانحنت فوقها «لا بأس، لا بأس، لا تعودي إلى البكاء، سوف تمرضين» مسدت برقة على شعر ابنتها من صدغها، وأعادت المنشفة إلى وضعها، ثم انحنت وقبلت خد ابنتها الشاحب «ماما آسفة، يا صغيرتي، حاولي أن تنامي، هل أجلب صينية عند العشاء؟»

ـ كلا، لا أستطيع الأكل، فقط دعيني أستلقي هنا وحدي وسأشعر بالتحسن.

تريثت المرأة الأكبر سناً في مكانها، لم تزل فضولية بعد (فقط أريد أن أسألها سؤالاً مهذباً) ورن جرس الهاتف فانسحبت بعد تربيتة عقيمة أخيرة على الوسادة.

رفعت السماعة، وانتبهت إلى زوجها وهو يوصد بوابة الحديقة خلفه.

ـ نعم؟ سيدة سوندرز.. أوه، جورج؟.. في صحة جيدة، تماماً، أشكرك، كيف حالك.. كلا، أخشى ألا يكون ذلك ممكناً.. ماذا؟.. نعم، لكنها ليست على ما يرام.. فيما بعد، ربما... ليس في هذه الليلة، اتصل بها غداً.. نعم، نعم، جيدة جداً، أشكرك. وداعاً.

اجتازت الصالة الباردة المظلمة متجهة نحو الشرفة تاركة جسدها المشدود الخصر يغطس محدثاً صريراً في كرسي هزاز، فيما ارتقى زوجها الدرجات حاملاً غصن نعناع مع قبته.

- «توبي!» قال بصوت عميق، وسحب كرسياً قريباً من زوجته.

- «حسنٌ، يا روبرت» بدأت الكلام بحيوية «لقد عاد دونالد ماهون اليوم».

- أعادت الحكومة جثته، أليس كذلك؟

- كلا، لقد عاد بنفسه، لقد وصل بالقطار هذا المساء.

إيه؟ ماذا تقول؟ لكنه توفي.

- «لكنه لم يتوفَّ، كانت سيسلي هناك وقد رأته. لقد أتى بها شاب غريب بدين إلى البيت في سيارة أجرة.. كانت منهارة تماماً. قالت شيئاً ما عن جرح أصيب به، لقد أغمي عليها، تلك الطفلة المسكينة، لقد جعلتها تذهب إلى الفراش فوراً. لم أعرف أبداً من عساه يكون ذلك الشاب الغريب». أنهت كلامها بعصبية واهتياج.

ظهر توبي وقد ارتدى سترة بيضاء وكان يحمل سلطانية فيها ثلج، سكر، ماء، وزجاجة. وجلس السيد سوندرز وهو يحدق في زوجته «حقاً، يا للعجب» قال أخيراً، ثم أضاف ثانية «يا للعجب».

تأرجحت زوجته وهي تشعر بالرضا عن الأخبار التي جاءت بها. وبعد فترة قصيرة انتفض السيد سوندرز كأنما استفاق من غيبوبته التي كان فيها، أخذ يسحق غصن النعناع الذي يحمله بين أصابعه وتناول مكعب ثلج وفرك النعناع عليه، ثم أسقط كليهما في قدح طويل، بعد ذلك سكب ملعقة سكر في القدح وصب الويسكي في الزجاجة ببطء، وحركه ببطء أيضاً وهو يحدق بزوجته «يا للعجب» قال للمرة الثالثة.

ملأ توبي الكأس من زجاجة ماء ثم انسحب.

- إذن فقد عاد، حسنٌ، حسنٌ، إنني أشعر بالسعادة بدلاً من الكاهن،

إنه رجل جدير بالاحترام حقاً.

ـ لابد أنك نسيت ما الذي يعنيه ذلك.

ـ ماذا؟

ـ بالنسبة إلينا.

ـ بالنسبة إلينا؟

ـ سيسلي كان مخطوبة له، أنت تعرف ذلك.

تناول السيد سوندرز رشفة، ووضع كأسه على الأرض بالقرب منه، وأشعل سيكاراً، «حسنٌ» لقد أعطينا موافقتنا، أليس كذلك؟ لن أتراجع الآن» ثم خطرت له فكرة «هل مازالت سيسلي تريده؟».

ـ لا أعتقد أن ذلك شيء جيد، لم أرغب في كل ذلك بتاتاً.

ـ هل تلقي اللوم عليّ؟ هل تعتقد بأنني أجبرتها على ذلك؟

قال السيد سوندرز ببرود من خلال تجربته الطويلة: «إنها لم تبلغ سن الزواج بعد».

ـ هراء، وكم كان عمري عندما تزوجنا؟

رفع كأسه ثانية «يبدو لي أنك أنت من يصر على هذا الأمر» حدقت به السيدة سوندرز وهي تتأرجح، كان قد اطلع على غبائِه «لماذا تتصورين أن ذلك ليس بالشيء الجيد إذن؟».

ـ «أعترف، يا روبرت، أنني أحياناً..» تنهدت وبعد ذلك ومثلما يوضح المرء شيئاً لطفل بسبب غبائِه قالت بسخط حنون: «حسنٌ، إن الخطوبة في زمن الحرب، والخطوبة في زمن السلم شيئان مختلفان، حقاً، لست أفهم كيف يمكنه أن يتوقع منها الالتزام بذلك».

ـ الآن انظري، ميني، إذا كان قد ذهب إلى الحرب وهو يتوقع منها أن تنتظره ثم عاد وهو يتوقع منها أن تقبل به، فليس ثمة أي شيء آخر يمكنهما فعله، وإذا كانت ما تزال تريد ذلك فلا تحاولي إقناعها بعكس ذلك، أتسمعين؟

ـ هل ستجبر ابنتك على الزواج؟ لقد قلتِ بنفسك قبل قليل إنها ما زالت صغيرة.

ـ «تذكري، لقد قلت إذا كانت ما تزال تريد ذلك، بالمناسبة هو ليس أعرجَ أو مصاباً إصابة بليغة، أليس كذلك؟» تساءل على عجل.

ـ لست أدري، لقد بكت سيسلي عندما حاولتُ معرفة ذلك منها.

ـ «إن سيسلي غبية، أحياناً، لكن لا تتصرف معها بطريقة سخيفة الآن» رفع كأسه وتناول جرعة طويلة، ثم نفث دخان سيكاره بغضب إلى الأمام.

ـ «أعترف، يا روبرت، إني لا أفهمك في بعض الأحيان، فكرة إجبارك لابنتك على الزواج من رجل لا يملك شيئاً وربما يكون نصف ميت أيضاً، وربما لن يكون قادراً على العمل على كل حال. إنك تعرف بنفسك ما هو حال هؤلاء الجنود السابقين.

ـ أنت من يريد منها أن تتزوج، لست أنا، ممن تريدين منها أن تتزوج إذن؟

ـ حسنٌ، هناك الدكتور جاري، إنه معجب بها، وهاريسون وموريز في أتلانتا، سيسلي معجبة به، أتصور ذلك.

أطلق السيد سوندرز صوتاً كالشخير معبراً عن ازدرائه على نحو فظ «من؟ موريز ذاك؟ لن أسمح لذلك الشخص اللعين بالمجيء إلى هنا أبداً، بشعره الصقيل وأعقاب سكائره التي تنتشر في أرجاء المكان، من الأفضل لك اختيار شخص آخر».

ـ إنني لا أختار أي شخص، فقط لا أريد منك أن تجبرها على الزواج من ماهون ذاك.

ـ إنني لا أجبرها أؤكد لك، لقد جعلتني أتعلم منذ زمن أنه من الأفضل عدم محاولة إجبار امرأة على عمل أي شيء لكني لا أنوي التدخل إذا كانت فعلاً تريد الزواج من ماهون.

جلسـت وهـي تتـأرجح فيمـا انتهـى هـو مـن شـرب الجـلاب(*) وأصـبحت أشـجار السـنديان في المـرج سـاكنة مـع حلـول الغسـق، وكانـت أغصـان الأشجار عديمة الحركة كأنها قامات المرجان في أعماق البحار. تردد نقيق ضـفدع الأشـجار علـى نحـو رتيـب وكـان الجانـب الغربـي مـن المكـان أشـبه ببحيرة خضراء واسعة، ساكنة كالأبدية، ظهر توبي بهدوء «العشاء جاهز، آنسة ميني»

تقوس السيكار بتوهج داخل مزهر نبات الفتاة العريض الأوراق ونهضا معاً.

- أين بوب، يا توبي؟

- لا أعرف، لقد رأيته في الحديقة قبل فترة قصيرة، لكني لا أراه هناك الآن.

- انظر إذا كان في وسعك العثور عليه. وقل له أن يغسل وجهه ويديه.

- «نعم سيدتي» أمسـك البـاب لهمـا وولجـا إلى المنـزل، تـاركين حمـرة الشفق خلفهما تمتزج بصوت توبي الرخيم وهو ينادي عبر الغسق.

(*) الجلاب: شراب مسكر يعد من البراندي أو الويسكي مع شيء من السكر والثلج والنعناع.

(٢)

لكن الفتى روبرت سوندرز لم يتمكن من سماعه، كان في تلك اللحظة يتسلق سياج ألواح عالية قطع حمرة الغسق من فوق رأسه، وأخيراً أفلح في ذلك وانزلق إلى الأسفل بعد أن أبدى بنطلونه شيئاً من المقاومة، ثم عاد ليبدي نوعاً من المناورة، فتشبث به بإلحاح فتحرر وسمع صوت تمزق انبطح على الأعشاب الندية وهو يشعر بألم طفيف في مؤخرته الغضَّة، وقال: اللعنة، حرك قدميه إلى الخلف وباعد بين ساقيه محاولاً أن يرى ما الذي حدث.

أليس ذلك شيئاً لعيناً، خاطب الشفق، إنني تعيس الحظ حقاً، إنها غلطتك أنت أيضاً، لعدم إخباري بذلك، هكذا كان يفكر محرزاً بذلك انتقاماً نيابة عن كل الأخوات في الدنيا، التقط الشيء الذي كان قد سقط منه لدى وقوعه، واجتاز حديقة الأبرشية عبر الندى متجهاً صوب المنزل. كان ثمة ضوء في غرفة عليا لم تكن قد شغلت حتى ذلك الوقت وغطس قلبه في أعماقه، كان قد ذهب إلى الفراش في هذا الوقت المبكر؟ ثم أبصر ظلال أقدام على درابزين الشرفة وجمرة سيكارة متوهجة، تنهد بارتياح لابد أنه هو.

ارتقى الدرجات، قال: «مرحبا دونالد».

- «مرحباً أيها العقيد» أجاب الشخص الذي كان يجلس هناك، اقترب وميز ملابس جندي، ذلك هو. الآن سوف أرى، فكّر بجذل، أشعل بحركة مفاجئة ضوءاً كاشفاً، وألقى بشعاعه بغزارة على وجه الرجل، أوه، يا للهول! هكذا صار شخصاً محبط الهمة بكل معنى الكلمة، هل مُنِيَ أي

إنسان بمثل هذا الحظ العاثر؟ لابد أن تكون هناك مكيدة حيكت ضده.

- «إن ما فيك ليس جرحاً» قال باكتئاب، «وأنت لست دونالد أيضاً، أليس كذلك؟».

- لقد خمنت ذلك، يا فتى، أنا لست دونالد أيضاً، لكن قل لي، ما رأيك بأن تحول الضوء الكاشف إلى ناحية أخرى؟

أطفأ الضوء وقد تخلص من الوهم بشيء من الضجر والكآبة ثم انفجر قائلاً: «إنهم لم يقولوا لي شيئاً. أردت فقط أن أعرف كيف يبدو جرحه، لكنهم لم يقولوا لي شيئاً عنه، قل لي هل ذهب إلى الفراش؟».

- نعم، لقد ذهب إلى الفراش، هذا ليس بالوقت المناسب لرؤية جرحه.

- «ما رأيك بصباح يوم الغد؟» قال بأمل: «هل يمكنني أن أراه عندئذ؟».

- لا أعرف، من الأفضل لك أن تنتظر حتى ذلك الوقت.

- «اسمع» قال مقترحاً بشيء من الإلهام، «سأقول لك شيئاً: يوم غد في حوالي الساعة الثامنة عندما أذهب إلى المدرسة، هل تتلطف بأن تجعله ينظر من خلال النافذة وسأكون ماراً حينئذ وسأراه، لقد سألت سيسلي، لكنها لم تقل لي شيئاً».

- هي سيسلي، يا فتى؟

- إنها أختي ليس إلا، تباً إنها حقيرة، لو أني رأيت جرحه لكنت قد أخبرتها الآن، أليس كذلك؟

- بلى. ما اسم أختك؟

- اسمها سيسلي سوندرز، مثل اسمي فقط اسمي هو روبرت سوندرز، ستفعل ذلك، ستفعل ذلك، أليس كذلك؟

- أوه.. سيسلي.. بالتأكيد، اترك الأمر لي، أيها العقيد. تنهد بارتياح، لكنه لبث في مكانه «قل لي كم عدد الجنود الذين معه هنا؟».

- حوالي واحد ونصف يا فتى.

- واحد ونصف؟ هل هم أحياء؟

- إنهم هكذا في الواقع.

- وكيف يمكن أن يكون هناك جندي ونصف إذا كانوا أحياء؟

- اسأل وزارة الحربية. إنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك.

استغرق في التأمل قليلاً. «رباه» أتمنى لو أن لدينا بعض الجنود في منزلنا، هل تتصور أن بإمكاننا ذلك؟».

- حسنٌ، أتصور أن بإمكانكم ذلك.

- «بإمكاننا؟ كيف؟» قال بتلهف.

- اسأل أختك، يمكنها إخبارك.

- أوه، إنها لن تخبرني بشيء.

- ستفعل ذلك حتماً. اسألها.

- «حسنٌ، سأجرب» قال موافقاً لكن بلا أمل، بالرغم من أنه بقي متفائلاً «حسنٌ، أعتقد أنه من الأفضل لي أن أذهب ربما هم قلقون علي» قال موضحاً ونزل الدرجات «وداعاً يا سيد» أضاف بأدب.

- وداعاً أيها العقيد.

سوف أرى جرحه غداً، فكر بابتهاج. أتساءل إن كانت سيس تعرف فعلاً كيف تأتي لنا بجندي؟ إنها لا تعرف الشيء الكثير لكنها ربما تعرف ذلك الشيء، لكن الفتيات لا يعرفن أي شيء إطلاقاً، لذلك قلت اعتمد كثيراً على هذا، على كل حال سوف أرى جرحه غداً.

ومضت سترة ثوبي البيضاء التي كانت تلوح على نحو غير واضح عند ركن المنزل في أوائل الليل فيما كان الفتى روبرت يرتقي الدرجات باتجاه المستطيل الأصفر للباب الأمامي وسمع صوت ثوبي يقول:

- لماذا لم تأتِ لتتاول عشائك؟ أمك ستغضب عليك وعليّ أنا أيضاً إن كنت تتأخر هكذا. إنها تقول لك بأن تغسل يديك قبل الذهاب إلى غرفة الطعام، لقد هيأت لك الماء في الحمام، اذهب الآن سأخبرهم بأنك أتيت.

توقف، فقط لكي يزعق عند باب غرفة أخته «سوف أرى جرحه غداً

نعــ.......م!» ثم غسل يديه بالصابون بعد أن أحس بـالجوع وهـرول محـدثاً جلبـة نحو غرفة الطعام، وقد قـام بمنـاورة ميدانيـة معقـدة لكـي لا يكتشـف أمـر بنطلونه الممزق، كان قد تجاهل نظرة أمه الباردة.

- روبرت سوندرز، أين كنت؟

- ماما، هنـاك جنـدي عنـدهم يقـول بأننـا نسـتطيع الحصـول على واحد أيضاً.

- «واحد؟» سأل أبوه من خلال دخان سيكاره.

- جندي.

- جندي؟

- نعم، سيدي، ذلك الرجل يقول..

- من ذلك الرجل؟

- ذلك الجندي الذي مع دونالد، يقول بأننا نستطيع الحصول على جندي أيضاً.

- كيف يتم ذلك؟

- لم يقل لي، لكنه يقول إن سيس تعرف كيف تحصل لنا على واحد.

نظر السيد والسيدة سوندرز إلى بعضهما بعضاً فوق رأس الفتى روبرت، فيما كان ينحني غافلاً على طبقه، ويغترف طعامه بالملعقة.

(٣)

في قطار مؤسسة فريسكو المحدودة ميسوري
٢ نيسان ١٩١٩

عزيزتي مارغريت:

أتساءل إن كنت تفتقدينني مثلما أفتقدك، لم أشعر بالمتعة كثيراً في سانت لويس أبداً، لقد أمضيت هناك نصف يوم فقط، هذه رسالة قصيرة لكي تذكرك بأن تبقي في انتظاري ليس إلا، من المؤسف جداً أني اضطررت للابتعاد عنك في وقت مبكر بعد ذلك، سوف أرى أمي وأنجز بعض الأعمال وسأعود بعدها مباشرة. سوف أعمل جاهداً من أجلك يا مارغريت. هذه مجرد رسالة قصيرة لكي تذكرك بأن تبقي بانتظاري، هذا القطار اللعين يهتز بحيث لا أقدر على الكتابة بأية حال من الأحوال، بلغي تحياتي إلى جيليجان وقولي له ألا يقوم بعمل طائش إلى أن أعود. سأبقى أحبك دوماً.

مع حبي

جوليان

ـ ما اسم ذلك الطفل جو؟

وقفت السيدة باورز وقد ارتدت أحد ثيابها الأنيقة الداكنة على الشرفة تحت أشعة الشمس، كان نسيم الصباح يتخلل شعرها، وينساب تحت ثيابها كالماء، حاملاً ضوء الشمس معه، كانت الحمائم التي تطوف حول برج الكنيسة، تنحدر عليه مثل بقع فضية متمايلة من طلاء رقيق. وبدا المرج المنحدر باتجاه السياج رمادياً كئيباً مع استمرار تساقط الندى، وكان ثمة عامل زنجي مؤجر يرتدي قميصاً عتيقاً وبدلة عمل يدفع جزازه عشب فوق المرج، تاركاً خلف ماكنته خطاً أخضر غامقاً مثل سجادة مبسوطة وكان العشب المجزوز يتناثر من بين الشفرات الدوارة ويتعلق لرطوبته على ساقيه.

ـ «أي طفل؟» جلس جيليجان على عمود الدرابزين يدخن بكآبة. كان يحس بعدم الراحة في بدلته الصوفية المتينة الجديدة وياقته الكتانية. ورداً على ذلك قامت بتسليمه الرسالة فقرأ وهو ينظر بعينين نصف مغمضتين من خلال دخان سيكارته المنحرفة عند زاوية فمه.

ـ أوه، البطل، اسمه لوي.

ـ طبعاً، لوي، لقد حاولت عدة مرات بعد أن تركنا لكني لم أتمكن من تذكر ذلك أبداً.

أعاد جيليجان الرسالة إليه «إنه ولد مضحك، أليس كذلك؟ إذن فقد احتقرت عواطفي واتجهت نحوه، هه؟»

كان ثوبها الذي يتلاعب به النسيم قد جعلها تبدو طويلة «لنذهب إلى الحديقة كي أدخن سيكارة».

ـ يمكنك التدخين هنا، القسيس لن يمانع، أؤكد لك ذلك.

ـ إنني واثقة من أنه لن يمانع. أفكر في أبناء أبرشيته ما الذي سيفكرون به عندما يرون امرأة غريبة سمراء، وهي تدخن سيكارة على مشرفة الأبرشية في الساعة الثامنة صباحاً؟

ـ سيتصورون بأنك واحدة من تلك الأشياء الفرنسية التي لا أعرف

أسماءها والتي جلبها الملازم معه. إن اسمك الجذاب لن يساوي شيئاً بعد أن ينتهي هؤلاء الناس من مهمتهم.

ـ اسمي الجذاب هو ما يهمك أنت، وليس ما يهمني أنا، يا جو.

ـ ما يهمني؟ ماذا تقصدين؟

ـ الرجال هم الذين يهتمون بشأن أسمائنا الجذابة، لأنهم هم الذين أعطوها لنا، لكن لدينا أشياء أخرى نهتم بها، نحن أنفسنا، ما تعنيه بالاسم الجذاب إنه كالثوب الرث المهلهل الذي لا ترتديه وأنت مرتاح. تعال، لنذهب إلى الحديقة.

ـ «تعرفين بأنك لا تقصدين ذلك؟» قال لها جيليجان، ابتسمت بفتور من دون أن تدير رأسها نحوه.

ـ «هيا» قالت ثانية، ونزلت الدرجات.

تركا هذيان العصافير والرائحة الطيبة للعشب الندي خلفهما، وسارا على ممر مفروش بالحطب بين شجيرات الورد. كان الممر يمتد تحت سنديانتين عجوزتين متقوستين؛ وكانت هناك بعض الورود التي تتبعثر فوق حائط في موازاتهما، وتبع جيليجان خطواتها الطويلة السريعة والحذرة، كان دوماً يحس كلما وجد نفسه وسط الزهور كأنه قد دخل غرفة تعج بالنساء، كان وعيه لجسده، لمشيته لا يتوقف، وأحس كأنه يدوس على الرمل، لذلك فقد صار على يقين من أنه في الواقع لم يكن يحب الزهور كثيراً.

كانت السيدة باورز تتوقف بين الحين والآخر لكي تستنشق أو تتذوق طعم الندى فوق البراعم والزهور، بعد ذلك كان الممر يمتد بين ألواح البنفسج إلى مكان قريب تستند فيه الزنابق على سياج من شجيرات المنغوليا(*)، توقفت ثانية، حدقت إلى الأعلى في الشجيرة، وحلق طائر كاكي بعيداً وقالت:

(*) المنغوليا: نبات جميل الورق والزهر.

- هناك واحد، جو، هل ترى؟

- ماذا؟ عش طائر؟

- كلا، زهرة، ليس تماماً، هل تعرف زهور المنغوليا؟

- حتماً: إنها لا تفقد صلاحيتها إذا قطفتها، عندما تلمسينها تتحول إلى اللون البني في يديك، تذبل.

- ذلك يشمل تقريباً كل شيء، أليس كذلك.

- نعم، لكن كم من الناس يعتقدون ذلك؟ أتصور أن الملازم يفهم ذلك؟

- لست أدري.. أتساءل إن كان سيحظى بفرصة ما للمس تلك الزهرة؟

- ولماذا سيرغب في عمل ذلك؟ إن لديه الآن واحدة قد تحولت بين يديه إلى اللون البني.

نظرت إليه، لم تفهم في الحال، كانت عيناها السوداوين فمها الأحمر مثل زهرة رمان متفتحة. قال بعدها: «أوه! زهرة المنغوليا.. لقد تصورت تلك الفتاة كأنها.. شيء يشبه الأركيديا، إذن فأنت تتصورين أنها منغوليا؟

- ليست أركيديا، على كل حال إنك تعثر على زهور الأركيديا في أي مكان لكنك لن تعثر عليها في البينوي أو دنفر، إلا بصعوبة بالغة.

- أعتقد بأنك على حق. أتساءل إن كان هناك أية فتيات أخريات مثلها في أي مكان آخر؟

- لست أدري، لكن إذا لم يوجد مثيل لها فإن هناك واحدة وهي تكفي تماماً.

- «لنجلس لفترة قصيرة، أين سيكارتي؟» جلست على المقعد وقدم لها سيكارة ثم أشعل لها عود ثقاب «إذن فأنت تعتقد بأنها لن تتزوجه، يا جو؟».

- لست واثقاً من أي شيء بعد الآن. أعتقد بأنني سأغير رأيي في هذا الصدد. إنها لن تضيع فرصة الزواج ممن تسميه بالبطل.. حتى ولو لكي تبعد امرأة أخرى من الاستحواذ عليه» (أقصد أنت، فكر).

(إنه يقصدني، فكرت) قالت: «ليس إذا علمت بأنه سيموت؟».

- ما الذي تعرفه هي عن الموت؟ إنها لا تستطيع حتى أن تتخيل نفسها امرأة متقدمة في السن، فما بالك بأن تتخيل شخصاً ما يهمها أمره وهو يموت، أراهن بأنها تصدق أن بإمكانها معالجته بحيث لا يظهر جرحه للعيان أبداً.

ـ جو، أنت رجل عاطفي إلى حد فظيع، تقصد أنك تعتقد بأنها ستتزوجه لأنها تجعله يفكر بأنها ستفعل ذلك، ولأنها امرأة (صالحة) إنك شخص كريم الأخلاق، يا جو.

- «أنا لست كذلك!» أجاب بسرعة وحماس «إنني متحجر القلب وهم الذين جعلونا بهذه القسوة، لابد أن أكون هكذا». رأى بأنها كانت تضحك عليه وكشر بشيء من الحزن «حسنٌ، لقد نلت مني في تلك المرة، أليس كذلك؟» صار جاداً فجأة. «لكن الذي يشغلني ليس هي، إنه أبوه العجوز، لماذا لم تخبريه عن حقيقة إصابة ابنه؟».

كانت رقيقة تماماً ومهذبة.

- «لماذا أرسلتني قبلك بدلاً من المجيء بنفسك؟ لقد قلت لك بأني لن أحسن التصرف» نقرت سيكارتها بإصبعها ووضعت يدها على ذراعه «ليس لدي فؤاد يتحمل ذلك، يا جو، لو كان بإمكانك رؤية وجهه أو سماع صوته! كان مثل طفل، يا جو، لقد أراني كل أشياء دونالد. أنت تعرف ذلك: الصور، النقافة(*) ملابس داخلية تعود لفتاة، وزنبقة كان يحملها معه في فرنسا. وكانت هناك تلك الفتاة أيضاً وكل شيء لم أتحمل ذلك. هل تلومني؟».

- حسنٌ، كل شيء على ما يرام الآن. لقد كانت خطة قذرة إلى حدٍ ما، بالرغم من ذلك لن ندعه يكتشف كل شيء أمام أولئك الناس في المحطة، لقد عملت كل ما بوسعنا، أليس كذلك؟

(*) النقافة: لعبة أطفال مكونة من عود على شكل حرف Y تشد فيها قطعة مطاط لقذف الحصى.

- «نعم، لقد عملنا ما بوسعنا، أتمنى لو كنا نستطيع أن نفعل المزيد».
طافت نظرتها في أرجاء الحديقة حيث كانت أسراب النحل منهمكة وقتها في العمل تحت ضوء الشمس فيما وراء الأشجار. عبر الحديقة، وفيما وراء أحد الشوارع وجدار آخر أيضاً، كان في وسع المرء أن يرى قمة شجرة كمثرى وكأنها شمعدان زينة له شعب، أزهارها كثيرة متقاربة، بيضاء، بيضاء.. انتفضت في مكانها، وقد وضعت ركبة فوق أخرى «تلك الفتاة كان قد أغمي عليها مع ذلك.. ما الذي..».

- أوه، لقد توقعت ذلك، لكن ها قد جاء عطيل، كأنه كان يبحث عنا.

- راقب عامل جزازة العشب البطيء الحركة فيما كان يجر حذاءه الملوث على الحصى، رآهما الرجل وتوقف.

- سيد جيلمون، يقول لك الكاهن أن تأتي إلى المنزل.

- أنا؟

- أنت السيد جيليوم، أليس كذلك؟

- «طبعاً، طبعاً» نهض «اسمحي لي، يا سيدتي، هل أنت قادمة أيضاً؟».

- اذهب أنت وانظر ما الذي يريده. سآتي بعد لحظة.

كان الزنجي قد استدار وهو يجرجر قدميه أمامه ثم عادت جزازة العشب إلى نغمها الرتيب عندما ارتقى جيليجان الدرجات، كان الكاهن يقف في الشرفة. كان وجهه هادئاً لكن من الواضح أنه لم ينم ليلته.

- آسف لإزعاجك، سيد جيليجان، لكن دونالد مستيقظ وأنا لست على معرفة بملابسه مثلك، لقد وزعت أشياءه المدنية عندما.. عندما..

- «طبعاً، يا سيدي» رد جيليجان بشفقة حادة على الرجل الكئيب الملامح. لم يكن يعرفه بعد! «سوف أساعده».

كان الكاهن الواجم ينوي أن يتبعه، لكن جيليجان انطلق بسرعة بعيداً عنه وصعد الدرجات. رأى السيدة باورز قادمة من الحديقة فنزل صوب

المرج والتقى بها هناك.

- «صباح الخير، دكتور» ردت على تحيته، «كنت أتفرج على زهورك، آمل أنك لا تمانع؟».

- أبداً، أبداً، يا سيدتي العزيزة. إن الرجل العجوز يشعر دائماً بالغبطة عندما يُطرى على زهوره. أما الشباب فيكونون على قناعة تامة وبشكل جميل للغاية من أن عواطفهم وأحاسيسهم تحظى بالإعجاب على نحو مبهر، إن الفتيات الصغيرات يرتدين ملابس أخواتهن الأكبر منهن واللواتي في حاجة إلى الملابس، ذلك بالدرجة الأساس لأنهن لا يحتجن إليها بأنفسهن، من أجل المرح فحسب، أو ربما للانقياد إلى صورة وهمية لجنس الذكر، لكن مع تقدمنا في العمر فإن حقيقة أنفسنا تفقد أهميتها وتفسح المجال إلى ما نقوم به من أعمال وأنا لم أكن قادراً أبداً على عمل أي شيء بشكل جيد ما عدا تربية الزهور. وذلك الشيء كما أتصور، هو عبارة عن عاطفة غامضة تتعلق بحب الأعمال المنزلية وهي كامنة في داخلي: لقد كنت أفكر أنه من الأصوب لي أن يتقدم بي العمر وأنا برفقة كتبي ووسط ورودي، إلى أن غدت عيناي واهنتين للغاية بحيث لا تقويان على القراءة باستمرار عندما كنت أقرأ لفترة طويلة، بعد ذاك كنت أجلس لكي أقرأ تحت ضوء الشمس. والآن طبعاً بعد أن عاد ولدي إلى المنزل ثانية، ينبغي عليّ أن أتخلى عن ذلك إنني متلهف وأنا أترقب رؤيتك لدونالد هذا الصباح، سوف تلاحظين تحسناً بارزاً.

- «أوه، إنني واثقة من ذلك» أجابت، أرادت أن تضع ذراعيها حوله، لكنه كان ضخماً جداً، وكان مفعماً بالثقة بالنفس. عند ركن المنزل كانت هناك شجرة مغطاة بأوراق صغيرة بيضاء الحواف كأنها سديم، أو دوامة مياه فضية مكبلة. مد الكاهن ذراعه بكياسة بالغة.

- هل ندخل لنتناول الإفطار؟

كانت إيمي قد دخلت أمامهما وقد حملت مزهرية نرجس وورود حمراء

قانيـة أضـافت عمقـاً إلى حمـرة الفراولـة الـتي اسـتقرت في طاسـات زرقـاء مسطحة، سحب الكاهن كرسياً لها. «عندما نكون بمفردنا فإن إيمي تجلس هنا عادة، لكنها تشعر بنفور غريب من تناول الطعام مع الغرباء، أو عندما يكون هناك ضيوف.

جلست السيدة باورز ثم ظهرت إيمي لفترة قصيرة واختفت لسبب غير واضح. وأخيراً تناهى إلى الأسماع وقع أقدام بطيئة على السلم منحدرة نحو الباب المفتوح، رأت سيقانهم، ثم اعترضت أجسامهم مجال رؤيتها، ونهض الكاهن عندما ظهروا عند الباب .

«صباح الخير، دونالد» قال.

(ذلك أبي؟ طبعاً، أيها الملازم، ذلك هو) «صباح الخير، يا سيدي».

وقف الكاهن بجسده الضخم والمتوتر والواهن فيما كان جيليجان يساعد ماهون في الجلوس على مقعده.

- هذه هي السيدة باروز أيضاً، أيها الملازم.

حول نظرته المرتبكة المتداعية نحوها «صباح الخير» قال، لكن عينيها كانت مصوبتين إلى وجه أبيه، خفضت نظرها على طبقها وقد أحست بنداوة حارة على شفتيها، ما الذي فعلته؟ فكرت ما الذي فعلته؟

حاولت أن تأكل لكنها لم تستطع، أخذت تتفحص ماهون تلك الحركة الخرقاء ليده اليسرى فيما كان ينعم النظر في طبقه ولا يكاد يأكل شيئاً، وطريقة استعمال جيليجان للسكين والملعقة بخفة وحيوية، والكاهن الذي لا يذوق شيئاً تفحصت كل حركة تصدر عن ابنه بيأس وكآبة.

ظهرت إيمي ثانية مع أطباق جديدة. كانت تخفي وجهها بوضع الأطباق على المائدة بحركة غير رشيقة وكانت على وشك الفرار بارتباك عندما أوقفها الكاهن بعد أن نظر إلى الأعلى. استدارت برعب شديد وخجل وقد تدلى رأسها للأسفل.

ـ «هذه هي إيمي، يا دونالد» قال أبوه.

رفع ماهون رأسه ونظر إلى أبيه. ثم وقعت نظرته المرتبكة على وجه جيليجان وعادت إلى طبقه، وارتفعت يده ببطء إلى فمه، وقفت إيمي لفترة من الزمن وأصبحت عيناها السوداوان أكثر اتساعاً، وجف الدم في وجهها شيئاً فشيئاً، ثم وضعت ظهر يد حمراء على فمها وولت هاربة متخبطة في طريقها نحو الباب.

لا أستطيع تحمل هذا. نهضت السيدة باورز من دون أن تلفت انتباه أحد سوى جيليجان وتبعت إيمي، كانت إيمي تنحني على مائدة في المطبخ فيما يسقط رأسها بين ذراعيها الحمراوين يا له من وضع فظيع للبكاء، فكرت السيدة باورز، ووضعت ذراعيها حول إيمي، انتفضت الفتاة وانتصبت واقفة وهي تحدق في المرأة الأخرى، كان وجهها متشنجاً من أثر البكاء، كان قبيح المنظر.

ـ «لم يتكلم معي!» قالت لاهثة.

ـ «إنه لم يتعرف حتى إلى والده، يا إيمي، لا تكوني سخيفة» أمسكت مرفقي إيمي، كانت تفوح منهما رائحة صابون مزعجة، تشبثت إيمي بها.

ـ «لكن أنا، أنا! إنه حتى لم ينظر إلي!» قالت ثانية، كان على طرف لسانها أن تقول لماذا ينبغي عليه أن يفعل ذلك؟ لكن بكاء إيمي الغزير وجسدها المتشنج الأخرق؛ صلة القرابة ذاتها بين دموع ودموع، شيء ما تتشبث به بعد أن كانت لفترة طويلة تمثل سنداً للآخرين.

خارج النافذة كان ثمة تعريشة نجمة الصباح مع عصفور في داخلها، وأحست وهي تعانق إيمي بأسى متبادل بمذاق الملح الدافئ في بلعومها.

اللعنة، اللعنة، قالت من خلال تيار دموعها المنهمرة على نحو متقطع.

(٤)

أمام مكتب البريد كان الكاهن يشكل مركز دائرة مثيرة للاهتمام عندما أبصر به السيد سوندرز. كان التجمع أنموذجياً، يضم أرباب الحرف مع طيف واسع من أولئك الناس المتعذر اجتنابهم من عمال غير نظاميين وغيرهم، والذي لا يلبسون ربطات العنق، ببدلات العمل أو من دونها. لم يكن يبدو عليهم أنهم يعانون من أية دوافع قسرية أياً كانت طبيعتها، تلك الدوافع التي تجذب إلى ذاتها أي شيء، من صمت مكبل، إلى زنجي يعاني من نوبة صرع أو هرمونية، مثلما تتجذب الذرات إلى حجر المغناطيس، في أية بلدة جنوبية صغيرة.. أو بلدة شمالية أو بلدة غربية، ربما.

- «نعم، نعم، إنها لمفاجأة حقاً» كان الكاهن يقول: «لم أكن أتوقع ذلك، لم أتوقعها مطلقاً، إلى أن وصل صديق كان يسافر معه.. إنه لم يسترد وعيه تماماً، بعد، تفهمون ذلك.. قبل وصوله لكي يخبرني».

(واحد من أولئك الأشخاص الذي يطيرون في الجو).

(هذا ما أقوله: لو أن الرب كان يريد للناس أن يحلقوا هنا وهناك من السماء لكان قد أعطاهم أجنحة).

(حسنٌ، لقد كان أقرب إلى الرب مما يمكن أن تصل إليه أبداً).

هذه الآراء الخارجية المتطرفة المتسمة بالفضول اللطيف أفسحت المجال للسيد سوندرز.

(أقرب مما يمكن أن يصل إليه ذلك الرجل، على كل حال، هراء) ربما كان هذا المتكلم معمدانياً.

مد السيد سوندرز يده.

- حسنٌ، يا دكتور، إننا سعيدون جداً لسماع هذه الأخبار السارة.

- «آه، صباح الخير، صباح الخير» أخذ الكاهن اليد الممدودة في كفه الضخمة «نعم، إنها لمفاجأة حقاً. كنت آمل أن أراك، كيف حال سيسلي هذا الصباح؟» سأل بصوت أكثر انخفاضاً. لكن لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك، ولم تتقصهم العزلة. كانت هناك حركة شاملة باتجاه مكتب البريد. كان البريد قد وصل والنافذة قد فتحت، وحتى أولئك الذين لم يكونوا يتوقعون وصول رسائل، الذين لم يستلموا أية رسالة خلال أشهر لابد أنهم كانوا في حاجة لإرضاء أحد الدوافع القسرية التي تتسم بها الأمة الأمريكية. كانت أخبار الكاهن قد أصبحت تافهة إزاء احتمال وصول معلومات شخصية مكتوبة من نوع ما، من أي نوع.

كانت شارلستون مثل غيرها من المدن التي لا تحصى في أنحاء الجنوب، قد شيدت حول دائرة من حظائر الخيل والبغال. في وسط الميدان كان هناك بناء المحكمة... وهي عبارة عن صرح بسيط للفضيلة مشيد من الآجر وستة عشر عموداً أيونياً جميلاً ملطخاً بآثار التبغ التي تركتها الأجيال المتعاقبة من دون قصد. كانت أشجار الدردار تحيط بالمحكمة وتحت هذه الأشجار على مقاعد وكراسٍ خشبية تكثر فيها النقوش والخروز كان يجلس آباء تلك المدينة، أسلاف القوانين الصارمة ومواطنون أشداء كانوا يؤمنون بقوم واطسون ولا يخافون إلا من الله والجفاف، يلبسون فيونكات سوداء أو يحملون الأوسمة الرمادية والبرونزية الباهتة التي لا معنى لها بعد أن يكونوا قد نفضوا الغبار عنها والتي منحتها إياهم الحكومة الاتحادية الأمريكية، غير مضطرين بعد الآن لتلفيق الذرائع بخصوص العمل، يمضون الأيام الطويلة الكسولة بالنوم أو باجترار الهموم والقلق، بينما يكون الرجال الأصغر منهم ومن كافة الأعمار الذين لم يبلغوا بعد من العمر ما يجعلهم يقضون أوقاتهم بالنوم بحرية وارتياح علانية، يلعبون الداما أو يمضغون التبغ ويتجاذبون أطراف الحديث وجاء أحد المحامين، وبائع مخدرات، وشخصان غريبا

المظهر، وهما يحركان أقراصاً حديدية إلى الأمام والخلف بين ثقبين في الأرض. وفوق كل هذا وذاك بزغت أوائل نيسان وهي مثقلة بعذوبة الظهيرة.

ومع كل هذا فقد كان كل واحد منم لديه كلمة طيبة ليقولها للكاهن عندما مرّ مع السيد سوندرز، وحتى النائمون من الكبار في السن فقد أفاقوا من الإغفاءة الخفيفة لكي يسألوا عن دونالد، لقد كان مرور الكاهن شيئاً احتفالياً تقريباً.

مشى السيد سوندرز إلى جواره مشغول البال يرد على التحيات، اللعنة على هؤلاء النسوة، هكذا تذمر باغتياظ، ومرَّا معاً من تحت نصب حجري لجندي اتحادي يغطي عينيه الرخاميتين إلى الأبد في يقظة سرمدية صارمة، وكرر الكاهن سؤاله.

- إنها تشعر بالتحسن هذا الصباح، من المؤسف جداً أنها قد أُغمي عليها يوم أمس، لكنها ليست قوية البنية، أنت تعرف ذلك.

- كان ذلك شيئاً متوقعاً؛ وصوله غير المتوقع أذهلنا جميعاً تماماً، وحتى دونالد يعترف بذلك، إنني متأكد، العلاقة التي تربط بينهما أيضاً، تعرف ذلك.

كانت الأشجار الخضراء المنقوشة فوق الشارع تشكل نفقاً أخضراً هادئاً. كان رصيف المشاة مخططاً بالظلال. أحسّ السيد سوندرز بالرغبة في أن يمسح رقبته، أخرج سيكارين من جيبه، لكن الكاهن أبعدهما عنه. اللعنة على هؤلاء النسوة! كان على ميني أن تفعل هذا.

قال الكاهن: «لدينا بلدة جميلة، سيد سوندرز، هذه الشوارع، هذه الأشجار.. هذا الهدوء هو الشيء المناسب تماماً لدونالد».

- نعم، نعم، إنه الشيء المناسب تماماً له، يا دكتور..

- ينبغي عليك أنت والسيدة سوندرز أن تأتيا لرؤيته بعد ظهر هذا اليوم. كنت أتوقع مجيئكما ليلة البارحة، لكني تذكرت أن سيسلي كانت منهكة القوى جداً.. إنه شيء حسن أيضاً أنك لم تأت، بالرغم من كل شيء.

كـان دونالـد مرهقـاً والسـيد بـ... فكـرت أن مـن الأفضـل اسـتدعاء الطبيـب (كتدبير وقائي ليس إلا، تعرف ذلك)، وقد نصح الطبيب دونالد بأن يخلد إلى الراحة.

- «نعم، نعم، لقد كنا ننوي المجيء، لكن، كما تقول فإن حالتـه، إنهـا ليلته الأولى في المنزل، وحالة سيسلي أيضا..» كان في وسعه أن يحس بكيانه الأخلاقي متفسخاً، إلا أن سلوكه كان قد بدا منطقياً جداً ليلة البارحة بعد أن وبختـه زوجتـه، بعـد أن أدخلتـه متخـذة منـه حجـة ملتويـة لرؤيـة ابنتـه وهـي تبـكي في السرير، اللعنـة علـى هـؤلاء النسـوة! قـال للمـرة الثالثـة. ونفـث دخـان سيـكاره وقذف به بعيداً، مؤنباً ومضطهداً نفسه ذهنياً.

- فيما يتعلق بهذه الخطوبة، يا دكتور..

- «آه، نعـم، كنـت أفكـر فيهـا بنفسـي، هـل تعـرف، أعتقـد أن سيسـلي هي أفضل دواء يمكن أن يتناوله؟ انتظر» رأى أن الآخر كان يريد مقاطعته، «ستتطلب طبعاً بعض الوقت للتعود على.. عليه..» ثم واجه رفيقه بثقة وإصرار، «لديه أثر حرج، أنت تعرف ذلك، لكن واثق بأن هذا شـيء يمكـن معالجتـه، بالرغم من أن سيسلي ستصبح فعلاً معتادة عليه، في الواقع، أنـا أعتمـد عليهـا في أن تخلق رجلاً جديداً منه، في غضون مدة قصيرة».

استسلم السيد سوندرز، غداً، قطع وعداً مع نفسه غداً سأفعل ذلك.

- «إنـه بطبيعـة الحـال مشـوش الـذهن قليـلاً الآن» تـابع الكـاهن كلامـه، «لكـن العنايـة والاهتمـام، وفـوق كـل هـذا وذاك، فـإن سيسـلي سـوف تعـالج ذلك. هل تعرف» حول نظراته الحانية على السيد سـوندرز ثانيـة، «هـل تعـرف، إنه حتى لم يتعرف إليَّ في البداية عندما دخلت إلى غرفتـه هـذا الصـباح؟ إنهـا مجرد حالة مؤقتة، بالرغم من كل شيء، أؤكد لك ذلك. يمكنني أن أتوقـع هذا تماماً» أردف بسرعة «ألا تعتقد بأن ذلك كان شيئاً متوقعاً؟».

- أعتقد ذلك، نعم، لكن ما الذي حدث له؟ كيف وصل إلى هذه الحال؟

- إنه لم يتحدث عن ذلك. لقد أكـد لـي صـديق كـان قـد وصـل معـه إلينـا

أنـه لا يعـرف شـيئاً، لا يسـتطيع أن يتـذكـر لـكـن هـذا يمكـن أن يحـدث كثيراً، ذلك الشاب.. إنه جندي أيضاً.. أخبرني بهذا، وإن ذاكرته ستعود إليه ذات يـوم. يبـدو أن دونالـد كـان قـد فقـد جميـع أوراقـه مـا عـدا شـهادة تؤيـد خروجـه مـن مستشـفى بريطـاني. لـكـن اعـذرني، كنـت تقـول شـيئاً مـا عـن الخطوبة.

- «كـلا، كـلا، لا شـيء» كانـت الشـمس عمودية، إنـه منتصـف النهـار تقريبـاً، حـول الأفـق كانـت بضـع غيـوم كثيفـة تلـوح كأنهـا زبـدة مخفوقـة، ستمطر بعد ظهر هذا اليـوم. وفجـأة تكـلم: «بالمناسـبة يـا دكتـور، أتسـاءل إن كنت أستطيع المجيء للتحدث مع دونالد؟».

- علـى الرحـب والسـعة، حتمـاً سـيكـون سـعيداً لرؤيـة صـديق قـديم. تعـال معي على الرحب والسعة.

كانت السحب تتراكم باطراد أكثر فأكثر، عندما كانت تمر أسفل برج الكنيسة وتجتاز المرج. عندما ارتقيا درجات الأبرشية شاهدا السيدة باورز جالسة تقرأ كتابـاً. رفعـت عينيهـا، رأت وجـه الشـبه فـوراً؛ لم تـكـن كلمـات الكـاهن هـذه «السـيد سـوندرز صـديق قـديم مـن أصـدقاء دونالـد» ضـرورية. نهضت، أغلقت كتابها على سبابتها.

- دونالد مستلق في سريره. السـيد جيليجـان معـه، كمـا أعتقـد، سـأذهب لأخبره.

- «كلا، كلا» قال السيد سوندرز معترضاً بسرعة، «لا تزعجيه، سـوف آتي في وقت لاحق».

- بعـد أن أتيـت إلى هنـا لكـي تتحـدث إليـه؟ سيصـاب بخيبـة أمـل إن لم تصعد إليه. إنك صديق قديم، كما تعلم، أنت قلت بأن السيد سوندرز صديق قديم لدونالد، أليس كذلك، يا دكتور؟

- نعم، هذا صحيح، إنه والد سيسلي.

- «إذن يجب أن تأتي على أية حال» وضعت يدها على مرفقه.

- «كلا، كلا، يا سيدتي. ألا تعتقدين أنه من الأفضل عدم إزعاجه الآن، يا دكتور؟» قال بتوسل للكاهن.

- حسنٌ ربما يكون هذا صحيحاً ستأتي مع السيدة سوندرز مساء هذا اليوم، إذن؟

لكنها بقيت على عنادها «مهلاً، يا دكتور يستطيع دونالد طبعاً أن يرى والد الآنسة سوندرز في أي وقت من الأوقات» وأرغمته بإصرار على المرور من خلال الباب، وتبعها مع الكاهن صاعدين السلم، ورد صوت جيليجان عل طرقاتها وفتحت الباب.

- «هذا والد سيسلي قد جاء لرؤية دونالد، يا جو» قالت وتنحت جانباً. فتح الباب فانغمر الممر الضيق بالضوء، وبعد أن أغلق انحسر الضوء ثانية عن الممر، تحركت خلال حمرة الشفق المتسربة من خلف الجدران، ونزلت السلم ثانية ببطء.

كانت جزازة العشب ساكنة منذ ذلك الوقت وتحت إحدى الأشجار كان في وسعها أن ترى جسد مشغلها الكسول وهو مضطجع وقد ثنى إحدى ركبتيه وراح يغط في نوم عميق. على الشارع كانت تمر ببطء زمرة من الأطفال السود بين الحين والآخر والذين يبدو أن ليس لديهم أية ساعات عمل إجبارية، وكانوا على ما يظهر متحررين من كل الدوافع القسرية للزمن أو التعليم، يذهبون إلى المدرسة ويعودون منها في أية ساعة يشاؤون من النهار، حاملين معهم غذاءهم المكون من المعلبات وبعضهم كان يحمل كتباً أيضاً. كانوا يأكلون الغداء عادة في الطريق إلى المدرسة، وهذا ما كان يفعله ولد زنجي بدين يلبس ربطة خضراء ومعطفاً صوفياً. كان بأفكاره يتناول سطراً محدداً من أي كتاب حتى وإن كان دليل تليفون، وسرعان ما يجعل الناس الحاضرين جميعاً يترنمون به وراءه، وكأنه فاشيل لندسي. ثم يتغيبون عن الدوام في ذلك اليوم.

كانت السحب قد تراكمت أكثر وأكثف؛ متخذة مسحة أرجوانية

شاحبة، جاعلة قطعاً صغيرة من السماء تصطبغ فيما بينها بلون أكثر زرقة، وكان الهواء قد أصبح شديد الحرارة والرطوبة، ثقيلاً؛ وفقد برج الكنيسة ملامحه في ذلك الوقت فلم يظهر منه إلا بعدين من المعدن والكرتون.

وتعلقت أوراق الأشجار بجمود حزين، كما لو أن الحياة قد استردت منها قبل أن تمنح لها بالكامل، تاركة مجرد أشباح الأوراق الفتية، وعندما مشت بتباطؤ قريباً من الباب، كان في وسعها أن تسمع إيمي وهي تتعارك مع الأطياف في غرفة الطعام وفي آخر الأمر سمعت الشيء الذي انتظرته.

- «.. أتوقع قدومك مع السيدة سوندرز هذا المساء إذن،» كان الكاهن يقول ذلك عندما ظهر للعيان.

- «نعم، نعم» أجاب الزائر بتجرد، التقت عيناه بعيني السيدة باورز. إنه يشبهها تماماً! فكرت بذلك ثم غطس قلبها في أعماقها، هل اقترفت خطأ ثانية؟ تفحصت وجهه على عجل وتنهدت بارتياح.

- «كيف تتصور أنه يبدو، يا سيد سوندرز؟» تساءلت.

- إنه جيد، إذا ما فكرنا في رحلته الطويلة، جيد.

قال الكاهن بسعادة: «لقد انتبهت إلى ذلك بنفسي هذا الصباح، ألم تنتبهي إلى ذلك أيضاً، سيدة باورز؟» نظر إليها بتوسل وقالت نعم «كان ينبغي لك أن تشاهديه أمس لكي تدركي مدى التحسن المذهل الذي حصل له، إيه، سيدة باورز؟».

- نعم، فعلاً يا سيدي، لقد تحدثنا جميعاً عن ذلك هذا الصباح.

تحرك السيد سوندرز حاملاً قبعته الرخوة المصنوعة من القش باتجاه درجات السلم «حسنٌ، يا دكتور، إنه لشيء جيد أن يعود الولد إلى بيته. نحن جميعاً سعداء من أجلنا أنفسنا وكذلك من أجلك أنت. وإذا كان هناك أي شيء يمكننا القيام به..» أضاف بإخلاص الجار لجاره.

- «أشكرك، أشكرك، لن أتردد في طلب أي شيء، لكن دونالد في وضع يستطيع فيه خدمة نفسه الآن، على أن يحصل على دوائه بصورة

كافية، إننا نعتمد عليك في هذا، كما تعرف».

أجاب الكاهن بتلميح مازح.

أضاف السيد سوندرز تتمة يتوقع أن يضحكوا منها «حالما تستعيد حالتها السابقة ثانية فإننا أنا وأمها، نتوقع أن تجري الأمور على نحو آخر، نتوقع أن نطلب منك أن تعطينا سيسلي بين الحين والآخر».

- «حسنٌ، يمكن ترتيب ذلك، كما أعتقد.. وخاصة مع وجود مساعدة من صديق». ضحك الكاهن بدوره وتهللت أسارير السيدة باورز وهي تصغي لذلك. ثم ساورتها الظنون قليلاً، إنهما متشابهان إلى حد كبير! هل سيغيرون رأيه بشأنه، هؤلاء النساء؟ قالت:

- أعتقد بأني سأتمشى لغاية البوابة مع السيد سوندرز، إذا لم يمانع.

- أبداً، يا سيدتي، إنه لمن دواعي سروري.

وقف الكاهن عند الباب وابتسم لهما بابتهاج فيما كانا ينزلان الدرجات. «آسف لأنك لا تستطيع البقاء لتناول الغداء» قال.

- في وقت آخر، دكتور، إن زوجتي تنتظرني اليوم.

- «نعم، في وقت آخر» قال الكاهن موافقاً، دخل إلى المنزل ثانية، وعبروا العشب تحت سماء ملبدة بغيوم كثيفة. نظر السيد سوندرز إليها بحدة. «لا يعجبني هذا» قال: «لم لا يخبره أحد بالحقيقة بشأن ذلك الفتى؟».

- «لا أعرف أنا أيضاً» أجابت، لكن لو أخبروه، فهل يصدق ذلك؟ أكان على أي شخص أن يخبرك بشأنه!».

- رباه، كلا! أي شخص يستطيع النظر إليه، لقد جعلني ذلك أصاب بالغثيان، لكني على أية حال جبان في مثل هذه الأمور» أضاف باعتذار يدعو إلى الحزن «ما الذي قاله الكاهن عنه؟».

- لا شيء بالتحديد، عدا أنه لا يتذكر شيئاً مما حدق قبل إصابته الرجل الذي كان قد جرح مات وهذا شخص آخر، إنه مجرد طفل كبير. الشيء الفظيع جداً هو لا مبالاته، تجرده من كل شيء. لا يبدو عليه الاهتمام سواء

بالمكان الذي يكون فيه أو الشيء الذي يفعله، لابد أنه كان قد انتقل من يد إلى أخرى، مثل أي طفل.

- أقصد، حول استرداده وعيَه.

هزت كتفيها استهجاناً «من يستطيع أن يعرف ذلك؟ ليس ثمة علة مادية به يمكن للجراحين معالجتها، إذا كان ذلك ما تعنيه.

استمر بالمشي صامتاً «يتوجب إخبار أبيه بالرغم من ذلك».

قال أخيراً:

- «أعرف ذلك، لكن من تراه يقوم بذلك؟ وإلى جانب هذا، فلابد أنه سيعرف الأمر ذات يوم، إذن فلم لا ندعه يؤمن مثلما يحب ما دام قادراً على ذلك؟ الصدمة لن تكون أكثر قوة في وقت ما منها في وقت آخر. وهو رجل كبير السن ويشعر بفخر شديد وسعيد الآن. وربما يتحسن دونالد، تعرف ذلك» قالت وهي تكذب.

- نعم، ذلك شيء صحيح، لكن هل تعتقدين حقاً أنه سيتحسن.

- «ولم لا؟ لا يمكن أن يبقى إلى الأبد على ما هو عليه الآن».

كان قد وصلا إلى البوابة. كان ملمس الحديد خشناً وحاراً بسبب الشمس من تحت يدها، لكن لم يكن ثمة مسحة زرقاء في أي مكان من السماء.

قال السيد سوندرز وهو يتلمس قبضته، «لكن لنفرض بأنه لن يتحسن؟».

صوبت له نظرة مباشرة «يموت، تعني؟» سألت بوحشية.

- حسنٌ، نعم، ما دمت قد قلت ذلك.

- الآن ذلك هو الشيء الذي أود مناقشته معك. إنها مسألة تتعلق بتعزيز معنوياته، بإعطائه سبب ما لكي - حسنٌ، لكي يشعر بالبهجة. لكن من الذي بإمكانه أن يفعل ذلك أفضل من الآنسة سوندرز؟

- لكن، يا سيدتي، ألا تعتقدين بأنك تطلبين الشيء الكثير، تطلبين مني أن أجازف بسعادة ابنتي على رهان ضعيف مثل هذا؟

ـ إنك لا تفهم. إنني لا أطلب منك الإصرار على مسألة الخطوبة أقصد لماذا لا تدع سيسلي ـ الآنسة سوندرز ـ تراه بين الحين والآخر كلما أمكنها ذلك، أن تتصرف معه بحنان وحب عند الضرورة إلى أن يصبح قادراً على التعرف إليها ثانية، وسوف يبذل هو جهداً مع نفسه في سبيل ذلك. الوقت كاف أمامنا بعد ذلك للتحدث عن الخطوبة، وأخذ سيد سوندرز يفكر، افرض أنه كان ابنك أنت. لن يكون ذلك شيئاً كثيراً جداً يطلب من صديق، أليس كذلك؟

نظر إليه ثانية بإعجاب، بتمعن «لديك رأس رائع على كتفيك، أيتها السيدة الصغيرة، إذن ما يتوجب عليّ عمله هو إقناعها بالمجيء ورؤيته، أليس كذلك؟».

ـ «يجب عليك أن تفعل شيئاً أكثر من ذلك، يجب أن تتأكد من أنها ستأتي فعلاً، وأنها ستتصرف تماماً مثلما كانت تتصرف تجاهه من قبل». أمسكت بذراعه «يجب ألا تدع أمها تمنعها من القيام بذلك، يجب عليك هذا. تذكر، تصور أنه كان ابنك أنت».

ـ «ما الذي يجعلك تفكرين بأن أمها قد تعترض؟» سأل باستغراب.

ابتسمت ابتسامة خافتة «إنك تنسى بأنني امرأة أيضاً» قالت، ثم أصبح وجهها أكثر جدية وصرامة «لكن يجب عليك ألا تدع ذلك الشيء يحصل، هل تسمع؟» كانت عيناه تخضعانه بالقوة «هل أعتبر ذلك وعداً؟».

ـ «نعم» قال موافقاً وهو يواجه نظرتها المباشرة، ثم أمسك بيدها الممدودة بثبات وأحس بملمس قبضتها الناعمة القوية.

ـ «إنه وعد إذن» قالت عندما كانت قطرات دافئة كبيرة من المطر تتساقط من السماء الملبدة، المعتمة وتتهمر بكثافة. قالت وداعاً وولت هاربة تركض عبر المرج باتجاه المنزل قبل أن تتعرض لرشقات المطر المهاجمة بعنف، حملتها ساقاها عالياً إلى أن وصلت إلى الشرفة فيما كان المطر المطارد المهزوم، يندفع بسرعة كأنه فرسان يحملون رماحاً فضية، يتسللون عبر المرج.

(٥)

خـرج السـيد سـوندرز مـن البوابـة وهـو يلقـي نظـرة قلقـة علـى السـماء الممطرة، وهنا وجد ابنه العائد من المدرسة تواً يقول: «هل رأيت جرحه، يا أبي؟ هل رأيت جرحه؟».

حدق الرجل في هذه النسخة المصغرة المزعجة من نفسه، ثم انحنى فجأة وحمل ابنه بين ذراعيه وضمه إلى صدره.

- «رأيت جرحه» قال الفتى روبرت سوندرز وهو يوجه اتهاماً لأبيه، محاولاً تحرير نفسه فيما كان المطر ينهمر فوقهما، من خلال الأشجار.

(٦)

كانت عينا إيمي سوداوين مضمحلتين كعيني لعبة على شكل حيوان وكان شعرها كتلة كثة لوحتها الشمس ليست ذات لون محدد. في التسلق: لوسعك أن تتخيلها وهي تنمو وتكبر كأنها شيء أخضر ضئيل لكنه قوي وراسخ الجذور فوق كومة من الروث. إنها ليست زهرة حتماً؛ لكنها ليست روثاً أيضاً.

كان والدها يعمل صباغاً للمنازل، مع تميزه بولع صباغة المنازل. وكان معتاداً على ضرب زوجته. وقد فشلت لحسن حظها، في البقاء على قيد الحياة بعد ولاة أخ إيمي الرابع، وعندها ذلك كف والدها عن معاقرة الخمر لكي يتودد إلى امرأة نحيلة سليطة اللسان محاولاً إيقاعها في شباكه، وكانت تلك المرأة فيما بعد الأداة المسخرة لعقوبته، فإذا بها تضربه باستمرار وبعنف بخشب الموقد في لحظاتها الأكثر صفاء.

- «لا ينبغي أن يتزوج الإنسان من امرأة أبداً، يا إيمي». قال والدها ذات مرة ناصحاً بصوته الحاني الجياش بالعاطفة.

«إذا كان لابد لي أن أفعل ذلك ثانية فسأتزوج من رجل هذه المرة».

- «لن أتزوج أنا أبداً من أي أحد» هكذا كانت إيمي قد عاهدت نفسها بإصرار، وخاصة بعد أن ذهب دونالد إلى الحرب وبقيت رسائلها التي بعثتها إليه والتي عبرت فيها بصعوبة بالغة عن كوامن صدرها بلا إجابة (والآن هو لا يكاد يتعرف إليّ، فكرت ببلادة).

- «لن أتزوج أبداً من أي أحد» قالت ثانية، ووضعت الغداء على المائدة «أعتقد أني سأموت فحسب» قالت وهي تحدق من خلال النافذة المبللة نحو

المطر، راقبت المطر الراعد وهو يتدفق بالقرب منها وكأنه سفينة رمادية أو فضية تعبر أمام ناظريها، وحملت آخر طبق بين ذراعيها، ثم استفاقت من حلم اليقظة الذي غطت فيه، ووضعت الطبق على المائدة وذهبت لكي تقف خارج باب غرفة القراءة حيث كانوا يجلسون ويراقبون ألواح النافذة الزجاجية التي يسيل عليها ماء المطر، ويستمعون إلى صوت المطر الكئيب كأنه مليون قدم صغيرة تعبر فوق السقف وبين الأشجار.

- «حسنٌ، أيها العم جو» قالت ثم ولت هاربة باتجاه المطبخ.

قبل أن يكملوا تناول غدائهم كان انهمار المطر الغزير قد توقف، كانت سفن المطر قد رست متدفقة للأسفل، وهي تتساب أمام الرياح، تاركة صوتاً هامساً فقط يتخلل أمواج الأوراق الندية الخضراء، مع عصفة ريح تهب بين الحين والآخر بخطوط طويلة بيضاء كأنها أقزام يمسك أحدها بيد الآخر عبر العشب. لكن إيمي لم تظهر لكي تجلب الحلوى.

- «إيمي!» صاح الكاهن ثانية.

نهضت السيدة باورز من مكانها «إيمي؟» صاحت بصوت هادئ. لم يكن ثمة جواب، وكانت على وشك المغادرة عندما دعاها حافز غامض للنظر خلف الباب المفتوح، سحبته بعيداً عن الحائط فوجدت إيمي هناك تحدق فيها كالخرساء.

- «إيمي، ما الأمر؟» سألت.

لكن إيمي تحركت من مخبئها ماشية بلا كلام، وتناولت صينية ووضعت عليها الحلوى المهيأة وقدمتها إلى السيدة باورز.

- هذا شيء سخيف، يا إيمي، أن تتصرفي بهذه الطريقة يجب عليك أن تمنحيه بعض الوقت لكي يعتاد علينا ثانية.

لكن إيمي نظرت إليها فحسب من خلف حدود يأسها الممتنع عن التعبير، وحملت المرأة الأخرى الصينية إلى المائدة «إيمي ليست على ما يرام» قالت موضحة.

- «أخشى أن تكون إيمي مرهقة بسبب العمل» قال الكاهن «كانت دوماً عاملة نشيطة، ألا تتذكر يا دونالد؟».

رفع ماهون نظرة مرتبكة إلى وجه أبيه «إيمي؟» قال مردداً.

- ألا تتذكر إيمي؟

- «نعم، سيدي» ردد بنبرة خالية من المعنى.

(٧)

كانت الألواح الزجاجية للنافذة قد أصبحت صافية، بالرغم من استمرار هطول المطر، جلست بعد أن ترك الرجال المائدة وأخيراً استرقت إيمي النظر من خلال الباب، ثم دخلت، نهضت الأخرى من مكانها وانهمكتا كلتاهما بتنظيف المائدة، مع اعتراض لطيف من إيمي، وحملتا بقايا الوجبة المقطوعة إلى المطبخ. شمرت السيدة باورز ردنيها بخفة.

- «كلا، كلا، دعيني أقم بذلك» قالت إيمي معترضة «سوف تلوثين ثوبك».

- إنه ثوب قديم، لا ضير إذا تلوث.

- لا يبدو قديماً بالنسبة إلي. أعتقد أنه ثوب جميل للغاية - لكن هذا من واجبي. اذهبي أنت ودعيني أفعل ذلك.

- أعرف ذلك، لكن عليّ أن أفعل شيئاً ما وإلا سوف أصاب بالجنون، لا تهتمي بهذا الثوب، لست أبالي بذلك.

- «إنك ثرية، لست مضطرة للقيام بذلك، كما أعتقد» رددت إيمي ببرود وهي تتفحص الثوب.

- «هل يعجبك؟» لم تقل إيمي شيئاً «أعتقد أن الملابس من هذا النوع بالذات تناسب الناس الذين مثلك ومثلي على حد سواء، أليس كذلك؟».

- «لست أدري، لم أفكر أبداً في ذلك» قالت وهي تصب الماء في الحوض.

- «أقول لك شيئاً» قالت السيدة باورز، وهي تتفحص ظهر إيمي العريض القوي البنيان «لدي ثوب جديد في صندوقي لا يناسبني لسبب ما. عندما ننتهي من العمل، ربما يمكنك المجيء معي وسوف نجربه عليك، أعرف

الخياطة قليلاً، وبإمكاننا أن نجعله يناسبك تماماً، ما رأيك؟» تخلت إيمي عندئذ عن تحفظها من دون إدراك منها «ما فائدته بالنسبة إليّ؟ إنني لا أذهب إلى أي مكان، ولدي ملابس في حالة جيدة تناسب أعمال الغسل والكنس والطبخ».

- «أعرف، لكنه أمر جيد دائماً أن يكون لديك بعض الأشياء التي تجعلك تبدين جميلة، سوف أقرضك جواربَ وأشياء أخرى تخرجين بها، وقبعة أيضاً».

وضعت إيمي أطباقاً داخل الماء الحار وارتفع البخار من حول ذراعيها المتوردتين. «أين زوجك؟» سألت بعيداً عن الموضوع.

- لقد قتل في الحرب، يا إيمي.

- «أوه»، قالت. ثم أردفت بعد قليل: «وأنت ما تزالين في ريعان الشباب أيضاً» رفعت السيدة باورز بنظرة سريعة مشوبة بالعطف، أخوات في الأحزان (حبيبي دونالد قتل أيضاً) نهضت السيدة باورز بسرعة «أين منشفة الأكواب؟ لنذهب لكي نجرب ذلك الثوب عليك».

سحبت إيمي يديها من الماء وجففتهما على مريلتها «انتظري، دعيني أجلب لك مريلة أيضاً».

كان ثمة عصفور ملطخ بالوحل يحملق فيها من عريشة نجمة الصباح المتلألئة، وأدخلت إيمي المريلة من فوق رأسها ثم ربطت الخيطين عند الظهر. ارتفع البخار من جديد حول ساعدي إيمي، صار يطوق رأسها وكانت أطباق الصيني دافئة وبراقة وناعمة الملمس؛ التمع قدح من تحت منشفة السيدة باورز فانقض دفق فاتر من اللون الفضي على الضوء وخفق في حدقه ثم أخمده فيما كانتا تكرران الحديث عن الملابس وكأنهما راهبتان ترددان الصلوات.

عندما عبرتا باب غرفة القراءة أبصرتا الكاهن وابنه، وهما يحدقان بهدوء وسكينة في شجرة مخضلة بماء المطر، فيما كان جيليجان منبطحاً على ظهره فوق أريكة بالية يدخن ويقرأ.

(٨)

شكرتها إيمي بارتباك وقد أصبحت مجهزة لكافة اللوازم من رأسها إلى قدميها.

- «يا لرائحة المطر الزكية!» قاطعتها السيدة باورز «اجلسي للحظة أرجوك؟».

وعادت إيمي فجأة وقد أعجبتها أناقتها من حلم سندريلا «لا أقدر، لدي بعض الملابس في حاجة لأن أرتقها، لقد نسيت ذلك تماماً».

- أجلبي ملابسك تلك إلى هنا، وبهذا يمكننا أن نتحدث، لم أتحدث مع امرأة منذ شهور، مثلما يبدو لي، أجلبيها إلى هنا ودعيني أساعدك.

قالت إيمي وقد أشبع غرورها «لماذا تريدين القيام بالعمل بدلاً مني؟»

- لقد قلت لك إنني إذا لم أجد أي عمل أقوم به فسوف أغدو امرأة مجنونة خلال يومين، أرجوك إيمي، أسدي لي معروفاً هلا فعلت ذلك؟

- «حسنٌ، دعيني أحضرها» لملمت ثيابها وغادرت الغرفة ثم رجعت وهي تحمل سلة ثياب مكدسة، جلستا وقد وضعتا السلة بينهما.

- «إنها جواربه الكبيرة البائسة» رفعت السيدة باروز يدها المغطاة «كأنها أغطية كرسي، أليس كذلك؟».

ضحكت إيمي بمرح وهي منكبة على إبرتها، وتحت عصفات ريح ومطر قيلاشية تدريجياً عبر السقف كانت كومة الثياب المطوية والمرتقة بعناية تزداد باستمرار.

- «إيمي» قالت السيدة باورز بعد فترة من الزمن، «كيف كان دونالد يبدو من قبل؟ أنت كنت تعرفينه منذ مدة طويلة، أليس كذلك؟».

استمرت إبرة إيمي باللمعان بفتور وضآلة، وبعد وهلة انحنت السيدة باورز من فوق السلة ووضعت يدها تحت حنك إيمي، ورفعت وجهها المتدلي، أبعدت إيمي رأسها جانباً وانكبت ثانية على إبرتها. نهضت السيدة باورز وسحبت ستارة النافذة، فأصبحت الغرفة معتمة إزاء المساء المشط بالمطر، استمرت إيمي بالتحديق بصمت في الثوب الذي كانت ترتقه إلى أن أخذته المرأة الأخرى من يدها، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى صديقتها الجديدة بيأس بهيمي ضائع.

أمسكت السيدة باورز بذراعي إيمي وجذبتها حتى انتصبت واقفة «تعالي، يا إيمي» قالت وقد أحست بملمس العظام في ذارعي إيمي الصلبتين القويتين، كانت السيدة باورز تعرف أنه مع عدم وجود سرير في الغرفة فإن أية ألفة ومودة تنشأ عن الاسترخاء ستوصل حتماً إلى تبادل الثقة، لذا فقد سحبت إيمي لكي تجلس بالقرب منها على كرسي قديم عريض، ومع استمرار المطر الطائش الذي كان يملأ الغرفة بصوت رتيب مكتوم، أخذت إيمي تسرد قصتها بشيء من الاختصار.

- لقد كنا في المدرسة سوية - عندما كان يأتي على أية حال. كان لا يكاد يأتي أبداً، في أغلب الأحيان لم يكونوا قادرين على إجباره، كان ينطلق فحسب إلى الأرياف بمفرده، ولا يعود إلا بعد يومين أو ثلاثة، ويمضي الليالي بعيداً أيضاً وفي إحدى الليالي عندما - عندما -

تلاشى صوتها فقالت السيدة باورز: «عندما ماذا، يا إيمي؟ ألست تستعجلين في الكلام كثيراً؟».

- أحياناً كان معتاداً على العودة ماشياً من المدرسة معي. كان لا يضع قبعة ولا يرتدي معطفاً أبداً، وكان وجهه يبدو وكأنه - كما لو أنه كان ينبغي عليه أن يعيش في الغابات. تفهمين ليس كما لو أنه ينبغي عليه أن يذهب إلى المدرسة أو يلبس الملابس. ولذلك، فأنت لا تعرفين أبداً متى سترينه، كان يأتي إلى المدرسة في أي وقت تقريباً ويراه الناس في أماكن

بعيدة في الأرياف ليلاً، أحياناً كان ينام في منازل الناس في الأرياف وأحياناً يعثر عليه الزنوج نائماً في خنادق رملية، الجميع كانوا يعرفونه، وبعد ذلك في ذات ليلة.

- كم كان عمرك في ذلك الوقت؟

- كنت في السادسة عشرة وكان هو في التاسعة عشرة. وبعد ذلك في ذات ليلة.

- لكنك تستعجلين كثيراً في الكلام. خبريني عنك وعنه قبل ذلك. هل كنت معجبة به؟

- كنت معجبة به أكثر من أي شخص آخر. عندما كنا أصغر سناً عملنا ذات مرة على سد موضع في أحد الجداول وكونا حفرة للسباحة، وكنا معتادين على الذهاب إلى هناك يومياً، ثم كنا نستلقي على بطانية قديمة كانت لدينا، وننام حين يحين الوقت للنهوض والعودة إلى البيت، وفي الصيف كنا نمضي طوال الوقت معاً تقريباً. وبعدها في ذات يوم اختفى فجأة ولم يكن أحد يعرف أين هو. ثم جاء إلى خارج منزلنا ذات صباح، وكان ينادي عليّ.

- المشكلة هي أنني كنت دائماً أكذب على والدي بشأن المكان الذي أذهب إليه وكنت أمقت ذلك، وكان دونالد دائماً يخبر والده بالحقيقة، ولم يكذب أبداً بشأن أي شيء يفعله، لكن كان أشجع مني، كما أعتقد.

- وبعد ذلك عندما كنت في الرابعة عشرة عرف والدي كم كنت مغرمة بدونالد، ولذلك فقد أخرجني من المدرسة وأبقاني في البيت طول الوقت. لذلك فلم أكن أرى دونالد إلا نادراً. جعلني والدي أعده بأني لن أخرج معه بعد ذلك. كان قد أتى ليراني مرة أو مرتين وأخبرته بأني لا أستطيع الخروج، وذات يوم أتى وكان والدي في البيت.

- ركض أبي خارجاً نحو البوابة، وقال له ألا يأتي يتسكع هناك بعد

الآن. لكن دونالد تصدى له، لم يتصرف بحماقة، لكنه تصرف كما لو أن أبي كان مجرد ذبابة أو شيء من ذلك لهذا فقد دخل أبي إلى المنزل وهو يستشيط غضباً، وقال إنه لن يسمح أبداً بمثل هذا اللهو مع بناته، وانهال عليّ ضرباً وبعد ذلك شعر بالندم وأخذ يبكي (كان ثملاً، تفهمين هذا). وجعلني أقسم ألا أرى دونالد مطلقاً مرة ثانية. واضطررت لفعل ذلك. لكني فكرت في مدى السعادة التي كنا فيها، وتمنيت أن أموت.

- ولذلك فلم أعد أرى دونالد لفترة طويلة. وبعد ذلك قال بعض الناس بأنه سوف يتزوج في تلك.. تلك.. هي كنت أعرف بأن دونالد لم يكن يكترث كثيراً لي. لم يكن يكترث أبداً لأي أحد من الناس. لكن عندما سمعت بأنه سيتزوج منها..

- على كل حال، لم أنم كثيراً ليلتها، ولذلك فقد كنت أجلس في الشرفة بعد أن أخلع ملابسي لمرات كثيرة، أفكر فيه وأراقب القمر وهو يصير أكبر ليلة بعد أخرى، وبعدها ذات ليلة من الليالي، عندما كان القمر بدراً تقريباً، وبوسعك أن تري كما في النهار تقريباً، رأيت شخصاً ما يمشي متجهاً نحو بوابتنا ويقف هناك. وعرفت بأن ذلك هو دونالد، وعرف هو بأني كنت هناك لأنه قال:

- تعالي إلى هنا، يا إيمي.

- وذهبت إليه، وكان ذلك كما لو أننا قد عدنا إلى أيامنا الخوالي لأني نسيت كل شيء عن زواجه منها، لأنه كان ما يزال يحبني، لأنه عاد إليّ بعد كل تلك المدة الطويلة. وأمسك بيدي ومشينا سوية على الطريق، من دون أن ننبس ببنت شفة. وبعد فترة قصيرة وصلنا إلى المكان الذي ينعطف فيه الطريق، ويتجه صوب الحفرة التي كنا نسبح فيها، وعندما زحفنا من تحت السياج تعلق بثوب نومي وقال «اخلعيه» وفعلت ذلك، ووضعناه على شجرة خوخ وذهبنا.

- كان الماء يبدو في غاية الرقة تحت ضوء القمر ولم يكن بإمكانك أن

تعريـ في أين كـان الماء إلا بصعوبة، وسبحنا لفترة طويلة وبعد ذلك خبأ دونالـد ملابسـه هـو أيضـاً، وصـعدنا إلى قمـة إحدى الـتلال. كـل شـيء كـان يبـدو جميلاً جداً، والعشب ناعم الملس تحت قدميك، وفجأة أخذ دونالد يـركض أمامي. كـان بوسعي اللحاق بدونالـد عنـدما أريـد ذلـك، لكـن لسـبب مـا لم أرغب بذلك في تلك الليلة، لهذا فقد بقيت جالسة، كـان يمكنني رؤيته وهو يعدو على قمة التل، وجسده يلمع تحت ضوء القمر، ثم عاد مهرولاً إلى أسفل التل باتجاه الجدول.

- ولذلك فقـد بقيت مستلقية هنـاك. لم أكـن أستطيع أن أرى أي شـيء سوى السماء، ولست أعرف كم مضى من الوقت عنـدما رأيت وجهـه فجـأة وقد حجب صفحة السـماء من فوقي، وكـان جسـده مبللاً ثانيـة واسـتطعت رؤية ضوء القمر كـأنه يتراقص على كتفيه وذراعيه المقطـرتين مـاء، وأخذ ينظر إليّ. لم أستطع أن أرى عينيه، لكـن كـان بوسعي الإحسـاس بهما على نحو ما كـأنهما أشياء تلامسني عندما ينظر إليك.. تشعرين بأنك مثل طير، على نحو ما كما لو أنك تقتلعين تماماً من الأرض أو شيئاً قبل ذلك. لكـن الآن كـان ثمة شـيء مختلف أيضاً. كـان يأخذني أن أسمع صوته وهـو يلهث من الـركض، وأن أشعر بشـيء مـا في داخلـي يلهث أيضـاً. كنـت خائفـة ولم أكن خائفة. كما لو أن كل شيء كـان ميتاً سوانا نحن. ثم قال:

- إيمـي، إيمـي.

- شيء مثل ذلك. وبعدهـا.. وبعدهـا..

- نعم. وبعدهـا مارس الحب معك.

اسـتدارت إيمـي فجـأة، وضـمتها الأخـرى إلى صـدرها «والآن لا يكـاد يعرف من أكون، لا يعرف حتى من أكون!». وأجهشت بالبكـاء.

حضـنتها السـيدة بـاورز وأخـيراً رفعـت إيمـي يـدهـا وأبعـدت شـعرهـا عـن وجهها «وبعد ذلك؟» ألحت السيدة باورز.

- بقينا مستلقيين هناك وقد ضم أحدنا الآخر، وأحسسنا بسـكون تـام،

براحة تامة، وجاءت بعض الأبقار وأخذت تنظر إلينا ثم مضت. وكان بإمكاني أن أشعر بيده وهي تنزلق ببطء من كتفي على جبيني وتمتد إلى أقصى ما تستطيع ثم تعود ثانية، ببطء، ببطء. لم نتكلم أبداً، فقط كانت يده تمتد إلى جبيني صاعدة ونازلة، رقيقة للغاية وهادئة. وبعد فترة قصيرة كنت أغط في نوم عميق.

- ثم أفقت. كان ذلك عند الفجر وكنت أحس بالمغص والبرد، كنت مبللة، وكان قد ذهب.. لكني عرفت بأنه سيعود، وهكذا فقد عاد، حاملاً معه بعض ثمار العليق، أخذنا نأكل ونراقب انتشار الضوء في جهة الشرق. بعد ذلك عندما انتهت ثمار العليق كان بوسعي الإحساس بالعشب البارد، الندي من تحتي مرة أخرى، وأن أرى السماء وقد اكتست بأكملها بلون أصفر يبعث القشعريرة في الجسم من وراء رأسه.

- بعد فترة وجيزة رجعنا قريباً. من حفرة السباحة وارتدى هو ملابسه وأتينا بثوب نومي وارتديته. كان الضوء ينتشر بسرعة وأراد المشي معي طول الطريق إلى البيت، لكني منعته من ذلك، لم أكن أبالي بما حصل لي الآن. وعندما مررت من خلال البوابة كان أبي يقف هناك على الشرفة.

- صمتت. بدا أن قصتها قد انتهت. أخذت أنفاسها تتصاعد بانتظام مثل طفلة على كتف المرأة الأخرى.

- «وماذا حدث بعد ذلك، يا إيمي؟» قالت السيدة باورز بإلحاح ثانية.

- حسنٌ، عندما وصلت إلى الشرفة توقفت وقال هو: «أين كنت؟» فقلت: «هذا ليس من شأنك» فقال: «أيتها العاهرة، سأضربك حتى الموت» فقلت: «المسني فقط» لكنه لم يفعل ذلك. اعتقد أني كنت سأقتله لو فعل ذلك. دخل إلى المنزل ودخلت أنا أيضاً وارتديت ملابسي، وحزمت أمتعتي، وغادرت ولم أرجع إلى هناك منذ ذلك الحين أيضاً.

- ما الذي فعلتِه إذن؟

- حصلت على عمل من خياطة الملابس لدى خياطة تدعى السيدة ميلر،

وسمحت لي بالمبيت في محلها إلى أن أتمكن من جمع بعض النقود لم أكن قد أمضيت هناك أكثر من ثلاثة أيام عندما أتى ذات يوم السيد ماهون. قال إن دونالد قد أخبره بشأننا وأن دونالد قد ذهب إلى الحرب، وأنه قد جاء من أجلي، لذلك فقد عشت هنا منذ ذلك الوقت، ولذلك فلم أرَ دونالد بعد ذلك، والآن هو لا يكاد يعرفني أبداً.

- «أيتها الطفلة المسكينة» قالت السيدة باورز، ورفعت وجه إيمي كان وجهاً هادئاً. بريئاً وطاهراً. لم تكن تحس بعد ذلك بالتفوق على الفتاة؛ وفجأة قفزت إيمي على قدميها ولملمت الملابس المرتقة «انتظري، إيمي» صاحت بها، لكن إيمي كانت قد اختفت.

أشعلت سيكارة وجلست تدخن بتراخ في غرفتها الواسعة المعتمة بمجموعة أثاثها غير المتجانسة، بعد فترة قصيرة نهضت لكي تزيح الستائر؛ كان المطر قد توقف وثمة رماح طويلة من ضوء الشمس تحدق ذلك الوميض البراق الصافي الذي كان يعصف به الهواء وسط الأشجار التي تقطر ماء.

سحقت سيكارتها ولمحت وهي تنزل درجات السلم شخصاً غريباً ينسل متراخياً للوراء. وقال الكاهن بقنوط وهو يستدير من الباب ويحدق فيها:

- إنه لا يعطينا الكثير من الأمل بشأن بصر دونالد.

- «لكنه مجرد طبيب عام، سوف نأتي بأخصائي من أتلانتا» قالت تشجعه وقد لامست كُمَّه.

وهنا جاءت الآنسة سيسلي سوندرز تمشي بخطى وئيدة رشيقة على الممر الذي كان قد جف سريعاً. وسط العشب المتألق بصفاء ونضارة.

(٩)

جلست سيسلي في غرفتها وقد ارتدت بنطلوناً قصيراً واسعاً من الساتان الشاحب اللون وسترة رقيقة برتقالية. وكانت ساقاها النحيلتان مرفوعتين على ذراع كرسي آخر، فيما هي منهمكة بقراءة كتاب. فتح أبوها الباب من دون أن يقرعه، حدق فيها باستهجان صامتاً، واجهت هي نظراته المحدقة للحظة، ثم أنزلت ساقيها.

ـ «هل تجلس الفتيات المهذبات نصف عاريات هكذا؟» سأل ببرود، ألقت كتابها جانباً ونهضت.

ـ «ربما لا أكون فتاة مهذبة» ردت بوقاحة، راقبها وهي تلف جسدها النحيل برداء رقيق شفاف.

ـ أتصور أنك تعتبرين ذلك تعديلاً لوضعك، أليس كذلك؟

ـ «يتوجب ألا تدخل إلى غرفتي من دون أن تقرع الباب، يا أبي» قالت له باغتياظ.

ـ «ليس بعد الآن، إذا كنت تجلسين فيها على هذا النحو»، عرف أنه كان يخلق جواً غير محببٍ لأن يقول فيه ما أراد قوله، لكنه شعر بأنه مجبر على الاستمرار، «هل يمكنك أن تتخيلي أمك وهي جالسة في غرفتها نصف عارية هكذا؟».

ـ «لم أفكر أبداً في ذلك». انحنت فوق رف الموقد وهي تتصنع التهذيب بعض الشيء. «لكن يمكنني ذلك إن أردت».

جلس «أريد التحدث إليك، سيسي» كانت لهجته قد تغيرت وانحدرت هي إلى أسفل السرير وقد لفت ساقيها تحتها، محدقة فيه بشيء من

العدوانية، يا لي من رجل أخرق، فكر مع نفسه، وهو يتبجج «إن الأمر يتعلق بماهون».

نظرت إليه.

- لقد رأيته ظهيرة هذا اليوم، كما تعلمين.

كانت ترغمه على أن يتحمل عبء الكلام كله، اللعنة، يا للقدرة المذهلة التي لدى الأطفال لأن يجعلوا العتاب الأبوي شيئاً صعباً، وحتى توي كان هو الآخر يكتسب تلك القدرة بالتدريج.

كانت عينا سيسلي خضراوتين ولا يمكن سبر غورهما. مدت ذراعها وتناولت مبرد أظافر من مزينتها. كان انهمار المطر قد توقف؛ وصار صوته مجرد همسة في الأوراق النقدية، أحنت سيسلي رأسها فوق الإيماءة الرشيقة الهزيلة ليديها.

- «أقول إني رأيت الفتى ماهون اليوم» أعاد أبوها قوله بغضب متزايد.

- «حقاً؟ كيف كان يبدو، يا أبي؟» كانت نبرة صوتها رقيقة، بريئة بحيث أنه تنهد بشيء من الارتياح، رمقها بنظرة حادة، لكن وجهها كان منخفضاً بعذوبة واحتشام، كان بوسعه فقط أن يرى شعرها وقد غرق في أضواء دافئة ضاربة إلى الحمرة ومستوى خدها المنبسط قليلاً وذقنها الناعم، الباهت.

- ذلك الفتى في حالة يرثى لها، يا سيسي.

- «وأبوه المسكين» قالت مواسية من فوق يديها المنشغلتين بشيء ما «إنه أمر في غاية الصعوبة بالنسبة إليه، أليس كذلك؟».

- أبوه لا يعرف شيئاً.

نظرت بسرعة إلى الأعلى وصارت عيناها كئيبتين ومعتمتين أكثر عتمة من ذي قبل. رأى أنها لم تكن تعرف أيضاً «لا يعرف؟» قالت ثانية: «كيف يحتمل رؤية ذلك الجرح؟» وصار وجهها أكثر شحوبة ولامست يدها صدرها برقة «هل تعني...»

- «كلا، كلا» قال على عجل. «أعني أن أباه يعتقد.. أن أبوه لا يعتقد.. أعني أن أباه نسي أن رحلته قد أتعبته، أنت تفهمين؟» أنهى كلامه بارتباك. ثم تابع يقول بسرعة: «هذا ما أردت التحدث إليك بشأنه».

- بشأن ارتباطي به؟ كيف يمكنني ذلك، مع وجود ذلك الجرح؟ كيف يمكنني ذلك؟

ـ كلا، كلا، ليس ارتباطك به، إذا كنت لا تريدين ذلك. إننا لا نفكر في الخطوبة أبداً الآن. لكن فقط استمري في رؤيته إلى أن يتحسن، أنت تفهمين هذا.

- لكن، يا أبي، لا أستطيع، لا أستطيع أبداً.

- لماذا، يا سيس؟

ـ «أوه، وجهه، لا أستطيع تحمل رؤية وجهه بعد الآن». كان وجهها منتفضاً تعتصره ذكريات اشمئزاز سابق «ألا تفهم بأني لا أستطيع؟ لو كنت أستطيع ذلك لفعلت».

ـ لكنك ستعتادين على ذلك. وأنا أتوقع أن يتمكن طبيب ماهر من معالجته وإخفاء أثر جرحه. الأطباء قادرون على فعل أي شيء في هذه الأيام. حقاً، يا سيس، إنك الشخص الوحيد الذي يستطيع فعل شيء أكبر من أجله في هذا الوقت من أي طبيب.

أحنت رأسها وألقت ذراعيها على السكة السفلى للسرير ووقف أبوها بجانبها، واضعاً ذراعه حول جسدها النحيل المفعم بالعصبية.

- أليس بإمكانك القيام بذلك، يا سيس؟ فقط اذهبي لزيارته ورؤيته بين الحين والآخر؟

- «لا أستطيع أبداً» قالت وهي تكاد تئن أنيناً «لا أستطيع أبداً».

ـ حسنٌ إذن، أعتقد أنك لا تستطيعين رؤية ذلك الفتى، بعد الآن كذلك.

رفعت رأسها بسرعة وصار جسدها أكثر توتراً تحت ذراعيه. «ومن

يقول بأني لا أستطيع ذلك؟».

- «أنا الذي أقول هذا، يا سيس» أجاب بصوت رقيق وثابت.

أصبحت عيناها أكثر ازرقاقاً نتيجة الغضب، كانتا سوداوين تقريباً.

- «لا يمكنك أن تمنع ذلك، تعرف أنه لا يمكنك ذلك» ودفعت نفسها إلى الوراء على ذراعه، محاولة التملص منه، أمسكها فأدارت رأسها جانباً وهي تقاوم للتخلص منه.

- «انظري إليّ» قال بهدوء، ووضع يده الأخرى تحت وجنتها، قاومت فأحس بأنفاسها الدافئة وهي تلهث على يده، لكنه أدار رأسها عنوة. واجهه بريق عينيها مباشرة «إذا كنت لا تستطيعين رؤية الرجل الذي خُطبت إليه بين الحين والآخر، وهو رجل مريض علاوة على ذلك، فليلعنني الله إن سمحت لك بالتسكع هنا وهناك مع أي شخص آخر».

كان ثمة آثار حمراء تركتها أصابعه على وجنتها وسرعان ما اغرورقت عيناها بالدموع «إنك تؤلمني» قالت، وهو يحس بملمس حنكها الناعم، الباهت في راحة يده وبجسدها الهش يتلوى بين ذراعيه، وداهمته فجأة نوبة ندم، حملها بين ذراعيه وجلس ثانية على كرسي ووضعها على حجره.

- «هيا، اهدئي» همس مهدهداً ووضع وجهها على كتفه، «لم أقصد أن أكون بهذه القسوة».

ارتمت نحوه بضعف، بكت، وتخلل ذلك صوت المطر شاغلاً الفسحة الزمنية، هامساً من خلال السقف، وسط أوراق الشجر وبعد فترة طويلة كان بوسعهما في غضونها سماع إفريز يقطر، وصوت الميازيب الشجن، وساعة عاجية صغيرة في الغرفة، ثم تحركت، وبينما كانت ما تزال تضع وجهها على معطفه، حضنت أباها بعنف.

- «لن تفكر في ذلك بعد الآن» قال لها وهو يقبل خدها. وحضنته مرة ثانية بشدة، ثم انزلقت من حضنهِ؛ ووقفت أمام المزينة، وأخذت تضع مسحوق تجميل على وجهها برفق. نهض هو وعلى المرآة من وراء كتفها رأى

وجهها الملطخ ويديها المتحركتين بعصبية وبرشاقة. «لن تفكر في ذلك بعد الآن» أعاد قوله ثم فتح الباب. كانت السترة البرتقالية تشكل توهجاً حرارياً كامداً تحت النسيج الوهمي الخادع لردائها، صاغت صورة ظهرها النحيل، فيما كان يغلق الباب خلفه.

عندما مر بغرفة زوجته صاحت به.

- «لماذا كنت توبخ سيسلي، يا روبرت؟» سألت.

لكنه هبط درجات السلم بتثاقل متجاهلاً إياها، وسرعان ما سمعته يعنف ثوبي في الشرفة الخلفية.

دخلت السيدة سوندرز غرفة ابنتها فوجدتها ترتدي ملابسها على عجل. اخترق ضوء الشمس حاجز المطر فجأة، وأصدرت الزجاج الطويلة لضوء الشمس والتي اخترقت الهواء المغسول النقي وميضاً براقاً وسط الأشجار التي ما زالت تقطر ماء.

- «إلى أين أنت ذاهبة، يا سيسلي؟» سألتها.

- «لكي أرى دونالد» أجابت وهي تسحب جواربها وتلفها بمهارة ورشاقة على الركبتين.

(١٠)

كان جانيواريوس جونز يتسكع على العشب الندي، دار حول المنزل وشاهد وهو يدقق النظر من خلال نافذة المطبخ، ظهر إيمي وذراعاً مرفوعة تقطع جسدها جيئة وذهاباً. ارتقى درجات السلم بهدوء ودخل. كانت نظرة إيمي المحدقة فوق مكواتها المتوازنة تومئ بالتهيؤ المبهم للوثوب والقتال. داهمتها عينا جونز الجريئتان بلا احتشام أو وجل وتفحصتا لوح الكوي وأرجاء المطبخ الفارغ. قال جونز:

- حسنٌ، يا سندريلا.

- «اسمي إيمي» قالت له ببرود.

«ذلك صحيح» قال موافقاً برصانة، «إنه كذلك، إيمي، إيميلين، إيميليون، ليوني - (aucune rancune La lune en garde) لكن هل هو كذلك؟ أو لربما تفضلين (Noir sur la lune?) أم هل تحبذين تميزاً أكثر جمالاً أو أقل من هذا؟ ربما أمكن تلحين هذا على موسيقا الجاز أيضاً تعرفين؟ لقد فكرت آيليا بذلك، على نحو موفق تماماً. لكن من ذلك الوقت كانت لديها نافذة ذات أبواب تتكئ عليها عند الغسق، وتعزف ألحان أحزانها على أوتار شعرها الذهبي. لا يبدو أن لك أي شعر ذهبي، لكن ربما أمكنك عندئذ أن تسدلي شعرك قليلاً بشيء من الانتعاش أيضاً، آه، يا لهذا الجيل المشاكس الجديد! يريد أن يجعل كل شيء يرقص، ليس فقط عقدهم، لكن مؤخراتهم أيضاً.

أدارت ظهرها إليه بلا اهتمام، ومرة ثانية أخذت ذراعها تحرك المكواة بثبات واتساق على القماش المفروش، أصبح ساكناً جداً بحيث أنها بعد مدة

قصيرة استدارات لكي ترى ما الذي يمكن أن يكون قد حدث له. كان قريباً تماماً من ظهرها حتى أن شعرها كان يحتك بوجهه. صرخت وهي تمسك بمكواتها.

- «هاه، يا جميلتي المتكبرة!» قال جونز باستهجان وبأسلوب ينم عن الرضا والاعتداد بالنفس ولف ذراعيه حولها.

- «دعني أذهب!» قالت وهي تحملق فيه بغضب.

- «(كلامك فيه خطأ)» قال لها جونز وكأنه يقدم لها المساعدة. «(أطلق سراحي أيها الوغد، وإلا فلن تلم إلا نفسك)»، ذلك ما ينبغي عليك قوله».

«دعني أذهب» قالت ثانية.

- «ليس قبل أن تبوحي بتلك الأسرار» أجاب، كان سميناً ومرعباً، وعيناه الفاحشتان خاليتان تماماً من التعبير مثل عيني رجل ميت.

- «دعني أذهب، وإلا فسوف أحرقك» صاحت بعنف ولوحت بالمكواة مهددة. أخذا يحدقان في بعضهما بعضاً، كانت عينا إيمي عنيدتين إلى حد رهيب وقال جونز أخيراً:

- اللعنة، لا أصدق بأنك ستفعلين ذلك.

- «انظر إن كنت لن أفعلها» قال بغضب، لكنه أطلقها، وقفز بعيداً في الوقت المناسب. مسدت بيدها المتوردة على شعرها ابتداء من وجهها الهائج ورفقته عيناها بنظرات محرقة «اخرج، الآن» قالت بلهجة آمرة، ومشى جونز صوب الباب بخطوات وئيدة، وقال بصوت يبدو حزيناً:

- ما الذي دهاك أيتها اللبوة هنا؟ أنتن قطط متوحشة، قطط متوحشة. لكن بالمناسبة، كيف حال البطل المحتضر هذا اليوم؟

- «اغرب الآن عن وجهي» قالت ثانية ملوحة بالمكواة، انسلَّ خارجاً من الباب وأغلقه خلفه، ثم فتحه مرة أخرى وانحنى لها بمكر بجسده البدين من العتبة، وانسحب.

عند المدخل المظلم توقف وأخذ يصغي، سقط ضوء تسلل من الباب

الأمامي مباشرة على وجهه، كان بوسعه أن يرى علامات محددة فحسب لأثاث متناثر هنا وهناك، توقف وأصغى، كلا، إنها ليست هنا. حدث نفسه بتوكيد. ليس هناك حديث كثير ينبئ بوجودها. تلك المرأة تكره الصمت مثلما تكره القطة الماء. سيسلي والصمت، الزيت والماء. إنها ستكون طافية فوقه حتماً. تلك العاهرة الصغيرة، أتساءل ما الذي كانت تقصده يوم أمس، وجورجي أيضاً، إنها عاملة نشيطة بحيث يتطلب الأمر المزيد من الصبر لكي تجعلها تستجيب لما تهواه، أوه حسناً، هناك دائماً نجد آتياً، خاصة عندما لا يكون اليوم قد انتهى بعد، ادخل واسحب كلب الداني(*) من ساقه للحظة.

عند باب غرفة القراءة التقى بجيليجان. لم يتعرف إليه في بداية الأمر.

- «يا إلهي!» قال أخيراً «هل تسرح الجيش الآن» ما الذي سيفعله بيرشنغ بعد الآن، من دون أي جنود يؤدون له التحية؟ كان لدينا رجال بالكاد يكفون لأن تخوض حرباً بهم، لكن مع حلول سلام طويل الأمد من أمامنا.. يا رجل، نحن عاجزون».

قال جيليجان ببرود: «ما الذي تريده؟».

ـ ماذا؟ لا شيء، شكراً. أشكرك كثيراً. لقد أتيت فقط لزيارة صديقتنا الشابة التي في المطبخ وأن أسأل عرضاً عن أحوال أخ هرمس.

- أخو من؟

- ذلك الفتى السيد ماهون بعبارة أخرى إن شئت.

ـ «إن الطبيب معه» رد جيليجان بجفاء «لا يمكنك الدخول الآن» واستدار على عقبيه.

- «لا شيء أبداً» تمتم جونز بعد رحيل الآخر «لا شيء أبداً، يا رفيقي العزيز» تثاءب وأخذ يتمشى في الصالة، ثم وقف عند المدخل متفكراً وهو يعبئ غليونه، تثاءب ثانية بحركة أكثر. على يمينه كان ثمة باب مفتوح،

(*) الداني: كلب قوي ناعم الشعر قصيره.

فولج من فوره إلى غرفة فاسدة الهواء تتسم موجوداتها بطابع رسمي. هناك ثمة رف نافذة ملائم لوضع أعواد الثقاب المهملة عليه، جلس بالقرب منها ورفع قدميه على كرسي آخر.

كانت جدران الغرفة مرصوفة بصور معلقة لأسلاف شخص ما، بدا له أن الصلة الرئيسة التي تربط فيما بينها ما هي إلا شيء يسبب متاعب في المعدة. أو لربما كانت صوراً شخصية لذلك الملاح القديم في عصور سحيقة قبل أن يبلى قطرسه (ليس هناك سمكة ميتة يمكن أن تجعل المرء يبدو هكذا، فكر جونز مستتكراً المراوغة النكرة لعيونهم المضطربة المختلفة الألوان. لا عجب في أن الكاهن يؤمن بالجحيم) إن البيانو الذي لم يكن قد فتح لسنوات، ثم فتح أخيراً ربما يمكن أن يبدو مثل تلك الوجوه الجامدة. نهض جونز ومن خزانة كتب أخرج نسخة من (الفردوس المفقود) (إنه لشيء مبهج تواجه به مرتكب الخطيئة، فكر) وعاد إلى كرسيه. كان الكرسي صلباً لكن جونز لم يكن كذلك، رفع قدميه ثانية.

دخل الكاهن مع شخص غريب وأصبح ضمن مرمى البصر، وقفا عند الباب الأمامي يتجاذبان أطراف الحديث. غادر الرجل الغريب ثم ظهرت تلك المرأة السمراء. تبادلت مع الكاهن بضع كلمات. نظر جونز بإعجاب متثاقل، بشهوانية إلى مؤخرتها المكتنزة المتهادية برشاقة، و...

وهنا جاءت الآنسة سيسلي سوندرز وقد ارتدت ثوباً أرجوانياً شاحباً بشريط أخضر عند خصرها. مشت بخطوات خفيقة على الممر المغطى بالحصى والذي جف سريعاً بين الحشائش التي التمعت بضوء صاف.

- «أيها العم جو!» صاحت. لكن الكاهن كان قد انسحب إلى غرفة القراءة، قابلتها السيدة باورز وقالت: «أوه، كيف حالك! هل يمكنني رؤية دونالد!».

دخلت إلى الصالة تحت النافذة المروحية المعتمة بشكل يبعث البهجة ولاحظت بنظراتها الجوالة شخصاً يجلس، وظهره إلى إحدى النوافذ. قالت

«دونالد!» ومشت برزانة في الغرفة كأنها طائر. كانت إحدى يديها تغطي عينيها والأخرى ممدودة وهي تركض بخطوات سريعة خفيفة وهبطت أمامه عند قدميه، ودفنت وجهها في حضنه.

- «دونالد، دونالد! سأحاول أن أعتاد على ذلك، سأحاول أوه دونالد، دونالد! يا لوجهك البائس! لكني سأحاول، سأحاول». كانت تكرر كلماتها بشكل هسيتري. ولامست يدها المرتبكة كمه ثم انزلقت على ذراعه، وسحبت يده ووضعتها تحت خدها احتضنتها «لم أقصد ذلك» يوم أمس لم أتعمد الإساءة إليك مهما حصل من الأمور، دونالد. لم أستطع تمالك نفسي، لكني أحبك، دونالد، يا عزيزي الغالي، يا حبيبي». وغاصت أعمق في حضنه.

- «ضع ذراعيك حولي، يا دونالد» قالت: «لكي أعتاد عليك ثانية».

استجاب لها وسحبها إلى الأعلى، وفجأة صعقها منظر شيء مألوف كامن داخل معطف، رفعت رأسها كان ذلك جانيواريوس جونز.

قفزت عندها على قدميها «أنت أيها الوحش لماذا لم تقل لي؟».

- سيدتي العزيزة، من أنا حتى أرفض ما ترسله لي الآلهة؟ لكن لم تنتظر لكي تصغي إليه. عند الباب وقفت السيدة باورز تراقب ما يجري باهتمام، الآن هي تضحك عليّ! فكرت سيسلي بغضب، كانت نظراتها المصوبة كأنها خنجر مسموم أزرق، وصوتها كأنه عسل مقطر.

- «يا لسخافتي، لم أنظر إليه» قالت بصوت عذب «حين رأيتك فكرت لأول وهلة أن دونالد ربما يكون قريباً، إنني واثقة من أني لو كنت رجلاً فإني سأكون دائماً أقرب ما يمكنني منك. لكني لم أعرف أنك والسيد.. السيد سمث كنتما صديقين حميمين إلى هذا الحد. بالرغم من أنهم يقولون إن الرجال البدينين جذابون إلى درجة بغيضة. هل لي أن أرى دونالد.. أتسمحين لي؟».

منحها غضبها شيئاً من الجلد والثبات. وعندها ولجت إلى غرفة القراءة

أخذت تنظر إلى ماهون من دون وجل أو اشمئزاز. ذلك الجرح وكل شيء. رحبت بالكاهن، قبلته، ثم استدارت بسرعة ورشاقة إلى ماهون. متجنبة قدر الإمكان أن تقع عيناها على جبينه، راقبها هو بهدوء، بلا عواطف.

لقد جعلتني أبدو غبية، قالت له بحنق رقيق هامسة، وقبلت فمه بعذوبة.

أما جونز الذي تم تجاهله، فقد تبعهم نحو الصالة ووقف خارج الباب الموصد المؤدي إلى غرفة القراءة، مصغياً لكلامها المندفع بسرعة والصادر من أعماقها خلف لوح الباب غير السميك، ثم انحنى واسترق النظر من خلال ثقب المفتاح، لكنه لم يتمكن من رؤية شيء، وأحس بمستوى نصرة المتجعد يعيق تنفسه، أحس بحمالة بنطلونه تخزه عند كتفيه المتهدلين المكتنزين لحماً، نهض تحت نظرة جيليجان المتفرسة، المتأملة بلا اكتراث. أصبحت عينا جونز الفاحشتان خاويتين بهدوء غريب وتمشى هنا وهناك بالقرب من جيليجان المتربص هناك بلا حراك ثم اتجه صوب الباب الأمامي وهو يطلق صفيراً لا إرادياً.

(١١)

عادت سيسلي سوندرز إلى البيت وهي تداري جمرات غضبها التي لم يبرد بعد. ومن وراء الزاوية المنحرفة للشرفة صاحت أمها باسمها ووجدت والديها يجلسان معاً.

- «كيف حال دونالد؟» تساءلت أمها، ولما كانت لا تريد انتظار الرد، قالت: «لقد اتصل جورج ثانية بعد مغادرتك. أود لو تتركين رسالة له. ذلك يجعل ثوبي يتوقف باستمرار عن عمل أي شيء مزعج عندما يرد على الهاتف».

لم ترد سيسلي بأي شيء. كانت تنوي العبور إلى تلك النافذة الفرنسية التي تنفتح على إحدى الشرفات، لكن أباها أمسك بيدها وأوقفها.

- «كيف يبدو دونالد اليوم؟» سأل مكرراً قول زوجته.

حاولت يدها المتراخية أن تنسحب من يده «لست أدري ولا اكترث لذلك» قالت بخشونة.

- «لماذا، ألم تذهبي إلى هناك؟» كان صوت أمها مشوباً بشيء من الدهشة. «لقد تصورت بأنك ذاهبة إلى هناك».

- «دعني أذهب، يا أبي» انتزعت يدها بعصبية «أريد أن أبدل ملابسي» كان بوسعه أن يحس بعظامها المتوترة الفظة «أرجوك» قالت بتوسل وقال هو:

- تعالي هنا، سيس.

- «مهلاً، روبرت» قالت زوجته معترضة «لقد وعدت بأن تتركها وشأنها».

- «تعالي هنا سيس» قال ثانية، وتراخت يدها وتركت نفسها تتهاوى على ذراع كرسيه، جلست بعصبية وجزع، ووضع ذراعه حولها. «لماذا لم تذهبي إلى هناك؟».

- «مهلاً، روبرت، لقد وعدت» رددت زوجته قولها كالببغاء بلا جدوى.

- «دعني أذهب، يا أبي» كان جسدها متوتراً تحت ثوبها الرقيق الشاحب اللون. لكنه تمسك بها فقالت: «لقد ذهبت إلى هناك بالفعل».

- هل رأيت دونالد؟

- أوه، نعم، تلك المرأة السوداء القبيحة تلطفت أخيراً بأن سمحت لي برؤيته لبضع دقائق. في أثناء وجودها معنا طبعاً.

- «تلك المرأة السوداء القبيحة، يا عزيزتي؟» سألت السيدة سوندرز باهتمام.

- امرأة سوداء؟ أوه، تقصدين السيدة... لا أعرف اسمها، عجباً، سيس تصورت بأنك وهي ستحبان بعضكما بعضاً. إن لها عقلاً راجحاً، كما أعتقد.

- لست أشك في ذلك. لكن..

- أية امرأة سوداء، يا سيسلي؟

... لكن من الأفضل لك ألا تدع دونالد يتصور بأنك مهتم بها.

- مهلاً، مهلاً، سيس ما الذي تتحدثين عنه؟

- «أوه، إنه لشيء طبيعي أن أتحدث بهذه الطريقة» قالت وهي في غاية التوتر والانفعال. «لكن أليس لدي عينان في رأسي؟ ألم أكن قد رأيت كل شيء بعيني؟ لماذا يا ترى قطعت كل تلك المسافة من شيكاغو أو أيٌ كان ذلك المكان معه؟ ومع ذلك أنت تتوقع مني...».

- «من الذي أتى ومن أين؟ أي امرأة، سيسلي؟ أي امرأة، روبرت؟» كان يتجاهلها.

ـ حسنٌ، يا سيس، أنت لست منصفة لها، أنت منفعلة فحسب،

أمسكت ذراعه جسدها المتوتر الهش.

- «أقول لك، الأمر ليس هكذا.. هي فقط، لقد سامحته، لأنه مريض وبسبب الطريقة التي كان معتاداً عليها في التعامل مع الفتيات، أنت تعرف هذا، قبل الحرب، لكنه أذلني علانية، في ظهيرة هذا اليوم كان.. كان.. دعني أذهب، يا أبي» قالت ثانية متوسلة، محاولة دفع نفسها بعيداً عنه.

- «لكن أي امرأة، سيسلي؟ ما كل هذا الذي يقال عن امرأة؟» كان صوت أمها ساخطاً.

- «سيس، حبيبتي، تذكري أنه مريض، وأنا أعرف أشياء أكثر عن السيدة.. السيدة باورز مما تعرفين أنت» رفع ذراعه عنها، لكنه كان ما يزال يمسكها من الرسغ «حسنٌ، أنت...».

- روبرت من هذه المرأة؟

- ... فكري بالأمر الليلة وسوف نتحدث فيه ثانية عند الصباح.

- «كلا، لقد انتهى أمره بالنسبة إليّ، أقول لك. لقد أذلني أمامها» وصارت يدها حرة وقفزت صوب النافذة.

- «سيسلي؟» صاحت أمها بعد تلاشي أثر ثوبها المندفع وراءها بخفة. «هل ستتصلين بجورج فار؟».

- «كلا! حتى وإن كان الرجل الوحيد في العالم. أنا أكره الرجال» ثم اختفى الوقع السريع المتقطع لقدميها على السلم وبعد ذلك أُغلق الباب بقوة. وغطست السيدة سوندرز في كرسيها محدثة صريراً.

- حسنٌ، يا روبرت.

وهكذا فقد بدأ يخبرها بكل شيء.

(١٢)

لم تظهر سيسلي عند الإفطار. صعد أبوها إلى غرفتها، وطرق على الباب هذه المرة.

- «نعم؟» اخترق صوتها الخشب، مكتوماً واهناً.

- هذا أنا، سيس، هل يمكنني الدخول؟

لم يكن هناك جواب، لذا فقد دخل، لم تكن حتى قد غسلت وجهها، فوق الوسادة كان وجهها يبدو متورداً وطفولياً وهي نائمة وتخلل أرجاء الغرفة هجوع جسدها الحميم؛ كان ذلك في منخريه أشبه بالعبير وأحس بالاضطراب، بأنه مجرد شيء مزعج أخرق. جلس على حافة السرير وتناول يدها المستسلمة بتردد. كانت يدها غير مستجيبة تماماً.

- كيف تشعرين هذا الصباح؟

لم ترد بشيء. أحس بسطوتها المتكاملة وتابع يقول برقة وابتهاج: «هل تشعرين بتحسن حول الفتى المسكين ماهون هذا الصباح؟».

- لقد أبعدته عن تفكيري إنه لا يحتاج إلي بعد الآن.

- «بالطبع هو يحتاج إليك» قال بصوت ينم عن الإخلاص، «نتوقع منك أن تكوني أفضل دواء له».

- كيف يمكنني ذلك؟

- كيف؟ ما الذي تعنين؟

- لقد أتى بدوائه معه.

هدوؤها، هدوؤها الذي يدعو للسخط. كان يجب عليه أن ينساق إلى نوبة غضب يوم أمس. تلك هي الطريقة الوحيدة للتعامل معهن. اللعنة عليهن.

ـ هل خطر ببالك أبداً أنني، مع معرفتي المحدودة، ربما أكون أعرف أشياء أكثر منك عن هذه الأمور؟

سحبت يدها ودستها تحت الأغطية، لم تردّ بشيء، حتى أنها لم تنظر إليه.

وتابع يقول: «إنك تتصرفين بغباء، سيسلي ما الذي فعله الرجل معك يوم أمس؟».

ـ ببساطة لقد أهانني أمام امرأة أخرى. لكني لست أبالي بمناقشة الأمر.

ـ لكن اسمعي، سيس. إنك ترفضين حتى رؤيته عندما تعني رؤيته إنه سيتحسن ثانية أم لا؟

ـ لقد حظي بتلك المرأة السوداء. إذا كانت لا تستطيع معالجته بكل خبرتها، فأنا لا أستطيع ذلك حتماً.

احمر وجه أبيها شيئاً فشيئاً. نظرت إليه بإبهام، ثم أدارت وجهها فوق الوسادة وهي تحدق خارج النافذة.

ـ إذن أنت ترفضين رؤيته بعد الآن.

ـ ما الذي يمكنني عمله؟ على ما يبدو فهو لا يريدني أن أزعجه بعد الآن. هل تريدني أن أذهب إلى مكان لا ألقى فيه ترحيباً.

ازدرد غضبه، حاول أن يتكلم بهدوء؛ حاول أن يماشي هدوءها «ألا ترين بأنني لا أحاول إرغامك على شيء؟ إنني فقط أحاول مساعدة ذلك الفتى على النهوض ثانية على قدميه! افرضي أنه كان بوب، افرضي أن بوب كان يرقد هناك مكانه».

ـ إذن من الأفضل أن ترتبط به أنت.. أنا لن أفعل ذلك.

ـ «انظري إلي» قال بهدوء بالغ، محاولاً كبح جماح غضبه بحيث أنها بقيت مستلقية من دون أن تتحرك، وقد حبست أنفاسها، وضع يداً خشنة على كتفها.

- «لا داعي لأن تتعامل معي بخشونة» قالت له ببرود، وأدارت رأسها.

- اصغي إلي، لن تري ذلك الفتى فار بعد الآن، أتفهمين؟ كانت عيناها غامقتين لا يسبر غورهما كماء البحر.

- «هل تفهمين؟» كرر قوله.

- نعم، إنني أسمعك.

نهض، كانا متشابهين إلى حد مذهل، استدار عند الباب مواجهاً نظرتها العنيدة الشاردة. «إنني أعني ذلك، سيس».

عيناها فجأة «إنني أشعر بالغثيان والملل من الرجال، هل تتصور بأني أبالي؟».

انغلق الباب وراءه وبقيت تحدق في لوحة المبهم المطلي، ومررت أصابعها برفق على نهديها، وفوق بطنها، ترسم دوائر متحدة المركز على جسدها من تحت الأغطية. متسائلة كيف تراها تحس عندما تحمل طفلاً. كارهة ذلك الوقت المحتوم عندما تضطر لأن تحمل طفلاً في بطنها، ستلطخ أنوثتها الغضة، ستشوه جسدها بوخزات الألم.

(١٣)

دخلت الآنسة سيسلي سوندرز وقد ارتدت ثوباً كتانياً شاحب الزرقة إلى منزل مجاور على عجل. وألقت تحية الصباح لم تكن النسوة الموجودات يحببنها ، وكانت هي تعرف ذلك. إلا أنها كانت أيضاً تعرف طريقة التعامل معهن، إنها طريقة تسحرهن بها مؤقتاً بتهذيبها التقليدي، بالرغم من أنها قد تكون مليئة بالنفاق كانت بمراعاتها لشعور غيرها تتسم ببراعة ولباقة بحيث أنهن كن ينتقدن سخافاتها من وراء ظهرها فحسب. لم تكن أية واحدة منهن قادرة على مجاراتها طويلاً. كانت دوماً يبدو عليها أنها تستمتع كثيراً بثرثرة الناس الآخرين. ولا تكتشف إلا في وقت لاحق أنها لم تكن تغتاب أحداً بنفسها. وهذا في واقع الأمر يتطلب براعة فائقة.

تجاذبت أطراف الحديث لوقت قصير معهن، بينما كانت مضيفتها منشغلة بترتيب الأزهار في السنادين، ثم استأذنت؛ وبعد أن سمح لها دخلت المنزل لكي تستعمل الهاتف.

(١٤)

رآها السيد جورج فار الذي كان يتوارى عند مدخل بناية المحكمة مصادفة بشخصها الذي لا يحتمل الالتباس وهي تقترب من مسافة بعيدة على الشارع الظليل، وأثارت خطواتها السريعة العصبية انتباهه، أخذ يحدق فيها بارتياح ينم عن الخبث، متأملاً إياها بإعجاب وفي عينيه يكمن أثر فسوق يتنامى ببطء. تلك هي الطريقة الناجحة في التعامل معهن. تجعلهن يأتين إليك. ونسي أنه كان قد اتصل بها بلا جدوى خمس مرات خلال ثلاثين ساعة. لكن دهشتها كانت بالغة تماماً، وترحيبها به مبهم أيضاً، بحيث أنه بدأ يشك حتى بأذنيه.

- «رباه» قال: «لقد اعتقدت بأني لن أسمع صوتك ثانية على الهاتف».

- «نعم؟» وصمتت، ثم صدرت عنها حركة مبهمة بغيضة تدل على استعجال مكبوح.

كنت مريضة؟

- «نعم، شيء مثل ذلك، حسنٌ» تململت «إنني في غاية السعادة لأني رأيتك، اتصل بي ثانية في وقت آخر، عندما أكون في البيت، ستفعل ذلك؟».

- لكن، سيسلي..

صمتت ثانية ورمقته من فوق كتفها بنظرة تشي بصبر رقيق.

«نعم؟».

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- «أوه، لدي بعض المهام التي أؤديها اليوم، سأشتري بعض الأشياء لأمي، وداعاً» تحركت ثانية، كان ثوبها الكتاني الأزرق يبدو خفيفاً

ومتموجاً أثناء مشيتها، عبر زنجي يسوق عربة فيما بينهما، استغرق ذلك وقتاً لا متناهياً كأنه دهر تصور أن العربة لن تمر أبداً، لذلك؟ فقد اندفع ملتفاً من حول العربة كالسهم لكي يداهمها.

«كن حذراً» قالت بسرعة: «لقد ذهب أبي إلى البلدة اليوم، يفترض بي ألا أراك بعد الآن. إن أهلي لا يحبوكِ».

- «لماذا؟» تساءل ببلاهة واستغراب.

- لا أعلم، ربما كانوا قد سمعوا شيئاً عن لهوك مع النساء، ويعتقدون أنك ستغرر بي، هكذا الأمر ربما.

أحس بالزهو، قال: «أوه، هيا بنا».

ومشيا معاً تحت ظلال الأشجار، كانت العربات مقيدة إلى بغال متكاسلة يغلب عليها النعاس، والخيل عديمة الحركة في الميدان. واحتضنتهما الرائحة المميزة للزنوج القذرين، أحاطت بهما، غمرتهما من كل جانب، لم يكن يرتدي إلا ثوباً فوقياً من ملابس الجيش؛ وكانت أصواتهم المنخفضة الخاوية، وضحكاتهم الطائشة المتسارعة، والتي تخفي تحتها شيئاً ذا معنى جوهري مشوب بالأسى والتخاذل تطفو بتكاسل فوق الظهيرة اللاهبة.

عند إحدى الزوايا كان ثمة متجر للأدوية في كل نافذة من نوافذه بدت قناني زجاجية كروية متماثلة الأشكال تحتوي على سوائل حمراء تارة وخضراء تارة أخرى على التعاقب، لكنها كانت الآن باهتة اللون، أو بنية فاترة على نحو واحد من خلال شموس فصول الصيف المتوالية. أوقفته بيدها.

- يجب ألا تأتي معي إلى أبعد من هذا، يا جورج، أرجوك.

- أوه، هيا سيسلي.

- «كلا، كلا، وداعاً» أوقفته يدها النحيلة في مكانه بلا حراك.

- تعالي ندخل ونشرب الكوكا كولا.

- كلا، لا أستطيع، لدي أشياء كثيرة أقوم بها، أنا آسفة.

- «حسنٌ، بعد أن تنجزي مهامك إذن» قال مقترحاً كمحاولة أخيرة.

- لا أستطيع أن أقول لك، لكن إذا شئت بإمكانك انتظاري هنا وسوف أعود إن كان لدي وقت. إذا شئت ذلك، أنت تعرف.

- حسنٌ. سأنتظرك هنا، أرجوك أن تأتي يا سيسلي.

- لا أستطيع أن أعدك. وداعاً.

كان مضطراً للبقاء ومراقبتها وهي تتراجع مبتعدة عنه، متبخترة في مشيتها برشاقة، ثم وهي تتوارى عن الأنظار سحقاً، إنها لن تأتي، قال في نفسه، لكنه لم يجرؤ على الرحيل خوفاً من أنها ربما تأتي فعلاً، أخذ يراقبها طالما كان بوسعه أن يراها، راقب رأسها يلوح من بين رؤوس أخرى، وأحياناً كان يرى جسمها كله بملامحه الدقيقة المميزة. أشعل سيكارة ودلف إلى قاعة الانتظار في متجر الأدوية.

بعد وهلة دقت ساعة بناية المحكمة معلنة الثانية عشرة عندها ألقى سيكارته الخامسة، لعنة الله عليها، لن تحظى بفرصة أخرى كيما تجعلني أنتظر، أقسم على ذلك. شعر بتحسن وهو يلعنها وفتح الباب المشبك بقوة.

اندفع فجأة عائداً إلى متجر الأدوية وتنحى جانباً بسرعة متوارياً عن الأنظار فرآه عامل الصودا ذو الشعر الأشيب، والسترة البيضاء، وقال باهتمام «ما الذي تفعله؟» مرت من هناك، كانت تمشي وتتحدث بابتهاج مع شاب متزوج يعمل كاتباً في محل تجاري، نظرت إلى الداخل لدى مرورهما لكن من دون أن تراه.

وبقي ينتظر، كانت تعتصره مرارة الحنق والغيرة، إلى أن عرف أنها قد انعطفت عند الزاوية. ثم دفع الباب إلى الخارج بعنف، لعنها ثانية بانفعال طائش، بينما كان ثمة شخص ما خلفه يصيح «سيد جورج، سيد جورج» واقترب إلى جانبه بخطوات رتيبة. التفت بسرعة فرأى صبياً زنجياً.

- «ما الذي تريده بحق السماء؟» قال بحدة.

- «إنها رسالة لك» رد الزنجي بهدوء، جعله ذلك يشعر بالخجل، إزاء

تصرف مهذب أفضل. أخذ الرسالة وأعطى الصبي قطعة من النقود. كانت الرسالة مكتوبة على قصاصة من ورق التغليف كتب فيها: «تعال الليلة بعد أن يكونوا قد ناموا. ربما لن أخرج. لكن تعال.. إن شئت».

قرأها وأعاد قراءتها، وحدق في خطها العنكبوتي المكتوب بعصبية إلى أن توقفت الكلمات ذاتها عن الإيحاء بأي معنى إضافي لذهنه، كان يشعر بالارتياح لدرجة الغثيان. بدا له كل شيء مختلفاً على نحو ما، بناية المحكمة القديمة المتكاسلة، أشجار الدردار، الخيول والبغال المربوطة النعسانة، تجمع الزنوج ببلادة، وبرود وتردد كلماتهم وضحكاتهم ببطء شديد، بدا كل ذلك له محبباً وجميلاً في ظل الظهيرة المتراخية.

وأخذ نفساً عميقاً.

الفصل الرابع



(١)

كان السيد جورج فار يعتبر نفسه رجلاً بكل معنى الكلمة. أتساءل إن كان ذلك يبدو جلياً في ملامح وجهي؟ فكر بينه وبين نفسه وهو يتفحص بدقة وجوه الرجال الذين مر بهم، محاولاً أن يتخيل أنه قد رأى بالفعل شيئاً ما في بعض الوجوه ليس موجوداً في الوجوه الأخرى. لكن كان عليه الاعتراف بأنه لم يتمكن من رؤية شيء. وأحس بشيء من الإحباط وخيبة الأمل. إنه شيء غريب. إذا كان ذلك لا يبدو في وجهك فما الذي بوسعك عمله لكي تبدو تلك الأشياء على وجهك؟ سيكون ذلك شيئاً جميلاً إذا (كان جورج فار رجلاً مهذباً)، إذا كان في وسع الرجال الذين يعرفون نساء أن يتعرفوا إلى بعضهم الآخر بطريقة أو بأخرى من دون كلام من أول نظرة.. بنوع من علاقات الدلالة العفوية، نوع من الصنعة الآلية وبالطبع لم تكن النساء يمثلن أشياء جديدة بالنسبة إليه. لكن ليس الأمر هكذا بالفعل، ثم خطرت له فكر مثيرة أوحت له أنه كان شخصاً فريداً من نوعه في العالم. إن شيئاً مثل هذا لم يكن قد حدث من قبل لأي رجل آخر. إن أحداً آخر لم يكن قد فكر في مثل هذا الشيء على كل حال أنا أعرف ذلك. وتأمل طويلاً بانبهار وحبور في فكرة خفية كان لها طعم سائغ في فمه.

عندما تذكر (تذكر؟ وهل فكر بأي شيء آخر؟) كيف أنها كانت قد أسرعت بالدخول إلى المنزل المظلم وهي ترتدي ملابس النوم، منتحية، وأحس عندها بالرجولة والتفوق والتهذيب تماماً، لكنها الآن على ما يرام، أتصور بأنهن جميعاً يفعلن ذلك الشيء.

كان هدوؤه الجذل قد تزعزع قليلاً بالرغم من ذلك، بعد أن حاول

مرتين بلا جدوى أن يكلمها في الهاتف، وقد تحطم تماماً عندما مرت به بهدوء في أواخر المساء وكانت تركب سيارة مع صديقة لها، وتجاهلته تماماً، لم ترني (أنت تعرف بأنها قد رأتك) لم ترني! (أنت تعرف بأنها قد رأتك بالفعل).

عندها هبط الليل وصل به الحد لأن يقف عند حافة جنون محتمل، جنون معتدل بعض الشيء، وغير مؤكد. ثم خفت هذا شيئاً فشيئاً. إلا أنه وقد صار كأنه شبح طليق أحس بأن فكرة التسكع حول الزاوية التي كانت ستمر بها إذا ما جاءت إلى البلدة فعلاً، وفجأة داهمه الرعب، ماذا لو رأيتها برفقة رجل آخر. عرف أن ذلك سيكون شيئاً أسوأ من الموت، وحاول أن يجبر نفسه على الرحيل، أو الانزواء في مكان ما مثل وحش جريح. لكن جسده ما كان ليتحرك.

رآها مرة تلو الأخرى وعندما اتضح له أن ذلك كان شخصاً آخر لم يعرف ما الذي أحس به عند ذاك. ولهذا فعندما انعطفت فعلاً من الزاوية لم يصدق عينيه في البداية. كان أول من ميزه أخوها. ثم رآها هي ومرت حياته كلها أمام ناظريه تاركة جسده مجرد إيماءة خرقاء، قبيحة في وحل راكد. لم يكن بوسعه أن يعرف كم مضى عليه من الوقت وهو غائب عن الوعي لا يشعر بالقاعدة الحجرية للنصب التذكاري التي جلس عليها بينما كانت مع أخيها تتحرك ببطء وعناد عبر مجال بصره، ثم تدفق تيار حياته بالكامل، فرغت عيناه من أي معنى وامتلأ جسده ثانية، مما منحه سطوة على ذراعيه وساقيه، وقفز من فوره مقتفياً أثرها، بينما كان ما يزال فاقداً للبصر مؤقتاً.

- «مرحباً، جورج» قال له الفتى روبرت محيياً من دون تكلف، وكأنه يماثله في العمر «أتذهب إلى الاستعراض؟».

نظرت إليه بسرعة بتمعن، بخوف وشيء آخر يشبه الاشمئزاز.

- «سيسلي..» قال.

كانت عيناها معتمتين كئيبتين، وأشاحت رأسها جانباً ثم مضت على عجل.

- «سيسلي» قال متوسلاً ولمس ذراعها.

لدى ملامسته لها ارتجفت، نفرت منه، «لا تفعل ذلك لا تلمسني» قالت بصوت يثير الشفقة. كان وجهها شاحباً، عديم اللون تقريباً، ووقف يتأمل ثوبها الخفيف وهو ينساب مع حركة مفاصل جسدها الهشة فيما مضت مع أخيها تاركة إياه. وشاطرها هو أيضاً ألمها ورعبها، من دون أن يعرف حقيقة ما كان يجري من حوله.

(٢)

كانت عودة دونالد ماهو المسكين تمثل شيئاً عجيباً أثار اهتمام الناس لفترة قصيرة فحسب. لقد جاء جيران محبون للاستطلاع، وآخرون كرماء الأخلاق.. رجال وقفوا أو جلسوا بتهذيب جم، بمرح وابتهاج، رجال أعمال لهم اهتمام بالحرب فقط لكونها نتيجة عرضية لصعود وانحطاط السيد ولسون، ولهم اهتمام بذلك كله فقط لكونه مسألة دولارات وسنتات، في الوقت الذي كانت فيه زوجاتهم يثرثرن حول ملابس بعضهن فوق جبين ماهون المجروح الشارد؛ بالإضافة إلى عدد قليل من معارف الكاهن الذين كانوا منقطعين عن زيارته، والذين لم يكونوا يلبسون أربطة عنق تواضعاً. ويخفون داخل خدود منتفخة، ويرفضون بحياء ولكن بإصرار تسليم قبعاتهم؛ وفتيات كان يعرفهن، أو سبق أن رقص معهن أو غازلهن في ليالي الصيف الماضية، يأتين الآن ليلقين مجرد نظرة على وجهه، ثم ينزوين جانباً بسرعة مكتوم. إنهن بالتأكيد لن يأتين مرة ثانية إلا إذا حصل إن كان وجهه مغطى في الزيارة التالية (بعد أن وجدت الفرصة أخيراً لرؤية وجهه)؛ وأولاد يأتون لكي يذهبوا بعد ذلك ساخطين لأنه لم يكن ليروي لهم أي قصص عن الحرب.. كل هذا كان يدور من حوله، بينما كان جيليجان، حاجبه الحزين، يتعامل معهم جميعاً بكفاءة وبتجرد يدعو للاستغراب.

- «اغرب عن وجهي الآن» قال ثانية للفتى روبرت سوندرز، الذي جاء لزيارتهم برفقة عدد من أقرانه الذين كان قد وعدهم بشيء مثير يتعلق بالجنود الجرحى.

- «إنه سوف يتزوج من أختي، أريد أن أعرف لماذا لا أستطيع رؤيته» قال

الفتى روبرت معترضاً، كان يواجه موقفاً محرجاً كمن دعا أصدقاءه لرؤية منجم ذهب ثم اكتشف أنه لا يستطيع أن يتقدمهم ليصلوا إلى ذلك المنجم، لقد سخروا منه وبرر هو موقفه بإصرار متوسلاً إلى جيليجان.

ـ «اذهب، الآن، اغرب عن وجهي، لقد انتهى العرض، اذهب الآن» وأغلق جيليجان الباب بعد أن أخره. وقالت السيدة باورز وهي تنزل السلم:

ـ ما الأمر، جو؟

ـ «إنه ذلك الفتى المزعج اللعين سوندرز جاء بجماعته كلها التي هنا لأجل أن يرى جرحه، يجب أن نوقف هذا» قال بسخط، «لا يمكن أن نسمح لهؤلاء الناس المزعجين بالدخول والخروج هنا طوال اليوم لكي يحدقوا فيه».

ـ «حسنٌ، لقد أوشك ذلك أن ينتهي» قالت له: «لقد جاؤوا كلهم تقريباً لحد الآن، وحتى صحيفتهم الصغيرة المثيرة للضحك ظهرت مكتوباً فيها (بطل يعود من الحرب) أنت تعرف.. ذلك النوع من الأشياء».

ـ «آمل ذلك» أجاب بلا أمل «الله يعلم إنهم جميعاً قد زاروا هذا المكان لأول مرة، هل تعرفين، عندما كنت أعيش وآكل وأنام مع الرجال لم أكن أكترث لهم كثيراً في كل الأحيان، لكن منذ أن ارتديت الملابس المدنية ثانية ورأيت كل هؤلاء النسوة في هذا المكان يقلن: أليس وجهه فظيعاً، ذلك الولد المسكين، وهل يا ترى ستتزوج منه؟ وهل رأيتموها في البلدة يوم أمس وقد كانت شبه عارية؟ عجباً، إنني أتصور أن الرجال أفضل قليلاً على أية حال. ستلاحظين أن أولئك الجنود لا يزعجونه وخاصة الذي كانوا منهم يقاتلون فيما وراء البحار. إنهم يأخذون الأمر كله ببساطة فحسب، لقد كان حظه سيئاً وما الذي بوسعه أن يفعله بهذا الشأن؟ تلك هي الطريقة التي يفكرون فيها بالأمر بعضهم يحدث له ذلك، وبعضهم الآخر لا يحدث له شيء، إنهم يفكرون بالأمر على هذا النحو».

وقفا معاً ينظران من النافذة إلى الشارع الهادئ النعسان. كانت النساء بشكل ملفت للنظر (وقد ارتدين أحسن ما عندهن مرت بخطوات ثابتة تحت

مظلاتهن الخفيفة الواقية من الشمس باتجاه واحد «إنها نجدة أنثوية» تمتم جيليجان «موكب متعة مجانية. ريما».

- أتصور بأنك أصبحت شخصاً مبغضاً للبشر، يا جو.

حدق جيليجان في صورتها الجانبية الباهتة وهي مستغرقة في التأمل والواقعة على نفس مستوى صورته.

- بشأن النساء؟ عندما أقول الجنود فلست أعني نفسي. لم أكن جندياً بمعنى أكثر أهمية مما يمكن اعتبار رجل يصل الساعات صانع ساعات، وعندما أقول النساء فلست أقصدك أنت.

وضعت ذراعها على كتفه، كانت ذراعها ثابتة، فيها قوة كامنة تبعث على الارتياح، عرف أن بإمكانه معانقتها بالطريقة نفسها وأنه إذا أراد فهي يمكن أن تقبله أيضاً بكل صراحة وثبات، وإن رموشها لن تتسدل على عينيها أبداً عند ملامسة فم، ترى أي نوع من الرجال يصلح لها، ويعرف أنها يمكن أن تمضي قدماً في كل أشكال العلاقات الجنسية الحميمة، إنها ستخلع ثيابها أمام الحبيب(؟) بالكفاءة المبهمة نفسها التي تتمتع بها (ينبغي أن يكون.. يكون.. مصارعاً مجالداً أو رجل دولة أو جنرالاً مظفراً شخص قاسٍ ومتحجر القلب ولن يتوقع أن يحصل على أي شيء منها، ولن تتوقع هي أن تحصل على أي شيء منه أيضاً. وكأنهما إلهان يتبادلان رمي دمى ذهبية، وأنا، أنا لست مصارعاً مجالداً أو رجل دولة أو جنرالاً. أنا لا شيء. ربما يكون هذا هو السبب في أنني أشتاق إلى المزيد منها) وضع ذراعه على كتفيها.

زنوج وبغال وتراخت الظهيرة بسبات ناعس على الشارع كأنها امرأة لقيت من يحيها أخيراً.. كانت هادئة ودافئة، لم يبق شيء الآن بعد أن رحل الحبيب، وكانت أوراق الشجر تشبه سائلاً أخضر متوقفاً وسط التيار منتشراً بتراخ؛ كانت أوراق الشجر كأنها قد قطعت بمقص من ورق أخضر ولصقت باستواء على سطح الظهيرة، شخص ما كان قد حلم بها ثم نسي

حلمه، زنوج وبغال.

عربات تعبر برتابة تجرها بهائم طويلة الأذنين تزحف على الطريق. زنوج متعبون من النوم، يجلسون بتثاقل فوق كل عربة مارة، وهي بداخل العربات نفسها جلس زنوج آخرون على مقاعد، نعش وتحت سماء الظهيرة، شيء صلد، كما لو أنه نحت في مصر قبل عشر آلاف سنة، حجب مرورهم الغبار المتصاعد ببطء، كأنه الزمن؛ كانت أعناق البغال تنثني بسهولة عندما يجعل الحزام المطاطي رؤوسها تميل من جانب إلى آخر، فتأخذ تنظر خلفها على الدوام، لكن البغال كانت نائمة هي أيضاً.

«إنه يراني نائماً، سيقتلني، لكن هناك دم بغل يجري في عروقي، عندما ينام سأنام، وعندما يفيق سأفيق».

في غرفة القراءة حيث جلس دونالد، كان أبوه يكتب باستمرار موضوع موعظة الغد. وغطت الظهيرة بنومها في الخارج.

البلدة

بطل حرب يعود..

وجهه.... الطريقة التي تتصرف بها تلك الفتاة مع ذلك الفتى فار..

الفتى روبرت سوندرز:

أريد فقط أن أرى جرحه..

سيسلي:

والآن أنا لست امرأة صالحة أبداً. أوه، حسنٌ لابد من ذلك أحياناً، أتصور هذا..

جورج فار:

نعم! نعم! كانت عذراء! لكن إذا كانت لن تراني فهذا يعني أنها سترى شخصاً آخر، جسدها بين ذراعي شخص آخر.

لماذا يجب أن تفعلي ذلك؟ لماذا يجب أن تفعلي ذلك؟ ما الذي تريدينه؟ أخبريني: سأفعل أي شيء، أي شيء..

مارغريت باورز:

هل يمكن لأي شيء أن يحركني ثانية؟ لا شيء يحركني نحو الرغبة فيه؟ لا شيء يحرك مشاعري الراكدة، يحركني عدا الشفقة؟

جيلجيان:

مارغريت، أخبريني ما الذي تريدينه. سأفعل ذلك، أخبريني مارغريت.

وكتب الكاهن «الرب راعي روحي: لن أطلب شيئاً».

حدق دونالد فاهون، وقد عرف أن الزمن لم يكن إلا شيئاً يسلب منه عالماً لم يكن على وجه التحديد ليكترث بفقدانه، حدق خارج إحدى النوافذ في أوراق الشجر الخضراء الساكنة، إنها لحظة ساكنة.

واستغرقت الظهيرة في حلمها حتى الغروب، زنوج وبغال.. وأخيراً حطم جيليجان جدار الصمت.

- ذلك الرجل العجوز البدين سيرسل لها سيارة لكي تأخذه معها في جولة.

ولم ترد السيدة باورز بشيء.

(٣)

سان فرانسيسكو، كاليفورنيا

٥ نيسان ١٩١٩

عزيزتي مارغريت:

حسنٌ لقد رجعت إلى البيت ثانية، وصلت إلى هنا ظهر هذا اليوم، وحالما أفلتت من قبضة أمي فأنا أجلس الآن لأكتب إليك، يبدو البيت شيئاً جميلاً جداً بعد أن يكون المرء مشغولاً بأداء شيء محفوف بالمخاطر للغاية ومثل تلك الأشياء الكثيرة التي تصيبني بالانهيار العصبي وتسحقني سحقاً، إنه لشيء يدعو للضجر أن أرى كل هؤلاء الفتيات وهن يتجمعن حول رجل طيار إن كنت تعلمين ذلك أليس كذلك، كان ثمة اثنتان من الفتيات على متن القطار التقيت بهما. حسنٌ على كل حال لقد شاهدتا رباط قبعتي ونظرتا إليّ كما لو أنهما كانتا من فتيات المجتمع الراقي وقالتا شيئاً لكن لست أطرش إلى هذا الحد على كل حال فقد كانتا طفلتين؛ وربما هن من فتيات المجتمع الراقي فعلاً. على كل حال فقد حصلت على أرقام هواتفهما وسوف أحاول الاتصال بهما، إنني أمزح معهما ليس إلا وأنت تعرفين أن لدي امرأة واحدة فقط وهي مارغريت أنت تعرفين ذلك. حسناً لقد أمضينا الوقت في طريقنا إلى سان فرانسيسكو ونحن نتحدث ونضحك في مقصورتهما الخاصة لهذا فإنني سأحاول أن أمضي معهما بعض الوقت هذا الأسبوع

تواعدت معها إلا أنها تريد مني أن آتي برفيق لصديقتها لهذا أعتقد بأني سأفعل ذلك ربما تكون المسكينتان قد حرمتا من المرح خلال الحرب مثلما يمكن للرجل أن يمرح خلال الحرب. لكني أمزح معهما فحسب مارغريت يجب ألا تكون غيورة مثلما لا أحس أنا بالغيرة من الملازم ماهون. حسناً أمي تلح في طلبي لشرب الشاي أفضل أن أقتل ولا أخرج إلا أنها تلح. انقلي تحياتي إلى جو.

مع حبي

جوليان

التقت السيدة باورز وجيليجان بالأخصائي الذي قدم من أتلانتا عند المحطة، في سيارة الأجرة كان ينصت إليها بانتباه.

- «لكن، يا سيدتي العزيزة» قال معترضاً عندما انتهت من الكلام «إنك تطلبين مني انتهاك عرف أخلاقي».

- لكن، بالتأكيد، يا دكتور، إنه ليس انتهاكاً لأخلاق المهنة إذا جعلت أباه يعتقد مثلما يريد هو أن يعتقد، أليس كذلك؟

- كلا، إنه ليس انتهاكاً لأخلاقياتي الخاصة.

- إذن، أخبرني ودعني أنا أخبر أباه.

- نعم، سأفعل ذلك، لكن اعذريني، هل لي أن أسأل عن علاقتك به بالضبط؟

- «إننا سنتزوج» أجابت وهي تنظر إليه بثبات.

- أوه، إذن لا بأس بذلك أبداً، إنني أعد بألا أقول أي شيء أمام أبيه من شأنه أن يضايقه.

وحافظ على وعده. فبعد الغداء انضم إليها حيث كانت جالسة في الشرفة المظللة الهادئة، وضعت قفص حياكتها جانباً وتناول هو كرسياً، كان ينفث دخان سيكارة بهيجان إلى أن توهج تماماً.

«ما الذي ينتظره؟» سأل فجأة.

- «ينتظره؟» كررت قوله.

رمقها بنظرة حادة كئيبة «ليس هناك أمل حقيقي له، كما تعلمين».

- بشأن بصره، تقصد؟

- ذلك شيء انتهى من الناحية العملية الآن، أقصد بالنسبة إليه.

- أعرف، ذلك ما قاله السيد جيليجان قبل أسبوعين.

- حسنٌ، هل السيد جيليجان طبيب؟

- كلا، لكن الأمر لا يحتاج إلى طبيب لرؤية ذلك، أليس كذلك؟

- ليس بالضرورة، لكن أعتقد أن السيد جيليجان قد تجاوز حده

تماماً، بأن يطلق تصريحاً عاماً مثل ذلك.

تأرجحت برفق. حجب وجهه في الدخان، فيما كان يراقب الرماد المتوهج تماماً عند طرف السيكار. قالت:

ـ أنت تعتقد أن ليس هناك أمل لديه إذن؟

ـ «بصراحة أعتقد ذلك» أسقط الرماد بعناية فوق الدرابزين «إنه من الناحية العملية رجل ميت الآن، وأكثر من ذلك، كان يتوجب أن يكون ميتاً خلال هذه الأشهر الثلاثة لولا حقيقة أنه يبدو منتظراً لشيء ما، شيء كان قد بدأ القيام به، لكنه لم ينهه، شيء كان قد حمله من حياته الماضية ولم يعد يتذكره بوعيه. ذلك هو الشيء الوحيد الذي بقي يربطه بالحياة وهو ما أستطيع أن أراه» رمقها بنظرة حادة أخرى «كيف ينظر إليك الآن؟ إنه لا يتذكر شيئاً من حياته قبل إصابته».

واجهته نظرته الحادة، العطوفة للحظة، ثم قررت فجأة أن تقول له الحقيقة، وأخذ يتفحصها بإصرار إلى أن انتهت من كلامها.

ـ إذن فأنت تتدخلين في أمر العناية الإلهية، أليس كذلك؟

ـ «أما كنت لتفعل الشيء نفسه؟» قالت مدافعة عن نفسها.

ـ «إنني لا أتفكر أبداً فيما كنت سأفعله» أجاب باقتضاب «لا يمكن أن توجد كلمة (إذا) في مهنتي، إنني أعمل بالأنسجة والعظام، وليس وفقاً لمقتضيات الظروف».

ـ حسنٌ، لقد انتهى الأمر الآن، لقد مضيت فيه بعيداً جداً ولا يمكن التراجع. إذن فأنت تعتقد بأنه قد يرحل في أية لحظة؟

ـ إنك تطلبين مني أن أتفكر ثانية. الشيء الذي قلته هو أنه سوف يستمر في الحياة ما دامت تلك الشرارة النهائية التي ترقد في مكان ما بداخله لم تنطفئ بعد. إن جسده ميت الآن، لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا.

ـ «عملية جراحية؟» قالت مقترحة.

ـ لن يصمد لها، ومن ناحية أخرى، فإن الماكنة البشرية يمكن فقط ترقيعها وتبديل أجزاء منها إلى حد معين، وكل هذا كان قد أجري له، وإلا فما كان ليخرج أبداً من أي مستشفى.

اقتربت الظهيرة أكثر فأكثر. جلسا بهدوء يتجاذبان أطراف الحديث، فيما كان ضوء الشمس يسقط جانبياً، يخترق حجاب أوراق الشجر ويلمع في أرجاء الشرفة بنقاط صفراء، وكأن ذلك رقاقة لونية في جدول. كان الزنجي نفسه الذي يرتدي القميص التحتي ذاته يعمل بلا مبالاة هنا وهناك فوق المرج بجزازة العشب، وبين الفينة والأخرى كانت عربة تمر بتكاسل مرسلة صريراً خلف بغال مرتعشة، أو تتحرك بسرعة أكبر، تاركة رائحة متموجة من البنزين سرعان ما تتلاشى تحت شمس الظهيرة.

انضم الكاهن إليهما بعد وقت قصير.

ـ «إذن ليس هناك شيء يمكن عمله كي نجعله يبني نفسه من جديد، هكذا، يا دكتور؟» تساءل.

ـ نعم، تلك هي نصيحتي، العناية، الراحة، والهدوء، دعوه يستَعِدْ عادات قديمة، بشأن بصره أيضاً..

نظر الكاهن إلى أعلى بشكل بطيء «نعم، ألاحظ بأن بصره قد ذهب حتماً، لكن ثمة تعويضات، إنه سيتزوج من امرأة جذابة جداً، ألا تتصور أن ذلك سيعطيه حافزاً لمساعدة نفسه؟».

ـ نعم، لابد أن يحصل ذلك، إذا كان هناك شيء يمكن عمله.

ـ ما الذي تعتقده؟ هل نسرع بمسألة الزواج؟

ـ «حسـ... نٌ..» قال الطبيب بتردد: لم يكن معتاداً تماماً على إعطاء النصائح في هذا الموضوع.

وجاءت السيدة باورز لنجدته «أعتقد بأنه ينبغي علينا عدم استعجاله بهذا الشأن أبداً» قالت على عجل: «لندعه يعود نفسه على مهل، أنت تفهم، ألا تعتقد، يا دكتور بايرد؟».

ـ نعم، أيها الكاهن الموقر، دع السيدة باورز هذه تقدم لك النصح بهذا الشأن، لدي ثقة تامة بحسن تقديرها للأمور، دعها تتولَ معالجة هذه المسألة. النساء دائماً أكثر قدرة منا، تعرف ذلك.

ـ ذلك صحيح تماماً، إننا ندين بأفضال لا حد لها للسيدة باورز.

ـ هراء، أكاد أكون قد تبنيت دونالد بنفسي.

وصلت سيارة الأجرة أخيراً وظهر جيليجان حاملاً أغراض الطبيب، نهضوا وانزلقت ذراع السيدة باورز من خلال ذراع الكاهن، ضغطت على ذراعه وتحررت منه. وفيما كانت هي وجيليجان يحيطان بالطبيب وينزلون السلم معاً قال الكاهن المخلوع الفؤاد ثانية:

ـ «هل أنت متأكد، يا دكتور، إنه ليس هناك شيء يمكن عمله على الفور؟ إنا بطبيعة الحال قلقون، أنت تعرف» وأنهى كلامه بصيغة اعتذار.

ـ «كلا، كلا» رد الطبيب بنزق: «بإمكانه أن يساعد نفسه أكثر مما يمكننا نحن مساعدته».

وقف الكاهن يراقب إلى أن استدارت سيارة الأجرة عند المنعطف. ونظرت إلى الوراء، كان بوسعها رؤيته عند الباب وهو يحدق وراءهم، ثم استداروا واختفوا عند المنعطف.

عندما دخل القطار إلى المحطة قال الطبيب وهو يمسك يدها:

ـ لقد ورطت نفسك في شيء سوف يتضح أنه غير جميل، أيتها الشابة.

رمقته بنظرة مباشرة بدورها.

ـ «سأتقبل المجازفة» قالت، وهزت يده بقوة.

ـ حسنٌ، وداعاً إذن، وحظاً سعيداً.

ـ «وداعاً، يا سيدي» أجابت، «وأشكرك».

وتحول إلى جيليجان ماداً يده إليه.

ـ «والشيء نفسه لك، دكتور جيليجان» قال بتهكم واهن. وشاهد ظهره القاتم يختفي وتساءل جيليجان وهو يدير وجهه لها:

ـ لماذا دعاني بالدكتور؟

ـ «هيا، يا جو» قالت وقد تجاهلت سؤاله «دعنا نعد ماشين، أريد أن أمشي عبر الأدغال ثانية».

(٤)

كان الهواء عذباً يحمل رائحة الخشب المقطوع حديثاً ومشيا خلال مدينة صفراء شاحبة من الألواح الخشبية المتماثلة المكدسة. كان ثمة رتل متتابع من الزنوج يحملون ألواحاً على منحدر ثابت ويهرولون كأنهم الدجاج نحو شاحنة ويطرحونها بقوة على الأرضية، تحت مراقبة رجل أبيض يرتدي ملابس غير رسمية والذي كان يتكئ مرتاحاً على كومة أخشاب ويمضغ التبغ بتكاسل. راقبهما باهتمام عندما مرا أمام ناظريه، وهما يقتفيان أثراً باهتاً لطريق تسلكها العربات.

عبرا حواجز فولاذية تنمو فوقها الأعشاب، وكانت الأشجار تحجب ساحة تكديس الأخشاب، لكن إلى أن وصلا إلى أسفل التل كانت ما تزال تتناهى إليهما أصوات الزنوج المرتفعة وكأنها نوبات ضحك لا معنى لها أو وصلات غناء على نغم حزين، إلى جانب أصداء بطيئة للألواح المطروحة هناك تتردد في فترات متعاقبة. نزل بهدوء أسفل تل خصيب وهما يستنشقان رائحة أدغال تلك الظهيرة المتأخرة، متعقبين الالتواءات الباهتة للطريق المتجهة نحو الأسفل. وعند أسفل التل كانت شجرة قرانيا تنشر أغصانها المستوية التي تشبه الأيادي الممتدة تتفرع وسط ذلك الاخضرار الكثيف، وكأنها شمس بيضاء كالحة.

- «الزنوج يقطعون الأشجار لاستخدامها كوقود لأنها سهلة القطع» قالت محطمة الصمت «إنه شيء مخجل أليس كذلك؟».

- «أيفعلون ذلك؟» تمتم بلا اهتمام، كانت التربة الرملية الرقيقة تضغط بسهولة تحت قدميهما عندما وصلا إلى النهر. كان الماء يتدفق داكن اللون

خارجاً من كرمة كثيفة لشجيرات صريمة الجدي ويعبر الدرب الباهت المعالم متجهاً نحو أجمة أخرى صعبة الاختراق مصدراً دمدمة مبهمة. توقفت عن المشي وانحنيا قليلاً حتى صار بوسعهما رؤية رأسهما وجسداهما القصيران منعكسان على صفحة الماء.

- «هل تبدو تلك الصورة المضحكة للناس، أتساءل»، قالت ثم عبرت بسرعة «هيا، يا جو».

كانت الطريق تعبر من الاخضرار الكالح نحو ضوء الشمس مرة أخرى. وكانت ما تزال طريقاً رملياً، والمشي فيها أكثر صعوبة وأشد مدعاة للسخط.

- «سيكون عليك أن تسحبني، يا جو» أمسكت بذراعه وقد أحست بعقبيها يغطسان وينزلقان ويخونانها عند كل خطوة تخطوها. كان ثقلها غير الموزع بالتساوي يجعل تقدمه أكثر صعوبة، وفصل ذراعه عنها ثم وضع يده على ظهرها.

- «ذلك أفضل» قالت وقد انحنت على يده الصلبة القوية التفت الطريق حول منحدر التل وكانت الأشجار المنحدرة من التل قد صدها واد ضيق أخضر عند انعطاف الطريق كما لو أنها كانت بانتظار أن تعبر إلى الناحية الأخرى عندما مرا بها. كانت الشمس من وراء الأشجار ترسل أشعتها وكأنها قطرات مطر مكبوحة تسقط جانبياً وإلى الأمام، حيث كان الأثر الأخضر للجدول يقترب من الطريق ثانية ويلتف، سمعا أصواتاً بشرية وصوت مياه متدفقة.

مشيا ببطء شديد خلال الرمال المتحركة من تحتهما، وأصبحت الأصوات الآتية من خلف حجاب الأوراق الكثيفة أعلى فأعلى ضغطت على ذراعه طالبة منه أن يصمت، وتركا الطريق وأزاحا الأوراق بحذر من فوق مياه متلألئة موزعة هنا وهناك مياه تتلقى ضوء الشمس وترسله في مبادلة خاطفة بين ذهب وذهب بشكل يبهر العيون - وظهر رأسان مبللان متلبدان

بالظلال ونشرا مراوح مائية من حولهما كأنهما فأرا مسك، وعلى غصن شجرة غير مستقر التوازن يمكن أن يغطس في أية لحظة، انتصب شاب ثالث كان يسبح هناك، كان جسمه جميلاً مثل جسم حيوان يافع وقد اكتسى بلون بني كلون الورق القديم.

دخلا ضمن مدى الرؤية وقال جيليجان:

ـ مرحباً أيها الرفيق.

ألقى السابح نظرة سريعة وجلة، وتخلى عن الغصن فسقط كالحجر في الماء. أما الشابان الآخران، فقد صعقا وتجمدا في لحظة ظهر السابح ثانية فوق سطح الماء أخذا يزعقان فيه بسخرية وهستيريا. سبح ذلك الشاب كالإنقليس عبر البحيرة ولجأ إلى أسفل الضفة الناتئة مبتعداً عن الأنظار. وكان رفيقاه ما يزالان يزعقان بمرح مجمجم. رفعت صوتها فوق ذلك الضجيج:

ـ هيا، يا جو لقد أفسدنا فرحهم.

تركا الضوضاء خلفهما ومرة أخرى رجعا إلى الطريق، قالت:

ـ ما كان ينبغي علينا فعل ذلك، ذلك الولد المسكين، سوف يسخرون منه حتى الموت الآن. ما الذي يجعل الرجال يتصرفون بهذه السخافة، يا جو؟

ـ عليّ اللعنة ، إن كنت أعرف. لكنهم حقاً سخفاء هل تعرفين من كان ذلك؟

ـ كلا، من هو؟

ـ أخوها.

ـ من..؟

ـ الفتى سوندرز.

ـ أوه، حقاً كان هو؟ الولد المسكين، أنا آسفة لأني أفزعته.

ربما كانت تشعر بالأسف حقاً، ولكن هل من الممكن أنها قد شاهدت وجهه المفعم بالضغينة عندما كان يراقب شبح جسمها المتقهقر

عندما صار يرتدي ملابسه على عجل. سوف أنال منك أقسم على ذلك، وهو يكاد يبكي.

التفت الطريق حول منحدر يقع ما بين حافتين صخريتين صغيرتين. كانت الشمس ما تزال تتخلل قمم الأشجار وهنا كانت ثمة شجيرات أرز كبيرة لا تكاد تتخللها أشعة الشمس شكلت سطحاً أخضر يشوبه الهدوء المطبق. وغرد طائر سمان هناك متوقفاً في الحال كأنهما شخص واحد، وأصغيا إلى نغمات تغريده التي تتابعت أربع مرات، متأملين البقع الضوئية الذابلة على قمة المنحدر.

- «لنجلس وندخن سيكارة» اقترحت عليه ذلك.

انحنت ببطء وجلس إلى جانبها وهنا رآهما روبرت سوندرز الذي كان يلهث مهرولاً في أثرهما من أعلى التل، ثم سرعان ما سقط منبطحاً على الأرض، وزحف إلى أقرب موضع كان يجرؤ على بلوغه. راقب جيليجان وجهها الشاحب وقد اسند على مرفقه. كان رأسها منخفضاً وهي تحفر في الأرض بعصا. وكانت صورتها الجانبية الساهمة تسبح في الضوء بحرية تحت ظل شجرة أرز داكنة وقالت وهي تحس بعينيه المصوبتين نحوها:

- جو، علينا أن نعمل شيئاً بشأن تلك الفتاة، لا يمكننا أن نتوقع من الدكتور ماهون أن يتخذ من المرض عذراً لأكثر من هذا كنت آمل أن يجعلها أبوها تأتي، لكنهما متشابهان إلى حد بعيد.

- ما الذي تريدين عمله؟ تريدين مني أن أذهب وأسحبها من شعرها؟

- «أتوقع أن تكون تلك أفضل طريقة على كل حال» انكسر غصنها الصغيرة في يدها فألقت به جانباً وبحثت عن غصن آخر.

- طبعاً تلك هي الطريقة المناسبة.. إذا كان عليك التعامل مع أمثالها.

- لسوء الحظ، وبالرغم من ذلك، فهذا عصر متحضر ولا يمكنك أن تفعل ذلك دائماً.

- «يقولون ذلك» تمتم جيليجان، وأخذ يمتص سيكارته، ثم راقب

القوس الأبيض المتسع للدخان المتطاير، وغرد طائر السمان ثانية، وملأ صوته فترة الصمت القصيرة بعذوبة، فيما انشغل الفتى روبرت بالتفكير، هل كانت سيس هي التي يتحدثان عنها؟ أحس بلسعة حارقة على ساقه وحكها ساحقاً عليها نملة طولها نصف بوصة تقريباً. يسحبها من شعرها، هه؟ غمغم بذلك. أود أن أرى ذلك. أوه، لكنه أحس بلدغة! حك ساقه، لكن ذلك لم يجد نفعاً أبداً.

ـ ما الذي سنفعله يا جو؟ أخبرني. إنك تعرف الكثير عن البشر.

حول جيليجان ثقله إلى الناحية الأخرى وأحس بوخزة خفيفة عند مرفقه المتفض تحت يده الأخرى.

ـ «لقد كنا نفكر بهما منذ الساعة التي التقينا فيها. دعينا نفكر بي وبك للحظة» قال بخشونة.

نظرت إليه بسرعة. كان شعره الأسود وفمها مثل زهرة الرمان. وكانت عيناها سوداوتين وأصبحتا في غاية الوداعة وهي تقول:

ـ أرجوك يا جو.

ـ أوه، لن أطلب يدك للزواج. أريدك فقط أن تحدثيني عن نفسك قليلاً.

ـ ما الذي تريدين أن أقول لك؟

ـ لا شيء لا ترغبين في قوله. فقط توقفي عن التفكير في الضابط للحظة، فقط تحدثي معي.

ـ «إذن أنت متعجب لأن تجد امرأة تفعل شيئاً ليس له أية نهاية مادية واضحة يمكن توقعها، أليس كذلك؟» كان صامتاً، يتفحص ركبتيه، يحدق من بينهما في الأرض «جو، أنت تتصور أني مغرمة به، أليس كذلك؟» (هاه! كان أخو سيس يتلصص، زحف الفتى روبرت سوندرز إلى مسافة أقرب، مكتسحاً الرمل بصدره) «أليس كذلك يا جو؟».

ـ «لست أدري» رد بتجهم وسألت:

ـ أي نوع من النساء كنت تعرف، يا جو؟

ـ النوع الخطأ، كما أتصور. على الأقل لم يسبق لواحدة منهن أبداً أن جعلتني أضيع وقتي في نوم الليل إلى أن رأيتك.

ـ لست أنا التي جعلتك تضيع وقتك في نوم الليل. لقد حصل فقط أن كنت أول امرأة سبق لك أن عرفتها على الإطلاق تفعل شيئاً كنت تتصور أن الرجل وحده هو القادر على القيام به. كانت لديك أفكارٌ جميلة عن النساء وقد شوشتها لك أليس كذلك؟

نظرت إلى وجهه المنحرف جانباً، إلى وجهه الحميم الذي يدعو للثقة (هل سيستمران في الحديث طوال الليل؟ فكر الفتى روبرت سوندرز، كان يشعر بالجوع ينهش معدته وقد تلطخ بالرمال وهو في موضعه الذي لا يدعو للراحة).

كانت الشمس قد غربت تقريباً، فقط حافات الأشجار كانت ما تزال تغطس في الضوء الخافت، وفي المكان الذي جلسا فيه صار الظل كتلة بنفسجية كان طائر السمان يغرد فيها ثم يعود إلى السكون.

ـ «مارغريت» قال جيليجان أخيراً «هل كنت تحبين زوجك؟» بدا وجهها في عتمة الغسق شاحباً رقيقاً، وبعد فترة قصيرة:

ـ لست أدري، يا جو، لا أعتقد بأني أحببته. انظر، لقد عشت في بلدة صغيرة وأصبحت إلى حد ما ضجرة من التسكع هنا وهناك في ذلك المكان طول الصباح وأرتدي الملابس وأتزين لكي أتمشى فحسب في طرقات البلدة في وقت الظهيرة وأمضي الأماسي أيضاً متسكعة برفقة الرجال، لذلك فبعد أن نشبت الحرب اقتفيت بعض أصدقاء أمي ليحصلوا لي على وظيفة في نيويورك. بعد ذلك انضممت إلى الصليب الأحمر ـ تفهم ما أقصده، أقدم المساعدة في ملاهي الجنود، أرقص مع أولئك الفتيان المساكين القادمين من الأرياف في إجازاتهم، وكأنني كنت أشبه نعجة تائهة، أحاول أن أمضي وقتاً طيباً كلما أمكن ذلك. ولا شيء في العالم كان أشد قسوة مما كان عليه الحال في نيويورك.

ـ وذات ليلة جاء دك (زوجي) لم أنتبه إليه في بداية الأمر، لكن بعد أن رقصنا معاً ورأيت أنه كان.. حسنٌ... معجباً بي، سألته عن نفسه. كان ضمن معسكر لتدريب الضباط.

ـ ثم بدأت أتلقى رسائل منه وأخيراً كتب يقول بأنه سيكون في نيويورك إلى أن أبحر قادماً. كنت قد تعودت على دك في غضون ذلك وعندما رأيته ثانية، وكأنه كان فارساً أسطورياً، والجنود يؤدون له التحية، فكرت بأنه كان شيئاً مهيباً. أنت تتذكر كيف كانت الأمور تبدو في ذلك الوقت ـ الكل كانوا متوترين ومصابين بالهستيريا، وكأن ذلك سيرك كبير.

ـ لذلك وفي كل ليلة كنا نخرج ونتناول العشاء ونرقص، وبعد ذلك نجلس في غرفتي وندخن ونتحدث لساعات طويلة حتى طلوع الفجر. أنت تعرف كيف كان ذلك، كل الجنود يتحدثون عن الموت في المعارك بافتخار من دون أن يصدقوا هذا حقاً أو يعرفون شيئاً كثيراً عنه، وكيف أن النساء كانت لديهن الأفكار نفسها إلى حدٍّ ما، شيء أشبه بالأنفلونزا ـ إن ما تفعله اليوم لن يكون مهماً غداً، لأن ليس هناك في الواقع أي غد أبداً.

ـ انظر، أعتقد بأننا كنا قد اتفقنا معاً على أننا لم نكن نحب بعضنا الآخر أبداً، لكننا كنا شابين، ولذلك أردنا أن نمرح ونلهو ما أمكننا ذلك، وفيما بعد، قبل ثلاثة أيام من إبحاره، اقترح عليّ بأن نتزوج، كانت لدي عروض زواج من كل جندي تقريباً كنت أعامله بحنان، تماماً مثلما كانت جميع الفتيات الأخريات يفعلن، ولهذا فلم أستغرب كثيراً. قلت له بأن لي أصدقاء من الرجال الآخرين وكنت أعرف بأنه هو أيضاً يعرف نساء أخريات، لكن لم يكن أحد منا يبالي بذلك. قال لي إنه يتوقع أن يتعرف إلى نساء في فرنسا أيضاً وإنه لا يتوقع في أن أكون راهبة عندما يرحل. ولذلك التقينا في صباح اليوم التالي وتزوجنا وذهب هو إلى شأنه.

ـ وزارني في الملهى عندما كنت أرقص مع بعض الشباب الذين يمضون

إجازاتهم، وهنأتنا الفتيات الأخريات كلهن (فالكثير منهن كن قد فعلن الشيء نفسه)، لكن بعضهن كن مشاكسات معي حول كوني ذات حظ كبير لأن أتزوج من ضابط. انظر، جميعنا كنا نحصل على عروض كثيرة لكننا نادراً ما كنا نصغي لهم، ولست أعتقد بأنهم كانوا يصغون إلينا أيضاً.

لقد زارني وذهبنا سوية إلى الفندق الذي كان يقيم فيه، انظر يا جو كان ذلك كما لو أنك وأنت طفل ترتجف من الظلام وتظل تقوم وتكرر، المكان ليس مظلماً، المكان ليس مظلماً، وأمضينا معاً ثلاثة أيام وبعدها أبحرت سفينته. لقد افتقدته كثيراً في بداية الأمر. وبقيت أتسكع هنا وهناك بمفردي من دون أن يكون هناك أي شخص يشعر بالأسف لحالتي. فالكثير من صديقاتي كن يعانين من ذات المشكلة، لم يكن لديهن أي عطف زائد ليفرطن به. ثم اعتراني خوف فظيع من أني ربما أرزق بطفل وشعرت بأني أكره دك إلى حدٍّ ما. لكن عندما تأكدت من كوني لست حاملاً عدت لأعمل في الملهى، وبعد فترة وجيزة صرت لا أفكر في دك إلا نادراً.

ـ كانت لدي عروض زواج كثيرة طبعاً، ولم أكن أمضي وقتاً تعيساً أبداً. وكنت أحياناً أستيقظ ليلاً، وأشعر بالرغبة في دك، لكن بعد مدة صار شخصاً مبهماً بالنسبة لي، مثله مثل جورج واشنطن. وفي نهاية الأمر لم أعد حتى أفتقده بعد ذلك.

ـ ثم بدأت أتلقى رسائل منه، كانت معنونة إلى زوجته الصغيرة العزيزة، ويخبرني فيها عن مدى شوقه وافتقاده لي وما إلى ذلك، حسنٌ، لقد أعاد ذلك كل شيء إلى سابق عهده، وكنت أكتب له يومياً لفترة من الوقت. وبعدها وجدت أن الكتابة قد أضجرتني، وأني لم أعد في شوق لاستلام أحد تلك الظروف البغيظة الرديئة النوع، والتي كان الرقيب قد فتحها مسبقاً.

ـ ولم أكتب له بعد ذلك. وذات يوم تلقيت رسالة يقول فيها إنه لا يعرف متى سيكون قادراً على الكتابة ثانية، لكن ذلك سيحصل في أقرب وقت ممكن. كان ذلك عندما ذهب إلى الجبهة كما أتصور. لقد فكرت في ذلك ليوم أو يومين وبعدها قررت أن أفعل شيئاً لكل منا هو أن ننسى الأمر كله. لذلك فقد جلست وكتبت له، متمنية له الحظ الوافر وطالبة منه أن يتمنى لي الشيء نفسه.

ـ وبعدها، قبل أن تصل رسالتي إليه، تلقيت إشعاراً رسمياً بأنه كان قد قتل في الميدان، لم يستلم رسالتي أبداً. لقد مات وهو يعتقد أن كل شيء كان على حاله السابق فيما بيننا.

أطالت التأمل في حمرة الغروب الوشيك. «انظر، أشعر إلة حدٍّ ما بأني لم أكن منصفة معه. ولهذا أتصور بأني أحاول تعويضه عن ذلك بطريقة ما».

أحس جيليجان بعدم الاكتراث والضجر. أمسك بيدها وأخذ يفرك خده عليها. التفت يدها في يده وربتت على خده، ثم انسحبت (يمسك أحدهما الآخر! حدق الفتى روبرت سوندرز بخبث) أحنت رأسها، وحدقت في وجه جيليجان. جلس بلا حراك وقد توترت أعصابه. أضمها بين ذراعي، هكذا فكر، أداهمها بعواطفي. وأحست بذلك فانسحبت مبتعدة عنه، بالرغم من أن جسدها لم يتحرك.

ـ «ذلك لن يجدي نفعاً، يا جو. ألا تعرف ذلك؟» سألت.

ـ «بلى، أعرف ذلك» قال: «هيا بنا».

ـ «وأنا آسفة يا جو» قالت له بصوت خفيض ونهضت ونهض هو أيضاً وساعدها على الوقوف. نفضت التراب عن قميصها ومشت بجانبه. كانت الشمس قد توارت تماماً وسارا خلال صمتٍ بنفسجي رائق كالحليب «أتمنى لو كان باستطاعتي يا جو» أضافت.

لم يرد بشيء وقالت: «ألا تصدقني؟».

مشى بخطوات واسعة وتشبثت بذراعه، ثم وقفت. واجهها وأثناء عناقهما

المحير كان يحدق في وجهها الضبابي الذي ينتصب أمام وجهة مباشرة، باشتياق وجزع. (هاه، يقبلان بعضهما! صاح الفتى روبرت سوندرز مبتهجاً، وحرر أعضاءه المقيدة وتعقبهما كأنه واحد من الهنود الحمر).

بعد ذلك انعطفا وتابعا المشي مختفين عن الأنظار. كان الليل قد هبط تقريباً. فقط آثار أقدام النهار، فقط رائحة النهار، فقط إشاعة، شبح من الضوء وسط الأشجار.

(٥)

هجم مقتحماً غرفة أخته. كانت منهمكة بترتيب شعرها ورأته في المرآة. لاهثاً وملطخاً بالوحل بصورة يرثى لها.

ـ «اخرج، أيها الوحش الصغير» قالت.

ومن دون أي ترد أو وجل صار يسرد ما لديه من أخبار. «أقول لك، إنها تحب دونالد، تلك المرأة الأخرى تقول وأنا رأيتهما يقبلان بعضهما».

ولمعت يداها المتوقفتان برقة داخل شعرها الفاحم.

ـ من؟

ـ تلك السيدة الأخرى التي في منزل دونالد.

ـ أنت رأيتها تقبل دونالد؟

ـ لا، تقبل ذلك الجندي الذي لا جرح في وجهه.

ـ «هل قالت إنها تحب دونالد؟» استدارت وهي تحاول التمسك بذراع أخيها.

ـ لا، لكن ذلك الجندي قال إنها تحبه وهي لم تقل شيئاً أبداً. إذن أنا أعتقد بأنها تحبه، ما رأيك؟

ـ تلك القطة! سأنتقم منها.

ـ «ذلك صحيح،» قال وقد أعجبه كلامها. «ذلك ما قلت لها عندما اختلست النظر إليّ وكنت عارياً. كنت أعرف بأنك لن تسمحي لأية امرأة أن تهزمك وتأخذ دونالد».

(٦)

وضعت إيمي العشاء على المائدة. كان المنزل هادئاً ومعتماً لم تشعل الأضواء بعد. اتجهت نحو باب غرفة القراءة. هناك جلس ماهون وأبوه وقت الغسق، وهما يتأملان العتمة بصمت وقد تسللت ببطء وهدوء وكأنها أنفاس منتظمة. كان رأس دونالد يلقي ظلاً غامضاً على النافذة الداكنة ورأت إيمي ذلك فأحست بقلبها ينقبض وهي تتذكر ذلك الرأس الذي كان يعتليها ومن ورائِه السماء، ذات ليلة ماضية، منذ زمن بعيد.

لكن الآن كانت مؤخرة رأسه باتجاهها وهو لم يعد حتى يتذكرها. دخلت إلى تلك الغرفة بصمت مثلها مثل الشغف ذاته ووقفت بجوار كرسيه. نظرت إلى الأسفل صوب شعره المتفرق الأشعث الذي كان ذات مرة جامحاً، ناعماً، وجذبت رأسه المستسلم إلى وركها الصلب النحيل. كان وجهه ساكناً تحت يدها الواهنة الحركة، وعندما كانت تحدق في الخارج نحو ذلك السقف الذي كانا يحدقان فيه كلاهما، أحست بمذاق الرماد المر لحزن قديم وانحنت فجأة فوق رأسه المشوه المدمر، وانتحبت فوقه، من دون أن تصدر صوتاً.

تململ الكاهن بتثاقل في الغسق «ذلك أنت، إيمي».

ـ «العشاء جاهز» قالت بهدوء. صعدت السيدة باورز وجيليجان درجات السلم متجهين إلى الشرفة.

(٧)

كان في وسع الدكتور جاري أن يرقص الفالس وهو يحمل كأس ماء على رأسه في وضع متوازن، من دون أن تراق منه قطرة. لم يكن ليكترث للرقصات الأكثر حداثة، الرقصات الهستيرية «الجميع يتقافز هنا وهناك - كأنهم قرود. لماذا نحاول أن نفعل شيئاً بإمكان البهيمة أن تفعله أفضل منا؟». كان معتاداً أن يقول ذلك. «لكن الفالس. هل يستطيع الكلب أن يرقص الفالس، أو البقرة مثلاً؟» كان رجلاً ضئيل الجسم بعض الشيء، أصلع الرأس ورشيق الحركة، والنساء كن يعشقنه، للطريقة اللطيفة التي يعامل بها من يرقد على سريره. وكان الدكتور جاري مطلوباً إلى حد كبير، سواء مهنياً أو اجتماعياً. لقد خدم في مستشفى فرنسي في السنوات ١٤، ١٥ وكذلك ١٦ «مستشفى كأنه الجحيم» قال يصفه «ممرات طويلة يغطيها البراز والسائل الأحمر».

نزل الدكتور جاري برشاقة من غرفة دونالد يتبعه جيليجان، كان يسوي وضع معطفه ويمسح الغبار عن يديه بمنديل من الحرير. ظهر الكاهن بجثته الضخمة من غرفة قراءته، قال: حسنٌ يا دكتور؟».

لف الدكتور جاري سيكارة رفيعة من كيس قماشي، أعاد الكيس إلى مخبئه في جيبه. وعندما حمله في جيبه عمل انتفاخاً في القماش. أشعل عود ثقاب.

- من الذي يطعمه على المائدة؟

أجاب الكاهن باندهاش: «كانت إيمي تقدم له وجبات طعامه.. تساعده، هكذا هي الحال» ثان يصف لك ذلك.

ـ تضع الطعام له في فمه؟

ـ كلا، كلا، إنها توجه يده فحسب، لماذا تسأل؟

ـ من الذي يلبسه ملابسه وينزعها عنه؟

ـ السيد جيليجان يساعده. لكن لماذا..

ـ «أنت مضطر لأن تلبسه ملابسه وتنزعها عنه وكأنه طفل، أليس كذلك؟» استدار بحدة نحو جيليجان.

ـ «شيء مثل ذلك» قال جيليجان معترفاً. خرجت السيدة باورز من غرفة القراءة وأحنى الدكتور رأسه لها قليلاً قال الكاهن:

ـ لكن لماذا تسأل، يا دكتور؟

نظر الدكتور بحدة. «لماذا؟ لماذا؟» ثم تحول إلى جيليجان. «أخبره» قال فجأة.

حدق الكاهن في جيليجان. لا تقل ذلك، بدت عيناه تتوسلان، وهوت نظرات جيليجان إلى الأرض. وقف وهو يحدق ببلاهة في قدميه، وفجأة قال الدكتور «الفتى أعمى. لقد كان أعمى منذ ثلاثة أو أربعة أيام. كيف لم تلاحظوا ذلك، لا أستطيع أن أعرف» رتب معطفه وتناول قبعته المستديرة السوداء. «لماذا لم تقل ذلك؟» سأل جيلجيان «كنت تعرف، أليس كذلك؟ حسنٌ، لا يهم. سوف أعود ثانية غداً. نهارك سعيد، سيدتي. نهاركم سعيد».

أمسكت السيدة باورز بذراع الكاهن «إنني أكره ذلك الرجل» قالت: «ذلك المتعجرف اللعين الضئيل الحجم لكن لا تهتم، أيها العم جو. تذكر أن الطبيب في أتلانتا قد أخبرنا بأنه سيفقد بصره. لكن الأطباء لا يعرفون كل شيء، من يدري، ربما يصبح قوياً وتتحسن صحته فيسترد بصره».

ـ «نعم، نعم» قال الكاهن موافقاً، متشبثاً بالقش الواهن. «دعونا نجعل صحته تتحسن وبعدها ننظر ما الذي يمكننا عمله».

استدار بتثاقل وعاد لدخول غرفة القراءة. نظرت هي وجيليجان إلى بعضهما الآخر للحظة من الزمن بدت طويلة.

ـ بوسعي البكاء من أجله يا جو.

ـ «وأنا أيضاً.. لو كان ذلك يجدي نفعً» أجاب بمزاج كئيب. «لكن بالله عليك. أبعدي الناس هذا اليوم».

ـ أنوي عمل ذلك. لكن من الصعب طردهم. إنهم لا يقصدون الإيذاء. فهم لطفاء ودودون.

ـ لطفاء، سحقاً، إنهم بالضبط مثل ذلك الفتى المزعج سوندرز. يأتي لكي يرى جرحه. يأتي إلى هنا ويبقى بدور ويسأله كيف أصيب، وإن كان ذلك يؤلمه، كما لو أنه كان يعرف كل شيء أو يكترث لأي شيء.

ـ نعم. ولكن ينبغي ألا يأتوا إلى هنا لكي يحدقوا في رأسه المسكين بعد الآن. لن نسمح لهم، يا جو. أخبرهم بأنه ليس على ما يرام. قل لهم أي شيء.

دخلت إلى غرفة القراءة. جلس الكاهن إلى مكتبه، كان ثمة قلم مستقر فوق ورقة فارغة، لكنه لم يكن يكتب أي شيء، كان وجهه مستنداً إلى قبضة ضخمة، ونظراته تتجول بإبهام على الحائط المقابل.

وقفت بجانبه، ثم لمسته بيدها، جفل كبهيمة نخست بمهماز قبل أن يتعرف إليها.

ـ «كان لابد لهذا اليوم أن يأتي، أنت تعرف» قالت له بهدوء.

ـ نعم، نعم. لقد توقعت ذلك. كلنا توقعناه، أليس كذلك؟

ـ «نعم. كلنا توقعناه» قالت موافقة.

ـ المسكينة سيسلي، كنت قبل لحظة أفكر فيها، ستكون ضربة قاسية لها، أخشى ذلك. لكنها حقاً مهتمة بأمر دونالد، شكراً لله. إن تعلقها به شيء جميل تماماً. لقد لاحظت ذلك، أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم.

ـ من المؤسف جداً أنها ليست قوية لدرجة كافية للمجيء كل يوم. إنها رقيقة بالفعل. كما تعلم، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، أنا واثق من أنها ستأتي كلما استطاعت ذلك.

- وأنا أيضاً، حمداً لله، فهناك على الأقل شيء لم يخذله.

كانت يداه متشابكتين بارتخاء فوق الورقة المنبسطة أمامه.

- «أوه، إنك تكتب موعظة وأظنني قد قاطعتك لم أكن أعرف» قالت معتذرة ثم انسحبت.

- لا أبداً، لا تذهبي، بوسعي أن أنجز ذلك لاحقاً.

- كلا، افعل ذلك الآن. سأذهب وأجلس مع دونالد. السيد جيليجان يقوم بتهيئة كرسي له على المرج هذا اليوم، الجو لطيف للغاية في الخارج.

- نعم، نعم. سوف أنهي موعظتي وأنضم إليكم.

من خارج الباب نظرت إلى الوراء. لكنه لم يكن يكتب. كان وجهه مستنداً إلى قبضة ضخمة، ونظراته تطوف بإبهام على الحائط المواجه.

جلس ماهون على كرسي طويل قابل للطي. كان يضع نظارات زرقاء وقبعة خفيفة منسدلة أخفت جبينه لقد أحب دوماً أن يقرأ له شخص ما، بالرغم من أن أحداً لا يستطيع أن يعرف ما إذا كانت الكلمات تعني أي شيء بالنسبة إليه، ربما كان صخب الصوت هو ما أحبه. هذه المرة كان ذلك كتاب جيبون (تاريخ روما) وتعثر جيليجان بفظاعة وسطر كلمات متعددة المقاطع في الوقت الذي انضمت إليهما السيدة باورز. جلب لها كرسي، وجلست، لم تكن تسمع أو لا تسمع، تاركة صوت جيلجيان المتردد برتابة يهدئ من روعها مثلما فعل مع ماهون. اهتزت أوراق الشجر فوق رأسها بوهن وخفوت، وأهاجها شيء ما فوق سماء ليس من السهل وصفها، ترقط ثوبها بالظلال. كانت أوراق البرسيم تنحني على العشب المجروز تواً، والنحل يخترقه هنا وهناك، النحل يطن كأنه سهام مذهبة مدببة أو غير مدببة محملة بالعسل ومن برج الكنيسة بدت الحمائم نائية غير مثيرة للاهتمام مثل النوم.

الضوضاء جعلتها تنهض وتوقف جيليجان عن القراءة. جلس ماهون بلا

حراك، يائساً كالزمن، فيما أتت عبر العشب امرأة زنجية عجوز، يتبعها شاب زنجي طويل القامة، قوي البنية يرتدي بدلة جندي، جاءا مباشرة باتجاه الجالسين وهنا ارتفع صوت المرأة وطغى على صفاء الأمسية النعسانة.

-«أغلق فمك، يا لوش» قالت: «سيكون ذلك شيئاً سيئاً في الصباح عندما لا يريد طفلي الصغير رؤية حبيبته الوحيدة كالين. دونالد، حبيبي سيد دونالد، هذه كالي جاءت لرؤيتك، حبيبي؛ هذه أمك جاءت إليك» وأكملت الخطوات الأخيرة في قفزة متثاقلة. نهض جيليجان من مكانه واعترضها.

- مهلاً، يا عمتي إنه نائم لا تزعجيه.

- «لحظة، يا هذا! إنه لا يريد النوم عندما يأتي أهله لرؤيته» هدر صوتها ثانية وتململ دونالد في كرسيه «ألم أقل لك! لقد أفاق: انظر إليه. سيد دونالد، حبيبي!»

أمسك جيليجان بذارعها الذابلة، بينما كانت تكافح مثل كلب صيد مقيد.

- «تباركت يا رب، لقد عدت إلى أمك. نعم، بحق المسيح! كل يوم كنت أصلي، وقد استجاب الرب لي».

واستدارات نحو جيليجان. «دعني أذهب، أرجوك يا هذا».

- «دعها تذهب، جو» قالت السيدة باورز معربة عن تأييدها، وهنا أطلقها جيليجان، وجثت العجوز بجوار كرسي دونالد وقد وضعت يديها على وجهه. وقف لوش بحياء إلى الخلف.

- «دونالد، يا طفلي الصغير، انظر إلي. ألا تعرف من هذه؟ إنها حبيبتك كالي التي اعتادت على وضعك في السرير، حبيبي. انظر هنا إليّ. رباه، البيض قد دمروك، لكن لا بأس، أمك سوف تعتني بطفلها. أنت لوش!»استدارت وهي ما تزال جاثية على ركبتيها وصاحت بحفيدها «تعال إلى هنا وتكلم قليلاً مع السيد دونالد. هنا حيث يمكنه أن يراك. دونالد،

يا حبيبي، هذا الزنجي التافه يتكلم معك انظر إليه، إنه يرتدي بدلة الجنود ذاتها».

تقدم لوش خطوتين ثم توقف بسرعة وانتباه، أدى التحية، «بعد إذن الملازم، يسر العريف نيلسون أن يرى.. يسر العريف نيلسون أن يرى الملازم وهو يبدو في أحسن حال».

- لا تقف هناك وتلوح بذراعك إلى السيد دونالد، أيها الفتى الأسود. تعال إلى هنا وتكلم معه مثلما تعلمت.

تخلى لوش عن صفته العسكرية وتحول ثانية إلى ذلك الفتى نفسه الذي كان يعرف ماهون منذ أمد طويل، قبل أن يجن جنون العالم. اقترب باستحياء وتناول يد ماهون بيده السوداء الحانية لكن الخشنة «سيد دونالد؟» قال.

- «هذا يكفي» قالت جدته بإطراء «سيد دونالد، ذلك هو لوش يتكلم معك. سيد دونالد؟».

تململ ماهو في كرسيه ورفع جيليجان المرأة العجوز عنوة على قدميها. «الآن، يا عمتي. هذا يكفي في الوقت الحاضر. تعالي ثانية يوم غد».

- رباه! لم أكن أريد أن أسمع يوماً رجلاً أبيض يقول لي أن السيد دونالد لا يريد رؤيتي!

- «إنه مريض، عمتي» قالت السيدة باورز مفسرة الأمر. «بالطبع، هو يريد رؤيتك عندما يتحسن يجب أن تأتي مع لوش كل يوم».

- نعم، يا سيدتي. من المستحيل أن يمنعني شيء من رؤية طفلي المدلل. أنا عائدة، يا حبيبي. سوف أعتني بك.

- «خذها، يا لوش» همست السيدة باورز للزنجي «إنه مريض، كما تعلم».

- «نعم سيدتي. إنه رجل مريض ووحيد في هذا العالم. إذا أردت مني أي شيء. فأي رجل أسود يمكنه أن يدلك على مكاني» وأمسك بذراع جدته

«تعالي، يا جدتي يجب علينا أن نذهب».

- «إنني عائدة، دونالد، حبيبي. لن أتركك أبداً» تراجعا ثم أخذ صوتها يتلاشى شيئاً فشيئاً. قال ماهو:

- جو

- ما الذي تريد قوله، أيها الملازم؟

- متى سأخرج؟

- إلى أين، أيها الملازم؟

لكنه صمت، وحدق جيليجان والسيدة باروز في بعضهما البعض بشيء من التوتر، أخيراً تكلم ثانية:

- «يجب أن أعود إلى أهلي جو» رفع يده، كأنه يبحث عن شيء ما، ارتطمت يده بنظاراته، وسقطت النظارة عن وجهه. أعادها جيليجان إلى مكانها.

- لماذا تريد العودة، أيها الملازم؟

لكنه كان قد أضاع أفكاره. وبعد ذلك.

- من الذي كان يتكلم، يا جو؟

أخبره جيليجان وجلس ببطء شديد وصار يثني طرف سترته التي كان جيليجان قد أحضرها له، بين أصابعه. ثم قال: «استمر، يا جو».

التقط جيليجان الكتاب ثانية وسرعان ما استرد صوته نبرته المخدرة. وأصبح ماهون ساكناً في كرسيه. بعد فترة قصيرة توقف جيليجان، لم يتحرك ماهون، ثم نهض واسترق النظر من فوق النظارات الزرقاء.

- «لايمكن أبداً أن تعرف متى يكون نائماً ومتى لا يكون» قال ساخطاً.

الفصل الخامس



(١)

النقيب جرين، ذلك الذي تم تنسيبه آمراً للسرية، كان قد منح رتبته تلك من قبل حاكم الولاية في هذا الصدد. لكن النقيب جرين كان ميتاً عندئذ. ربما كان ضابطاً جيداً ربما كان أي شيء آخر. بالتأكيد فهو كان يتذكر أصدقاءه جيداً. لقد تأخرت ترقيته مرتين لأسباب سياسية كانت خارج إرادته؛ ولذلك فأفضل ما استطاع عمله هو أن يجعل صديقه مادين رقيباً أول. وذلك ما فعله تماماً.

وهكذا هنا كان جرين بأشرطته ورتبته اللامعة، وهنا كان مادين يحاول اكتساب عادة أن يقول له سيدي؛ هنا كان توم ودك وهاري الذي كان كل من جرين ومادين قد لعبا معهما القمار واحتسيا الويسكي محاولين التعود على أن يتذكروا أن هناك فرقاً ليس فقط بينهم وبين جرين ومادين، لكن إن هناك أيضاً فرقاً بين مادين وجرين.

- «أوه، حسنٌ» قالوا أثناء وجودهم في معسكرات أمريكية «إنه يعمل باجتهاد، دعوه يتعود على ذلك قليلاً ذلك يحصل عند الأستعراض فقط، أيها الرقيب؟».

- «حتماً» رد الرقيب مادين. «سيوبخنا العقيد بعنف بسبب مظهرنا. أليس بوسعنا أن نفعل شيئاً أفضل من هذا؟ لكن في بريست».

- «ماذا يتصور نفسه بحق الجحيم؟ بيرشنغ؟» تساءل الرقيب مادين.

- «هيا، هيا، غير الموضوع. إذا سمعت كلمة أخرى من أي رجل منكم فسوف أجعله يمثل أمام النقيب ليتلقى جزاءه».

وكان الرقيب مادين قد تغير أيضاً.

في أيام الحرب يعيش المرء ليومه فحسب. فالأمس يكون قد ولى إلى غير رجعة والغد ربما لن يأتي أبداً. انتظروا حتى نشترك في القتال، قال أحدهم للآخر، سوف نقتل ابن العاهرة «ليس مادين؟» تساءل أحدهم مرعوباً. ونظروا إليه فحسب. «بحق السماء» علق أحدهم أخيراً.

لكن القدر، الذي يستعمل وزارة الحرب كأداة، كان يراوغهم عندما قابل الرقيب مادين نقيبه الحالي وصديقه القديم وجد جرين بمفرده.

- «اجلس، عليك اللعنة» قال له جرين، «لن يدخل علينا أحد. أعرف ما الذي ستقوله. أنا سأنقل من هنا، عل كل حال، يتوجب عليّ استلام أمر نقلي الليلة. انتظر» كان مادين يوشك أن يقاطعه، «إذا كنت أريد التمسك بمنصبي فيجب عليّ أن أعمل بإخلاص. إن معسكرات التدريب اللعينة هذه تصنع الضباط المتدربين بكفاءة. لكني لم أكن كذلك. وهكذا سأذهب إلى تلك المدرسة لفترة قصيرة بحق المسيح! وأنا بهذا العمر. أتمنى من الله لو أني شخصٌ آخر كانت لديه هذه السرية اللعينة. أتدري أين أحب أن أكون الآن؟ هناك معهم، أدعو شخصاً ما ابن العاهرة، مثلما يدعونني الآن. أتتصور بأني يمكن أن أستمتع بهذا؟».

- آه، سحقاً، دعهم يتكلمون. ما الذي تتوقعه منهم؟

- لا شيء. فقد كان عليّ أن أعطي وعداً لوالدة كل واحد لعين منهم بأن أهتم به ولا أن يصاب بأذى. والآن لا يوجد واحد من أولئك الأوغاد لن يتردد في إطلاق النار عليّ في ظهري إذا واتته الفرصة.

- لكن ما الذي تتوقعه منهم؟ ما الذي تريده؟ إنها ليست نزهة كما تعرف.

جلسا صامتين عند طرفي منضدة كانت بينهما. كان وجهاهما قد أصبحا متطاولين ومستدقين، غائرين في وهج الضوء الذي لم يكن يظللهما، جلسا يفكران في الأهل، الشوارع الهادئة التي تظللها أشجار الدردار التي تصلصل وتزحف فوقها العربات خلال النهارات المغبرة ويمشي عليها الفتيان

والفتيات في الأماسي جيئة وذهاباً نحو معرض الصور أو لارتشاف سوائل باردة حلوة المذاق في المحلات العامة؛ عن السلام والسكينة وكل الأشياء الأليفة لديهم، عن زمن لم تكن فيه ثمة حرب.

التفكير في أيام الشباب التي لم تكن قد نأت عنهم كثيراً، في القلق المبهم بحثاً عن القناعات التافهة، في نشوة الشباب التي كأنها غطاء جليدي(*) على كعكة يجعلها أكثر حلاوة.. في الخارج كانت هناك بريتاني والوحل، مدينة تبعث على الريبة، غير مستقرة، غريبة بشكل مضاعف، النشوة بلسان أجنبي غريب، غداً نموت.

وأخيراً قال النقيب جرين باستحياء:

- أنت على ما يرام؟

- سحقاً، نعم، أرادوا أن يقهروني ذات مرة، لكني على ما يرام الآن.

فتح جرين فمه مرتين، كأنه سمكة، وقال مادين بسرعة: «سوف أعتني بهم. لا تقلق».

- آه، أنا لن أفعل ذلك. ليس مع أولئك الأوغاد. دخل مراسل وأدى التحية. رد جرين له التحية وسلم الرجل رسالته بثبات وانصرف.

- «ها هي ذي» قال النقيب.

ستذهب غداً، إذن؟

- «نعم، نعم، آمل ذلك» أجاب وهو يحدق في الرقيب بشرود. نهض مادين.

- حسنٌ، أظن بأني سأمضي. أشعر بالتعب الليلة.

نهض جرين أيضاً وأخذا يحدقان في بعضهما الآخر كالغرباء عبر المنضدة.

- ستأتي لرؤيتي في الصباح؟

- أظن ذلك. طبعاً سأتي.

أراد مادين الانصراف وكذلك كان جرين يريد له أن يفعل ذلك،

(*) الغطاء الجليدي: غطاء للمآكل المخبوزة مؤلف من سكر وزبدة وحليب وبيض.. إلخ.

لكنهما ظلا منتصبين في مكانهما ببلاهة وهما صامتان وأخيراً قال جرين: «إنني ممتن لك» حملت عينا مادين الوديعتان الفائرتان سؤالاً ما. كانت ظلالهما هائلة.

«لمساعدتي في اجتياز تلك المحنة. المحاكمة العسكرية، كما تعرف..».

ـ «ما الذي كنت تتوقعه مني؟» ومع ذلك فقد عبر جرين عن امتنانه وتابع مادين يقول: «لماذا لا تترك اولئك النساء وشأنهن؟ إنهن جميعاً فاسدات».

ـ «من السهل قول ذلك» ضحك جرين بدون أي ابتهاج. «بالنسبة إليك، ذلك ما أعنيه».

تلمست يد مادين طريقها إلى جيب بلوزته، ثم سقطت إلى جانبه ثانية. بعد وهلة قال ثانية: «حسنٌ، سوف أذهب».

التفت النقيب حول المنضدة ومد يده «حسنٌ، الوداع» لم يتناولها مادين «الوداع؟».

ـ «ربما لن أراك ثانية» قال الآخر مفسراً بصوت واهن.

ـ سحقاً. إنك تتكلم وكأنك ذاهب إلى بيتك. لا تكن مغفلاً أولئك الأشخاص لم يكونوا يقصدون أي شيء عندما انتقدوك بقسوة. لو أنني مكانك لتصرفت على نحو واحد مع الجميع.

راقب جرين مفاصل أصابعه وقد غدت شاحبة فوق المنضدة «لم أقصد ذلك. كنت أقصد..» لم يستطع أن يقول ربما أواجه القتل. الإنسان بكل بساطة لا ينبغي أن يقول شيئاً مثل ذلك. «ستذهب إلى الجبهة قبلي، كما أظن».

ـ ربما. ولكن هناك مكان يتسع لنا جميعاً، كما أتصور كان المطر قد توقف لسبب ما، وتصاعد من بعيد بين الحين والآخر من فوق الهواء المثقل بالرطوبة ذلك الصوت الذي تثيره الكتائب والأفواج التي خلدت إلى السكون. إنه صمت منتظم أشد وطأة من العريدة. وفي الخارج أحس مادين بملمس الوحل، تآلف مع الظلام والرطوبة، استنشق رائحة الطعام والبراز والسبات تحت سماء نائية بعيدة المنال يصعب عليها حتى أن تميز بين السلام والحرب.

(٢)

لقد فكر في أوقات متكررة بالنقيب جرين فيما كان يجتاز أرض فرنسا، ورأى نصاعة قطرات المطر الفضية المتقطعة تتلاشى إلى الأبد بين أشجار الحور وكأنها إفريز أبدي يتقهقر أمام مشاهد وصور ضيقة لمروج خصبة هاجعة، طرق وقنوات تلتمع سقوفها بشدة؛ أبرا ج وأشجار، طرق، قرى؛ بلدات، مدينة؛ قرى، قرى، ثم سيارات وعساكر وسيارات وعساكر عند نقاط تقاطع الطرق. رأى أناساً يؤدون طقوس الحرب على نحو جدي، رأى جنوداً فرنسيين يلعبون الكروكي عند الأفق الأزرق الملطخ بالوحل رأى جنوداً أمريكان يراقبون حركاتهم، يقدمون لهم سكائر أمريكية النهكة؛ رأى عساكر أمريكية وبريطانيين يتعاركون رأى أن أحداً لم يكن يبالي بهم على الإطلاق. ما عدا شرطة الانضباط العسكري. لا بد أن يكون الرجل يتمتع بروح الدعابة لكي ينخرط في سلك الانضباط العسكري. أو جنرال زنجي. منطقة العمليات. الواجبات كالمعتاد. إنه العصر الذهبي لغير المسلحين.

فكر في أقصاب عديدة بجرين، متسائلاً ترى أين كان الآخر، حتى بعد أن تحتم عليه أن يتعرف على آمر سريته الجديد، هو رجل مختلف تماماً عن جرين. كان قد عمل معلماً في إحدى الكليات، بوسعه أن يشرح لك المواضع التي اقترف فيها الإسكندر ونابليون وجرانت أخطاءهم. كان إنساناً لطيفاً لم يكن صوته ليسمع إلا نادراً على أرض الاستعراض وقال رجاله جميعاً، انتظروا حتى نصل إلى الخطوط الأمامية. سوف نتدبر أمر ابن العاهرة.

لكن الرقيب مادين أقام علاقة طيبة للغاية مع الضباط الذين يعمل بإمرتهم، وخاصة مع ملازم أول يدعى باورز. ومع الجنود أيضاً، حتى بعد فترة التدريب باستخدام الدمى كشواخِص في قاطع عمليات مصغر. كانت علاقته معهم جيدة. لقد أصبحوا معتادين على سماع أصوات المدافع البعيدة (والتي كانت تطلق النيران على بشر آخرين أيضاً) ومنظر الأفق المتوهج في ومضات خاطفة ليلاً؛ كانوا يتعرضون للقصف بالطائرات باستمرار بينما هم مصطفين لأخذ حصصهم من الطعام عند المطبخ الميداني، فيما كان رجال ينتمون إلى بطرية فرنسية متخفية يراقبونهم بلا اكتراث من مخبئهم؛ علماً أنهم كانوا قد تلقوا الكثير من النصائح من قبل العساكر الذين في الخطوط الأمامية بشأن هذا الأمر أو ذاك.

وأخيراً صدرت الأوامر لهم بالاشتراك في القتال بأنفسهم بعد فترة غير محسوبة من الزمن مضت في التجوال بلا أدنى هدف، وبعد أن غدت أصوات المدافع، بالرغم من أنها كانت تبدو غير قريبة منهم، شيئاً مألوفاً بالنسبة إليهم. ارتحلوا مشياً على الأقدام ليلاً، وأحسوا بأقدامهم تغوص في الوحل، ثم سمعوها تمتصه، اجتازوا أرضاً منحدرة وأصبحوا بعدها داخل خندق. كان ذلك كما لو أنهم يدفنون أنفسهم بأيديهم، ينزلون إلى قبورهم في أحشاء أرض رطبة سوداء من الوحل، يلفهم ظلام شديد العتمة، ظلام يكاد يخنق حتى أنفاسهم، يعتصر حتى قلوبهم. وتعثرت خطواتهم في الظلام الدامس.

من بين النصائح المجانية التي كانوا قد تلقوها، تذكروا بقوة أن ينبطحوا أرضاً عندما يهدر صوت مدفع أو عند سماع قذيفة قادمة؛ لذلك فعندما تناهى إليهم صوت بندقية رشاشة، قادماً من مكان بعيد من جهة اليمين، محطماً سورة الهلع البطيء والإحساس بالضمور التي دفنتهم أحياء انبطح أحدهم أرضاً، وتعثر آخر فوقه، ثم هووا جميعاً كرجل واحد. زعق الضباط بهم، ركلهم ضباط الصف لكي ينهضوا ثانية. بعد ذلك وبينما هم

يحتشدون في الظلام، يتسمون رائحة الأرض، عاد الملازم أول مهرولاً أمام الصف وألقى عليهم خطاباً موجزاً مليئاً بالعبارات القاسية:

ـ «من الذي قال لكم بحق الجحيم أن تنبطحوا؟ إن البنادق الوحيدة التي تبعد عنكم مسافة ميلين هي شبيهة بتلك الأشياء التي بين أيديكم الآن. أتشعرون بها؟ هذا الشيء الذي هنا» ـ أخذ يضرب على البنادق بقوة ـ «إنها بندقية، أيها الرقباء إذا انبطح رجل آخر، اسحلوه في الوحل ثم اتركوه هناك».

وتقدموا بجهد جهيد، لاهثين، وهم يلعنون كل شيء همساً وفجأة أصبحوا وسط جنود آخرين، وجاء جندي محنك مضى عليه أربعة أيام في ذلك المكان، وسرعان ما تحسس رائحة الرجال الجدد على المعارك، قال:

ـ عجباً، انظروا إلى أولئك الجنود الذين جاؤوا للقتال في هذه الحرب.

ـ «اصمت يا هذا!» ارتفع صوت ضابط صف، وجاء رقيب مهرولاً وقال: «أين ضابطكم؟» مر بهم الرجال الذين قدموا مروراً عاجلاً، مروا وسط الظلام المشبع بالرطوبة، الفاحم السواد كالقار، وهمس صوت مشاكس على نحو مزعج، «احذروا من الغاز السام» وسرعان ما انتقلت كلمة (غاز) من فم إلى آخر، وأمروا بغضب أن يلزموا الصمت ثانية. لكن مفعول الكلمة المؤذي كان قد تحقق.

غاز. رصاص وموت ولعنة. لكن غاز. إنه يبدو كالسديم ذلك ما قيل لهم. أول شيء تحس به هو أنك داخله. وبعد ذلك ـ تصبح على خير.

كسرت الصمت حركات متململة مشوبة بالوجل وأنفاس تتردد. ومن جهة الشرق كانت الشمس شاحبة بصورة يصعب وصفها وإدراك كنهها، كأنها تمثل موت أي شيء وليس ولادته؛ واختلسوا النظر أمامهم من دون أن يروا أي شيء. يبدو أنهم لم يكن ثمة حرب هنا أبداً، بالرغم من أنه إلى اليمين منهم كانت تجأر أفواه بنادق بعيدة كأنها إشاعات مبهمة ثم تهوي بشكل كثيف ثقيل لتطمس معالم الفجر المرهق الحزين كان الضابط

باورز قد مر على الرجال من واحد إلى آخر. لا أحد يجب أن يطلق النار، هناك دورية في ذلك المكان، في مكان ما من الظلام. وازداد الفجر شحوباً على نحو بطيء؛ بعد فترة وجيزة تلبست الأرض مظهراً غامضاً، وصاح أحدهم وقد رأى بقعة أقل ظلاماً «غاز!»

قفز باورز ومادين وسطهم فيما كانوا يتدافعون على غير هدى، يتلمسون طريقهم برعب بحثاً عن أقنعتهم المضادة للغازات. أخذ أحدهم يدوس على الآخر، لكنهم كانوا عاجزين عن تحقيق أي شيء، كافح الملازم أول بضراوة فيما حوله بقبضته محاولاً أن يجعل نفسه مسموعاً، لكن الرجل الذي كان قد أعطى الإنذار اندفع فجأة صوب أحد المواضع، ظهر رأسه وكتفاه بشكل بارز حاد إزاء الفجر المثقل بالأحزان.

- «لقد قتلتنا يا هذا» صاح بأعلى صوته، وأطلق النار على الضابط في وجهه مباشرة.

(٣)

فكر الرقيب مادين في جرين ثانية في يوم لاحق، فيما كان يهرول فوق أرض محفورة عند كانتيجني ويقول، هيا، أيها الأوغاد، أتريدون العيش إلى الأبد؟ نسي جرين مؤقتاً عندما استلقى بجانب فتى كان قد باعه حذاءً قديماً هناك في الوطن، في حفرة صنعتها إحدى القذائف قلما تتسع لهما معاً، شعر بساقه المكشوفة وكأن ريحاً هوجاء تلسعها مثلما تضرب عاصفة غصناً رقيقاً. بعد فترة وجيزة حل الليل وولت العاصفة ومات الرجل الذي بقربه.

وبينما كان في المستشفى شاهد اسم النقيب جرين مدوناً في قائمة المصابين. واكتشف أيضاً في المستشفى بأنه كان قد أضاع صورته. سأل ممرضي المستشفى والممرضات عنها، لكن أحداً لم يتذكر أنه رآها بين أشيائه الشخصية. كما لو أن ذلك كان شيئاً ينقصه أيضاً. أما هي فكانت في هذه الأثناء قد تزوجت من ملازم أول يعمل ضمن هيئة أساتذة كلية عسكرية.

(٤)

كان ثوب حداد السيدة برني أنيقاً وسميكاً بحيث يمنع الهواء تماماً، لم تكن لتؤمن بالحاجة إلى الهواء إلا كشيء مساعد ضروري للتنفس. أما السيد برني، وهو رجل كئيب المزاج، هادئ الطبع، فقد كانت مهنته نشر ألواح الخشب بهمة فاترة وبعدها يسمرها ببعضها ثانية ببرود، وكان يستمد جميع أفكاره من زوجته، ولذلك فقد آمن بما تؤمن به أيضاً.

تجولت على طول الشارع بعزم وأناقة بالغة، ساخطة من شدة الحرارة بالرغم من فائدتها لها أيضاً بسبب الروماتزم الذي تعاني منه. كانت تقوم بزيارة عندما فكرت في مقصدها، بالرغم من حزنها الكليل الذي ما كان ليخبو، صفعة القدر التي أفقدتها صوابها وحولتها إلى امرأة أرستوقراطية. كانت النساء من عائلة وورثنفتون، وعائلة سوندرز جميعاً تتكلم معها الآن كما لو أنها واحدة منها، كما لو أنها هي أيضاً كانت تركب سيارة وتشتري نصف دزينة من الثياب الجديدة كل سنة. كان فتاها قد عمل كل هذا من أجلها، غيابه كان قد حقق كل تلك الأشياء التي ما كان سيفعلها في حضوره أبداً، لم يكن ليستطيع أن يفعلها أبداً.

تشرب ثوبها الأسود بالحرارة ورفعته قليلاً من حولها لكي تعالج الأمر، كانت مظلتها القطنية مجرد شيء وهمي. يا له من جو لاهب نسبة إلى نيسان، فكر بذلك، وشاهدت سيارات تمر بها بداخلها أجساد بضة لنساء يرتدين ملابس خفيفة باردة، ونساء أخريات يمشين في ظلال رقيقة مريحة، كن يومئن لها وهي تمشي بجسدها المنحني القصير المكتنز، ويحيينها بدماثة، حملها حذاؤها المسطح العادي بثبات وتصميم إلى أمام.

انعطفت عند ركن وكانت الشمس التي تخترق أشجار القبقب تسقط مباشرة على وجهها، خفضت مظلتها كي تتقيها، لاحظت بعد وهلة بركة صغيرة انعكس عليها طيف وهج لاهب وشعرت بحركة متموجة عندما داست قدميها على الكونكريت المرصوف بلا انتظام، ثم أمالت مظلتها ثانية. بدت الحمائم التي في أعلى البرج منتعشة بعيداً عن الحرارة، لكنها لا تثير الاهتمام مثل الكرى، واجتازت بوابة حديدية، سارت عبر ممر مغطى بالحصى، كانت الواجهة المتعرشة لمنزل الكاهن تغط في حلم الظهيرة فوق مرج تنتشر عليه مزاهر إبرة الراعي ومجموعة من الكراسي المصفوفة تحت إحدى الأشجار، عبرت العشب ونهض الكاهن بجسده الهائل كالصخرة، كانت ملامحه باهتة معتمة عندما حياها.

(أوه، الرجل المسكين، كم يبدو تعيساً، وكم يبدو عجوزاً كم نبدو كباراً في السن لكي يحدث هذا لنا. لم يكن شخصاً نافعاً على الإطلاق لكنه كان ولدي. والآن السيدة وورثفتون والسيدة سوندرز والسيدة واردل يتكلمن معي، يتوقفن لكي يثرثرن حول هذا الشيء وذاك، بينما يكون ولدي ديوي ميتاً. لم يكن لديهن أنباء، والآن يعود ابنه ولا يعود ابني، يا للشحوب الذي يلف وجهه، ذلك الرجل المسكين).

لهثت من الحرارة، مثل كلب، شعرت بالألم في عظامها، ومشت وهي تعرج بشكل فظيع مروراً بالأشخاص المتجمعين ولأن الشمس كانت في عينيها فلم تكن تستطيع الرؤية، شمس تهبط خلف جدار مشبك مغطى بالوستارية. دندنت الحمائم بخناجرها الصافية في البرج، وانحدرت كأنها بقع من الطلاء، كان الكاهن يقول:

- هذه هي السيدة باورز، يا سيدة برني، إنها صديقة دونالد. دونالد، هذه السيدة برني، تتذكر السيدة برني أنها والدة ديوي، أنت تتذكرها.

أخذت السيدة برني كرسياً قدم لها من دون حتى أن ترى ذلك. كان ثوبها مشبع بالحرارة، ومظلتها تتراقص أمامها بتراخٍ ثم حركتها جانباً

بإعياء. قام الكاهن بإغلاق المظلة وأجلستها السيدة باورز على الكرسي. أخذت تفرك عينيها بمنديل قطني أسود الحافة.

أفاق دونالد ماهون على الأصوات. كانت السيدة باورز تقول: «كم هو شيء جميل أن تعود. إن جميع أصدقاء دونالد القدامى كانوا لطفاء للغاية معه. خاصة أولئك الذين لديهم أبناء في الحرب. إنهم يعلمون بعودته، أليس كذلك؟».

(أوه، الرجل المسكين، الرجل المسكين. ووجهك الجريح! لم يقل لي مادين أن وجهك قد أصيب، دونالد).

الحمائم نائمة مثل برقوق السياج، والظهيرة تولي الأدبار، تموت، السيدة برني، بثوب الحداد السميك الحار، الكاهن بجسده الضخم المبهم الملامح، السيدة برني بحزنها المستديم السيدة باورز - (دك، دك. يا للشباب، يا للشباب الضائع، الغد لا يجب أن يأتي أبداً. قبلني من خلف شعري. دك. دك، جسدك ينسل بعيداً عني، يتشظى. يا لقبح الرجال، عندما يتعرون. لا تتركني وحدي، لا تتركني! كلا، كلا! إننا لا نحب بعضنا الآخر! لا نحب! لا نحب! ضمني لصدرك، ضمني؛ نشوة جسدي قد تحطمت، لا أرى: حمداً لله أن جسدك لا يمكنه الرؤية. جسدك قبيح جداً، دك! عزيزي دك. عظامك، فمك صلب وله شكل العظم، قاس. عظامي، لا تستطيع تحمل فمك. لماذا تنام، يا دك؟ جسدي يتدفق.. يتدفق. لا تستطيع تحمله، لأن جسدك قبيح تماماً، عزيزي دك.. ربما لن تسمع مني شيئاً لبعض الوقت. سوف أكتب عندما أستطيع ذلك..»).

تحرك دونالد ماهون في كرسيه عندما سمع أصواتاً. أحس بشيء لم يستطع أن يراه، سمع شيئاً لم يحركه أبداً «استمر يا جو».

استمرت الظهيرة في حلمها، بلا انقطاع، أوقف زنجي يرتدي بذلة غير نظامية وقميصاً تحتياً جزازة العشب، ثم وقف تحت إحدى الأشجار، كان يتحدث مع امرأة من وراء السياج. السيدة برني بثوب الحداد السميك الذي لا

يطاق. السيدة وورثفتون تتكلم معي، لكن ديوي مات، أوه، الرجل المسكين، وجهه الشاحب. ابني مات، لكن ابنه عاد إلى المنزل، عاد إلى المنزل.. برفقة امرأة. ما الذي تفعله هنا؟ تقول السيدة ميتشل.. إن الفتاة تلك التي من عائلة سوندرز مخطوبة له. لقد نزلت إلى البلدة يوم أمس وهي شبه عارية. والشمس كانت تسقط على عينيها.. فركت عينيها ثانية في ظل ربيع يتعذر اجتنابه.

سمع دونالد ماهون أصواتاً: «استمر، يا جو».

- «لقد أتيت لأرى ولدك، بعد كل الذي جرى» (ديوي ولدي).

(إنني أفتقدك بشدة، يا دك، رجل أنام معه؟ لا أعرف أوه، دك، دك. لم تترك أثراً يذكر عليّ، لا شيء أبداً قبلني من خلف شعري، دك، بكل ما في جسدك القبيح من قوة، ثم دعنا لا نرى بعضنا ثانية، أبداً، أبداً.. كلا، لن يحدث لنا ذلك، يا عزيزي، دك أيها القبيح).

(نعم، كان ذلك دونالد. إنه ميت) «إنه أفضل كثيراً، شكراً لك. تحتاج إلى بضعة أسابيع من الراحة وسوف يكون على أحسن ما يرام ثانية».

- «أنا مسرورة، مسرورة جداً» أجابت وهي تشفق عليه وتغبطه في آن واحد (ولدت مات، إنه بطل: السيدة وورثفتون، السيدة سوندرز، إنهن يثرثرن معي حول لا شيء على الإطلاق). «ذلك الفتى المسكين، لا يتذكر أصدقاءه أبداً؟»

- «نعم، نعم». (كان ذلك دونال ولدي) «دونالد، ألا تتذكر السيدة برني؟ إنها والدة ديوي، كما تعرف».

(.. لكن ليس إلى الأبد. أتمنى لكم كل الحظ السعيد والحب الذي في العالم. تمنى لي الحظ السعيد، يا عزيزي دك..).

سمع دونالد ماهون أصواتاً: (استمر، يا جو).

الطريقة التي تتصرف بها تلك الفتاة مع الرجال! فكرت بابتهاج ربما يكون ديوي قد مات، لكن حمداً لله، إنها ليست مخطوبة له. «لقد عاد

ولدك، سيتزوج عما قريب وما إلى ذلك. شيء جميل بالنسبة إليك، جميل جداً..».

ـ «اهدئي، اهدئي» قال الكاهن وهو يربت على كتفها بلطف «يجب أن تأتي لرؤيته بين حين وآخر».

ـ «نعم، سآتي كثيراً» أجابت من خلال منديلها القطني الأسود الحواف «إنه لشيء جميل جداً أن يعود بأمان وسلام بعضهم لم يرجع» (ديوي، ديوي).

اضطرمت الشمس بتؤدة من خلال الوستارية، باحثة لها عن فجوات تمر منها. سترى السيدة وورثنفتون في البلدة الان، ربما. ستسألها السيدة وورثنفتون عن حالها وحال زوجها (الروماتيزم الذي أعاني منه، لكني عجوز، نعم، نعم، عندما نتقدم في العمر.. إنك عجوز أيضاً، إنها ستفكر بمكر وارتياح، أكبر مني. عجوز، عجوز، عجوز لا يتحمل مثل هذه الأشياء التي تحدث لنا. كان طيباً للغاية معي، إنه ضخم الجثة وقوي، شجاع..) نهضت من مكانها وأعطاها أحدهم مظلتها القطنية.

ـ «نعم، نعم. سوف آتي ثانية لرؤيته» (الولد المسكين، الرجل المسكين، وجهه شاحب للغاية).

هدرت جزازة العشب بتثاقل، مخترقة صمت المساء على مضض. اجتازت السيدة برني الأرض المعشبة من دون أن ترى شيئاً، وقد أفرغت النحل في طريقها. مر بها شخص ما عند البوابة، وعندما لاحظت وجود نتوء مقوس في الكونكريت المرصوف بلا انتظام وبالوعة مكسورة، أمالت مظلتها للوراء مغطية بها ظهرها النحيل المتشح بالسواد الثقيل.

صوت الحمائم الناعم كالفضة وهي تتمايل منسابة من وإلى البرج كأنها بقع طلاء تلطخ سماءً بلا غيوم. الشمس مدت أكثر فأكثر ظل الحائط المغطى بالوستارية، وغمرت الكراسي المتجمعة بظل منعش. في انتظار الغرب.

(دك، حبيبي، الذي لم أكن أحبه، دك، جسدك القبيح يخترق جسدي كأنه لص، جسدك يتدفق ويغسل في طريقه كل أثر لك.. قبلني وانساني، تذكرني فقط لكي تتمنى لي الحظ السعيد، عزيزي، دك القبيح المنظر، الميت...).

(كان ذلك ولدي، دونالد. إنه ميت).

قال جيليجان وهو يجتاز المرج: «من كانت تلك؟».

- «إنها السيدة برني» أخبره الكاهن. «ولدها قتل ربما سمعت به في البلدة».

- نعم، لقد سمعت به. كان ذلك الشخص الذي اتهم بسرقة خمسين رطلاً من السكر وجعلوه يتطوع في الجيش، أليس كذلك؟

- «كانت هناك أقاويل..» وضعف صوت الكاهن تدريجياً سمع دونالد ماهون ذلك الصمت: «لقد توقفت، يا جو». وقف جيليجان قريباً منه يعيد ترتيب النظارات الملونة على عينيه: «طبعاً، أيها الملازم، أخبرك بالمزيد عن روما؟».

غمرها ظل الحائط تماماً وأخيراً قال:

- استمر، يا جو.

(٥)

لم تلحق بالسيدة وورثفتون شاهدت المرأة العجوز تبتعد برشاقة من شارع برنس بسيارتها. كانت جالسة بمفردها في المقعد الخلفي. كان رأس السائق الزنجي مستديراً كأنه قذيفة مدفع، وراقبته السيدة برني وهو يمضي قدماً، وتفوح منه رائحة البنزين، كان ظل بناية المحكمة مثل دخان تبغ متباعد يملأ أحد جوانب الميدان، وقفت عند باب أحد المخازن ورأت واحداً من معارضها، صديقاً لوالدها كان ضمن سرية ديوي، هو ضابط أو شيء شبيه بذلك؛ لكنه لم يقتل، ليس هو من يقتل! ضع ثقتك بأولئك الجنرالات وكل تلك الأشياء.

(كلا، كلا! لن أشعر هكذا! لقد فعل أفضل ما بوسعه لم تكن غلطته إن لم يتحلَّ بالشجاعة بصورة كافية لكي يواجه القتل، مثلما فعل ديوي، إنهم جميعاً يغارون من ديوي على أية حال: لن أتحدث عنه إلا وأنا على يقين من أنه فعل ما كان صواباً. فعل ما كان صواباً! لم أكن أعرف بأنه سيفعل ذلك؟ ديوي، ديوي، كم كان فتياً، ضخماً وشجاعاً إلى أن أخذه جرين ذاك وجعله يقتل).

أحست بالأسف على الرجل، أحست بالعطف والشفقة تجاهه أشفقت عليه فعلاً. وقفت بالقرب منه. نعم، يا سيدتي، كان على ما يرام. نعم، كان الأولاد الآخرون على ما يرام.

- «لكن أنت لم تقتل عندئذ» قالت موضحة «كل الجنود لم يكونوا مثل ديوي: إنه شجاع جداً - متهور، تقريباً.. أخبرته دوماً ألا يدع جرين ذلك يجعله - يجعله.. ».

- «نعم، نعم» قال موافقاً، وتأمل مظاهر أناقتها الموسوسة المتهالكة.

- كان على ما يرام؟ لم يكن بحاجة إلى شيء معين؟

- «كلا، كلا، كان على ما يرام» قال مؤكداً لها، كان الغروب قد حل تقريباً. العصافير تتحرك باهتياج ختامي بين أشجار الدرداء المغبرة، والعربات الأخيرة تجري ببطء صوب الأرياف.

- «الرجال لا يعرفون ذلك» قالت بمرارة «ربما أنت لم تفعل من أجله كل ما تقدر عليه أبداً، السيد جرين ذلك؟ ألـ.. لقد شككت بأمره دوماً».

- «إنه ميت أيضاً، كما تعلمين» قال يذكرها.

(لن أكون ظالمة له!) «أنت كنت ضابطاً أو شيئاً ما، يبدو أنك اعتنيت بشكل أفضل بفتى آخر تعرفه».

- «لقد فعلنا ما بوسعنا له» قال لها وهو يكتم غيظه.

كان الميدان الخالي وقتها من العربات هادئاً جداً، النساء ذهبن بتكاسل مع آخر خيط من خيوط الشمس، يلتقين بأزواجهن، يرجعن للبيوت لتناول العشاء. أحست بأوجاع الروماتيزم تؤلمها أكثر، والآن أصبح الهواء أكثر برودة، وأحست بالضجر من ملمس ثوبها الأسود البغيض.

- «حسنٌ، لقد رأيت قبره، كما تقول.. هل أنت متأكد من أنه كان على ما يرام؟» إنه ضخم الجثة وقوي جداً، وكان طيباً معها.

- نعم، نعم كان على ما يرام.

تفحص مادين جسدها المنحني الرشيق وهي تمضي على الشارع وسط الظلام، تحت الظلل المعدنية. كان ظل بناية المحكمة يمتد على نصف البلدة تقريباً، كأنه جيش صامت مكلل بغار النصر، لكنه لم يطلق قذيفة واحدة. أكملت العصافير نوبة اهتياج أخيرة معفرة بالغبار ثم اختفت، تلاشت عابرة المساء نحو الصباح، تستعيد في طريقها دورة الزمن، الأشهر، السنة.

كان أحدهم يقف على دكة الرمي ويصرخ غاز، وقفز الضابط هنا وهناك فيما بينهم مكافحاً، متوسلاً، ثم رأى وجه الضابط يشوبه احمرار ونشوة مريرة، عندها استدار الرجل الذي عند دكة النار، فبرزت ملامحه الحادة إزاء ضوء الفجر المثقل بالأحزان، وصرخ قائلاً: لقد قتلتنا، وأطلق عليه النار في وجهه مباشرة.

(٦)

سان فرانسيسكو، كاليفورنيا

١٤ نيسان ١٩١٩

عزيزتي مارغريت:

وصلتني رسالتك وكنت أنوي الرد عليها في وقت قريب لكنني كنت مشغولاً بالتجوال هنا وهناك. نعم هي لم تكن طفلة سيئة أبداً لقد جعلتني أمضي وقتاً طيباً، كلا إنها ليست جميلة الشكل لكنها تبدو في الصورة جيدة وتريد أن تمثل في السينما. وأخبرها أحد المخرجين أن صورها أفضل من أية فتاة رآها. لديها سيارة وهي راقصة رائعة لكني فقط أحب اللهو معها إنها صغيرة جداً بالنسبة إلي. صغيرة لكي تجعلني أهتم بها. كلا لم أذهب إلى العمل بعد. هذه الفتاة تذهب إلى (يو) وهي تتحدث بشأن ذهابي إلى هناك السنة القادمة. لذا ربما ذهبت إلى هناك في السنة المقبلة. حسنٌ ليس ثمة أخبار، لقد مارست القليل من الطيران لكني في أغلب الأحيان كنت أمضي الوقت بالرقص والتسكع. عليّ أن أخرج للذهاب إلى حفلة الآن وإلا لكنت قد كتبت أكثر. في المرة القادمة سأكتب أكثر. بلغي تحياتي إلى جميع الذين أعرفهم.

صديقك المخلص

جوليان لوي

(٧)

كان ماهون يحب الموسيقا؛ لذلك فقد أرسلت السيدة وورثفتون سيارتها لهم. كانت السيدة وورثفتون تعيش في منزل قديم ضخم جميل، وكان زوجها، الذي مات بلا عناء قد تركه لها ولابن عم لها، وهو شخص شاحب اللون له أسنان اصطناعية ولا عمل لديه يمكن لأي أحد أن يعرفه. كان نطق ابن العم هذا رديئاً للغاية (فقد تلقى ضربة على فمه بفأس أثناء لعبة نرد في كوبا خلال الحرب الإسبانية - الأمريكية): وربما كان هذا سبب كونه عاطلاً عن العمل.

كانت السيدة وورثفتون تأكل كثيراً، وتعاني من النقرس، وشهيتها إلى الطعام تدعو للتهكم حقاً، لذا فإن صلتها مع الكنيسة كانت تسبب الكثير من الإزعاج للقس ورعيته. لكنها كانت تملك المال ذلك الدواء الشافي لجميع أمراض البدن والروح. كانت تؤمن بحقوق النساء، ما دمن يسمحن لها بإملاء ما تراه حقاً عليهن. المرء عادة يتجاهل العلاقة مع الرجل، لكن المرء أحياناً يشفق عليه.

لكنها أرسلت سيارتها إليهم، وقد جلست السيدة باورز مع ماهون في المؤخرة، وجيليجان بجوار السائق الزنجي، وتجولوا بهدوء تحت أشجار الدردار، ونظروا إلى النجوم التي تنتشر على سماء صافية، متنشقين عطر الأشياء الحية، منصتين إلى وقع ضربات مكتومة متناسقة سرعان ما تتحول إلى موسيقا.

(٨)

هذا اليوم من أيام ربيع ١٩١٩ كان يوم الفتى الذي ما يزال صغيراً جداً على الجندية، ولسنتين ظل يعاني من هذا الزمن الأجدب، بالطبع كانت الفتيات قد استغلنه خلال فترة ندرة الرجال، لكن ذلك كان يتم دائماً بطريقة ذات طابع خاص ومجرد، مثل ارتكاب الزنا مع امرأة جميلة تمضغ العلكة في كل الأوقات، أوه، تلك النبرة النظامية، أوه، الغرور، كن يستغلنه لكن عندما يظهر مرتدياً بزته النظامية، كان يشعر بالزهو حقاً.

حتى ذلك الوقت كان في وسع كل من يرتدي بزته النظامية أن يمشي بخيلاء؛ لم يبدوا متأنقين ورومانسيين فحسب، لكنهم كانوا أيضاً متحمسين جداً لصرف ما لديهم من نقود، وكانوا أيضاً يمضون بعيداً جداً في الاستسلام لغرائزهم ثم يولون هاربين بسرعة كبيرة من دون أن يتركوا لهم أثراً. بالطبع كان شيئاً سخيفاً أن يضطر بعضهم لأداء التحية للآخرين أحياناً لكن ذلك كان شيئاً لطيفاً أيضاً. خاصة إذا حدث أن كان العسكري الذي تصادفه يستحق أن تؤدي التحية له؛ والسماء وحدها تعرف مدى الألم الذي يمكن أن تلحقه في قلوب النساء مجموعة من أجنحة الطيران التي تزين الصدور والاستعراضات.

فتيات جميلات، نقيات (أمريكيات) في ثياب الظهيرة أو المساء (بلا شك يخضعن لأوامر اللواء) أمسك بهن في خنادق نيران مهجورة من قبل الهوصار(*) البيروسي (يتمتعن بإجازات وقعها بيلاسكو) ويرتدين بدلات الاستعراض؛ محظيات بعباءات باريسية يفسدن أخلاق ضباط اللواء، لهن

(*) الهوصار: جندي في وحدة من الوحدات العسكرية الأوروبية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري الخفيف في القرن الخامس عشر.

أتباع ذوي ياقات معربية كالسهام وبناطيل مجعدة، يتصورهم جميع الجنرالات على أنهم ربما يكونون جواسيس ألمان، وجنرالات قدامى وسيمين، يتصور جميع الأتباع أنهم ربما كانوا جواسيس ألمان، يحدقون في بعضهم بعضاً عبر جسدها الواهن، بينما كان العرفاء المهرجون يتسلون مع ممرضات الصليب الأحمر الجميلات في أوقات الفراغ (أمريكيات) النساء الفرنسيات هناك كن إما مركيزات أو عاهرات أو جاسوسات للألمان، أحياناً كن من النوعين، وأحياناً من الأنواع الثلاثة، ربما يتم إخبار الماركيزات فوراً لأنهن جميعاً يرتدين القباقيب، بعد أن أعطيت أحذيتهن مع بقية ملابسهن إلى الجيش الفرنسي، واحتفظن فقط بزوج من الأقراط الماسية عيار أربعين قيراطاً. الأولاد كانوا جميعاً طيارين وقد خرجوا في دورية منذ الثلاثاء الماضي، مما جعل الماركيزات يصبحن شاردات الذهن عابثات. العاهرات الدائميات كن يولينهم الاهتمام، بينما كانت الجاسوسات الألمانيات يمارسن الحب مع الجنرالات.

في وقت لاحق تأتي محظية (بلا شك أيضاً امتثالاً لأوامر اللواء) وتنقذ القاطع بالإغراء الجنسي بعد أن فشل البارود، وينتهي كل ذلك بحفلة معينة تقام في حديقة بالقرب من مخبأ مصنوع من الورق المعجن الصلب يجلس فيه الجيش محاطاً بأكياس رمل وزنها ستون رطلاً، الرجال الثلاثة يدخنون السيكار، بينما كان الحرس البروسي يصر أسنانه لهم من خندق كرتوني مجاور.

يظهر أحد النقباء، ولكي يشير إلى أن الجنود يحبونه لأنه واحد منهم، يصدر تلميحات حول البيت والأم والزنا. يرفع علماً كبيراً جديداً فيطلق العدو النار عليه عبثاً ببنادق من عيار ٢٢ ملم، ويهتف الرجال الذين يقفون في صفنا، يقودهم القسيس.

ـ «ما هو» قالت فتاة جميلة متبرجة. من دون أن تصغي لأي شيء، تخاطب جيمس دوغ الذي كان لمدة سنتين عريفاً طياراً في الأسطول «الفرق بين بطل أمريكي وطيار فرنسي أو بريطاني؟».

- «حوالي ست دورات» أجاب جيمس دوغ باكتئاب (يا له من رجل ممل! من أين حصلت السيدة واردل عليه؟) والذي كان قد أسقط ثلاث عشرة طائرة معادية وتحطمت طائرته هو مرتين، مما أعطاه إحدى عشرة نقطة من دون السماح بالتبختر.

- يا له من شيء جميل. هل ذلك صحيح حقاً؟ كانت تفرض عليهم أفلام من فرنسا في ذلك الوقت؟

- نعم، لقد منحنا ذلك شيء نقوم به في أوقات فراغنا.

- «نعم» قالت موافقة، وأدارت له جانب وجهها الشارد «لابد أنك أمضيت وقتاً ممتعاً جداً، بينما تحت النساء المسكينات كنا نخدم هنا، نلف الضمادات ونخيط الجروح آمل أن تتمكن النساء من القتال في الحرب القادمة، أُفضِلُ كثيراً أن أزحف وأرمي بالبندقية بدلاً من خياطة الجروح.

«هل تعتقد أنهم سوف يسمحون للنساء بالقتال في الحرب القادمة؟». سألت وهي تراقب شاباً كان يرقص برشاقة ويتلوى كأنه دودة.

- «أتوقع أن يضطروا لذلك» بدل جيمس دوغ وضع ساقه الاصطناعية، واضعاً بعناية ذراعه المتقرحة التي اخترقت عظامها رصاصة مذنبة «إذا ما أحبوا الدخول في حرب أخرى».

- «نعم» أحست بالإشفاق على الشاب الرشيق المتبختر كان جسده فتياً بحساب السنين، وشعره يلتصق بشكل سلس على جمجمته. كان وجهه يبدو من تحت طبقة المساحيق حليقاً وشاحباً، متكلفاً وكان هو ورفيقته الشقراء ذات القميص الخفيف ينزلقان ويرفرفان ويطوفان كأنما في حلم. أوقف البواق الزنجي جماعته الذي كان يتصبب منهم العرق وصدت الصولة الانسحاب، تاركة جدران الصمت يسكنها المدافعون الأشداء عن الكلام، وتمايل الفتيان من كلا الجنسين وقد أمسك أحدهما بذراع الآخر، تحركوا بخطوات رشيقة سريعة، منتظرين الموسيقا، وقال الشاب الرشيق وهو يتمايل بخفة: «هل تحبون هذه الرقصة؟».

قالت، «مر.. حى» متشدقة بعذوبة «هل التقيت بالسيد دوغ؟ السيد

رفرز، السيد دوغ، السيد دوغ زائر من البلدة».

نظر السيد رفرز إلى السيد دوغ بلا اكتراث وقال ثانية: «ترقص الرقصة التالية؟» كان السيد رفرز قد أمضى سنة في برنستون.

ـ «أنا آسفة. السيد دوغ لا يرقص» أجابت الآنسة سيسلي سوندرز بصراحة. أما السيد رفرز الذي كان رجلاً مهذباً، مع كل مزايا السنة التي أمضاها في أحد المراكز المضاربة، فقد حول وجهه الشاحب بتثاقل نحوها.

ـ أوه، هيا. لن تجلسي في الخارج طول المساء، أليس كذلك؟ لماذا جئت إلى هنا؟

ـ كلا، كلا، فيما بعد، ربما، أريد التحدث مع السيد دوغ. لم تفكر في ذلك. أليس كذلك؟

حدق فيها بهدوء وبلادة، وأخيراً تمتم «إنني آسف» وذهب بتكاسل.

ـ «حقاً» بدأ السيد دوغ بالكلام، «ليس من أجلي أنا كما تعرفين إذا أردت الرقص..».

ـ أوه، يجب عليّ أن أرى هؤلاء.. هؤلاء الأطفال دوماً. حقاً إنه شيء مريح تماماً أن ألتقي بشخص ما يعرف شيئاً كثيراً عن الرقص و.. و.. الرقص. لكن خبرني عن نفسك. هل تحب تشارلستون؟ بوسعي أن أرى أنك معتاد على المدن الأكبر لكن ألا تجد شيئاً جذاباً في هذه المدن الصغيرة؟

طاف السيد رفرز بعينيه، رأى فتاتين تراقبانه في دعوة متزنة، لكنه مضى متجهاً صوب مجموعة من الرجال واقفين وجالسين بالقرب من درجات السلم، يتمكنون بطريقة ما من خلق تصور أنهم مشاركون ومتفرجون معاً في الوقت نفسه. كانوا جميعاً من النوع نفسه، ثمة علاقة قوية كأنه رائحة مشتركة فيما بينهم نكران الذات الذي يتسم به المحارب. أزهار الجدران(*) أزهار الجدران. إنهم يحسنون التحدث مع المضيفة ويرقصون مع التافهين حتى المضيفة الثرثارة كانت قد تخلت عنهم الآن. واحد منهم أو اثنان. أكثر

(*) زهرة الجدران: شخص (رجل أو امرأة) يقتنع بمشاهدة الرقص إما حياءً، أو لأن أحداً لم يدعه إلى الرقص معه.

جـرأة مـن البقيـة، لكنـه ينشـر تلـك الرائحـة الخفيفـة المتماثلـة ذاتهـا وقـف بجانب الفتيات، منتظراً أن تبدأ الموسيقا ثانية، لكن الغالبية منهم تجمعوا قرب الـدرجات، متلامسـين مـع بعضـهم بعضـاً كمـا لـو أنهـم يطلبـون حمايـة مشتركة. سمع السيد رفرز عبارات بفرنسية رديئة وانضم إليه وهـو يحسـب أن سهرة العشاء الأنيقة تكشف عن ملابسه التحتية غير اللائقة.

- هل لي أن أراك للحظة، مادين؟

انفصل الرجل الذي كان يدخن بهدوء عـن المجموعـة. لم يكـن ضـخماً إلا أن شيئاً ما كبيراً وهادئاً كان في شخصيته، شعور بالجمود والاكتفاء بعد ممارسة نشاط معين.

- «نعم؟» قال.

- «افعل لي معروفاً، هل تسمح بذلك؟

- «نعم؟» قال الرجل ثانية بكياسة غير واضحة.

- ثمـة رجل هنـا لا يسـتطيع الـرقص، ذلـك ابـن أخ السـيدة واردل، الـذي أصيب في الحرب. سيسلي.. أقصد الآنسة سوندرز.. كانت معه طوال المساء، إنها تريد الرقص، راقبه الآخـر بتركيـز هـادئ وفقـد السـيد رفـرز كبريـاءه المصطنع فجأة.

- في الحقيقة، أنا أرغب في الرص معها. هل تسمح بأن تجلس معه قليلاً من الوقت؟ سأكون ممتناً لك كثيراً إن فعلت ذلك.

- هل ترغب الآنسة سوندرز في الرقص؟

- «طبعاً، ترغب. لقـد قالـت ذلـك» كانـت نظـرة الآخـر نافـذة بحيـث أنـه شعر بالنداوة وأخرج منديله، مسح جبينه المتفصد عرقاً برقة، لكـي لا يشوه ترتيب شعره «اللعنة» صاح فجأة «أنتم أيها الجنود تتصورون أنكم تمتلكون كل شيء، أليس كذلك؟».

كانـت هنـاك أعمدة، على الطراز الدوري[*] تسند شرفة صغيرة نائيـة، عاليـة وغامضـة، يتمشـى فيهـا الأزواج، بانتظـار عـزف الموسـيقا، أحاديـث

(*) دوري: فاص بأقدم وأبسط الطراز المعمارية الإغريقية.

وضحكات وحركة تعكر صفوها شفافية رخوة في الستائر التي داخل المنزل. على طول درابزين الشرفة كانت عيون حمراء تتوهج على السكائر؛ فتاة تنحني كالنعامة وتسحب جواربها إلى الأعلى وسقط جنود فاتر متسرب من إحدى النوافذ على ساقها المشوشة الفضية. رمشت عينا البواق الزنجي الهادئتان وهو الذي كان قد تعلم في سنواته الثلاثين ما يتعلمه المرء في قرن عن شهوة الرجل الأبيض. وقاد مجموعته في جولة جديدة. اندفع الأزواج إلى الداخل، متماسكين بالأيادي وأخذوا يرقصون؛ بقع غامضة متلاصقة على المرج فيما وراء الضوء.

- العم جو، الأخت كيت، الجميع يتراقصون وكأنه هلام على طيف..

أحس السيد رفرز كأنه رقاقة يتقاذفها التيار، أحس بغضب صبياني حاد. بعد ذلك عندما انعطفوا عند زاوية الشرفة رأى سيسلي وقد ارتدت رداءً فضياً أنيقاً، رقيقة مثل كأس زجاجي مفتول، كانت تحمل مروحة ريش خضراء وجسدها الرشيق المستدير المفعم بالحيوية، وجمالها العصبي الذي ملأه بالتوجس. كان الضوء يسقط بوجل عليها، يتحسس ذراعها جسدها القصير برقة وتهذيب يجسد ملامح ساقيها الطويلتين العذريتين.

- العم بود، في الثانية والتسعين من العمر، كان يهز عكازه ويتراقص أيضاً.

مر الدكتور جاري وهو يتراقص دوت كأسه التي يشرب فيها الماء، كانوا يتفادونه ونظرت سيسلي إلى الأعلى، وقد قطعت كلامها.

-«أوه سيد مادين! كيف حالك؟» مدت له يدها وقدمته للسيد دوغ «إنني أشعر بالزهو البالغ لأنك قررت التكلم معي.. أم يجب على (لي) أن يجرك إلى هنا؟ آه، هكذا كانت الحال. كنت ستتجاهلين، أعرف أنك تفعل ذلك. بالطبع لا يمكننا أن نطمح في منافسة النساء الفرنسيات..».

اعترض مادين بتهذيب وأفسحت له المجال قربها.

- أجلس. السيد دوغ كان جندياً أيضاً، كما تعلم. قال السيد رفرز بتثاقل: «السيد دوغ سيسمح لك، ما رأيك برقصة؟ سيحين وقت العودة إلى

أن نسليه. لكني أخشى أيها الجنود ألا تحبوها بعد الآن»

ـ كلا، أبداً، لقد تنازلنا عنك إلى السيد لي فقط على شرط أن تعودي إلينا.

ـ «بالفعل ذلك أفضل. لكنك تقول ذلك لكي تبدو مؤدباً فقط» قالت موجهة اتهاماً.

ـ كلا، كلا، إذا لم ترقصي مع السيد لي، ستكونين غير مؤدبة، لقد طلب مني ذلك عدة مرات.

هزت كتفيها بعصبية ثانية «إذن أتصور بأنه عليّ الرقص، يا لي، إلا إذا كنت قد غيرت رأيك أيضاً، ولم تعد ترغب بي؟».

تناول يدها «تباً، هيا».

أمسكت به واستدارت نحو الرجلين الآخرين، اللذين كانا قد نهضا أيضاً «ستنتظرانني؟».

أكدا لها ذلك، وأطلقت سراحيهما. كانت ركبة دوغ الاصطناعية التي ترسل صريراً قد غمرتها الموسيقا واستسلمت لعناق السيد رفرز. تحركا مع المقاطع الموسيقية الرخيمة، وأحس قليلاً بصدرها الضئيل وركبتيها، وقال: «ما الذي تفعلينه به؟» وانزلقت ذراعه بعيداً حولها، أحس بامتلاء وركها من تحت يده.

ـ أفعله به؟

ـ آه، دعينا نرقص.

تمايلا باتزان، وهما متلاصقان وانزلقا وتمايلا، شاعرين بوقع الموسيقا، لاعبين معها، متملصين منها، باحثين عنها ثانية، طافيين كحلم منقطع.

البيت قريباً» تجاهلته بلطف وحول جيمس دوغ ساقه إلى الناحية الأخرى «حقاً يا آنسة سوندرز، أرجوك أن ترقصي، لن أفسد عليك الأمسية مقابل أي شيء».

- «هل سمعت ذلك، سيد مادين؟ إن الرجل يقص التخلص مني. هل كنت ستفعل ذلك؟» صوبت نظراتها إليه بتأثر وانفعال ثم تحولتإلى دوغ باندفاع رشيق مقيد «إنني ما زلت أدعوه بالسيد مادين بالرغم من أننا كنا نعرف بعضنا الآخر طول حياتنا. لكنه في ذلك الوقت كان قد ذهب للحرب، وأنا لم أذهب بالطبع. إنه رجل.. متمرس، كما ترى. وأنا لست إلا فتاة، لو أني كنت فتى مثل (لي) لكنت قد ذهبت إلى الحرب وأصبحت برتبة ملازم بجزمة براقة أو جنرالاً أو شيئاً ما الآن. أليس كذلك؟» كان جسمها المتمايل رشيق الحركة نابضاً بالحياة، عفوية هشة «لا أستطيع أن أدعوك بالسيد بعد الآن هل تمانع؟».

- «دعينا نرقص فحسب» راقب السيد رفرز ذلك المنظر وهو يربت بقدمه مع إيقاع الموسيقا بضجر متكلف. تثاءب ملء شدقيه «دعينا نرقص».

- «أتسمحين لي، يا سيدتي» قال مادين.

- أسمح ويجب عليك ألا تقول سيدتي بعد الآن، لن تقولها أليس كذلك؟

- كلا، يا سيد... أعني، كلا.

- أوه، كدت تنسى الآن.

- «لنرقص» قال السيد رفرز مرة أخرى.

-... لكنك لن تنسى بعد الآن، لن تنسى، أليس كذلك؟

- كلا، كلا.

- لا تدعه ينسَ، يا سيد دوغ، إنني أعتمد عليك.

- حسنٌ، حسنٌ، لكن اذهبي وارقصي مع السيد سمث هذا. نهضت «إنه يريد التخلص مني» أعلنت بتواضع هازئ ثم هزت كتفيها بقوة وعصبية «أعرف بأننا لسنا جذابات مثل النساء الفرنسيات، لكنك ينبغي أن تحسن التعامل معنا. المسكين لي هذا، إنه لا يعرف أية امرأة فرنسية لهذا يمكننا

(٩)

كـان جـورج فـاو يحـدق فيهـا بانشـداه مـن الظـلام الخـارجي، يراقـب جسـدها النحيل الذي تقطعه ذراع رجل، يراقب رأسها القريب من رأس آخر، يـرى أطرافهـا مـن تحـت ثوبهـا الفضـي وهـي تنتظـر أطـراف شـريكها، يـرى السطح المضيء لذراعها عبر الأكتاف السـوداء ومروحتهـا وهـي تسـقط مـن رسغها المقوس كأنها صفصافة عند المساء. سمع القذارات المتناغمة المزعجة المنبعثة مـن السكسـافونات، رأى الأشـكال المبهمـة في الظـلام وشـم رائحـة الأرض والأشياء التي تنمو عليها. مر بهم اثنان وقالت الفتاة: «مرحباً، جورج، هل تدخل؟» «كلا» قال لها، وهو يتمرغ في كل اليأس المتقد للربيع والشباب والغيرة، مستمداً منهم سعادة رائعة.

نفـض صـديقه الـذي يجانبـه، وهـو عامـل صـودا، سـيكارته «لنتنـاول كـأساً أخرى».

كانت الزجاجة الـتي تحتوي علـى مـزيج مـن الكحـول والعصير الحلـو المذاق قد سرقت من المتجر. كـان الشـراب حـاراً قليلاً عنـد البلعـوم، لكـن هذا الإحساس تلاشى تاركاً مكانه احتراماً داخلياً عذباً شجاعاً.

- «ليذهبوا إلى الجحيم» قال.

- «لن تدخل، أليس كذلك؟» سأل صديقه. تنـاولا كـأسـاً أخـرى. كـان وقع الموسيقا يرن وسط الأوراق الفتية، نحو الظلام، تحت الـوميض الـذهبي المتنـافر والمكتـوم المنبعـث مـن النجـوم. كـان الضـوء المتصـاعد مـن مسـاند الشرفة قد تلاشى، وبدا المنزل ضخماً قبالة السماء، صخرة تتكسـر عليهـا أمـواج الأشـجار، النجـوم كانـت أحاديـات قـرن ذهبيـة تصـهل مـن دون أن

يسمعها أحد خلال المروج الزرقاء، ترفسهم بحوافر حادة ومتلألئة كالجليد. السماء بعيدة جداً، حزينة جداً ترفسها أحاديات القرون الذهبية، التي تصهل بلا صوت من الغسق إلى الفجر، كانت قد رأتهم، كانت قد رأتها - جسدها المشدود منبطحٌ وعارٍ كبركة ضيقة تتقسم بعذوبة، تيارين فضيين من مصدر واحد.

«لن أدخل» أجاب وانطلق بعيداً. عبرا المرج وفي ظل اللاجرسترمية الهندية(*) أصبح واحداً منهما كان يتنفس بصوت مسموع اثنين. استمرا في المشي بسرعة، محولين بصرهما.

«سحقاً، كلا» قال ثانية، «لن أدخل».

(*) شجيرة مزهرة.

(١٠)

كان هذا هو يوم الشباب، ذكوراً وإناثاً.

- «انظر إليهم، يا جو» قالت السيدة باورز «يجلسون هناك كأرواح ضائعة في انتظار الذهاب إلى الجحيم».

كانت السيارة قد توقفت دفعة واحدة في الجوار، حيث كان بإمكانهم الرؤية بشكل جيد.

- «لا يبدو لي أنهما جالسان» أجاب جيليجان بحماس «انظري إليهما معاً، انظري أين وضع يده. هذا ما يسمونه بالرقص المهذب، أليس كذلك؟ لم أتعلمه أبداً؛ كانوا سيقذفون بي إلى الخارج من مكان إذا ما رقصت وفعلت ذلك. لكني عشت شباباً تعيساً لم أرقص أبداً مع أناس لطفاء».

خلال شجيرتي مغنوليا ثقيلتين مماثلتين كانت الشُرفة المضاءة تبدو كأنها مسرح. تحرك الراقصون، متلاصقين اثنين اثنين، يتلقون الضوء المبتذل، يتملصون منه.

- .. هزه وحطمه، لا تتركه يسقط..

على طول الدرابزين جلسوا مثل الطيور، متحفزين مطموسي الملامح. زهور الجدران.

- كلا، كلا، أعني أولئك الجنود السابقين الذين هناك. انظر إليهم يجلسون هناك، يتحدثون عن جيشهم بفرنسية، يخدعون أنفسهم. لماذا جاؤوا يا جو؟

- «السبب نفسه الذي جاء بنا، كأنه استعراض، أليس كذلك؟ لكن كيف تعرفين بأنهم جنود؟.. انظري إلى الاثنين الذين هناك» صياح فجأة

بتصميم طفولي. انزلق الاثنان وتمايلا، منشغلين عن النغمات الرخيمة فاقدين إياها بتعمد، باحثين عنها وواجدينها، فاقدينها مرة أخرى.. تملصت منها أطرافها، توقعت أن تحس بأطرافه، صوت لمسة وفرار، كان هو أيضاً سريعاً في مساعدتها، لمسة ثم فرار، من دون إشباع الرغبة «مرحى، لو توقفت تلك النغمة فقط!».

- لا تكن سخيفاً، يا جو، إنني أعرفهم لقد رأيت أمثالهم في الملهى كثيراً، يتصرفون تماماً على ذلك النحو، الفتيان المساكين اللطفاء والأغبياء يذهبون إلى الحرب، ولأنهم كانوا يذهبون فإن الفتيات كن يتصرفن بكرم معهم. لكن الآن ليس ثمة حرب ليذهبوا إليها وانظر كيف تعاملهم الفتيات.

- «ما الذي كنت تقولينه؟» سأل جيليجان بتجرد. حول عينيه عن الاثنين بسرعة «مرحى، لو استطاع الملازم أن يرى هذا لكان قد جعله يفيق حتماً، أليس كذلك؟».

جلس ماهون بهدوء بجوار السيدة باورز، نظر جيليجان إلى مظهره الهادئ الوقور وهو يستدير في مقعده بجانب السائق الزنجي. ترددت النغمات الرخيمة فيما حلوهم، تكرر صوت الأوتار المضجرة دافئاً ومزعجاً كخرير الماء. انحنت باتجاهه.

- أتحب ذلك يا دونالد؟

تململ، ورفع يده إلى نظارته.

- «هيا، أيها الملازم» قال جيليجان بسرعة؛ «لا تسقطها ربما فقدناها هنا» خفض ماهون يده امتثالاً «الموسيقا جميلة جداً، أليس كذلك؟».

- جميلة جداً، يا جو» قال موافقاً.

نظر جيليجان إلى الراقصين ثانية، «قولك جميلة جداً لا يمثل نصف الحقيقة، انظر إليهم».

- ... أوه، أوه أتساءل أين ذهبت طائرتي.

استدار فجأة نحو السيد باورز «أتعرفين من هو ذلك الذي هناك؟».

رأت السيدة باورز الدكتور جاري، لم يكن يحمل قدح الماء، رأت مروحة ريش كأنها مضرب كريكت في المساء والسطح المضيء لذراع عارية فوق سواد مبتذل، رأت رأسين كأنهما رأس واحد، الخد على الخد، فارغين من التعبير وثابتين في مكانهما كأنهما يؤديان طقوساً في تزامن بطيء للأطراف «تلك هي السيدة سوندرز» قال جيليجان موضحاً.

راقبت حركة الفتاة الرشيقة، إنها أشبه بتهتك مرهف مقيد، وتابع جيليجان يقول: «أعتقد أني أدنو منهم، أولئك الجالسين هناك، عليّ أن أرى هذا».

رحبوا به بعاطفة مسرفة يتسم بها الناس الذين تجمعهم دعوة إلا أنهم ليسوا متأكدين تماماً من أنفسهم ومن روح الدعوة؛ في هذه الحالة فتيان الريف الأبدي الذين تجمعهم حالة عقلية وطنية واحدة، الذين ضاعوا في أجواء حالة حضارية مناقضة نسبياً بشكل مطلق، أن يشعر المرء بأنه فردي: يجد أن حالة تقليدية معينة للسلوك قد أصبحت قديمة الطراز بشكل يصعب تفسيره بين عشية وضحاها.

كان جيليجان يعرف أغلبهم بالأسماء وجلس هو كذلك على الدرابزين. قدم إليه أحدهم سيكارة فقبلها، وجثم بينهم، فيما كانوا يتحدثون بصوت مرتفع، يطمسون مودة الراقصين التي لم يستطيعوا مجاراتها، والفتيات اللواتي انتظرن ذات مرت قدومهم وها هن الآن يتجاهلنهم - الآثار البغيضة التي تركتها الحرب في مجتمع من الحرب، الشياطين المساكين الحائرين والضائعين. في يوم من الأيام كان المجتمع قد تجرع مرارة الحرب، جعلهم يبلغون مبلغ الرجال مع نزوع مهذب إلى الحرب؛ لكن المجتمع الآن بدا أنه قد وجد شيئاً آخر يتجرعه، بينما لم يكونوا هم متعودين بعد على نسبة اثنين وخمسة وسبعين في المئة.

- «انظر إلى هؤلاء الصغار الذين كبروا في وقتٍ كنا فيه بعيداً» أشار

إليـه أحـدهم بشـيء مـن الانفعـال «الفتيـات لا يحـببن ذلـك. لكـن مـا الـذي بوسـعهن عملـه؟ لـيس بوسـعنا أن نـؤدي تلـك الرقصـات. إنهـا لـيس مجـرد حركات تؤدى. بوسعك أن تتعلم ذلك، كما أتصور، إنها.. إنها» بحث عبثاً عن كلمات. ثم تخلى عن ذلك وتابع يقول: «شيء مضحك أيضاً، لقد تعلمت أشياء من النساء الفرنسيات.. لكن، الفتيات لا يحببن هذا، أليس كذلك؟ لم يتغيرن إلى ذلك الحد، كما تعلم».

ـ «كلا، إنهن لا يحببن ذلك» أجاب جيليجان «انظر إلى الاثنين هناك».

ـ طبعاً، لا يحـببن ذلـك، هـؤلاء فتيـات لطيفـات، سـوف يصـبحن أمهـات الجيل القادم، طبعاً لا يحببن ذلك.

ـ «لكنَّ شخصاً ما يحب ذلك بالفعل» رد جيليجان. مر الدكتور جـاري؛ وهـو يـرقص بخفـة، بنشـاط، بلياقـة بالغـة، إلا أنـه كـان مسـتقدماً كانـت رفيقته شابة وتلبس تنورة قصيرة، بإمكانـك أن تـرى أنهـا وهـي تـرقص معـه لأنه شيء مألوف أن تـرقص مـع الـدكتور جـاري.. لا أحـد يعـرف تمامـاً لمـاذا. كانت واعية لمسألة الحرية الجسدية، لجسدها الفتي غير المخصر، المنبسط كجسم صبي، ولأنه كان كجسم صبي فقد كـان يبـدو مبتهجـاً بالحريـة والحركة، كما لو أن الحرية والحركة كانتا سيلاً من الماء، تمتع جسده بملمس الحرير الذي يثير فيها رغبة متقطعة لا تروى. تابعت نظراتها من فـوق كتف الدكتور جاري (كانت نظرة مسترجلة لأنها موشحة بسواد القـذارة) البحث المكيل عن إيقاع ضـائع، ضـاع عنهـا. راقبـت رفيقـة الـدكتور جـاري التي كانت تتبعه بمهارة، الزوج الآخر، متجاهلة الفتاة (إذا كان ثمة عدالة في السماء، فسوف أنال منه في المرة القادمة).

ـ «الرقص معك» قال الدكتور جاري «مثل قصيدة كتبها شاعر مغمـور يدعى سوينبورن» كان الدكتور جاري يفضل ملتون، كان قد صنف كل المقاطع وكأنها مسرحية.

ـ «سـوينيورن؟» ابتسـمت بإبهـام، وهـي تـراقب الـزوج الآخـر، مـن دون أن

تضيّع الإيقاع، ودون أن تخرّب زينة وجهها. كان وجهها أملس، ملوناً بمهارة وتكلف كأنه سحلية إرجوانية «هل كان يكتب القصائد أيضاً (هل فكر في إيلاويلكوكس أو إيرين كاستل؟ إنه راقص ماهر: يتطلب الأمر راقصاً جيداً لكي يجاري سيسلي) «أعتقد أن كبلنغ بارع إلى حد رهيب، ألا توافقين؟» (يا للثوب المضحك الذي ترتديه سيسلي).

قال جيليجان الذي يراقب الراقصين: «ماذا؟».

قال الآخر ثانية مدافعاً: «كان في قاعدة جوية فرنسية، حتماً كان قبل سنتين أو ثلاث. الرجل الطيب» وأضاف: «حتى وإن تمكن من مجاراتهم في الرقص».

ضوء، حركة، أصوات: لا توجد متانة، دوافع قسرية متورمة متقدة وسريعة الزوال. وفي الخارج كان الربيع، كأنه فتاة شابة سرقت منها السعادة وأضحت غير قادرة على الشعور بالأسى.

- «.. ارم به على الحائط» أوه، أوه، أوه، أوه... «لن أنسى أبداً تعابير وجهه عندما قال: (جاك، لقد أصبت بالسفلس هل كانت..)» «هزه وحطمه، هزه..» «الليلة الأولى في باريس.. ثم الليلة الأخرى..» «.. لا تدعها تسقط..» «.. بمدفع رشاش.. عشرون دولار ذهب معلقة عليّ...» «أتساءل ما الذي حل بـ... طائرتي..».

- «حتماً» قال جيليجان موافقاً. تساءل أين مادين، الذي أحبه، ولما لم يكن يتوقع جواباً فقد قيل له (ها هي ثانية مروحتها الريشية مثل صفصافة في المساء، ذراعها تقطع سواداً مبتذلاً سطح دافئ نحيل، جوبتير كان سيقول، يا لساقيها العذريتين لكن جيليجان، بما أنه ليس جوبتير، قال، بحق السماء، متمنياً أن يكون دونالد ماهون رفيقها أو أنه تجاهل هذا، شاعراً بالسعادة لأنه لم يتمكن من رؤيتها.

توقفت الموسيقا. وقف الراقصون بانتظار عودتها من جديد. ظهرت المضيفة وهي تتحدث بتواصل بشكل يدعو للسأم، وكالسابق انتشر الناس

كالوباء أمام طريقها. أما جيليجان الذي داهمته أمواج من الأحاديث التي غرق تحت وطأتها، فقد تحملها على مضض، وأخذ يراقب الأزواج، وهم يمرون من الشرفة متجهين صوب المرج المعتم. كم كانت أجسادهم تبدو رقيقة، ظهورهم وأردافهم، كان يفكر مع نفسه، يقول نعم سيدتي أو لا سيدتي. وأخيراً سار مبتعداً وتركها تتحدث بمفردها، وعندما استدار حول نفسه فجأة رأى مادين وشخصاً غريباً آخر.

- «هذا هو السيد دوغ» قال مادين مرحباً به «كيف حال ماهو؟» هز جيليجان يده «إنه في الخارج هناك الآن، مع السيدة باورز».

- «إنه هنا؟ كان ماهون مع البريطانيين» قال مفسراً الأمر لرفيقه «الطيار».

أبدى اهتماماً ضئيلاً «سلاح الجو البريطاني؟».

- «أتصور هذا» أجاب جيليجان «لقد أتينا به إلى هناك لكي يستمع للموسيقى قليلاً».

أتيتم به؟

- «لقد أصيب في الرأس. إنه لا يتذكر الكثير من الأشياء» أعلم مادين الرجل الآخر «هل قلت بأن السيدة باورز كانت معه؟» وجه سؤاله إلى جيليجان.

- نعم، لقد جاءت، لماذا لا تأتي وتتحدث معها؟

نظر مادين إلى رفيقه، حوّل دوغ ساقه الفلينية «لا أعتقد ذلك» قال «سأبقى في انتظارك».

نهض مادين «هيا» قال جيليجان «ستكون سعيدة لرؤيتك إنها ليست من نوع سيء، مثلما يمكن أن يقول لك مادين».

- كلا، سوف أنتظر هنا، شكراً لكن ارجع، ستفعل ذلك؟

قرأ مادين أفكاره التي لم يستطع التعبير عنه «إنها ترقص الآن سأعود قبل ذلك الوقت».

تركاه يشعل سيكارة، كان المبوق الزنجي قد أوقف رجاله وسحبهم مؤقتاً وكانت الشرفة مهجورة إلا من المجموعة الجالسة على الدرابزين، وجدتهم المضيفة بعد بحث طويل، وبانبعاث شحنة تفاؤل جديدة، أمسكت بتلابيبهم.

عبر جيليجان ومادين العشب، تاركين الأضواء خلفهما «سيدة باورز، هل تذكرين السيد مادين» قال لها جيليجان بشكل مهذب لم يكن كبيراً في السن إلا أن شيئاً كبيراً وهادئاً كان يلف به إحساس بالجمود المقتدر بعد النشاط، رأى مادين وجهها الشاحب من خلف عتمة غطاء السيارة، عينيها السوداوين وفمها كأنه جرح، جلس إلى جانبها ماهون بلا حراك شارد الذهن في مكان بعيد منظر الموسيقا التي ليس بوسعك أن تعرف إن كان يسمعها أم لا.

ـ «مساء الخير، سيدتي» قال مادين وهو يطوق يدها القوية الثقيلة الحركة، متذكراً شبحاً واضح المعالم قبالة السماء يصرخ، لقد قتلتنا ويطلق النار مباشرة على وجه رجل آخر، وهو يتلظى غضباً وقسوة مريرة بنشوة إخماد لهب زائل تجاه فجر مثقل بالأسى.

(١١)

رقص معها جونز مرتين، متحدياً تلك المنافسة، مرة رقصة الست خطوات وبعدها التسع خطوات. لم يكن بوسعها أن ترقص بتلك البراعة الشديدة التي تتميز بها بعض الفتيات الأخريات، ربما كان هذا هو السبب في كونها مرغوبة هكذا. الرقص مع الفتيات الأكثر براعة كان يشبه إلى حد كبير الرقص مع الفتيات الرشيقات الحركات. على أية حال، الرجال كلهم بدا أنهم كانوا يريدون الرقص معها، يريدون ملامستها. انهزم جونز للمرة الثانية، أصبح أكثر توجساً، وانتهازياً؛ ثم، انتهز فرصة سانحة، وقطع الطريق على رجل لامع الشعر يرتدي سترة الشهرة، رفع الرجل وجهه الحاد الملامح الفارغ من الإيحاءات باهتياج، لكن جونز انتزعها بمهارة من القطيع المتبختر باتجاه الزاوية التي عند حافة الدرابزين. هنا كان ظهره فقط، يمكن أن يتعرض للهجوم.

عرف أن مكسبه كان مؤقتاً ليس إلا، لذلك تكلم بسرعة.

ـ أحد أصدقائك موجود هنا الليلة.

اقتربت مروحتها الريشية بخفة من عنقه. بحث عن ركبتها بركبته وتملصت منه ببراعة، محاولة عبثاً المناورة من الزاوية. أزعجه أحدهم من الخلف وقد رغب بمقاطعته، وقالت بحنق: «هل ترقص، يا سيد جونز؟ لديهم أرضية جيدة هنا. دعنا نجرب».

ـ «إن صديقك دونالد يرقص. اطلبي منه رقصة» قال لها، وقد أحس بصدره النحيل ومحاولاتها العصبية للتخلص منه. ألح عليه أحدهم من خلف ورفعت وجهها الوسيم البغيض. كان شعرها ناعماً وجميلاً، مرتباً بلا عناية

حول رأسها وفمها الملون كان يبدو أرجوانياً تحت هذا الضوء.

- هنا؟ يرقص؟

- مع صديقته، ينوبي. لقد رأيت المرأة وأتصور أن الرجل هنا أيضاً.

- ينوبي؟

- تلك السيدة باورز، أو أياً كان اسمها.

أرجعت رأسها إلى الوراء لكي ترى وجهه «إنك تكذب».

- كلا، لست أكذب، إنهما هنا.

حملقت فيه. كان بإمكانه الإحساس بمروحتها تسقط من معصمها على خده برفق وألح عليه أحدهم من الخلف «إنهما يجلسان الآن، في سيارة» قال مضيفاً.

- مع السيدة باورز؟

- انتبهي لنفسك، أيتها الأخت، وإلا فإنه ستستولي عليه، تملصت منه فجأة «إذا كنت لن ترقص..».

قال الشخص الذي كان يلح عليه من الخلف ثانية بلا تعب «هل تسمحان لي بالمقاطعة» وتملصت من ذراع جونز.

- أوه، (لي) السيد جونز لا يريد الرقص.

- «هل تسمحين لي بهذه الرقصة» تمتم الرجل المهذب بلهجة مبتذلة، كان قد أحاطها بذراعيه الآن، وقف جونز منتفخ الأوداج وجباناً، يراقب بجبن مروحتها التي تعلو سترة رفيقها، وكأنها رشاش ماء ساكن، عنقها المتقوس وذراعها التي تقطع كتفاً سوداء بدفء وضاء، المراوغة الفضية المعبرة لأطرافها وهي تنتظر ملامسة أطراف رفيقها وكأنه في حلم متقطع.

- «ألديك عود ثقاب؟» سأل جونز لدى توقفه فجأة قرب رجل يجلس وحيداً في أرجوحة. أشعل غليونه وأخذ يتسكع وهو يحس بميل ثقيل متكاسل للنزاع وسط شلة جالسة عند الدرابزين قرب درجات السلم، وكأنهم الطيور. حث المبوق الزنجي رجاله على إجراء محاولة أشد عنفاً، تلاشت أصوات الموسيقا

من الآلات النحاسية وحملت الإيقاع نبرات حزينة خافتة من الأصوات المكتوفة إلى أن تناولته الآلات النحاسية ثانية بانبهار. امتص جونز غليونه، ودس يديه في سترته وانزلقت يد نحيلة فجأة تحت كم بذلته الصوفية الخشنة.

- «انتظرني، يا لي» التفت جونز، ولاحظ مروحتها وهشاشة ثوبها الذي كالزجاج «عليّ أن أرى بعض الناس في سيارة».

كان وجه الفتى الصلب يمثل حماقة هائجة من فوق ملابسه الكتانية الأنيقة «دعني أذهب معك».

ـ كلا، كلا، انتظري أنت. سيأخذني السيد جونز. إنك حتى لا تعرفهم، ارقص لحين عودتي. هل تعدني؟

- لكن قولي لي..

ومضت يدها بخفة محاولة إبقاءه في مكانه «كلا، كلا، أرجوك، هل تعدني؟»

أعطى وعداً ووقف كي يحدق فيهما وهما ينزلان الدرجات ويمران من تحت شجرتي المنفوليا ويمضيان باتجاه الظلام، حيث أصبح ثوبها تعبيراً صامتاً عديم الجوهر بجانب بذلة الرجل الصوفية العديمة الملامح.. بعد فترة وجيزة استدار وحش إلى الشرفة الفارغة. من أين جاء ذلك الأخرق؟ تساءل، ورأى فتاتين تراقبانه في دعوة متزنة. هل يسمحون لأي شخص كان بالدخول إلى هنا؟

فيما كان يقف متردداً، ظهرت المضيفة وهي تتحدث باستمرار لكنه تملص منها بمهارة ناجمة عن طول المراس. خلف الزاوية التي تكللت بالظلام الجزئي للأرجوحة جلس رجل وحيداً. اقترب وقبل أن يتمكن من التلفظ بطلبه مد الرجل له علبة ثقاب.

- «شكراً»، تمتم من دون استغراب، وأشعل له سيكارة. تمشى بعيداً وأخذ صاحب الثقاب علبته الخشبية الصغيرة المجعدة بأصابعه، متسائلاً باهتمام عمن تراه يكون هذا الشخص الثالث.

(١٢)

- كلا، كلا، دعنا نذهب إليهم أولاً.

كبحت مسار تقدمهما وبعد فترة من الزمن نجحت في تحرير ذراعها مر بهما وهما واقفين زوج، وهمست الفتاة وهي تحني رأسها لها «أكاد أرى ما في داخلك، ابقي بعيدة عن الضوء».

استمرا في المشي ونظرات وراءهما، مراقبة الفتاة الأخرى. يا لها من قطة! أي ثوب غريب ذلك الذي ترتدينه.

لكن لم يكن لديها وقت كاف للتأمل المجرد، ذلك لأنها كانت مرتبطة مؤقتاً مع جونز «كلا، كلا» قالت ثانية محاولة انتزاع اليد التي أمسكها، ساحبة إياه صوب السيارة، رأتهما السيدة باورز عندما نظرت من فوق رأس حادين.

أطلق جونز أسر أصابعها الملتوية الهشة، وانطلقت تعدو برشاقة فوق الأرض المعشبة الرطبة. تبعها بخطوات ثقيلة ووضعت يديها على باب السيارة، يديها العصبيتين النحيلتين اللتين كانت المروحة الخضراء ترفرف بينهما برشاقة.

- أوه، كيف حالك؟ لم تكن لدي أدنى فكرة بأنك ستأتين! لو أنني كنت أعرف لرتبت لك رفاقاً للرقص. إنك ترقصين على نحو جميل للغاية. لكن على أية حال، حالما يراك، الرجال هنا فلن تعدمي رفاقاً للرقص، أعرف ذلك.

(ما الذي تريد أن تفعله معه الآن؟ تراقبني، لا تثق بوجودي معه).

- «إنه رقص جميل إلى أبعد الحدود. والسيد جيليجان!» (ما الذي تبغينه

من وراء المجيء به وإزعاجه الآن؟ إنها لا تهتم به إلا قليلاً عندما يكون جالساً في البيت هناك) «طبعاً، المرء ببساطة لا يرى دونالد بدون السيد جيليجان. لابد أن يكون شيئاً لطيفاً أن يكون السيد جيليجان مغرماً بك هكذا. ألا تعتقدين ذلك، يا سيدة باورز؟» كان ذراعاها الممدودتان بثبات تسندان الانحناء الخلفي المرن البطيء لردفيها. «وآأسفاه» (نعم، إنها جميلة. وهي سخيفة. لكن ـ لكنها جميلة) «لقد هجرتني من أجل امرأة أخرى! لا تقل إنك لم تفعل ذلك. حاولت أن أجعله يرقص معي، سيدة باورز، لكنه لم يفعل ذلك. ربما لأن حظك أنت أفضل؟» أحاطت الركبة الحانقة بهشاشة ثوبها الفضي الذي كالزجاج «آه، الإحاطة لك أن تقول أي شيء؛ إننا نعلم كم هي جذابة السيدة باورز، أليس كذلك، يا سيد جونز؟» (انظري إلى مؤخرتك، كيف تبدو، وساقك كلها، عندما تقفين هكذا. إنك تعرفين ذلك أيضاً).

أضحت عيناها قاسيتين سوداوين «أخبرتني بأنهما كانا يرقصان»، قالت موجهة اتهاماً.

ـ «إنه لا يستطيع أن يرقص، كما تعلمين» قالت السيدة باورز «لقد أتينا به لكي يتمكن من سماع الموسيقا».

ـ قال لي السيد جونز بأنك وهو كنتما ترقصان وقد صدقته: يبدو لي أني لا أعرف عنه إلا شيئاً أقل مما يعرفه الناس الآخرون لكن، بالطبع، هو مريض، إنه لا... يتذكر أصدقاءه القدامى، الآن بعد أن تعرف على أصدقاء جدد.

ـ (هل ستبكين؟ ذلك سيكون طبعها تماماً. الغبية، الغبية الصغيرة «أعتقد أنك لست منصفة له. لكن ألا تصعدين وتجلسين؟ سيد مادين، أرجوك..؟».

كان مادين قد فتح الباب.

ـ كلا، كلا. إذا كان يحب الموسيقا فسوف أزعجه فقط. كان من

الأفضل له أن يجلس مع السيدة باورز، أعرف ذلك.

(نعم، إنها ستمثل مشهداً عاطفياً) «أرجوك لحظة فقط. إنه لم يرك اليوم، كما تعلمين».

ترددت، ثم نظر جونز إلى المنحنيات الرقيقة المتباعدة لفخذيها، والكشف السريع الزوال عن جورب، واستعار ثقاباً من جيليجان. كانت الموسيقا قد توقفت ومن خلال شجرتي المنغوليا المتماثلتين بدت الشرفة كمسرح فارغ. كان رأس السائق الزنجي مستديراً مثل قنبلة مدفع تعلوها قبعة، ربما نام، صعدت وغطست داخل المقعد المعتم بجوار ماهون، جلست ساكنة ومستسلمة تكلمت السيدة باورز فجأة:

ـ هل تحب أن ترقص، سيد مادين؟

ـ «نعم، لفترة وجيزة» قال معترفاً: نزلت من السيارة وعندما استدارت التقت بوجه سيسلي المندهش.

ـ «سوف أتركك لكي تتحدثي مع دونالد فيما أرقص رقصة أو اثنتين مع السيد مادين، أتسمحين لي ذلك؟» تناولت ذراع مادين «ألا تريد الدخول أيضاً، يا جو؟»

ـ «لا أعتقد ذلك» أجاب جيليجان «ستكون المنافسة شديدة جداً بالنسبة لي. سوف أجعلك تعرفين أكثر لوحدنا، في وقت ما، لكي أكون موضع فخر بالنسبة إليك».

رأت سيسلي وقد بدا عليها السخط المرأة الأخرى تشرق منها جزءاً من مشاهديها. لكن ما زال هنا جونز وجيليجان. صعد جونز بتثاقل داخل المقعد الفارغ، من دون أن يتلقى دعوة، رمقته سيسلي بنظرة قاسية وأدارت له ظهرها، وشعرت بذارعه على جانبها.

ـ «دونالد، حبيبي» قالت ووضعت ذراعها على ماهون، من هنا لم يكن بوسعها رؤية الجرح الذي جذبته وجهه بيدها نحو وجهها، ووضعت خدها على خده. أحس بملمس يدها، سمع أصواتاً تململ «إنها سيسلي، يا دونالد»

قالت بنبرة عذبة.

- «سيسلي، » كرر ذلك مثل الببغاء.

- «نعم، ضع ذراعك حولي مثلما كنت تفعل، دونالد، يا حبيب قلبي» تحركت بعصبية، لكن ذراع جونز بقيت ممتدة عليها بإحكام كما لو أنها ملتصقة بفعل الامتصاص، وكأنها مجس أخطبوط. حاولت التملص منه، وعانقت ماهون بشدة وتشنج، ورفع يده، لمس وجهها، باحثاً عن نظارته «على مهلك، أيها الملازم» قال جيليجان، وخفض يده.

قبلت سيسلي خده على عجل وجلست، وقد فكت يديها عنه «أوه، ها هي الموسيقا تعزف من جديد، وسوف أرقص هذه الرقصة» وقفت من السيارة، ونظرت حولها. مر بهم أحدهم وهو يمشي بتكاسل رشيق ويدخن «أوه، لي» صاحت بارتياح بهيج «ها أنذا».

فتحت الباب ووثبت عندما اقترب الرجل المهذب. نزل جونز بتثاقل، تدلى كالكيس، ووقف يسحب سترته على ردفيه الثخينتين، الثقيلتين محدقاً بحقد في السيد رفرز، تمايل جسدها ثانية باتزان وهي تستدير، وقالت لجيليجان: «أنت لا ترقص الليلة؟».

- «ليس على ذلك النحو» أجاب: «كلا، يا سيدتي، في المكان الذي جئت منه ينبغي على المرء الحصول على إجازة لكي يرقص بتلك الطريقة».

كانت ضحكتها ذات نغمات ثلاث، ومثل شجرة يجرفها التيار. عيناها من تحت رموشها المسدلة، أسنانها، فيما بين شفتين أرجوانيتين، كانت تومض بشكل خافت.

- أعتقد بأن ذلك رد ذكي تماماً، والسيد جونز لا يرقص أبداً، إذن لكن من بقي لدي هو (لي).

وقف لي - السيد رفرز - ينتظر، وقال جونز بتثاقل: «هذه الرقصة لي».

- «أنا آسفة. لقد وعدت لي» أجابت بسرعة. «لكنك تقاطعنا أليس كذلك؟» كانت يدها تستقر على كمه بخفة وقال جونز ثانية وهو يتأمل

السيد رفرز بحقد:

- هذه رقصتي.

نظر السيد رفرز إليه وبعد ذلك نظر بعيداً بسرعة.

- أوه، عذراً. رقصتك؟

- «لي (لي)!» قالت بحدة، ومدت يدها ثانية. واجه السيد رفرز نظرة جونزر المحدقة مرة أخرى.

- «عذراً» تمتم، «سأقاطعك» مش بتكاسل إلى الأمام. تركت سيسلي نظرتها العجلى، تتبع أثره، ثم هزت كتفيها واستدارت نحو جونز عكس عنقها، ذراعها، ضوءاً خافتاً، هادئاً موحياً بالدفء. أمسكت بكم بذلة جونز الصوفية.

- «أقول» تمتم جيليجان وهو يراقبهما ينسحبان «بوسعك أن ترى ما في أعماقها».

- «تلك هي الحرب» قال السائق الزنجي موضحاً، ونام ثانية على الفور.

(١٣)

سحبها جونز وهي تقاوم وسط الظلال. حجبتهما شجيرة لاجرسترمية هندية عن الأنظار.

- «دعني أذهب!» قالت وهي تمانع.

- ما الذي دهاك؟ لقد قبلتني ذات مرة، ألم تفعلي ذلك؟

- «دعني أذهب» قالت ثانية.

- «لماذا؟ من أجل ذلك الرجل الميت اللعين؟ هل تراه يكترث لك ضمها إليه حتى تبددت منها شحنتها العصبية تاركة جسدها هشاً كأنه طير أسير. حدق في اللطخة البيضاء التي كانت تمثل وجهها وكانت تعي ضخامة جسده المبهم الملامح الذي يلوح في الظلام، وتشم رائحة الصوف والتبغ.

- «دعني أذهب» قالت ثانية بتوسل، وعندما وجدت نفسها على حين غرة، هربت عبر الأرض المعشبة، أحست بأن قطرات الندى كانت تبلل حذاءها، رأت وهي مستبشرة صفاً من الرجال جالسين كأنهم الطيور على الدرابزين. التقى بها وجه السيد رفرز الحديد، من فوق ملابسه الكتانية الصافية وتشبثت بذراعه.

- «لنرقص، يا لي» قالت بصوت واهن، ودفعت جسدها بشدة إلى جسده، مستمدة الإيحاء المتقطع للسكسوفونات.

(١٤)

أحرزت السيدة باورز نصراً قليلاً، كانت طيور الدرابزين قد منحتها (زخماً).

- «أقول» وكز أحدهما الآخر، «انظر ما الذي حصل عليه روفي Rufe وفيما كانت المضيفة تقف وهي تثرثر بابتذال، كانوا يتهامسون فيما بينهم قرب ثوبها الداكن الأنيق، وأشاروا إلى مادين أن يأتي إلى جانبهم.

- «باورز؟» تساءلوا، عندما انضم إليهم. لكنه أسكتهم.

- «نعم، ذلك هو، لكن هذا سر، كما تعلمون. لا تقولوا لهما، أنتم تفهمون ذلك» اكتسحت نظرته المحدقة المجموعة التي عند الدرابزين «لن يجدي ذلك نفعاً، كما تعلمون».

- «سحقاً، كلا» قالوا مصرين. باورز!

ولذلك فقد رقصوا معها، واحداً أو اثنين في البداية، وبعد ذلك عندما لاحظوا أداءها المقتدر، الراسخ، كان جميع أولئك الذين رقصوا على الإطلاق بعد وقت قصير قد دخلوا في منافسة مرحة، لحقوا بها أثناء رمقها مع شخص آخر من جماعتهم، وألحوا عليها فيما بين الرقصات، بعضهم تمادى أيضاً وبحث عن شركاء آخرين كانوا يعرفونهم.

اكتفى مادين بعد مدة من الزمن بأن بقي ينظر، لكن أصدقاءه كانوا مواظبين، لا يعرفون التعب أو الكلل؛ رأى أنها لم ترقص لفترة طويلة مع الراقصين المساكين، الذين كانوا قد أحضروا لها كؤوساً من النبش(*) العديم النهكة؛ كانوا لطفاء وتعوزهم اللباقة قليلاً.

(*) النبش: شراب مسكر.

كانت شعبيتها قد أتت بالحصاد المتوقع من التفكر الأنثوي. لقد انتقدت ملابسها (وقاحتها) في المجيء لكي ترقص بثياب الشارع، في المجيء من الأصل. إنها تعيش في منزل مع شابين، أحدهما غريب لا توجد امرأة أخرى هناك.. عدا خادمة. وكان هناك شيء غريب بشأن تلك الفتاة، قبل سنوات مضت. تكلمت معها السيدة ووردل مع كل ذلك. لكنها تتكلم مع كل من لا يستطيع تفاديها. وتوقفت سيسلي سوندرز فيما بين الرقصات وقد مدت ذراعها، وثرثرت بكلماتها الفظة العصبية الطائشة، وقلبت عينيها هنا وهناك في جميع الرجال الذين يتعذر تفاديهم، وكانت تتحدث طول الوقت.. أطلق المبوق الزنجي العنان لزمرته التي لا تعرف الكلل من جديد فضجت الشرفة ثانية بأزواج الراقصين المتشابكين بالأيدي.

أومأت السيدة باورز إلى مادين عندما صوب نظرها إليها «يجب أن أذهب» قالت «إذا كان عليّ أن أشرب كأساً أخرى من ذلك الشراب..».

شقا طريقهما وسط الراقصين، تتبعهما حاشيتهما المحتجة. لكنها كانت مصممة وقالوا لها ليلة سعيدة بأسف وامتنان، وهزت يدها.

- «كان ذلك كالأيام الخوالي» عبر أحدهم عن ذلك باستحياء وغمرتهم جميعاً بنظراتها المتكاسلة، الودية، المتجهمة.

- «أليس كذلك؟ سوف تأتين ثانية عما قريب، آمل ذلك الوداع، الوداع» راقبوها إلى أن امتزج ثوبها الداكن بالظل وراء نطاق الضوء. استمرت الموسيقا بالتدفق بخفوت، ثم تلاشى رنين النحاس تدريجياً، وكان الإيقاع ينتقل على سلم موسيقي ثانوي حزين مكتوم من الأصوات إلى أن رجع ثانية رنين النحاس.

- «أقول، كان بإمكانك أن ترى ما في داخلها» علق جيليجان باهتمام حينما صعدا. فتح مادين الباب وساعدها في الدخول، من دون أن تكون ثمة حاجة إلى ذلك.

- إنني منكهة، جو، لنذهب.

كان رأس السائق الزنجي مستديراً مثل قذيفة مدفع تعلوها قبعة ولم يكن نائماً، وقف مادين جانباً، سمع صوت هدير المحرك يمتزج بأنين التروس المتعشقة، راقبتهم وهم يدرجون بخفة إلى أسفل الطريق الممتدة في الحديقة.

باورز.. رجل يقفز على خندق من الجنود الفاسدين المرتبكين الذين تأسرهم نوبة هستيريا حمقاء. وجه يهوي بخفة على لهب بندقية، فراشة بيضاء تحت فجر ناشز حزين.

(١٥)

تمشى جورج مع صديقه عامل الصودا تحت أشجار بدت في حركتها المعتادة كأنها تسبح إلى الوراء فوقهما، وكانت المنازل ضخمة ومعتمة أو أشكالاً مضيئة على نحو خافت من لجة الظلام المسطح الأقل عتمة حينما لا تكون هناك أشجار. الناس كانوا نياماً في داخلها، الناس يلفهم النعاس لقد تحرروا من أجسادهم مؤقتاً. ناس آخرون في أماكن أخرى كانوا يرقصون تحت سماء الربيع، فتيات يرقصن مع شبان بينما شبان آخرون كانت أجسادهم قد خبرت كل علاقات المودة مع أجساد الفتيات، يمشون في شوارع معتمة وحيدين، وحيدين..

ـ «حسنٌ» علق الصديق «بقي لدينا كأسان طيبتان»

شرب بضراوة، وأحس بحرقة النار في بلعومه تغدو جمرة داخلية مستحية، استمتع بها كأنها نشوة عاطفية شديدة. (جسدها منبطح وعار مثل بركة ضحلة، تتدفق بعيداً كأنها جدولان فضيان من مصدر واحد) كان الدكتور جاري سيرقص مها، سيضع ذراعه حولها، بوسع أي شخص أن يلمسها (إلا أنت.. إنها حتى لا تكاد تتكلم عنك أنت الذي رأيتها منبطحة وفضية.. وضوء القمر الساقط عليها كأنه سيل ماء ينتشر بعذوبة، معرقة وهزيلة وغير ملطخة بأي ظل، الانفعال اللذيذ لذراعيها المتقلصتين ذلك التقلص الذي أخفى جسدها خلف المسكة المبهمة لفمها) رباه، رباه!

ـ أقول لك شيئاً، ما رأيك بأن نعود إلى المخزن ونمزج زجاجة أخرى؟ لم يرد وأعاد صديقه الاقتراح.

ـ «دعني وشأني» قال فجأة بوحشية.

- «عليك اللعنة، إنني لم أزعجك!» رد الآخر بحرارة لها ما يبررها. وقفا عند زاوية، حيث كان يمتد شارع آخر بعيداً تحت الأشجار باتجاه الظلمة، في ألفة لا تبعث على الراحة (إنني آسف، إنني معتوه، آسف لأني انفعلت عليك لا ذنب لك) استدار بشكل متثاقل.

- حسنٌ، أتصور أنه عليّ الذهاب، لا أشعر بأني على ما يرام الليلة، أراك في الصباح.

تقبل صديقه الاعتذار غير المعلن «طبعاً، أراك غداً».

اضمحل شكل الآخر الذي لم يكن يرتدي معطفاً وبعد قليل تلاشى وقع خطواته. واحتل جورج فار البلدة، الأرض، العالم، لنفسه ولأحزانه، تسللت أصوات الموسيقا واهنة مثل إشاعة مزعجة تحت الليلة الربيعية، تزيدها المسافة عذوبة، اشتياق لا يعرف السكون (رباه، رباه!).

الفصل السادس



(١)

أخيراً توقف جورج فار عن محاولة رؤيتها، كان قد اتصل هاتفياً بلا جدوى ومرة بعد أخرى، وأخيراً أصبح الهاتف يشكل النهاية بدلاً من الوسائل. كان قد نسي لماذا أراد الوصول إليها، في آخر الأمر قال لنفسه بأنه كرهها، إنه سيبتعد عنها؛ أخيراً صار يكابد آلاماً قاسية من أجل تفاديها مثلما كان يكابد في سعيه لرؤيتها. لذلك فقد تسلل خفية في الشوارع كأنه مجرم، محاولاً تفاديها، أحس بقلبه ذاته يتوقف عن النبض عندما كان يرى أحياناً جسدها الذي لا يمكن له أن يخطئ في تمييزه عن مسافة. وفي الليل كان يستلقي مؤرقاً ويتمشى أمام منزلها المعتم، محدقاً بتعاسة مملة في الغرفة التي يعرف بأنها تنام فيها، برقة ودفء، في هجوع حميم، ثم يعود أدراجه إلى البيت والسرير، لكي يحلم بها أحلاماً متقطعة.

عندما وصلت رسالتها أخيراً، أحس بشيء من الارتياح، شيءٌ حادٌ ومرٌ مثل ذلك الألم الذي ظل يكابده. عندما تناول الورقة المربعة البيضاء من مكتب البريد، عندما رأى خطها العنكبوتي العصبي منبسطاً عبرها على نحو متباعد، أحس بشيء أشبه برجة صاعقة صامتة عند قاعدة دماغه. لن أذهب، قال لنفسه، وهو يعلم بأنه سوف يذهب، وأعاد قراءتها، متسائلاً إن كان بوسعه أن يسمعها أو يراها، إن كان بوسعه أن يتكلم معها، يلمسها ثانية.

كان قد ذهب قبل الوقت المحدد جلس مختبئاً عن الأنظار عند منعطف السلالم الصاعدة نحو الشرفة، كانت السلالم محاطة بدرابزين خشبي صلب ومن أسفل الدرجات كان النفق الطويل للصيدلية يمتد باتجاه مصدر الضوء وكان المدخل عبارة عن نفق تملأه الروائح الممتزجة للأحماض

والعصائر الحلوة: نقاوة مشبعة، زائفة، رآها وهي تدخل من الباب، وعندما نهض في مكانه رآها تتوقف وقد وقع بصرها عليه، بعد ذلك، وكأنه في حلم رأى صورتها الظلية ترتسم على الباب، والضوء يتلاعب بثوبها الأبيض، مضفياً عليه هالة نورانية رقيقة، جاءت تمشي بخطى خفيفة على كعبيها العاليين صوبه، جلس ثانية وهو يرتجف وسمعها تصعد الدرجات رأى ثوبها، وسمع أنفاسه تحتبس، رفع عينيه إلى وجهها عندما هبطت بين ذراعيه من دون حتى أن تتوقف كأنه طير يستقر بعد تحليق.

- «سيسلي، أوه، سيسلي» قال بصوت متقطع، مستقبلاً قبلاتها سحب فمه «كدت تقتلينني».

سحبت وجهه بسرعة ثانية نحو وجهها، تمتمت هامسة على خده ضمها إليه وجلست هكذا لمدة طويلة. وأخيراً همس قائلاً: «ستفسدين ثوبك بجلوسك هكذا» لكنها هزت رأسها فحسب، وتشبثت به. أخيراً جلست.

- «هل هذه الكأس لي؟» سألت، والتقطت إحدى الكؤوس المترعة بالعصائر الحلوة المذاق القريبة منه. وضعت الكأس الأخرى في يده وأطبق أصابعه عليها وهو ما يزال ينظر إليها.

- «حسنٌ، يجب أنت نتزوج» قال ببلاهة.

- «نعم؟» قالت وهي تأخذ رشفة من كأسها.

- «حسنٌ، ألن نتزوج؟» سأل بدهشة.

- «لقد فهمت الأمر على نحو معاكس. الآن لا داعي لأن نتزوج، رمقته بنظرة عجلى، وضحكت عندما رمقت عيناها على وجهه. كانت خشونتها تصعقه دوماً بشكل مفاجئ والتي لا تنسجم مع رقتها المتأصلة والتامة، لكن جورج فار على كل حال، مثله مثل أغلب الرجال، كان يبدو محتشماً بطبعه، رمقها بنظرة استهجان وهو صامت. وضعت كأسها جانباً وأحنت صدرها إليه «جورج؟».

تخلى عن تحفظه، ووضع ذراعه حولها، لكنها أبعدت فمها. دفنت

نفسها بعيداً عنه، وحينما أحس بأنه قد انتصر أطلقها.

- لكن ألن تتزوجي مني؟

- حبيبي، ألسنا متزوجين منذ مدة، الآن؟ هل تشك بي، أم هل أن عقد الزواج فقط هو الذي سيجعلك مخلصاً لي؟

- «تعلمين بأن الأمر ليس كذلك» لم يستطع أن يقول لها أنه بسبب الغيرة لم يكن ليثق بها «فقط لأن..».

- فقط ماذا؟

- فقط إذا كنت لن تتزوجي مني، فأنت لا تحبينني.

تحركت بعيداً عنه، أكتست عيناها زرقة غامقة. «كيف تقول ذلك؟» نظرت بعيداً، وكانت حركتها نصف رعشة، نصف هزة كتفين بلا مبالاة. «ربما كان عليّ أن أعرف ذلك، بالرغم من كل شيء، حسنٌ لقد كنت مغفلة، كما أتصور. كنت فقط.. فقط تمضي وقتاً معي، إذن؟»

- «سيسلي..» حاول أن يأخذها بين ذراعيه ثانية. تملصت منه ونهضت.

ـ «لست ألومك، أعتقد أن ذلك هو ما كان سيفعله أي رجل في مكانك. ذلك ما يريده دوماً كل الرجال مني، بأية طريقة من الطرق. لذلك فأنت لا تختلف عن أي شخص منهم.. إنني فقط آسفة لأنك لم تقل لي من قبل.. عما قريب، يا جورج، تصورت أنك إنسان مختلف، أدارت له ظهرها النحيل. يا لها من ضئيلة، يا لها.. يا لها من عاجزة! وقد آذيتها، فكر مع نفسه، بألم حاد، ورفع ذراعه ووضعها حولها، من دون أن يهتم بمن يمكن لهم أن يروهم.

- «لا تفعل ذلك، لا تفعل ذلك!» همست وهي تستدير بسرعة. كانت عيناها تبدوان مخضرتين تماماً. «سيرانا أحدهم! أجلس!»

- ليس قبل أن تتراجعي عن ذلك.

- أجلس، أجلس! أرجوك، يا جورج! أرجوك، أرجوك!

- تراجعي عن ذلك إذن.

كانت عيناها داكنتين ثانية، وقرأ الهلع في وجهها، وأطلقها، وجلس ثانية.

- عدني ألا تفعل ذلك ثانية أبداً، أبداً، أبداً.

وعدها بفتور وجلست إلى جانبه، تسللت يدها نحو يده ونظر إلى الأعلى.

- لماذا تعاملني على هذا النحو؟

- «كيف؟» سأل.

- «تقول بأني لا أحبك، أي دليل آخر تريد؟ أي دليل آخر يمكنني تقديمه؟ ما الذي يمكن أن تعتبره دليلاً؟ أخبرني، سأحاول فعل ذلك» نظرت إليه بتواضع مرهف.

- «إنني آسف. سامحيني» قال بقنوط.

- «لقد سامحتك من قبل، الشيء الذي لا أستطيع أن أعدك به هو نسيان هذا، لست أشك فيك، يا جورج. أو لا يمكنني أن أشك فيك..» تلاشى صوتها وتشبثت بيده بتشنج، ثم أطلقها. نهضت «يجب أن أذهب».

أمسك بيدها. كانت غير مستجيبة «هل لي برؤيتك بعد ظهر هذا اليوم؟».

- أوه، كلا. لا أستطيع الرجوع بعد ظهر هذا اليوم، لدي بعض أعمال الخياطة التي أقوم بها.

- أوه، هيا، أجلي ذلك. لا تعامليني ثانية مثلما فعلت. لقد جن جنوني تقريباً. أقسم لقد كدت أفقد صوابي.

- حبيبي، لا أستطيع، ببساطة لا أستطيع. ألا تعرف بأني أريد أن أراك بنفس اللهفة التي تريد رؤيتي بها؛ بأني سآتي لو كنت أستطيع ذلك؟

- دعيني آتي إلى هناك إذن.

- «أعتقد أنك مجنون» قالت له بتفكر «ألا تدري بأن من المفترض بي ألا أراك أبداً؟».

- إذن سوف آتي الليلة.

- «اسكت!» همست بسرعة، ونزلت الدرجات.

- «لكني سآتي» قال ثانية بعناد. نظرت باستعجال في أرجاء المكان، واستحال قلبها إلى ماء بارد. هنا جلس إلى منضدة في الفجوة التي صنعها السلالم الصاعدة، ذلك الرجل البدين، وقد وضع أمامه كأساً نصف فارغة.

أحست برعب فظيع، وعندما حدقت في رأسه المستدير المنحني إلى الأسفل، تصبب كل دمها من قلبها الجليدي. وضعت يدها على الدرابزين، خشية أن تسقط. ثم تحول ذلك إلى غضب. كان الرجل نقمة عليها. في كل مرة رأته فيها منذ ذلك اليوم الأول عند الغداء مع العم جو، كان قد استحق بها، أساء إليها ببراعة شيطانية، والآن، لو كان قد سمع..

كان جورج قد نهض، تبعها، لكنه عندما رأى إيمائتها الصارمة، وجهها الذي صعقه الرعب، تراجع ثانية. بعد ذلك غيرت تعابير وجهها بسرعة مثلما تغير قبعة. نزلت الدرجات.

- صباح الخير، سيد جونز.

نظر جونز إلى الأعلى بهدوءه البارد المعتاد، ثم نهض متصنعاً الدماثة بتكاسل، راقبته بدقة، بدهاء حيوان زاده الرعب حدة، لكن لم ينبئ وجهه وطريقة تصرفه بشيء.

- صباح الخير، آنسة سوندرز.

- أرى أنك معتاد على شرب الكوكاكولا في الصباح أيضاً. لماذا لم تصعد وتشاركني؟

- «ما زلت ألعن نفسي لأني أضعت ذلك الشرف. أتعلمين، لم أكن أدري بأنك كنت لوحدك» كانت نظراته المحدقة بخسة غير مجسدة مبهمة مثل جرار السائل الأصفر في النوافذ، وغطس قلبها في أعماقها أكثر.

- لم أرك أو أسمعك تدخلين، وإلا لكنت قد أتيت إليك.

كان غير واضحاً «أشكرك. كان ذلك من سوء حظي»

قالت فجأة: «أتساءل إن كنت ستسدي لي معروفاً؟ لدي مليون ألف

شيء لأنجزه هذا الصباح. هل تذهب معي وتساعدني في تذكرها. أتسمح بذلك» حملت عيناها أثر دلال يائس.

كانت عينا جونز لا يسبر غورهما، تنمان عن مكر يتسلل ببطء «سيكون ذلك من دواعي سروري».

- أنهِ كأسك إذن.

كان وجه جورج فار الوسيم، الذي يتلوى غيرة، يسترق النظر إليهما لم تصدر أية إشارة، إلا أن شيئاً من الرعب الجدير بالشفقة كان يختفي وراء سلوكها بحيث أن حتى عيني جورج المتلصصتين الغيورتين الكئيبتين أدركتا معناه. اختفى وجهه ثانية عن الأنظار، قال جونزر:

- دعي الشراب، لست أدري لماذا أستمر في ممارسة الأشياء، ربما لكي أجعل نفسي أتصور أن لدي تجربة طويلة.

ضحكت في ثلاث نغمات «لا يمكنك أن تتوقع بأن ترضي هذه الأذواق كلها في هذه البلدة، في أتلانتا الآن..».

- نعم، بإمكانك أن تفعلي أشياء كثيرة في أتلانتا ليس بوسعك عملها هنا.

ضحكت ثانية بتملق، وتحركا على النفق المطهر في متجر الأدوية، متجهين إلى المدخل. كانت ستضحك بشكل ما لكي تقضي على التعليق الأكثر براءة رقة مضاعفة، أنت تقبلت على الفور حقيقة أنك قد قلت شيئاً ذكياً، من دون أن تتذكر ما هو على الإطلاق، كانت نظرة جونز الوقحة مثل نظرة وثنٍ زائف وهي تتأمل حركة مفاصل جسدها، ووجها الجميل العصبي الملامح، فيما كان جورج فار، في نوبة غضبه المريض الكئيب، يراقب ظلالهما المسطحة الغامضة، بعد ذلك استعادا عمقهما، هي بهشاشتها مثل **Tanager** وهو بترهله وبشاعته وخشونته، وسرعان ما تواريا عن الأنظار.

(٢)

- «أقول شيئاً» قال الفتى روبرت سوندرز «هل أنت جندي أيضاً؟» أكمل جونز تناول غدائه ببطء، لطيفاً بتثاقل، بارعاً بالحدث احتراماً للآخرين، كان قد فاز بالسيدة سوندرز الآن، لم يكن واثقاً بشأن السيد سوندرز تماماً. ولم يكن يكترث بذلك أيضاً. عندما وجد أن الضيف لا يعرف شيئاً مهماً عن النقود أو الزرع أو السياسة، وسرعان ما تركه السيد سوندرز بمفرده لكي يثرثر بتفاهة مع السيدة سوندرز. كانت سيسلي تبدو رائعة. لبقة بدماثة، وقد تركت له حرية الكلام. كان الفتى روبرت بالرغم من ذلك معتمداً على جاذبيته الشخصية.

- «أقول» قال للمرة الثالثة، وهو يتفحص كل حركة تند عن جونز بإعجاب: - «هل كنت جندياً أيضاً؟».

- «كنتم، يا روبرت» قالت أمه مصححة.

- نعم، أماه، هل كنت جندياً في الحرب؟

- روبرت. دع السيد جونز وشأنه الآن.

- «بالطبع، يا صديقي القديم» أجاب جونز «لقد قاتلت ذات مرة».

- «أوه، حقاً فعلت ذلك؟» سألت السيدة سوندرز «يا له من شيء مثير» علقت بدون اهتمام. بعد ذلك: «أتصور أنك لم تصادق دونالد ماهون أبداً في فرنسا، أليس كذلك؟».

- «كلا. كان لدي وقت قليل لكي ألتقي بالناس، مثلما تعرفين» رد جونز برزانة، الذي لم يكن قد رأى أبداً تمثال الحرية - حتى من الخلف.

- «ما الذي فعلته؟» سأل الفتى روبرت بإصرار لا يعرف الكلل.

- «أتصور» تنهدت السيدة سوندرز بإشباع وقرعت جرساً «كانت الحرب شيئاً عظيماً، هل نذهب؟».

سحب جونز كرسيها، وقال الفتى روبرت ثانية بلا كلل «ما الذي فعلته في الحرب؟ هل قتلت أناساً؟».

عبر الأشخاص الأكبر سناً متجهين نحو الشرفة. أشارت سيسلي بإيماءة من رأسها، إلى باب فدخل جونز، يتبعه الفتى روبرت، كان ما يزال يلح بإصرار مزعج. تسللت رائحة سكاير السيد سوندرز في أرجاء الصالة وداخل الغرفة التي جلسوا فيها، ووقع بصر الفتى روبرت الذي أمسك عن توسلاته المتكررة، على عين جونز الماكرتين العميقتين كعيني أفعى، وأحس الفتى روبرت برعشة مفاجئة، خافتة في عموده الفقري، تفحص جونز بحذر وتحرك قريباً من أخته.

- انصرف، يا بوبي. ألا ترى أن الجنود الحقيقيين لا يحبون أبداً التحدث عن أنفسهم؟

كان ذلك شيئاً مشيراً للاشمئزاز. أحس فجأة بالرغبة في أن يكون تحت الشمس الدافئة. هذه الغرفة أصبحت باردة. مشى بانحراف وهو ما يزال يتفحص جونز ماراً به باتجاه الباب «حسنٌ» قال: «أظن بأني سوف أنصرف».

- «ما الذي فعلته له؟» سألت عندما ذهب.

- أنا؟ لا شيء. لماذا؟

- لقد أفزعته، بشكل ما. ألم ترى كيف كان ينظر إليك؟

- «كلا، لم أنتبه لذلك» عبأ غليونه ببطء.

- لا أظن ذلك، لكنك على نحو ما تخيف الكثير من الناس، أليس كذلك؟

- ليس إلى الحد الذي تظنين، الكثير من أولئك الذي أحب إخافتهم يمكنهم الاهتمام بأنفسهم بصورة جيدة.

- نعم؟ لكن لماذا تخيفهم؟

- أحياناً تكون هي الطريقة الوحيدة للحصول على ما نريد من الناس.

- أوه.. هناك اسم لذلك، أليس كذلك؟ الابتزاز، أليس كذلك؟

- لا أعرف. أهذا هو الاسم؟

هزت كتفيها بلا مبالاة مفتعلة «لماذا تسألني عن ذلك؟»

أصبحت نظرته المحدقة الماكرة لا تطاق فنظرت بعيداً. يا للهدوء الذي يعم في الخارج، تحت سحر منتصف الليل. كانت الأشجار تظلل المنزل والغرفة معتمة وباردة. الأثاث كان يرسل ومضات بطيئة غامضة أقل عتمة، وكان الفتى روبرت سوندرز يبدو في سن الخامسة و الستين، مؤطراً وغير مميزاً فوق رف المستوقد، جدها.

اشتاقت إلى جورج، ينبغي أن يكون هنا لكي يساعدها. لكن ما الذي كان في بوسعه أن يفعله؟ عادت إلى التفكير بذلك التسامح العريفي لرجالهن والذي لابد أن تكتسبه النساء من خلال إعطاء أجسادهن (وإلا كيف يتابعن العيش معهم؟) في أن الذكر المنتصر على كل حال ليس أفضل من طفل غبي أخرق. تأملت جونز بتوجس يائس. لو لم يكن بديناً هكذا! كأنه دودة.

قالت ثانية: «لماذا تسألني؟».

- لا أعرف. لم يسبق أبداً أن أخافك أي إنسان، أليس كذلك؟

تفحصته، من دون أن تجيب.

- ربما ذلك لأنك لم تفعلي أبداً شيئاً تخافين منه.

جلست على أريكة، كانت يداها ممسكتين بكلا الجانبين برقة، أخذت تتفحصه. نهض فجأة، وتخلت هي فجأة أيضاً عن استرخائها وصارت متحفزة خدرة. لكنه أشعل عود ثقاب فحسب بأن حكه على حاجز المشبك الحديدي للنافذة وأدخله في تجويف غليونه فيما كانت تتفحص التجعد اللحمي لخديه والخفقان الذهبي للشعلة المنعكسة على عينيه. دفع العود داخل الحاجز وعاد إلى مقعده. لكنها لم تشعر بالاسترخاء.

- «متى ستتزوجين؟» سأل فجأة.

- أتزوج؟

- نعم أليس كل شيء قريباً؟

أحست بتدفق دم بطيء، بطيء في بلعومها ومعصميها، في راحتي يديها، بدا أن دمها كان يؤشر فترة فاصلة لن تنتهي أبداً، كان جونز يراقب الضوء المتسلل من شعرها الرقيق، بكسل ومكر كأنه شبح، كف

عنها أخيراً، «إنه يتوقع ذلك، كما تعلمين».

أخذ دمها يسيل ثانية وصار بارداً، كان بوسعها الإحساس بجلدها من جميع أنحاء جسدها. قالت: «ما الذي يجعلك تتصور بأنه يتوقع ذلك؟ إنه مريض جداً ولا يمكن أن يتوقع أي شيء الآن».

ـ هو؟

ـ قلت إن دونالد يتوقع ذلك.

ـ «يا فتاتي العزيزة، أنا قلت..» كان بوسعه أن يرى هالة من الضوء تتخلل شعرها وشكل جسدها، لكنه لم يكن يستطيع أن يرى وجهها، نهض لم تتحرك من مكانها عندما اقترب وجلس بجانبها، غطست الأريكة بتراخ تحت وطأة ثقله، مطوقة جسده بشهوانية، لم تتحرك، وضعت يدها فيما بينهما وكانت راحتها إلى الأعلى، لكنه تجاهلها. «لماذا لا تسألني عن الأشياء التي سمعتها».

ـ «سمعتها؟ متى؟» كان وضعها بالكامل يعبر عن اهتمام ساذج. كان يعرف أن في تفحصها لوجهه ثمة توجس هادئ وربما احتقار. فكر في أن يتحرك بعيداً عنها بحيث أنها لابد أن تواجه الضوء وتترك وجهه هو في الظل.. الضوء الذي يتسلل إلى شعرها. يداعب ملامح خدها، يدها التي كانت مستقرة بينهما، عارية وراحتها إلى الأعلى، ازداد حجمها بصورة هائلة: كانت تمثل رمزاً لجسدها. يده جسد ذكوري يمكن ليدها أن تلتف بداخله. براونتغ، أليس كذلك؟ ترى منتصف الليل يصبح ظهراً، يصبح ذهبياً ومرهقاً قليلاً وسط أوراق الشجر مثل أيادي النساء الرخوة، كانت يدها سداً واهناً غامضاً يكبل حركته.

ـ «إنك تعلق أهمية كبيرة على القبلة، أليس كذلك؟» قالت أخيراً. طوق يدها المستسلمة بيده وتابعت تقول بطيش: «ذلك شيء مضحك فيك».

ـ عجباً، فيّ أنا؟

ـ كانت الكثير من الفتيات متيمات بك، أليس كذلك؟

ـ ما الذي يجعلك تظنينَ ذلك؟

ـ «لست أدري، الطريقة التي.. كل شيء فيك» لم يكن في وسعها

مطلقاً التوصل إلى قرار دقيق بشأنه. الأنثى مهيمنة تماماً في داخله، وما يتبقى منه كان شيئاً ماكراً، امرأة بجسد رجل وطبيعة قطة.

ـ «أتصور أنك على حق، إنك مصدر موثوق به فيما يتعلق بجنسك نفسك» أطلق يدها وقال «اسمحي لي» وأشعل غليونه ثانية، بقيت يدها مسترخية بتجرد فيما بينهما، كان يمكن أن تكون منديلاً، دفع العود المنطفئ من خلال الحاجز وقال:

ـ ما الذي يجعلك تظنين بأني أعلق أهمية كبيرة على القبلة؟

الضوء الذي يتخلل شعرها كان يشكل الحافة البالية لعملة فضية، طوقتها الأريكة بهدوء، وتبع الضوء بهدوء، هبت ريح ما بين أوراق الشجر خارج النافذة، وجعلتها تحتك مع بعضها الآخر. الظهيرة ولت الأدبار.

ـ أقصد بأنك تعتقد أنه كلما قبلت امرأة رجلاً أو قالت له شيئاً فهي تقصد شيئاً معيناً من وراء ذلك.

ـ إنها فعلاً تقصد شيئاً معيناً من وراء ذلك. بالطبع ذلك ليس على الإطلاق الشيء الذي يتصور الرجل المسكين أنها تقصده، لكنها تقصد شيئاً معيناً.

ـ إذن أنت بالتأكيد لا تلوم المرأة إذا أراد الرجل أن يتصور أنها تقصد شيئاً لم تكن هي تقصده أبداً، أليس كذلك؟

ـ ولم لا؟ سيكون ذلك عالماً مشوشاً لا معنى له إذا لم يكن بوسعك أبداً الاعتماد على ما إذا كان الناس يقصدون ما يقولون أم لا. لقد كنت تعلمين تماماً ما أقصده عندما تركتيني أقبلك في ذلك اليوم.؟

ـ لكني لا أعرف أنك كنت تقصد أي شيء، ليس أكثر مما كنت أقصده أنا.

ـ «حتماً لا تعرفين» قاطعها جونز بفظاظة «كنت تعرفين ما أقصده بذلك».

ـ «أعتقد أننا أصبحنا نتحدث عن أنفسنا فحسب» قالت له بشيء من النفور.

مص جونز غليونه. «حتماً، هذا صحيح. ما الذي لدينا لنهتم به إلا

حكايتنا أنا وأنت؟».

وضعت ركبة على أخرى «لن يحدث ذلك أبداً في حياتي..».

- بحق الرب، لا تقولي هذا، لقد سمعت ذلك من الكثير من النساء، كنت أتوقع شيئاً أفضل من أجل شخص بمثل تفاهتي.

كان يمكن أن يكون شخصاً مقبول المظهر إلى حد ما، فكرت، لو لم يكن بديناً هكذا - ويمكن أن تصطبغ عيناه بلون آخر. بعد وهلة، تكلمت:

- ما الذي تتصور أني كنت أقصده عندما أفعل أحد الأمرين؟

- لم يكن بوسعي أن أبدأ بالقول. إنك مفعمة بالحيوية والنشاط أكثر مني. أشك في أنه بإمكاني منافسة الرجال الذين تقلبينهم وتكذبين عليهم، دعي عنك ما تقصدينه في كل حالة. لا أعتقد أن بإمكانك أنت نفسك عمل ذلك.

- إذن أنت لا تستطيع أن تتخيل أن تسمح للناس أن يحبوك وتقول أشياء لهم من دون أن تقصد أي شيء من ورائها؟

- لا أستطيع. إنني دائماً أقصد شيئاً ما من وراء ما أقوله أو أفعله.

- «كل سبيل المثال؟» كان صوتها مهتماً بخفوت، تهكمياً.

مرة أخرى فكر في التحرك، بحيث يكون وجهها في الضوء ووجهه في الظل. لكنه عند ذاك لن يكون بجوارها. قال بخشونة: «كنت أقصد تلك القبلة إنني ذات يوم أنوي الحصول على جسدك».

- «أوه» قالت بعذوبة «كل شيء مرتب إذن؟ يا له من شيء لطيف. أستطيع أن أفهم الآن نجاحك معنا. إنها فقط مسألة قوة إرادة أليس كذلك؟ ترمق البهيمة بعينيك فيصبح - أقصد تصبح - بين يديك. لابد أن ذلك يوفر الكثير من وقتك الثمين والكثير من المتاعب، أتصور ذلك؟».

كانت نظرة جونز هادئة، جريئة ومتأملة، فاحشة كنظرة مغرية. «لا تتصورين أنه بإمكاني فعل ذلك؟» سأل.

هزت كتفيها برقة، بعصبية، وكبرت يدها المسترخية التي بينهما ثانية مثل زهرة تنمو. كان ذلك كما لو أن جسدها كله أصبح يدها. رمزاً لنشوة رقيقة، غير جسدية، بدت يدها كما لو أنها تذوب في يده إلا أنها بقيت مسلوبة الإرادة، يدها غير واعية في يده وجسدها أيضاً ما يزال نائماً،

ينسحق برقة على ثيابها الهشة. ساقاها الطويلتان، لم تكونا مخصصتين للحركة، لكن لإكمال متعمد لإيقاع يحمل إلى أقصى مداه، دافع قسري للاستمرار، الحركة، جسدها خُلِقَ لكي يحلم كل الرجال به. شجرة جذره عديمة النفع ومطواعة، تجرب وضعاً بعد آخر، إيماءة بعد إيماءة - «فتاة تجرب ثوباً بعد ثوب، متحيرة فيما بينها لكنها تستمتع بذلك» أرسل وجهها غير المرئي هالة نورانية من الضوء وجسدها، الذي لم يكن جسداً، يجعد ثوباً كان يرى في حلم. ليس من أجل الأمومة، ليس حتى من أجل الحب شيء للعين والذهن. خنثوي، فكر ، متحسساً في خياله عظامها النحيلة، العصبية المرة الكامنة في داخل جسدها.

- «أخشى أني إذا ما ضممتك حقاً إلى صدري فسوف تنزلقين مني كالشبح» قال وكان عناقه لها قد غدا متراخياً.

- «يا لها من مهمة» قالت بفظاظة: «لماذا أنت بدين هكذا؟».

- «اصمتي» قال لها: «سوف تفسدين هذا».

كان بعناقه لها يلامسها فحسب وتحملته على مضض ببراعة مذهلة. لم يكن جلدها دافئاً ولا بارداً، كان جسدها في عناق الأريكة لا شيء. أطرافها ليست سوى إشارة على وجود مادة محطمة، رفض أن يسمع صوت أنفاسها كما رفض أن يشعر بوجود مادة جسدية بين ذراعيه. إنها ليست منحوتات عاجية، هذه سيكون لها جسد، صلابة؛ ليست حيواناً يأكل ويهضم - هذه هي رغبة القلب التي تتطهر عن الجسد. «كن هادئاً» قال لنفسه ولها أيضاً «لا تفسدي هذا».

تبددت الأصوات المدوية في دمه، سيمفونية الحياة، الرمال الذهبية في الساعات التي انطلقت مع النهار، اخترقت العنق الضيق للزمن متجهة صوب كرة الليل المتناظرة، لكي تقلب وتتدفق من جديد. أحس جونز برمال الزمن السوداء التي تتسلل ببطء وهي تؤشر مضي الحياة. «اصمتي» قال: «لا تفسدي هذا».

استسلم الحراس اليقظون في دمها للنوم، لكنهم ناموا قريباً من المتاريس وكانت أسلحتهم ما تزال في أيديهم، بانتظار الإنذار، الولاء

المحتم، وجلسا متعانقين. في حمرة الشفق التي كانت تومض بغموض في أرجاء الغرفة. جونز كان ميراندولا بدينة سحرتها إحدى الحوريات بطهر أفلاطوني، طقوس معربدة دينية وجدانية في نسيج صوفي رمادي، تشكل تعبيراً منافقاً، زائلاً من الوحل الرطب لرغبة قديمة أزلية، يجسد لنفسه عذراء من عجينة الورق وسيسلي سوندرز تتساءل ماذا، كم، كان قد سمع، وهي خائفة ومصممة أي سلوك للرجل هذا؟ فكرت بانتباه، وأردات أن يكون جورج هناك ويصغ جداً لهذا الموقف، كيف لم تكن تدري؛ تساءلت إن كانت حقيقة غيابه ذات معنى.

خارج النافذة تململت أوراق الشجر وانتحبت بلا أصوات. الظهيرة كانت قد ولت. وتحت السماء الشاحبة المشدوهة، أشجار وعشب، تلال ووديان، وفي مكان ما البحر، ندم عليه، بارتياح.

كلا، كلا، فكر، بيأس متيقظ، لا تفسدي هذا. لكنها كانت قد تحركت ومسح شعرها بوجهه. كل شخص، أي شخص، لديه شعر (لو يمسك به، لو يمسك به) لكنه كان شعراً وهنا ثمة جسد بين ذراعيه، ربما يكون بضاً ورقيقاً، لكنه جسد على أية حال، ملاطفاً ومتراجعاً، ومع ذلك فهو يلبي نداء جسده. غير محسوس ومهيمن. رفع ذراعه.

- أيها المعتوه الصغير، ألا تعرف بأنك قد نلت مني؟

لم يتغير وضعها، طوقتها الأريكة بعناقها المجرد من الإحساس، الضوء مثل الحافة البالية لعملة معدنية يحيط بوجهها غير الواضح المعالم، وساقاها الطويلتان تتسحقان على ثوبها. تراقب يدها النحيلة باستسلام فيما بينهما لكنه تغاضى عنها.

- «قل لي ما الذي سمعته» قالت.

نهض «وداعاً» قال. «شكراً على الغداء، أو العشاء، أو أي شي تسمينه».

- «عشاء» قالت: «إننا إناس عاديون» نهضت أيضاً وأحنت وركها بتعمد على ذراع الكرسي. غمرتها عيناه الماكرتان بدفء وصفاء مثل البول، وقال: «اللعنة عليك» جلست ثانية وهي منحنية إلى الوراء نحو زاوية الأريكة

وعندها جلس إلى جوارها، وبدا عليه أنه لا يتحرك، اقتربت منه.

- قل لي ما الذي سمعته.

عانقها، بصمت وكآبة، تحركت قليلاً وعرف أنها كانت تقدم له فمها.

- «كيف تفضلين أن أتقدم لطلب يدك؟» سأل،

- كيف؟

- نعم. بأية طريقة تحبين أن أقوم بذلك؟ لقد تلقيت طلبين أو ثلاثة خلال الأيام القليلة الماضية، أليس كذلك؟

- هل تنوي طلب يدي للزواج؟

- كان ذلك مقصدي المتواضع. آسف لأني إنسان بليد. لذلك فقد طلبت معلومات.

- إذن عندما لا تستطيع النيل من نسائك بأية طريقة أخرى، فأنت تتزوجهن؟

- «سحقاً، هل تتصورين بأن كل ما يريده الرجال منك هو جسدك؟» كانت صامتة وتابع يقول: «لن أفشي سرك، كما تعلمين» كان جسدها المتوتر، صمتها، يؤشران سؤالاً. «ما سمعته، أقصد».

- «هل تتصورين بأني أكترث لذلك؟ لقد أخبرتني بنفسك أن النساء يقلن شيئاً ويقصدن شيئاً آخر. لذا فليس عليّ أن أهتم بما سمعته. لقد قلت هذا بنفسك» أصبح جسدها تعبيراً عن تحد مباشر، إلا أنها لم تتحرك. «ألم تقل ذلك؟».

- «لا تفعلي ذلك» قال بحدة. «ما الذي يجعلك بهذا الجمال والفساد، وبهذه البلادة اللعينة؟».

- «ما الذي تقصده؟ لست معتادة..»

- أوه، إنني أستسلم، لا يمكنني أن أوضح لك. وأنت لن تفهمي على كل حال. أعلم بأني مغفل مؤقتاً، لذلك فإذا قلت لي بأني كذلك، فسوف أقتلك.

- «من يدري؟ ربما أحب ذلك» كان صوتها الرقيق الأجش هادئاً. الضوء في شعرها، فمها يتكلم، وشكل جسدها الغامض المنسحق «عند هذا» قال.

ـ ماذا كنت تسمينني؟

قال لها، «(للحظة، لفترة لا نهائية، كنت أتوقف متردداً في الغوص فوق الجرف الضيق لصدرك) وأمضي وأمضي وأمضي. هل تعرفين كيف تمارس الصقور الحب؟ إنها تتعانق عند ارتفاع هائل وتسقط وهي متلاصقة المنقار على المنقار، تغطس بطيش وتهور؛ تلك نشوة لا يمكن احتمالها فيما ينبغي علينا أن نتلبس بكل أنواع الحالات النفسية المثيرة للضحك، ونحن نعرف ما مصدر متاعبنا. يقطع الصقر عناقه وينقض بسرعة بمفرده بكبرياء، بينما يتوجب على الرجل أن ينهض ويخلع قبعته وينصرف».

لم تكن تصغي إليه، لم تسمع ما قاله «قل لي ما الذي سمعته» قالت ثانية. عندما لمسته أحست بحرقة نار فاترة؛ تحرك لكنها تبعته كالماء «قل لي ما الذي سمعته».

ـ وما الذي يهم في ذلك، ما سمعته؟ لست مكترثاً لأي شيء فيما يتعلق بعلاقاتك الغرامية. بإمكانك أن تقيمي علاقات مع أشخاص من أمثال جورج أو دونالد مثلما تحبين. أن تجعلي منهم جميعاً عشاقاً لك إذا شئت. لا أريد جسدك. إذا تمكنت فقط من إدخال ذلك في رأسك الجميل العنيد، إذا كنت فقط ستتركينني وشأني، قلت أريده أبداً ثانية.

ـ لكنك كنت قد طلبت يدي، ما الذي تريده مني؟

ـ لن تفهمي شيئاً، إذا حاولت أن أقول لك.

ـ إذن: إذا ما تزوجت منك فعلاً، فكيف لي أن أعرف الطريقة التي أتصرف بها معك؟ أعتقد أنك مجنون.

ـ «ذلك ما كنت أحاول قوله لك» أجاب جونز بغضب وهدوء «لن يكون عليك أن تتصرفي على أي نحو تجاهي، أنا الذي سأفعل ذلك أعرف كيف أتصرف مع أشخاص من أمثال دونالد وجورج، أؤكد لك».

كانت أشبه بأرض صغيرة انقطع عنها تدفق الماء «أعتقد أنك مجنون. قالت ثانية.

ـ «أعرف أني كذلك»، نهض فجأة. «وداعاً هل سأرى والدتك أم أنك سوف تشكرينها على الغداء بدلاً مني؟».

بدون أن تتحرك قالت: «تعال إلى هنا»

في الصالة، كان في وسعه أن يسمع كرسي السيدة سوندرز وهو يصدر صريراً مع حركة تأرجحها، من خلال الباب الأمامي رأى أشجاراً، المرج والشارع، قالت تعال إلى هنا ثانية. كان جسدها يمثل شكلاً غامضاً أبيض اللون عندما ولج إلى الغرفة ثانية والضوء كان حافة بالية لعملة معدنية حول رأسها. قال:

- إذا رجعت، فأنت تعلمين ما يعني ذلك.

- لكني لا أستطيع الزواج منك. إنني مخطوبة.

- لم أكن أتحدث عن ذلك.

إذن ما الذي كنت تقصده؟

- «وداعاً» قال ثانية. عند الباب الأمامي تمكن من سماع السيد والسيدة سوندرز يتحدثان لكن من الغرفة التي كان قد تركها تناهى صوت حركة واهنة، أعلى من أي صوت آخر. اعتقد أنها كانت تتبعه لكن الباب بقي فارغاً وعندما نظر إلى داخل الغرفة ثانية وجدها تجلس مثلما كان قد تركها. لم يستطع حتى أن يعرف إن كانت تنظر إليه.

- «تصورت بأنك قد انصرفت» قالت.

بعد فترة من الزمن قال: «الرجال قد كذبوا عليك كثيراً، أليس كذلك؟».

- ما الذي جعلك تقول ذلك؟

نظر إليها طويلاً، ثم استدار نحو الباب ثانية «تعال إلى هنا» قالت ثانية بسرعة.

لم تند عنها أي حركة، عدا أنها أشاحت بوجهها قليلاً عندما عانقها «لن أقبلك» قال لها.

- «لست واثقة تماماً من ذلك» إلا أن عناقه لها كان شيئاً مجرداً من الإحساس.

- اسمعي، إنك مغفلة وضحلة الفهم، لكنك على الأقل بإمكانك أن تفعلي مثلما يقال لك، وهذا يعني أن تتركيني وشأني فيما يتعلق بما سمعته

هل تفهمين؟ لديك ذلك القدر من الإدراك، أليس كذلك؟ لن أفعل شيئاً يسيء إليك، لست أريد حتى أن أراك ثانية، لذلك اتركيني وشأني فيما يتعلق بذلك الأمر، إذا سمعت أي شيء فقد نسيته الآن ـ ومن النادر جداً أن أفعل أي شيء بهذا الشكل المهذب. هل تسمعين؟

كانت باردة الأعصاب ومرنة كأنها شجرة غضة بين ذراعيه وقالت وفمها قريب من فمه «قل لي ما الذي سمعته».

ـ «حسنٌ، إذن» قال بوحشية، كانت يده تحتضن كتفها، أمسك بها وهي مستسلمة تماماً وهزت يده الأخرى وجهها بعنف، قاومت، أدارت وجهها على راحته السمينة.

ـ كلا، كلا؛ قل لي أولاً.

جذب وجهها نحو الأعلى بشدة وقالت بهمس مختنق «إنك تؤذيني!»

ـ لا أكترث لهذا أبداً. ربما ذلك مع جورج، لكن ليس معي، رأى عينيها تشتدان قتامة، رأى الأثر الأحمر الذي تركته أصابعه على خدها وحنكها، أمسك بوجهها وحركه بحيث يمكن للضوء أن يسقط عليه، تفحصه بتوجس مترف. هتفت بسرعة وهي تحدق فيه: «ها قد جاء أبي! توقف!».

لكن السيدة سوندرز هي التي كانت عند الباب، وكان جونز هادئاً، حذراً، كسولاً ونائياً كأنه طيف.

ـ «حقاً، الجو بارد تماماً هنا، أليس كذلك؟ لكن المكان معتم جداً كيف يمكنكما البقاء مستيقظين؟» قالت السيدة سوندرز وهي تدخل «لقد غفوت تقريباً عدة مرات وأنا في الشرفة. لكن الوهج مزعج جداً على الشرفة. لقد ذهب روبرت إلى المدرسة بدون قبعته، لست أدري ما الذي سيفعله».

ـ «ربما ليست لديهم شرفة في المدرسة» تمتم جونز.

ـ في الواقع، لا أتذكر. لكن مدرستنا حديثة تماماً، لقد بنيت في .. متى بنيت يا سيسلي؟

ـ لا أعرف ماما.

ـ نعم، لكنها جديدة للغاية. هل كان ذلك في العام الماضي أم العام الذي قبله، حبيبتي؟

- لا أعرف، ماما.

- لقد أخبرته أن يرتدي قبعته بسبب الوهج، لكنه بالطبع لم يكن ليفعل. من الصعب التعامل مع الأولاد، هل كنت صعب المراس عندما كنت طفلاً سيد جونز؟

- «كلا، يا سيدتي» أجاب جونز الذي لم تكن عنده أم يعرف اسمها والذي ربما كان قد ادعى له أي عدد من الآباء المحتملين، «لم أتسبب أبداً لوالدي بالكثير من المتاعب. إنني هادئ الطبع، مثلما ترين، في الواقع إلى أن بلغ عمري الحادية عشرة، كانت المرة الوحيدة التي عرفت فيها الألم في ذات يوم عندما اكتشفت حينما أوشكنا على التوجه في إجازتنا السنوية أن بطاقتي المدرسية ليوم الأحد قد ضاعت، في كنيستنا كانوا يمنحون جوائز على الحضور ومعرفة الدروس وكانت بطاقتي تحمل واحد وأربعين نجمة عندما اختفت» كان جونز قد نشأ في دار للأيتام الكاثوليكية، لكنه مثل هنري جيمس، توصل إلى احتمالات يمكن أن تكون صادقة من خلال الضجر.

- يا له من شيء مروع. وهل وجدتها ثانية؟

- أوه، نعم لقد وجدتها في الوقت المناسب من أجل الرحلة. كان أبي قد استعملها ليدخل في رهان بقيمة دولار واحد في مضمار الخيل، عندما ذهبت إلى محل عمل أبي لكي أقنعه بالعودة إلى البيت، مثلما كنت معتاداً على ذلك، وحالما اجتزت الأبواب الدوارة، كان أحد زملائه في العمل يقوم «بطاقة من هذه؟» لقد تعرفت إلى نجماتي الواحدة والأربعين على الفور. وطالبت بها، وحصلت على اثنين وعشرين دولاراً مقابل ذلك. منذ ذلك الوقت أصبحت من المؤمنين بالمسيحية بإخلاص.

- «يا له من شيء ممتع» علقت السيدة سوندرز، دون أن تكون قد أصغت إليه «أتمنى لو أن روبرت يحب مدرسة يوم الأحد بذلك القدر».

- ربما كان سيحبها، لو أنه حصل على اثنين وعشرين دولاراً مقابل واحدة.

- «عذراً؟» قالت. نهضت سيسلي، وقالت السيدة سوندرز: «حبيبتي، إذا كان السيد جونز سيذهب، ربما من الأفضل لك أن تستلقي، تبدين

مرهقة، ألا تعتقد بأنها تبدو مرهقة، سيد جونز؟»

- نعم، بالفعل، لقد ذكرت ذلك منذ قليل.

- «حسنٌ، ماما» قالت سيسلي.

- «شكراً على الغداء» تحرك جونز متجهاً نحو الباب وردت عليه السيدة سوندرز باحترام، متسائلة لماذا لم يحاول التقليل من وزنه (ربما هو يبذل محاولة، أضافت بشيء من التسامح المتأخر) تبعته سيسلي.

- «أرجوك أن تأتي ثانية» قالت له وهي تحدق في وجهه «كم هي الأشياء التي سمعتها؟» همست بيأس شديد. «(يجب) أن تخبرني».

أحنى جونز رأسه ببلادة للسيدة سوندرز، ومرة ثانية غمر الفتاة بنظراته العميقة الماكرة. وقفت بجانبه عند الباب وسقطت أضواء ما بعد الظهر كاحلة على جسدها الهش النحيل. قال جونز:

- سوف آتي الليلة.

همست «ماذا؟» وقال ثانية.

- «هل سمعت ذلك؟» صاغ فمها الكلمات التي ارتسم معناها على وجهها المتزن «هل سمعت ذلك؟».

- أقول ذلك

تسلل الدم إلى عروق جلدها ثانية وصارت عيناها معتمتين، مضببتين «كلا، لن تأتي» قالت ثانية. نظر إليها بهدوء، وابيضت مفاصل أصابعها على كمه «أرجوك» قالت وهي مخلصة في توسلها. لم ينطق بأي رد، ثم أضافت تقول: «افرض بأني سأخبر أبي؟».

- «تعال ثانية، سيد جونز» قالت السيدة سوندرز تجسدت على فمه عبارة لن تجرؤ على ذلك، وحدقت سيسلي فيه بمقت ويأس مرير، برعب وقنوط عاجزين عن التعبير «إنني سعيدة جداً لقدومك» كانت السيدة سوندرز تقول «سيسلي من الأفضل لك أن تستلقي، لا تبدين على ما يرام أبداً. إن سيسلي ليست قوية البنية جداً، سيد جونز».

- «نعم، بالفعل، يمكن للمرء بسهولة أن يرى أنها ليست قوية» قال جونز مؤيداً ذلك بأدب جم. فصلهما الباب المشبك وتجسدت على فم سيسلي المرن

والسريع الحركة مثل قطعة مطاط حمراء، لا تأتِ.

لكن جونز لم يرد بشيء. نزل درجات خشبية ومشى تحت ظل أشجار الخرنوب. التي كان النحل يطن بداخلها. كانت الورود تتناثر فوق شجيرات خضراء، ورود حمراء كأنها أفواه المومسات، حمراء مثل فم سيسلي، تقول لا تأتِ.

تأملت ظهره البدين، الكسول، المكسو بالصوف إلى أن وصل إلى البوابة والشارع، ثم استدارت إلى حيث كانت تقف أمها في انتظار متوجس وصبر نافذ بجسدها المكتنز المتراخي. كان الضوء من خلفها ولم تستطع المرأة الكبيرة أن ترى وجهها، لكن كان ثمة شيء ما في سلوكها، في التوتر المتداعي العاجز لجسدها والذي جعل الأخرى تنظر إليها باهتمام سريع.

- سيسلي؟

لمستها الفتاة ووضعت السيدة سوندرز ذراعها حول ابنتها. كانت المرأة الكبيرة قد أكلت كثيراً كالمعتاد. وكان تتنفس بصعوبة، تحس بوطأة مشدات خصرها، تحسب الدقائق لكي تتحرر منها.

- سيسلي؟

- أين أبي، ماما؟

- «لماذا، لقد ذهب إلى البلدة، ما الأمر، يا طفلتي؟» سألت بسرعة «ما الذي جرى؟».

التصقت سيسلي بأمها. كانت الأخرى كصخرة؛ صخرة تلهث، شيء غير فان، لا تتسرب إليه الأحزان والمخاوف. وعديمة القلب.

- «يجب أن أراه» أجابت «يجب أن أراه حتماً».

قالت الأخرى: «حسنٌ، حسنٌ. اذهبي إلى غرفتك واستلقي قليلاً» تنهدت بعمق! متى سأتعلم التوقف عن الأكل؟ لكن إن لم يكن شيئاً ما فهو شيء آخر. أليس كذلك؟ حبيبتي، هل تسمحين لي بالدخول لكي أفك مشداتي؟ أعتقد بأني سأستلقي قليلاً قبل أن أرتدي ثيابي لكي أذهب إلى منزل السيدة كوليمان».

- «نعم ماما، بالطبع» أجابت وهي تتمنى أن ترى أباها، جورج، أي إنسان لكي يساعدها.

(٣)

تسلق جورج فار الذي كان يَكْمُن مترصداً في أحد الشوارع، أحد الأسيجة على عجل عندما خرج المتفرجون من معرض الصور. رغماً عنه، لم يستطع أن يتظاهر كما لو أنه كان خارجاً في نزهة عرضية، لكن كان عليه أن ينحرف بلا هدف من دون أن يجلب انتباه أحد على الشارع جيئة وذهاباً بنوع من الترصد الحذر. كان عصبياً إلى حد كبير لا يقدر معه الذهاب إلى أي مكان آخر ويؤقت عودته؛ كان عصبياً إلى حد كبير لا يستطيع معه أن يخفي نفسه ويبقى هناك. لذلك فقد استسلم وصار يعيش خلسة متوارياً بحذر، وتسلق سياجاً بخفة عندما بدأ الناس بالخروج من معرض الصور.

التاسعة والنصف

جلس الناس على الشرفات يتأرجحون ويتحدثون بنبرات خفيفة، مستمتعين بدفء نيسان، الناس يمرون من تحت أشجار معتمة على طول الشارع، كبار في السن وشباب، رجال ونساء، مصدرين أصواتاً رخية غير مميزة، كأنهم قطيع من الماشية متجه نحو حظائره لينام، مرت عيون صغيرة حمراء بارتفاع الفم وطافت بتباطؤ رائحة التبغ المحترق إلى الخلف عذبة ولاذعة كشفت أضواء مقوسة متناثرة عند زوايا الشارع عن العابرين، مطاردة لهم مؤقتاً بظلال مرنة. عبرت السيارات من تحت الأضواء وميز من بين ذلك أصدقاء: شباب وفتيات يتعذر تجنبهن يذهبن بصحبتهم، شَعر مُسَرح أو مَعقود وأيادٍ نحيلةٍ فتيةٍ ترفرف دوماً حوله، تحافظ على ترتيبه.. استمرت السيارات في العبور نحو الظلام، نحو ضوء آخر، نحو الظلام ثانية.

العاشرة

الندى على العشب، الندى على الورود الصغيرة غير المقطوفة، يجعلها أكثر عذوبة، يمنحها عبيراً. لولا ذلك ما كان ليفوح منها العبير، عدا عبير الشباب والنضوج، لأن الفتيات لا يوجد لديهن صفات محددة، عدا صلة الشباب والنضوج، الندى على العشب، توشى العشب بإضاءة صامتة كما لو أنه كان قد سرق الضوء من النهار وكانت رطوبة الليل تطلق سراحه، تعيده إلى العالم ثانية. أطلقت ضفادع الأشجار صياحاً حاداً، والحشرات أرسلت أزيزاً في العشب، ضفادع الأشجار مسمومة، هكذا قال له الزنوج، إذا ما بصقت عليك، فسوت تموت. عندما تحركت ظلت ساكنة (ربما تتهيأ للبصاق) ربما أصبحت ساكنة ثانية، أطلقت أصواتها الرتيبة المارقة كصوت القلوب من خناجرها المنتفخة ملأت بها جوف الليل منبئة بقرب مجيء الصيف. الربيع مثل فتاة ترضي مزاجها.. عبر الناس فرادى وأزواجاً متأخرين. تناهت إليه الكلمات مقطعة لا معنى لها. براعم لم يكتمل نموها بعد.

العاشرة والنصف

نهضت البقع المتأرجحة على شرفات المنازل ودخلت، دخلت إلى الغرف، وانطفأت الأضواء هنا وهناك فيما وراء الظلال هبطت بنعومة تسلل جورج فار عبر مرج مهجور إلى شجرة مغنوليا. تلمس طريقه تحتها في بقعة من ظلام دامس كالحبر بينما بقية العالم كانت تبدو مرئية تماماً مقارنة معها، ووجد حنفية ماء. تدفق الماء، ملأ حذاءه المتعثر، حلق طائر بشكل خفي ومفاجئ. شرب، مبللاً فمه الجاف بحرارة وعاد إلى موقعه. أصبح ساكناً ثانية، ومزقت الضفادع والحشرات نسيج الصمت برقة. وعندما تفتحت الورود الصغيرة الخالية من العبير تحت قطرات الندى تصاعد شذاها كما لو أنها هي أيضاً كانت تنمو ويتضاعف حجمها.

الحادية عشرة

أرسلت الساعة التي فوق المحكمة بوقار إحدى عشرة دقة ذهبية من الصوت بفترات زمنية محسوبة، وأعادت إلى النفوس في البلدة بأوجهها الأربع الجرداء، كأنها إله مؤرق. حملها الصمت بعيداً، الصمت والظلام الذي يجتاز على الشارع مثل حارس ليلي، اختطفت نتفاً من ضوء النوافذ، وأخفتها مثلما يخفي النشال مناديل يدوية. عبرت سيارة متأخرة بسرعة. الفتيات اللطيفات ينبغي أن يرجعن إلى البيت في الحادية عشرة. كان الشارع، البلدة، العالم فارغاً من أجله.

تمدد على ظهره وهو يحس بعضلاته المتراخية، أحس بظهره وفخذيه وساقيه بترف. أصبح المكان هادئاً إلى حد تجرأ بأن يدخن بالرغم من كونه كان حذراً ألا يكتشف عود الثقاب أحد. ثم تمدد ثانية، وتمطى، أحس بملمس الأرض الحنون من خلال ملامسه. بعد فترة قصيرة انتهت سيكارته وألقى بها بإصبعيه بحركة دائرية وانحنى على ركبتيه حتى تمكن من الوصول إلى كاحله، وأخذ يحك. حياة من نوع ما كانت أيضاً تدب على ظهره، أو تبادر إليه إحساس من هذا القبيل، الأمر سيان تلوى بظهره على الأرض وتوقف مصدر الإثارة.. لابد أنها الساعة الحادية عشرة والنصف الآن. انتظر لفترة قدرها بخمس دقائق، ثم حرك ساعته هنا وهناك، محاولاً معرفة الوقت. لكنها جعلته يتعذب فحسب، كان في وسعه البقاء هكذا إلى أية ساعة أو دقيقة يمكن أن تحددها.. لذلك فقد أشعل عود ثقاب آخر بحذر. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة وأربع عشرة دقيقة. سحقاً.

تمدد ثانية محتضناً رأسه بذراعيه المتشابكتين. من هذا الوضع أضحت السماء سطحاً مستوياً، مستوياً مثل غطاء صندوق موشى بمسامير نحاسية، بعد ذلك عندما كان يراقب استرد المكان عمقه ثانية، كان ذلك كما لو أنه يستلقي على قاع البحر، بينما كانت الطحالب البحرية التي تتكتل

بقتامـة ترفـع نحـو السـطح مـن دون أن يهزهـا أي تيـار، ومـن دون حتـى أن تتحرك؛ كما لو أنه استلقى على بطنه، محدقاً للأسفل نحو الماء الذي كان معلقـاً عليـه بـلا حـراك، رأسـه الملبـد بالأفـاعي، المتكتل بقتامـة، الحاديـة عشرة والنصف.

كـان قـد فقـد جسـده. لم يعـد بوسـعه الإحسـاس بـه أبـداً. كمـا لـو أن الرؤية غدت غير ذات جسد. تعلقت العـين في فضـاء قـاتم الزرقـة، عـين تخلـو من فكـرة، تنظر بلا تعجب إلى عـالم غريب حيث كـانت النجوم العابثة تعد وتصهل كأنها وحيدات قـرن في مـروج زرقـاء.. بعـد وهلـة، توقفت العـين عـن الرؤية، لم يكـن لديها أي شيء تتغلق بـه أو علـى نفسـها، واسـتفاق، تصـور أنه كـان يتعذب، أن ذراعيه تتحسقان وتتنزعان من جسده. حلم بأنه يصرخ، وعندما وجد أن تحريك ذراعيـه كـان يسـبب لـه ألمـاً مبرحـاً لا يعادلـه إلا ألم تركهما في مكانهما. تدحرج وهـو يتلـوى، وأخـذ يعـض علـى شـفتيه، شـبت النار في دمه، أصبح الألم محض نشوة مخدرة سرعان ما تلاشت تدريجياً. إلا أنه أحس بأنهما كانتـا ذراعـي شـخص آخـر، حتـى بعـد أن اختفـى الألم. لم يتمكنمن الخروج سـاعتها، كـان خائفـاً من أنه لن يقدر على تسلق السياج.

لكنـه حقـق هـذا الهـدف، عـرف أن الوقـت كـان منتصـف الليـل، لأن مصابيح الشوارع كانت قد أطفئت، وفي الشارع الذي كـاد أن يغدو مهجوراً من عابري السبيل تسلل خفية، أحس بالرغم من كل شيء أن لـيس ثمـة مـن يمكـن أن يراه، كـان أشـبه بـالمجرم أكثـر مـن أي وقـت آخـر، الآن بعـد أن أصبحت مغامرته وشيكة التنفيذ. استمر في المشي محاولاً أن يدعم شجاعته المعنوية، محاولاً ألا يبدو أشبه بزنجي متسلل خفية، لكـن رغمـاً عنه، بدا أن كل منزل معتم هادئ كان يحدق فيه، يراقبه بعيون جوفاء مظلمـة، يجعـل جلده يحككه بعد أن كان قد هدأ. لكن ماذا لو أنهم كانوا يرونه فعلاً؟ ما الـذي أفعلـه، ومـا لا ينبغـي لأحـد أن يفعلـه؟ أمشـي علـى شـارع مهجـور بعـد منتصف الليل. هذا كل شيء. لكن هذا لم يجعل شعره يتوقف عن الـوخز

عند مؤخرة عنقه.

تعثر في مشيته، لم يتوقف تماماً، بالقرب من جذع إحدى الأشجار، أحس بحركة ما، بقعة من الظلام أشد كثافة، عندها تبادر إلى ذهنه أن يعود أدراجه، ثم لعن نفسه كونه معتوهاً، سريع الهياج - افرض أنه كان شخصاً ما. كان لديه حق في الشارع يماثل ما للآخر فيه - وأكثر، لو كان الآخر يخفي نفسه. مشى بخطى متباعدة من دون أن يتوارى عن الأنظار، بل على العكس أحس بأنه كان صاحب حق تماماً. عندما اجتاز الشجرة عبرت بقعة الظلام الأشد كثافة مكانها ببطء. أياً كان ذاك فهو لا يرغب في أن يراه أحد. يبدو أن الشخص الآخر يخاف منه أكثر مما كان هو يخاف من الآخر لذلك فقد تابع المشي بجرأة. نظر إلى الوراء مرة أو مرتين، لكنه لم ير شيئاً.

كان المنزل مظلماً، لكنه عندما تذكر الشبح الذي خلف الشجرة، ومن أجل اتخاذ احتياطاته لأدنى احتمال، فقد اجتاز المنزل بثبات، بعد أن اجتاز صف من المنازل توقف، وقد توترت أذناه، لا شيء سوى أصوات الليل الهادئة الرتيبة، عبر الشارع وتوقف ثانية ليصغي إلى لا شيء. ضفادع وصراصير الليل. ذلك كل شيء. مشى على الشعب بالقرب من الرصيف، متسللاً كالظل نحو ركن مرج منزلها. تسلق السياج، انحنى في مشيته بحذر بجانب حاجز من الشجيرات إلى أن أصبح قبالة المنزل، عندها توقف ثانية. كان المنزل ساكناً، معتماً، كتلة ضخمة، ومريعة هاجعة، أسرع يعدو تحت ظلال الشجيرات إلى ظلال الشرفة نحو المكان الذي كانت فيه نافذة فرنسية الطراز تطل عليها. جلس في أحد المزاهر، وحنى ظهره على الجدار.

كان المزهر المستدير يملأ الظلام برائحة الأرض الطرية، شيء أليف وشخصي في خضم عالم من الأشكال المبهمة الهائلة من الظلام المتفاوت الكثافة. كان الليل والصمت مطبقين وعميقين، منطقة عديمة الشكل

مـلأى برائحـة الأرض الطريـة ودقـات السـاعة الرتيبـة في جيبـه. بعـد فـترة مـن الزمن، أحس بشيء من الطين الرقيق من خلال بنطلونه فوق فخذيه وجلس باطمئنان جسدي بطيء، توحد مع الأرض، بانتظار سماع صوت قادم من المنزل المظلم خلف ظهره. سمع صوتاً بعد وهلة لكنه كان قادماً من جهة الشارع. جلس ساكناً وهادئاً. مع اضطراب ذهنه، أحس بأمان أكثر هنا، حيث ليس لديه أي حق في أن يكون، إلا على الشارع الذي كان له فيه كل الحق. أصبح الصوت المقترب منه شكلين مبهمين. وعبر توبي والطباخ على المشى متجهين نحو مأواهما، متمتمين بخفوت مع بعضهما.. وسرعان ما عاد الليل ثانية إلى غموضه وضخامته وفراغه.

مرة ثانية أصبح متوحداً مع الأرض، مع الظلام والصمت، مع جسده نفسه.. مع جسدها، كأنه ماء فضي شحيح يتجزأ بعذوبة.. يتحول إلى أرض وأزهار ياقوتية على طول الشرفة، أجراس تتأرجح بلا صوت.. كيف يمكن للنهدين أن يكونا صغيرين بمثل صغر نهديك، ومع ذلك فهما نهدان.. البريق الباهت لعينيها من تحت جفون مسدلة، بريق أسنانها من تحت شفتيها، ذراعاها اللتان ترتفعان كجناحين جميلين في حلم.. شيء يشبه جسدها.

أخذ نفساً عميقاً وحبسه بداخله. تحرك شيء ما ببطء ومن دون ملامح مميزة عبر المرج باتجاهه، وقف منتصباً أمامه. تنفس ثانية، وحبس تنفسه أيضاً. تحرك ذلك الشيء وتقدم صوبه مباشرة وجلس بلا حراك إلى أن وصل الشيء تقريباً إلى المزهر الذي جلس فيه. ثم قفز على قدميه وقبل أن يتمكن الآخر من رفع يده هجم على المتطفل في سورة غضب صامت. تقبل الرجل المعركة وسقطا متشابكين، وهما يلهثان، من دون أن تصدر عنهما أية صيحة عالية. كانا قريبين من بعضهما الآخر، والظلام دامس، بحيث أنهما لم يتمكنا حتى من إلحاق الضرر بأحدهما الآخر، وكانا مصممين على القتال، غافلين عما يحيط بهما إلى أن أطلق جونز هسيساً فجأة من تحت إبط جورج فار:

ـ انتبه! أحدهم قادم!

توقفا في آن واحد وجلسا متشابكين مع بعضهما بعضاً كأنهما في الوضع الأول لرقصة تؤدى جلوساً. كان قد بدا لهما ضوء فجأة من نافذة منخفضة ونهضا معاً ورميا بنفسيهما نحو ظل الشرفة، غطس داخل المزهر عندما خرج السيد سوندرز من النافذة. احتكا على جدار القرميد، وتمددا في رغبة مشتركة للاختباء، سمعا وقع أقدام السيد سوندرز على الأرض فوق رأسيهما، حبسا أنفاسهما، وأغلقا عيونهما مثل نعامتين واقترب الرجل من حافة الشرفة، ووقف فوقهما مباشرة، نفض رماد سيكاره فوقهما وبصق على جسديهما المنبطحين.. بعد أن مرت سنوات، استدار وانصرف.

بعد فترة وجيزة أطلق جونز تنهيدة وحرر جورج فار جسده الملتوي انطفأ الضوء ثانية وعاد المنزل كتلة مربعة ضخمة، تغفو وسط الأشجار نهضا ومشيا خلسة عبر المرج وبعد أن ابتعدا عادت الضفادع وصراصير الليل إلى نغماتها الباردة الرتيبة.

ـ «ما الذي..» بدأ جورج فار بالكلام، حالما أصبحا على الشارع ثانية.

ـ «اخرس» قاطعه جونز «انتظر حتى نبتعد أكثر».

مشيا جنباً إلى جنب، كان جورج فار يغلي غضباً، وابتعد عن صاحبه مسافة رأى أنها ستكون آمنة، توقف بمواجهة الآخر.

ـ «ما الذي كنت تفعله هناك بحق الجحيم؟» انفجر يقول، كان وجه جونز ملطخاً بالوحل وقد تجعدت ياقته. كانت ربطة عنق جورج فار كأنها حبل المشنقة تحت أذنيه وأخذ يمسح وجهه بمنديله.

ـ «ما الذي كنت تفعله أنت هناك» قال جونز بالمقابل.

ـ «هذا ليس من شأنك أبداً» أجاب بحماس. «إني أسألك أنت، ما الذي كنت تقصده بحق الجحيم بالتسكع حول ذلك المنزل؟».

ـ ربما كانت هي التي طلبت مني ذلك. ما رأيك بهذا؟

ـ «إنك تكذب» قال جورج فار، وانقض عليه فجأة. تقاتلا ثانية وسط

الظلام، تحت ظلال مقوسة لأشجار الدردار. كان جونز أشبه بالدب، وأحس جورج فار بوطأة ضخامته المطوقة الرخوة، فأخذ يركل ساقي جونز من تحته. سقطا على الأرض، جونز أولاً، ثم استلقى جورج وهو يلهث، التقط أنفاسه بصعوبة، فيما كان جونز يمسك به من ظهره.

ـ «ما رأيك؟» سأل جونز، مفكراً في ساقه التي تؤلمه «هل نلت ما يكفي».

رداً على ذلك، حاول جورج فار جاهداً أن يزيحه عنه، لكن الآخر قيده إلى الأرض، ضارباً رأسه مرة تلوى الأخرى بالأرض الصلبة «هيا، هيا، لا تتصرف كالطفل، لأجل أي شيء تريد القتال؟».

ـ «تراجع عما قلته بشأنها إذن» قال وهو يلهث. ثم تمدد ساكناً ولعن جونز. لم يتحرك جونز. وقال ثانية:

ـ هل نلت ما يكفي؟ أتعطي وعداً؟

تقوس ظهر جورج فار، تلوى محاولاً عبثاً إبعاد جثة جونز السمينة المطوقة له، وأخيراًوعده في شيء من السخط بصوت يكاد يكون باكياً، ورفع جونز ثقله الرخو عنه. جلس جورج على الأرض.

ـ «من الأفضل لك أن تعود إلى البيت» قال له جونز موضحاً، ونهض واقفاً على قدميه «هيا، انهض» أمسك بذراع جورج وأخذ يجرها.

ـ اتركني أيها الوغد!

ـ « شيء مضحك أن ترى كيف تجري الأمور» علق جونز بفتور وأطلقه، نهض جورج ببطء على قدميه وتابع جونز يقول: «انصرف الآن. لقد تأخرت بما يكفي. تعاركت وفعلت كل شيء».

أعاد جورج فار ترتيب ملابسه وهو يلهث. تكوم جونز بشكله المبهم إلى جانبه «طابت ليلتك» قال جونز أخيراً.

ـ طابت ليلتك.

كان أحدهما يواجه الآخر وبعد فترة من الزمن قال جونز ثانية:

- قلت طابت ليلتك.

- لقد سمعتك.

- ما الأمر؟ ألا تذهب الآن؟

- تباً، كلا.

- «حسنٌ، إنني ذاهب» استدار إلى الوراء «أراك لاحقاً» تبعه جورج فار بإصرار. كان جونز بطيء الحركة وبديناً، عديم الملامح وسط الظلام، قال: «هل تقيم في هذه الناحية في الوقت الحاضر؟ لقد انتقلت مؤخراً أليس كذلك؟».

- «إنني أقيم حيث تقيم أنت الليلة» قال له جورج بعناد.

- أشكرك جداً. لكن عندي سرير واحد فقط ولست أحب النوم بجوار شخص آخر. لذا فلا يمكنني أن أدعوك لتأتي معي. ربما في وقت آخر.

مشيا ببطء تحت أشجار داكنة، في مودة زائفة عنيدة. دقت ساعة المحكمة معلنة الواحدة وتلاشى صدى الرنين بعيداً في العتمة. بعد قليل توقف جونز ثانية. «حسنٌ، لماذا تتبعني؟».

- إنها لم تطلب منك المجيء إلى هناك الليلة.

- كيف لك أن تعرف. إذا كانت قد طلبت منك ذلك، فهي ستطلب ذلك أيضاً من شخص آخر.

- «اسمع» قال جورج فار، «إن لم تتركها وشأنها، سوف أقتلك أقسم بأني سأفعل ذلك».

- «مرحى» تمتم جونز. «يحيا قيصر.. لماذا لا تقل ذلك لأبيها؟ ربما كان سيسمح لك بنصب خيمة على المرج لكي تحرسها، والآن اذهب واتركني، هل تسمع؟» تسمر جورج في مكانه بعناد «تريد أن أضربك من جديد؟» قال جونز متحدياً.

«حاول ذلك» همس جورج بانفعال متجمد. قال جونز:

- حسنٌ، لقد أضعنا هذه الليلة معاً، على أية حال الوقت صار متأخراً

جداً، والآن..

ـ سوف أقتلك! إنها لم تطلب منك المجيء أبداً. لقد تبعتني فحسب، رأيتك تختبئ خلف تلك الشجرة. اتركها وشأنها. أتسمع؟

ـ بحق السماء، أيها الرجل! ألا ترى أن كل ما أريده الآن هو النوم؟ دعنا نذهب إلى البيت، بحق السماء.

ـ أتقسم أنك ستذهب إلى البيت.

ـ نعم، نعم. أقسم. طابت ليلتك.

راقب جورج فار شبح الرجل الآخر العديم الملامح وهو يبتعد، وسرعان ما أصبح ظلاً أشد كثافة وسط الظلال الأخرى. ثم قفل راجعاً إلى البيت أيضاً في غضب هادئ وإحباط ورغبة مريرة. ذلك المعتوه المتخبط قد تدخل في الأمر هذه المرة أيضاً. ربما سيتدخل في كل مرة أو ربما ستغير رأيها، ربما، لأنه قد خذلها الليلة.. حتى القدر يبدو أنه يغبطه على هذه السعادة، هذه السعادة التي لا يستطيع احتمالها، فكر والمرارة تملأ نفسه. تحت أشجار تقوس صفحة السماء الساكنة، كان الربيع قد فقد طوقه الواهن.. جسدها، وكأنه بركة مياه ضحلة، بعذوبة.. تصورت أني قد فقدتك، ثم وجدتك ثانية، والآن هو... توقف وقد داهمته فكرة ما بإلحاح شديد، حدس من نوع ما، استدار وأسرع عائداً أدراجه.

وقف بالقرب من إحدى الأشجار عند زاوية من زوايا المرج وبعد فترة وجيزة رأى شيئاً غامضاً يتحرك ببطء عبر العشب الباهت، بمحاذاة حاجز من الشجيرات. مشى بخطوات واسعة وشجاعة فرآه الآخر وتوقف، ثم انتصب الآخر واقترب بجرأة مستعداً لملاقاته. انضم إليه جونز وتمتم، «أوه سحقاً» ووقفا باكتئاب جامدين في مكانهما، جنباً إلى جنب.

ـ «حسنٌ؟» قال جورج فار أخيراً بنبرة متحدية.

جلس جونز بتثاقل على المشى الجانبي «لندخن قليلاً» قال مقترحاً. بتلك النبرة المتجردة التي يستعملها الناس الذين يجلسون ماهرين مع جثث

الموتى.

جلس جورج فار بجانبه وقرب جونز عود ثقاب من سيكارته، ثم أشعل سيكاره هو. تنهد مضيباً رأسه بدخانٍ تبغ لاذع غير مرئي. وتنهد جورج فار أيضاً، ثم أسند ظهره إلى إحدى الأشجار. سبحت النجوم في السماء كأنها أضواء في أعالي الصواري لأساطيل وأساطيل تمخر عباب نهر قاتم اللون، تواصل سيرها باستمرار. ظلام وصمت وعالم يتقلب في الظلام ويتحول إلى يوم آخر.. كان لحاء الشجرة خشناً. والأرض صلبة. تمنى بصورة مبهمة لو أنه كان بديناً مثل جونز، مؤقتاً..

.. بعد ذلك أفاق من سباته، كان الفجر قد أوشك على الانغلاق. لم يعد يحس بالأرض ولا الشجرة إلا عندما تحرك. بدا له أن فخذيه قد أصبحتا مسطحتين مثل سطح منضدة وإن ظهره قد تشكلت فيه انخفاضات دخلت فيها نتوءات الشجرة كأنها مسننات متشابكة في العجلات.

كان ثمة شيء من الضوء يتسلل من ناحية الشرق، من مكان ما وراء منزلها والغرفة التي تستلقي فيها وهي تنعم بالمودة الرقيقة الحميمة للنوم، كأنها بوق ينفخ فيه بصوت خافت؛ وسرعان ما عاد المنظر إلى عالم غامض اللمسات، وبدلاً من أن يكون ظلاً هائلاً مثيراً للاستغراب ما بين ظلال أصغر حجماً، كان جونز يبدو مجرد رجل بدين يرتدي قماشاً صوفياً فضفاضاً، شاحباً وحزيناً ينام على ظهره ويصدر شخيراً.

أفاق جورج فار وراه هكذا، رآه ملطخاً بالتراب وقطرات من الندى تتوهج على وجهه. كان جورج فار، ممرغاً بالتراب وكانت ربطة عنقه كأنها عقدة مشنقة تحت إذنه. عبرت عجلة العالم متباطئة خلال ساعات العتمة، بنقطة المركز الميتة واكتسبت زخماً أكثر. بعد فترة وجيزة فتح جونز عينيه وأخذ يئن. نهض بصعوبة، أخذ يتمطى ويبصق ويتثاءب.

ـ «أتصور أن الوقت قد حان للانصراف» قال، تذوق جورج فار طعم التراب الغيض في فمه، تحرك وهو يتحسس آلام طفيفة كانت كأنها نمل

صغير أحمر يتحرك مسرعاً فوق جسده. نهض هو أيضاً ووقفا جنباً إلى جنب، وتثاءبا من جديد.

استدار جونز بجسده البدين وهو يعرج قليلاً.

- «طابت ليلتك» قال.

- طابت ليلتك.

ازدادت الصفرة من ناحية المشرق، ثم تحولت إلى لون أحمر، وكان النهار قد أشرق بالفعل على العالم، قاطعاً على العصافير هجوعها.

(٤)

لكن سيسلي سوندرز لم تنم ليلتها. كانت تستلقي على ظهرها في سريرها، في غرفتها المظلمة، وقد سمعت هي أيضاً أصوات الليل المكتومة، وشمت روائح الربيع الفواحة، وأحست بحركة الأشياء في العتمة المتنامية، الأرض، تراقب حركة عجلة العالم، السكون الفظيع، حتمية الحياة، وهي تتحول خلال ساعات الظلام، تجتاز نقطة مركزها الميتة وتدور أسرع فأسرع، تسحب مياه الفجر إلى الأعالي من أحواض الشرق الراكدة، تقطع على العصافير هجوعها.

(٥)

«هل تسمحين لي برؤيته» قالت بتوسل هستيري «أتسمحين لي، أوه. أتسمحين لي؟».

قالت السيدة باورز وهي تنظر إلى وجهها: «حقاً، يا صغيرتي ما الأمر؟ ما الأمر يا حبيبتي؟».

- لوحدنا، لوحدنا. أرجوك أتسمحين لي؟ أتسمحين لي؟

- طبعاً، ما..

- «أشكرك، أشكرك» أسرعت تعدو على أرض الصالة واجتازت غرفة القراءة كأنها طير محلق.

- دونالد، دونالد! إنها سيسلي، يا حبيبي. سيسلي ألا تعرف سيسلي؟

- «سيسلي» كرر الكلمة بفتور. ثم أوقفت فمه عن الكلام بفمها وقد ألصقته به.

- سأتزوجك، سأفعل ذلك، سأفعل ذلك. دونالد، انظر إلي لكنك لا تستطيع، لا تستطيع أن تراني، أيمكنك ذلك؟ لكني سأتزوجك اليوم، في أي وقت، سيسلي ستتزوجك، يا دونالد، أنت لا تستطيع أن تراني، أيمكنك ذلك، يا دونالد؟ سيسلي، سيسلي.

- «سيسلي؟» قال ثانية.

ـ أوه، وجهك البائس، البائس، وجهك الأعمى، الجريح! لكني سأتزوجك، إنهم يقولون بأني لن أفعل هذا، بأني لا ينبغي أن أتزوجك، لكن نعم، نعم، دونالد هو حبي الغالي!

تبعتها السيدة باورز، وأنهضتها على قدميها، رفعت ذراعيها عنه «ربما تؤذينه، كما تعلمين» قالت.



الفصل السابع



(١)

- جو.

- ما الذي تريده، أيها الملازم؟

- سوف أتزوج، يا جو.

- «طبعاً ستتزوج، أيها الملازم في يوم ما...» ربَت على صدره.

- ما هذا، يا جو؟

- أقول، حظاً سعيداً. لديك فتاة لطيفة.

- سيسلي.. جو؟

- مرحى.

- سوف تعتاد على وجهي.

- أنت محق تماماً. إن وجهك على ما يرام. لكن على مهلك، لا تسقطها. أنت فتى طيب» كان الآخر قد أنزل يده المرتبكة.

- لماذا يجب أن أبقيها على وجهي، يا جو؟ يمكنني أن أتزوج أيضاً من دونها، أليس كذلك؟

- «ليلعنني الله لو كنت أعرف لماذا يجعلونك تضعها على وجهك. سوف أسأل مارغريت، مهلاً، أعطها لي» قال وهو يرفع النظارات فجأة «إنه شيء مخجل جداً أن يجعلوك تضعها على وجهك، ما رأيك؟ أليس هذا أفضل؟».

- استمر، جو

(٢)

سان فرانسيسكو كاليفورنيا

٢٤ نيسان ١٩١٩

عزيزتي مارغريت

لقد افتقدتك كثيراً، لو أنه بإمكاننا فقد أن نرى بعضنا ونتحدث معاً. إنني أجلس في غرفتي وأفكر بأنك المرأة الوحيدة التي تناسبني الفتيات لسن مثلك إنهن صغيرات وغبيات ولا يمكن الوثوق بهن أتمنى لو أنك تفكر بي وحدث مثلما أفعل أنا فقط لكي، أعرف أنك حبيبتي. عندما قبلتك ذلك اليوم كنت أعرف أنك المرأة الوحيدة لي يا مارغريت. لا يمكن الوثوق بهن. لقد قلت لها إنه يلهو معها فحسب فهو لن يحصل لها على عمل في السينما. لذا فأنا أجلس في غرفتي وفي الخارج تستمر الحياة على الوتيرة نفسها بالرغم من أننا بعيدان وتفصل بيننا آلاف الأميال فإني أشتاق لرؤيتك كثيراً، وأفكر كيف سنكون سعيدين. لم أخبر أمي بعد لأننا كنا ننتظر وأعتقد يجب أن نقول إذا كنت ترين ذلك. وهي سوف تدعوك للمجيء إلى هنا ويمكننا أن نبقى معاً طول النهار نركب الخيل ونسبح ونرقص ونتحدث مع بعضنا البعض. إذا ما استطعت ترتيب بعض الأعمال فسوف آتي إليك حالما أستطيع. إنه شيء بمنتهى القسوة ألا أراك، أفتقدك وأحبك كثيراً جداً.

(٣)

كان المطر قد هطل في الليلة الماضية لكن هذا الصباح كان رقيقاً كالنسيم. الطيور تعبر المرج بقطعٍ مكافئٍ من شجرة إلى شجرة كأنها تهزأ منه وهو يمضي متمسكاً بإهمال في ملابسه الصوفية المهملة غير المكوية. وكانت هناك شجرة بالقرب من ركن الشرفة، أوراقها دائمة البياض وهي ترتفع مثل كف على الأعلى، كأنها حجاب فضي منتصف يلف باستمرار نافورة هامدة إلى الأبد؛ مياه منحوتة رأى تلك المرأة السوداء في الحديقة وسط الورود، تنفث الدخان عليها من فمها المزموم، تنحني عليها وتتنشق. سمعت وقع قدميه على الحصى، ونظرت من فوق كتفها من دون اندهاش. توازنت سيكارتها المتراقصة على طرف فمها كأنها ريشة ضبابية مرتعشة، وقال جونز:

ـ جئت لكي أبكي معك.

واجهت نظرته المحدقة، لم تقل شيئاً، كانت اليد الأخرى شاحبة فوق فسيسفاء صلبة حمراء وخضراء، امتص سكونها التام كل حركة من الأشياء المحيطة بها مباشرة بحيث أن ريشة سيكارتها أصبحت صلبة مثل قلم الرصاص، يندفع مع طرفها نحو العدم.

ـ «أقصد حظك العاثر، وأنت تفقدين مرادك» قال موضحاً، رفعت سيكارتها ونفثت الدخان. تمشى هنا وهناك واقترب، كانت سترته الثمينة، التي يبدو أنها لم تلق أية عناية منذ أن اشتراها تتدلى بارتخاء أمام اندفاع يديه الثقيلتين، تؤطر فخذيه. كانت عيناه جريئتين وكسولتين، صافيتين كعيني عنزة. كونت عنه في ذهنها انطباعاً، ذكاء القرود المتطفل على فساد طبع متأصل، القطة التي تمشي بالقرب منه.

- «من هم أهلك، سيد جونز؟» سألت بعد فترة وجيزة.

- إنني الأخ الصغير للعالم. ربما كان هناك رتاج مشؤوم في شعاري رغماً عني، فإن شهوتي الجنسية تشكل عقدة فيما يتعلق بآداب السلوك.

«ما معنى ذلك؟» تساءلت، «ما هو شعار نبالتك إذن؟».

- رزمة، صحيفة ملفوفة (مضطجع) و(هائج)، هجر عتبة الباب، على مساحة (سواء) و(باردة) لعينة الصورة.

- «أوه، لقيط» دخنت ثانية.

- أعتقد أن ذلك هو الاسم المتعارف عليه. من المؤسف جداً أننا متعاصرون، ربما كنتِ ستواجهين الشيء نفسه بنفسك، ما كنت لأتخلى عنك.

- تتخلى عني؟

- لا يمكنك أبداً أن تعرفي على وجه التحديد مدى الموت الكامن في هؤلاء الجنود، أيمكنك ذلك؟ أنت تعتقدين بأنك حصلت عليه ثم يكشف الشيطان عن حماقة بالغة كأنها تصدر من شخص عاقل عادي.

نفضت بمهارة الرماد عن طرف سيكارتها ونفرت العقب في قوس متلألئ أبيض، وسحقت الرماد تحت أصابع قدميها.

«إذا كان ذلك إطراء ضمني...»

- المغفلون وحدهم يضمنون الإطراءات. الإنسان الحكيم يقولها بصراحة مباشرة. يضمن النقد... إلا إذا كان الشخص المنتقد لا يقع ضمن مدى قدرة الإذن على السماع.

- يبدو لي أنه مشكوك فيه جداً. بالنسبة إلى، شخص.. إذا سمحت لي.. ليس من النوع المستعد للقتال.

- المستعد للقتال؟

- حسنٌ، الرجل المقاتل إذن، لا أستطيع أن أتخيل أنك تصمد طويلاً في مواجهة مع.. لنقل السيد جيليجان.

- ألا يتضمن ذلك أنك قد اعتبرت السيد جيليجان - مدافعاً؟

- ليس أكثر مما يتضمن هذا أنني أتوقع الإطراءات منك مع كل ذكائك، يبدو أنك لا تتمتع بالبراعة في التصرف مع النساء.

كان جونز شارد الذهن يفكر، بمكر لا يسبر غوره، حدق في فمها «على سبيل المثال؟».

- «على سبيل المثال، الآنسة سوندرز» قالت بمكر «يبدو أنك قد تركتها تهرب منك، أليس كذلك؟».

- «الآنسة سوندرز» قال جونز ثانية، متظاهراً بالدهشة، معجباً بالطريقة التي كانت قد أدارت بها الحديث عليه من دون أن تعود إلى الجنس، «سيدتي العزيزة، هل يمكنك أن تتخيلي شخصاً ما يمارس الحب معها؟ خنثوية. بالطبع الأمر يختلف مع رجل ميت عملياً» أضاف: «ربما لا يبالي كثيراً بمن سيتزوجها، ولا ما إذا كان سيتزوج أم لا أيضاً».

- كلا؟ أفهم من تصرفاتك في اليوم الذي وصلت فيه أنك قد وضعت عينك عليها. لكن ربما كنت مخطئة على كل حال».

- صحيح إني كنت، يبدو أننا أنا وأنت نواجه نفس الورطة الآن، أليس كذلك؟

قرصت على ساق وردة، وشعرت بأنه قريب منها تماماً، بدون أن تنظر إليه قالت:

- لقد نسيت ما قلته لك الآن، أليس كذلك؟

لم يرد، قطفت وردتها وتحركت بعيداً عنه قليلاً «ليس لديك البراعة في الإغواء. ألا تعرف أنه بإمكاني فهم ما الذي ترمي إليه.. إننا ينبغي أن يواسي أحدنا الآخر؟ ذلك شيء سخيف جداً، حتى بالنسبة إليك. كنت مضطرة للعبث بالكثير من العلاقات الجنسية مع أولاد مساكين، كنت أحترمهم، حتى وأنني لم أكن أحبهم». كانت الوردة بقعة حمراء على مقدمة ثوبها القاتم. ثبتتها بدبوس. «دعني أسدِ لك نصيحة ما» تابعت بحدة «في المرة القادمة التي تحاول فيها إغواء امرأة ما، لا تفعل ذلك بالكلام، بالكلمات. النساء يعرفن عن الكلمات أكثر مما يمكن أن يعرفه الرجال.

وهن عرفن كيف يمكن أن تعني الكلمات القليل من المعاني».

حول جونز نظرته الماكرة. كانت حركته التالية أنثوية تماماً؛ استدار ومشى بتكاسل بعيداً عنها من دون كلمة، لأنه كان قد رأى إيمي خلف الحديقة تعلق ملابس مغسولة على حبل تبعته نظرة السيدة باورز جسمه المترهل وهي تقول أوه. كانت منذ قليل قد لاحظت إيمي وهي تعلق الثياب على حبل بإيماءات متكلفة كأنها تضع قناعاً إغريقياً.

تفحصت جونز وهو يقترب من إيمي، رأت أن إيمي عندما سمعت وقع خطواته تمسك بتوازن ثوباً نصف معلق في إيماءة شكلية مكتومة، وتدير رأسها فوق جسدها المرتد إلى الوراء. اللعنة على ذلك الوحش، فكرت السيدة باورز، متسائلة إن كانت ستتبعه وتتدخل أم لا. لكن أي نفع سيجديه ذلك؟ إنه سيعود ثانية فحسب في وقت آخر. ويلعب دور سير بيروس(*) على إيمي.. رفعت نظرها ورأت جيليجان يقتر. قال بلا تفكير:

- اللعنة على تلك الفتاة، هل تعرفين بماذا أفكر؟ أعتقد أنها..

- أية فتاة؟

- ما هو اسمها، سوندرز. أعتقد أنها خائفة من شيء ما. إنها تتصرف كما لو أنها قد أوقعت نفسها في ورطة من نوع ما وتحاول الخروج منها بأن تلجأ إلى الملازم بسرعة، إنها خائفة، تتخبط هنا وهناك كالسمكة.

- لماذا لا تحبها يا جو؟ إنك لا تريدها أن تتزوج منه.

- «كلا، ليس الأمر هكذا، إنه شيء يغيظني فقط أن أراها تغير رأيها كل عشرين دقيقة». قدم لها سيكارة ورفعتها وأشعل لنفسه واحدة إنني غيور كما أتصور» قال، وبعدفترة «عندما أرى الملازم يتزوج بها ولا أحد منهما يريد ذلك على الخصوص، بينما أنا لا أستطيع أن أحظى بفتاتي أبداً..».

- ماذا، جو؟ أنت تتزوج؟

نظر إليها بثبات «لا تتكلمي هكذا، إنك تعرفين ما أقصده».

(*) كلب ذو ثلاثة رؤوس زعمت الميثولوجيا الكلاسيكية أنه يحرس باب الجحيم.

ـ «أوه، رباه، مرتان في ساعة واحدة» كانت نظراته ثابتة، جادة بحيث أنها أبعدت نظرها بسرعة.

ـ «ما هذا؟» سألت انتزعت الوردة من ثوبها ودستها في طية صدر سترته.

ـ جو، لماذا يتسكع هذا الوحش هنا؟

ـ «من؟ أي وحش؟» تتبع عينيها «أوه، ذلك الشخص اللعين سوف أنال منه يوماً ما حسب الأصول، إنني لا أحبه».

ـ ولا أنا أتمنى أن أكون موجودة لأراك تفعل ذلك.

ـ «هل كان يضايقك؟» سأل بسرعة رمقته بنظرتها الثابتة.

ـ هل تعتقد أنه يستطيع فعل ذلك؟

ـ «ذلك صحيح» قال معترفاً. نظر إلى جونز وإيمي ثانية «ذلك شيء آخر، تلك الفتاة من عائلة سوندرز تسمح له بملاحقتها. لست أحب أي أحد يمكن أن يؤازره».

ـ لا تكن سخيفاً، جو، إنها شابة فحسب، وساذجة على نحو أو آخر فيما يتعلق بالرجال.

ـ «إذا كانت تلك هي الطريقة المهذبة التي تنظرين بها على الآخر، فإنني أتفق معك» لامست عيناه خدها الناعم الذي يزخرف على جناحي شعرها الذي يكتنفه الظلام. «إذا كنت قد سمحت لرجل بأن يتصور بأنك سوف تتزوجين منه فما كنت لتصبحي متقلبة المزاج هكذا».

نظرت بعيداً نحو الحديقة وقال ثانية: «أليس كذلك، يا مارغريت؟».

ـ «إنك مغفل، يا جو، لكنك مغفل لطيف» واجهت نظرته المحدقة بتصميم وقال مارغريت؟ وضعت يدها القوية السريعة على ذراعة. «لا تفعل ذلك يا جو، أرجوك».

دس يديه في جيوبه، واستدار لينصرف، مشيا معاً بصمت.

(٤)

الربيع، كأنه نسيم عليل، كان يتخلل أهداب شعر الكاهن وهو يمشي بتثاقل مرفوع الرأس على الشرفة مثل حصان حرب عجوز يسمع ثانية أصوات طبول الحرب بعد أن كان منذ أمد طويل قد تصور أن كل الحروب قد وضعت أوزارها. الطيور في السماء تجتاز المرج، بقطع مكافئ من شجرة إلى أخرى، ثمة شجرة عند ركن المنزل تدير إلى الأعلى أوراقها البيضاء البواطن في اندفاع عاطفي مكتوم، واجهت هي والكاهن بعضهما الآخر في نشوة.

جاء صديق يمشي بكآبة على طول الممر من باب المطبخ.

- «صباح الخير، سيد جونز» هدر صوت الكاهن، مبعثراً العصافير في الكرمة المعترشة. استمدت الشجرة من صوته نشوة غير محتملة أكثر من السابق، دارت أوراقها البراقة في اندفاع مقيد أبداً باتجاه السماء.

أجاب جونز الذي كان يتفحص يده بعناية في غصن بطيء تكتنفه البدانة، ارتقى الدرجات وغمره الكاهن بنظراته المليئة بالحماس النابع من القلب.

- جئت لكي تهنئنا على الأخبار السارة، ها ؟ طيب، يا بني، طيب طيب. نعم، كل شيء قد ترتب أخيراً، ادخل، ادخل.

تخبطت إيمي في مشيتها إلى الشرفة في سورة اهتياج وغضب. «أيها العم جو» قالت ورمت جونز بنظرة متهللة، حملق فيها جونز بانشداه وهو ما يزال يتأمل يده (عليك اللعنة، سوف تدفعين ثمن هذا).

- ها؟ ما الأمر، يا إيمي؟

- السيد سوندرز على الهاتف؛ إنه يريد أن يعرف ما إذا كنت ستراه هذا الصباح. (لقد أثبتت لك! علمتُكَ ما معنى أن تلعب معي).

- آه، نعم. السيد سوندرز سيأتي لكي يناقش خطط الزواج، يا سيد

جونز.

- نعم، يا سيدي (سأعالجك).

- ما سأقوله له؟ (افعلها إن كنت تتصور إنك قادر على ذلك. إنك لم تنجح أبداً بصورة جيدة لحد الآن. أيتها الوردة السمينة).

- قولي له، على الرحب والسعة، إنني كنت أنوي زيارته بنفسي. نعم، في الواقع. آه، يا سيد جونز، إننا جميعاً نستحق التهاني في هذا الصباح.

- نعم، يا سيد (أيتها العاهرة الصغيرة).

- قولي له. على الرحب والسعة، يا إيمي.

- حسنٌ (قلت لك أني سأفعلها! قلت لك أنك لا تستطيع أن تلعب عليّ، أليس كذلك. الآن؟)

- وبالمناسبة، إيمي، السيد جونز سيشاركنا على الغداء، أننا نقيم احتفالاً، إيه، سيد جونز؟

- بلا شك. جميعنا لدينا شيء نحتفل به (ذلك هو ما يثير جنونه إلى هذا الحد اللعين، أنت قلت بأنك ستفعلين ذلك وأنا سمحت لك أن توصدي باباً على يدي بقوة! عليك اللعنة).

- حسنٌ. يمكنه البقاء إذا أراد ذلك (عليك اللعنة) رشقته إيمي بنظرة متهللة أخرى وأوصدت الباب كقذيفة أخيرة.

مشى الكاهن بتثاقل؛ يمرح كأنه طفل «آه، يا سيد جونز، أن يكون المرء في مثل شبابه، أن ترى حياتك مرسومة أمامك، تتحرك هنا وهناك مع تردد مثل هذه الكائنات المبهجة. النساء، النساء! يا له من شيء ساحر لا يعرف أبداً بالضبط ما الذي تريده منهن! بينما نحن الرجال نكون دائماً متأكدين أن نعرف، بلادة، بلادة، سيد جونز. ربما هذا هو السبب في أننا نحبهن، إلا أننا لا نستطيع أن نتحمل أشياء كثيرة منهن. ما رأيك؟»

كان جونز صامتاً مكتئباً. يتفحص يده وقال بعد فترة وجيزة: «لا أعرف. لكن يبدو لي أن ابنك كان محظوظاً بصورة غير عادية مع نسائه».

- «نعم؟» قال الكاهن باهتمام «كيف ذلك؟».

- حسنٌ، (أعتقد أنك أخبرتني بأنه كان ذات مرة مرتبطاً بعلاقة مع

إيمي؟) حسنٌ، إنه لم يعد يتذكر إيمي (اللعنة على روحها، تصفق الباب في وجهي) والآن هو على وشك الارتباط مع امرأة أخرى والتي لن يكون عليه حتى النظر إليها. ما الذي يمكن أن يريده الإنسان» أكثر من هذا؟

نظر إليه الكاهن بحدة وإشفاق للحظة «لقد عادت إليك العديد من صفات شبابك، سيد جونز».

- «ماذا تقصد؟» سأل جونز، بتحدٍ ودفاع. اقتربت سيارة من البوابة، وبعد أن نزل السيد سوندرز انصرفت.

- «واحدة على وجه التحديد! تلك التي تتعلق بكونك قاسياً إلى حد غير ضروري بشأن أمور تافهة تماماً. آه» أضاف وهو ينظر للأعلى، «ها هو ذا السيد سوندرز، أتسمح لي، رجاء؟ ربما ستجد السيدة باورز والسيد جيليجان في الحديقة».

قال، من فوق كتفه، وذهب للترحيب بزائره.

رآهما جونز بعين حقده الانتقامي يتصافحان. تجاهلاه، وأخذ يمشي بتكاسل أثيم ماراً بهما باحثاً عن غليونه. تملص منه غليونه ولعنه ببطء، ضارباً على جيوبه المختلفة.

- «كنت أنوي زيارتك اليوم» أمسك الكاهن زائره بمودة من مرفقه. «ادخل، ادخل».

ترك السيد سوندرز نفسه يدفع عبر الشرفة. تمتم برد تقليدي وقاده الكاهن بحفاوة تحت النافذة المروحية، عبر الصالة المظلمة، صوب غرفة القراءة، من دون أن ينتبه إلى ملامح الزائر التي نمت عن تحفظ مشوب بالانزعاج. قدم كرسياً للضيف واتخذَ مقعده إلى المكتب. من خلال النافذة كان في وسعه أن يرى جزءاً ضئيلاً من الشجرة التي، من دون أن يراها وإنما تخيلها، كانت تندفع إلى الأعلى بحركة مدومة في نشوة تجيش بها أوراقها المكبلة الفضية الباطن.

أصدر الكرسي الدوار الذي يجلس عليه الكاهن صرير اعتراض واهن، «آه، نعم، إنك تدخن السيكار، كما أتذكر. علبة الثقاب موجودة بالقرب من مرفقك».

أدار السيد سوندرز سيكاره ببطء بين أصابعه. وأخيراً قرر أن يشعله.

- «حسنٌ، لقد انتزع الشباب الأمور من بين أيدينا، هاه؟»

تكلم الكاهن في قصبة غليونه «بإمكاني القول الآن بأنني طالما تمنيت ذلك، وبصراحة، لقد توقعت ذلك. بالرغم من أني ما كنت لأصر عليه، وأنا على علم. بحالة دونالد. لكن عندما ترغب سيسلي نفسها بذلك..»

- «نعم، نعم» قال السيد سوندرز موافقاً، ببطء. لم يلاحظ الكاهن هذا.

- أنت، كما أعلم، كنت مؤيداً قوياً لهذا الأمر طول الوقت، لقد نقلت لي السيدة باورز مناقشتك.

- نعم، ذلك صحيح.

- «وهل تعلم، أتمنى لهذا الزواج أن يكون أفضل من مجرد علاج له، إنها ليست فكرتي أنا» وأضاف في توضيح سريع. «بصراحة كان يساورني الشك لكن السيدة باورز وجو - السيد جيليجان - طرحا ذلك في البداية، والجراح الذي جاء من أتلانتا أقنعنا جميعاً. لقد أكد لنا أن سيسلي يمكنها أن تفعل له شيئاً يماثل إن لم يكن يفوق ما يفعله أي شخص. هذه كانت كلماته بالضبط، إذا كنت أتذكر بصورة صحيحة. والآن. فما دامت ترغب بذلك كثيراً، وما دمت أنت وأمها تساندانها.. هل تعرف» ربت زائره فجأة على كتفه، «هل تعرف، لو أنني كنت رجلاً يمارس الرهان فإنني سأراهن على أننا لن نعرف الفتى في غضون سنة!».

كان السيد سوندرز يعاني من مشكلة في إشعال سيكاره على نحو سليم. عض طرف السيكار بعنف، ولوى رأسه بعيداً عن الدخان الذي نفثه: «يبدو أن السيدة سوندرز مايزال لديها بعض الشكوك» نفخ الدخان بعيداً ورأى أن وجه الكاهن الضخم قد غدا رمادياً وهادئاً». «ليست اعتراضات بالضبط، تفهم» أضاف على عجل معتذراً. اللعنة على المرأة، لماذا لم تأتِ بنفسها بدلاً من إرساله؟

ند عن الكاهن صوت قرقعة. «هذا شيء. لم أكن أتوقع هذا».

- «أوه، أنا واثق من أننا نستطيع إقناعها، أنا وأنت، خاصة مع وجود سيس إلى جانبنا» كان قد نسي وساوسه، نسي أنه لم يكن يرغب في أن

تتزوج ابنته من أي شخص.

ـ «هذا شيء سيء» قال الكاهن ثانية بيأس.

ـ «إنها لم ترفض» قال السيد سوندرز على عجل «إنها فقط غير مقتنعة بحصافة هذا الأمر، فيما يتعلق بدو.. سيسلي.. لشباب سيسلي كما تعرف» أنهى كلامه بشهيق. «على العكس من ذلك، في الواقع، لقد ذكرت هذا فقط لكي يكون بيننا تفاهم واضح، ألا تعتقد أن من الأفضل أن تعرف جميع الحقائق؟».

ـ «بلى، بلى» كان الكاهن يعاني من مشكلة مع تبغه. وضع غليونه جانباً، وضعه بعيداً. نهض ومشى بتثاقل على الممر التالف في السجادة.

ـ «أنا آسف» قال السيد سوندرز.

(كان هذا دونالد، ولدي. إنه ميت)

ـ «لكن مهلاَ، مهلاً. إننا نعمل جبلاً من كومة تراب» هتف الكاهن أخيراً من دون اقتناع: «مثلما تقول إذا كانت الفتاة تريد الزواج من دونالد فأنا واثق أن أمها لن ترفض، ما رأيك؟ هل نذهب لها؟ ربما هي لا تفهم الموقف، إن.. إنهما يفكران ببعضهما كثيراً. إنها لم تر دونالد منذ أن رجع، وأنت تعرف كيف تنتشر الإشاعات..» (كان هذا دونالد، ولدي إنه ميت)

توقف عن الكلام بجلال وإبهام بثوبه الأسود غير الرسمي، ونظر إلى الآخر بإشفاق. نهض السيد سوندرز من كرسيه، وأمسك الكاهن بذراعه، كأنه يخشى أن يهرب منه.

ـ «نعم، ذلك أفضل. سوف نراها معاً ونتحدث بالأمر على نحو قبل أن نتوصل إلى قرار محدد. نعم، نعم» قال الكاهن ثانية مطارداً ومستحثاً قناعته المحبطة «بعد ظهر هذا اليوم إذن؟».

ـ «بعد ظهر هذا اليوم» وافق السيد سوندرز.

ـ نعم، هذا هو الإطراء المناسب الذي ينبغي أن نقوم به، إنني واثق أنها لا تفهم. إنك لا تعتقد بأنها تفهم تماماً؟» (كان هذا دونالد، ولدي إنه ميت).

ـ «بلى، بلى» قال السيد سوندرز موافقاً له بدوره، وجه جونز غليونه أخيراً وأخذ يملئه ويشعله وهو ما يزال يتفحص يده المليئة بالخدوش.

كانت لتوها قد التقت بالسيدة وورثفتون في أحد المتاجر وكانتا قد ناقشتا المسألة. ثم قالت السيدة وورثفتون وداعاً وتهادت في مشيتها ببطء نحو سيارتها. ساعدها السائق الزنجي في الصعود بتجرد كفؤ وأغلق الباب.

إنني أنشط منها ، فكرت السيدة برني بجذل وهي تراقب الحركة الأخيرة التي كانت تعاني من النقرس، بالرغم من كونها غنية ولديها سيارة، أضافت وهي تشعر بأنها أفضل حالاً بخبث، وتكتم آلام عظامها، وتمشي بخفة أكثر من المرأة الغنية. بالرغم من أنها تمتلك المال. وهنا اقتربت تلك المرأة الغريبة التي تقيم في منزل بارسون ماهون، تلك التي جاءت إلى هنا معه وذلك الرجل الآخر، وتركت الناس يتحدثون عنها فوراً. تلك التي كان الجميع يتوقعون أن تتزوج منه والتي قد تخلى عنها من أجل تلك الفتاة من عائلة سوندرز التي تطارد الشباب.

- «حسنٌ» قالت بفضول متراخي، أمعنت النظر في الوجه الشاحب الهادئ للمرأة الطويلة السوداء بثوبها القاتم ذي الأكمام والياقة النظيفة «سمعت بأنك ستقيمين حفل زواج في منزلك، ذلك شيء حسنٌ جداً بالنسبة لدونالد. إنه مغرم بها تماماً، أليس كذلك؟».

- بلى، لقد كانا مخطوبين منذ مدة طويلة، كما تعرفين.

- نعم، كانا كذلك لكن الناس لم يتصوروا أبداً بأنها ستنتظره، دع عنك أن تقبل به وهو مريض ومصاب بحالته تلك. لقد حظيت بفرص كثيرة منذ ذلك الوقت.

- «الناس يفكرون بأشياء كثيرة ليست صحيحة» ذكرتها السيدة باورز. لكن السيدة برني كانت مصممة على كلماتها هي.

- «نعم، لقد حظيت بفرص كثيرة. لكن في ذلك الوقت كانت لدى دونالد فرصة أيضاً، أليس كذلك؟» سألت بدهاء.

- لست أدري. تعرفين، لم أكن أعرفه منذ مدة طويلة جداً.

- أوه، لم تكوني تعرفينه؟ الناس جميعهم كانوا يتصورون أنك وهو كنتما صديقين قديمين إلى حد ما.

نظرت السيدة باورز إلى شكلها الأنيق المتشنج بثوبها الأسود المانع للهواء

من دون أن ترد.

تنهدت السيدة برني «حسنٌ، الزواج شيء جميل. ولدي لم يتزوج أبداً. لولا ذلك لكان متزوجاً الآن، كانت الفتيات متيمات به، لكنه ذهب إلى الحرب فحسب وهو في ريعان الشباب تلاشى من نظراتها فجأة فضولها المثير. هل سمعت عن ابني؟» سألت بشوق.

- نعم، لقد أخبروني عنه، الدكتور ماهون قال لي. كان جندياً جيداً، أليس كذلك؟

- «بلى. وأولئك الأشخاص تسببوا في قتله مع وجود الكثير من الرجال حوله، لا أحد يفعل له أي شيء. ربما لو أخذوه إلى منزل ما حيث يمكن للنساء أن يعالجنه. لقد عاد أولئك الآخرون وهم مفعمون نشاطاً وفخراً كما ترين. ثق بأولئك الضباط وما شابهم ولن تصاب بأذى!» طافت عيناها الزرقاوان المغسولتان بالدموع عبر الميدان الهادئ، وبعد فترة قالت: «أنت لم تفقدي أبداً أحداً تحبينه في الحرب. أليس كذلك؟».

- «كلا» أجابت السيدة باورز برقة.

- «لم أكن أتصور ذلك أبداً» صرخت الأخرى بغيظ «لايبدو ذلك عليك، إنك طويلة وجميلة جداً. لكن على كل حال، أكثرهم لم يحدث لهم هذا. كان في ريعان شبابه» قالت موضحة: «شجاعة جداً..» تلمست مظلتها. ثم قالت بسرعة ونشاط:

- «لقد عاد ابن ماهون، على كل حال، ذلك شيء استثنائي خاصة وأن لديه عروساً» أصبحت فضولية ثانية، فاحشة: «إنه على ما يرام، أليس كذلك؟».

- على ما يرام.

- أعني بالنسبة للزواج. إنه ليس.. أي فقط.. أعني الرجل له حق في أن يفرض نفسه على امرأة إذا لم يكن..

- «طاب صباحك» قالت السيدة باورز باقتضاب، تاركة إياها متشنجة في ثوب حدادها الأنيق المانع للهواء تمسك بمظلتها القطنية كأنها راية عنيدة ترفض الاستسلام.

(٥)

ـ أيتها المجنونة، أيتها المغفلة، تتزوجين من رجل أعمى، رجل عاجز، ميت عملياً.

ـ إنه ليس كذلك! إنه ليس كذلك!

ـ ماذا تسمينه إذن؟ العمة كالي نيلسون كانت هنا منذ بضعة أيام وقالت إن البيض قد قتلوه.

ـ أنت تعلمين أن كلام السود لا يعني أي شيء. ربما هم لا يسمحون لها بإزعاجه، لذلك فهي تقول بأنه..

ـ هراء، العمة كالي قد ربت أطفالاً أكثر مما أستطيع أن أعرف عددهم إذا كانت تقول هو مريض، فهو مريض.

ـ لا أبالي، سوف أتزوجه.

تنهدت السيدة سوندرز بصوت كالصرير، وقفت سيسلي أمامها متوردة وعنيدة «اسمعي يا حبيبتي. إذا كنت ستتزوجينه فأنت تدمرين نفسك، كل فرصك، كل شبابك وجمالك، كل الرجال المعجبين بك، الرجال الذين يستحقونك فعلاً».

ـ «لا أبالي» قالت ثانية، بعناد.

ـ فكري. هناك أشياء كثيرة يمكنك الحصول عليها من الزواج، الكثير جداً مما يمكنك الحصول عليه، حفلة زفاف كبيرة في أتلانتا مع كل صديقاتك كأشبينات للعروس، ملابس، رحلة زفاف.. وبعد كل هذا أنت تدمرين نفسك، بعد كل الذي عملناه لك أنا وأبيك.

ـ لا أبالي. سوف أتزوجه.

ـ لكن، لماذا؟ هل تحبينه؟

ـ نعم، نعم!

وذلك الجرح أيضاً؟

أصبح وجه سيسلي شاحباً وهي تحدق في أمها. صارت عيناها معتمتين ورفعت يدها بوهن. أمسكت السيدة سوندرز بيدها وسحبتها وهي تمانع إلى حجرها. اعترضت سيسلي بتوتر لكن أمها تمسكت بها، قربت رأسها من كتفها، مسدت على شعرها «إنني آسفة، يا صغيرتي. لم أقصد أن أقصول ذلك. لكن أخبريني ما الأمر».

لم تكن أمها تناقش الأمور بعدالة كانت تعرف هذا أو تشعر بالسخط لكن ألاعيب المرأة الكبيرة شتت دفاعاتها الغاضبة، كانت تعرف بأنها على وشك أن تبكي، عند ذاك سينتهي كل شيء، «دعيني أذهب» قالت وهي تحاول التخلص منها، أحست بأنها تكره المخادعة التي تقوم بها أمها.

ـ اصمتي، اصمتي، اهدئي الآن، ابقي هنا وأخبريني ما الأمر، لابد أن لديك سبب ما.

توقفت عن المقاومة وأصبحت متراخية تماماً. «ليس لدي أي سبب أنا فقط أريد أن أتزوجه. دعيني أذهب أرجوك، ماما»

ـ سيسلي، هل وضع أبوك هذه الفكرة في رأسك؟

هزت رأسها، رفعت أمها رأسها إليها «انظري إلي» حدقتا أحداهما الأخرى، وقالت السيدة سوندرز ثانية: أخبريني ما هو دافعك؟»

ـ لا أستطيع.

ـ تقصدين أنك لن؟

ـ «لا أستطيع أن أقول لك» انزلقت فجأة في حضن أمها لكن السيدة سوندرز أمسكت بها وقد انحنت على ركبتها «لن أقول» صامت وهي تقاوم أمسكت الأخرى بها بقوة. «إنك تؤذينني!»

ـ أخبريني.

خلصت سيسلي نفسها عنوة وانتصبت واقفة «لا أستطيع أن أخبرك، يجب أن أتزوجه فقط»

- «يجب أن تتزوجيه؟ ما الذي تقصدينه؟» حدقت في ابنتها، وهي تتذكر تدريجياً شائعات أثيرت حول ماهون، لغط كانت قد نسيته. «يجب أن تتزوجيه؟ هل تقصدين أنك.. أن ابنتي أنا.. مع رجل أعمى، رجل، رجل عالة..؟».

حدقت سيسلي في أمها وقد اضطرم وجهها غضباً «إنك تتصورين.. قلت هذا إلى.. أوه، إنك لست أمي إنك شخص آخر» فجأة بكت مثل طفلة، فاغرة فمها، حتى أنها لم تخفِ وجهها. انطلقت فجأة تركض. «لا تتكلمي معي ثانية أبداً» فرت بسرعة وهي تلهث وتنتحب وارتقت السلالم، وبعدها انغلق الباب بعنف.

جلست السيدة سوندرز تفكر، وتنقر على أسنانها بظفر إصبعها برتابة بعد وهلة نهضت، واتجهت نحو الهاتف، واتصلت بزوجها في البلدة.

(٦)

أصوات البلدة:

أتساءل ما الذي تفكر فيه تلك المرأة التي جاءت معه بشأن هذا الآن بعد أن اتخذ له امرأة أخرى. كنت في مكان تلك الفتاة من عائلة سوندرز فلن أقبل برجل لو أتى بامرأة أخرى لغاية باب منزلي، هذا مؤكد. وتلك المرأة الجديدة، ما الذي ستفعله الآن؟ ترحل بعيداً وتحصل على رجل آخر، كما أتصور. آمل انها ستتعلم درساً في أن تختار رجلاً مناسباً هذه المرة.. أشياء مضحكة تحدث في ذلك المنزل. وهو واعظ للإنجيل أيضاً. حتى لو كان أسقفاً لو لم يكن رجلاً طيباً.

جورج فار:

ذلك ليس صحيحاً، سيسلي، حبيبتي، عزيزتي. لا يمكنك ذلك، لا يمكنك ذلك. بعد أن انقلب جسدك النحيل كأنه بركة تتفرع..

البلدة:

سمعت بأن ذلك الفتى ابن ماهو، ذلك المصاب، وتلك الفتاة من عائلة سوندرز سوف يتزوجان. قالت زوجتي إنهما لن يتزوجا أبداً لكني دوماً أقول..

السيدة برني:

الرجال لا يعرفون. كان ينبغي أن يعتنوا به بشكل أفضل يقولون أنه لم يكن يريد أي شيء أبداً..

جورج فار:

سيسلي، سيسلي.. هل هذا هو الموت؟

البلدة:

ها هو ذا ذلك الجندي الذي أتى مع ماهون. أتصور بأن تلك المرأة سوف تتزوجه. لكن ربما أنها ليست مضطرة لذلك. ربما كان يمضي الوقت هو أيضاً.

حسنٌ، أما كنت لتفعل ذلك، لو أنك كنت مكانه؟

الرقيب مادين:

باورز، باورز.. وجه رجل ملفوظ كأنه فراشة على رمح من اللهب باورز.. يا لحظها العاثر.

السيدة برني:

ديوي، ولدي.

الرقيب مادين:

كلا، يا سيدتي. كان على ما يرام. لقد فعلنا كل ما كان بوسعنا

سيسلي سوندرز:

نعم، نعم دونالد، سأفعل. سأفعل! سأتعود على وجهك البائس «دونالد! جورج، يا حبيبي الغالي، خذني بعيداً يا جورج!»

الرقيب مادين:

نعم، نعم، كان على ما يرام.. رجل يقف على دكة الرمي، يصرخ بخوف.

جورج فار:

سيسلي، كيف يمكنك ذلك؟ كيف يمكنك ذلك؟

البلدة:

تلك الفتاة.. في كل مرة كانت تمسك بيدها شخص ما. تتسكع في البلدة شبه عارية. شيء جيد إنه أعمى، أليس كذلك؟ أتصور أنها تتمنى لو يظل أعمى أيضاً..

مارغريت باورز:

كلا، كلا، وداعاً دك الميت، دك القبيح الميت..

جو جيليجان:

إنه يموت، إنه يحصل على المرأة التي لا يريدها أيضاً، بينما أنا لست ميتاً.. مارغريت، ما الذي سأفعله؟ ما الذي أستطيع قوله؟

إيمي:

تعالي إلى هنا، إيمي؟ آه، تعالي إلي، دونالد، لكنه ميت.

سيسلي سوندرز:

جورج، حبيبي، عزيزي المسكين.. ما الذي فعلناه؟

السيدة برني:

ديوي، ديوي، شجاع جداً، في ريعان الشباب

(كان هذا دونالد، ولدي. إنه ميت)

(٧)

صعدت السيدة باورز درجات السلم بينما كانت السيدة سوندرز تنظر إليها بفضول، كانت المرأة الأكبر سناً باردة، فظة تقريباً، لكن السيدة باورز كانت قد حققت مرادها، وانتهت إلى باب غرفة سيسلي بتوجيهات من أمها. قرعت الباب.

بعد وهلة قرعت ثانية وصاحت: «آنسة سوندرز»

كان الصمت ثانية فترة فاصلة ساكنة متوترة، ثم جاء صوت سيسلي المكتوم من خلال الباب:

- اذهبي.

- «أرجوك» قالت بإصرار «أريد أن أراك للحظة»

- كلا، كلا، اذهبي

- «لكن يجب أن أراك» لم يكن هناك رد وأضافت:

- «لقد تحدثت لتوي مع أمك، ومع الدكتور ماهون، دعيني أدخل أرجوك؟».

سمعت صوت حركة، سرير، ثم فترة فاصلة، تأخذ وقتاً لتضع المساحيق على وجهها. لكنك ستفعلين ذلك أيضاً قالت لنفسها. انفتح الباب تحت يدها.

كانت المساحيق قد جعلت آثار الدموع أكثر وضوحاً فحسب، وأدارات سيسلي ظهرها عندما دخلت السيدة باورز الغرفة. كان في وسعها أن ترى الانبعاج الذي تركه الجسد على السرير، ووسادة مجعدة.

لم يقدم لها كرسي، جلست السيدة باورز على طرف السرير، وكانت

سيسلي في الجهة المقابلة من الغرفة تنحني على نافذة وتحدق في الخارج، قالت بفظاظة: «ماذا تريدين؟»

كم تشبهها هذ الغرفة! فكرت الزائرة وهي تتفحص منضدة زينة من خشب القبقب الشاحب ذات ثلاث مرايا تحمل مجموعة من الزجاجات البلورية الواهنة، وملابس خفيفة متناثرة بإهمال على الكراسي، وعلى الأرضية. كانت هناك صورة صغيرة مؤطرة على خزانة ذات أدراج.

- «تسمحين لي أن أنظر؟» سألت وهي تعرف غريزياً من يكون صاحب الصورة. لم ترد سيسلي بشيء كانت تدير ظهرها لها بعناد وقد ارتدت ثوباً خفيفاً ليس له شكل واضح كان الضوء المتسرب من النافذة يعبر من خلاله كاشفاً عن جذعها النحيل، اقتربت السيدة باورز ورأت دونالد ماهون، حاسر الرأس مرتدياً سترة عسكرية بالية غير مزررة يقف أمام جدار حديدي مموجاً يحمل كلباً مستسلماً بلا اكتراث من مؤخرة عنقه، كأنه حقيبة يد.

- «ذلك شيء من صفاته المميزة، أليس كذلك؟» قالت معلقة، قالت سيسلي بخشونة:

- ماذا تريدين مني؟

- الشيء نفسه تماماً الذي سألتني عنه أمك، تعرفين يبدو أنها تعتقد أنني أتدخل فيما بينكما أيضاً.

- «حسنٌ، ألست تتدخلين فعلاً؟ لم يطلب منك أحد المجيء إلى هنا» استدارت سيسلي وهي تحني وركها على رف النافذة.

- لا أعتقد أن ذلك يعتبر تدخلاً عندما يكون هناك تفويض بالرغم من كل شيء. ألا تتفقين معي؟

- تفويض؟ من الذي طلب منك التدخل؟ هل طلب ذلك دونالد؟ أم هل تحاولين إخافتي؟ لا حاجة لك لأن تخبريني أن دونالد قد طلب منك إنقاذه من هذا المأزق، تلك ستكون كذبة.

- لكن لن أقول شيئاً من ذلك، لا أنوي ذلك. إنني أحاول مساعدتكما معاً.

- «أوه، إنك تقفين ضدي، الجميع يقفون ضدي، عدا دونالد، وأنت لا تسمحين لأحد أن يراه كأنه.. سجين» استدارت بسرعة وأحنت رأسها على النافذة.

جلست السيدة باورز بهدوء وأخذت تراقب جسدها الضعيف المكشوف من تحت الثوب السخيف الذي ترتديه.. شيء متشابك متراكم أسود من أي شيء على الإطلاق وتكملة ملائمة للثوب المفرد الذي يكشف عنه من فوق الومضات الطويلة المخمدة لجواربها. لو كان (سيسليني) ناسكاً - قسيساً ربما تخيلها، فكرت السيدة باورز، متمنية بلطف أن تتمكن من رؤية الأخرى عارية. وأخيراً نهضت من السرير واتجهت نحو النافذة. أبقت سيسلي رأسها منحرفاً بعناد، توقعت أن تنزل دموعها، فأمسكت بكتف الفتاة «سيسلي» قالت بهدوء.

كانت عينا سيسلي الخضراوان صافيتين، متحجرتين، وتحركت بسرعة عبر الغرفة بخطواتها الرشيقة الضيقة. وقفت وهي تمسك بالباب مفتوحاً. لم تقبل السيدة باورز التي تقف قرب النافذة.

هل نسيت نفسها؟ تساءلت وهي تلاحظ الجمال المتناسق لجسم الفتاة الذي يلتف على الكتلة الرخوة لفخذها. واجهت سيسلي نظرتها بنظرة ازدراء متعجرفة آمرة:

- «ألن تغادري الغرفة حتى عندما يطلب منك ذلك؟» قالت وهي تحاول أن تجعل صوتها السريع الأجش يبدو رصيناً وبارداً.

فكرت السيدة باورز أوه سحقاً، ما الفائدة؟ تحركت لكي تحني فخذها على السرير. حركت سيسلي الباب للتأكيد من دون أن تغير وضعها. وقفت بهدوء وهي تتفحص رقة جسدها المتناهية (ساقاها جميلتان تماماً، اعترضت، لكن لماذا كل هذا التكلف معي؟ إنني لست رجلاً) حركت

السيدة باورز راحة يدها ببطء على الخشب الأملس للسرير. فجأة أوصدت الأخرى الباب وعادت إلى النافذة. تبعتها السيدة باورز.

ـ «سيسلي، لماذا لا نتحدث حول الأمر بتعقل؟» لم ترد الفتاة تجاهلتها، جعدت الستارة بأصابعها. «آنسة سوندرز».

ـ «لماذا لا تتركيني وشأني؟» انفجرت سيسلي غاضبة فجأة، توهجت عيناها وهي تحدق فيها. «لا أريد التحدث بهذا معك. لماذا تأتين إليّ؟» أصبحت عيناها معتمتين: لم تعودا قاسيتين «إذا كنت تريدينه، خذيه إذن. لديك كل الفرص التي يمكنك أن تحلمي بها، احتفظي به سجيناً هناك لكي لا يراه أحد حتى أنا!».

ـ لكني لا أريده. إنني أحاول تمهيد الأمور بالنسبة إليه. ألا تعرفين أنني لو كنت أريده لتزوجته قبل أن آتي به إلى البيت؟

ـ «لقد حاولت ذلك، ولم تنجحي. ولذلك لم تتزوجيه. أوه، لا تقولي إن ذلك لم يحدث» واستمرت تقول باندفاع كما لو أن الأخرى قد تكلمت «لقد رأيت ذلك في اليوم الأول. إنك كنت تلاحقينه. وإذا كنت لا تنوين ذلك، فلماذا تستمرين في البقاء هنا؟».

ـ «تعرفين إن هذا مجرد كذب» ردت السيدة باورز بهدوء.

ـ إذن ما الذي يجعلك مهتمة كثيراً به، إن لم تكوني تحبينه؟

(لا فائدة من هذا) وضعت يدها على ذراع الأخرى. جفلت سيسلي بسرعة وابتعدت عنها وعادت للانحناء ثانية على السرير. قالت:

ـ أمك تعارض هذا، ووالد دونالد يتوقعه. لكن أية فرصة لديك للوقوف ضد إرادة أمك؟ (ضد نفسك؟)

ـ «بالتأكيد أنا لست في حاجة لأية نصيحة منك» أدارت سيسلي رأسها، كانت قد تلاشت غطرستها وغضبها وفي مكانهما حل يأس واهن مرير. حتى صوتها، سلوكها ككل، قد تغير.

«ألا ترين مدى تعاستي؟» قالت بصوت مثير للشفقة.

«لم أقصد أن أكون فظة معك، لكني أعرف ما الذي ينبغي عمله لست أدري.. إنني في حيرة من أمري، شيء فظيع قد حدث لي. أرجوك!».

عندما رأت السيدة باورز وجهها، ذهبت إليها بسرعة، ووضعت ذراعها حول كتفي الفتاة النحيلين، تفادتها سيسلي «أرجوك، أرجوك، اذهبي».

- أخبريني ما الأمر.

- كلا، كلا، لا أستطيع أرجوك..

توقفتا، مصغيتين. اقترب صوت وقع أقدام، توقف وراء الباب، خبط، وصاح صوت أبيها باسمها.

- نعم؟

- الدكتور ماهون تحت. هل يمكنك النزول؟

حدقت المرأتان في إحداهما الأخرى.

- «تعالي» قالت السيدة باورز.

أصبحت عينا سيسلي معتمتين ثانية وهمست «كلا، كلا، كلا» كانت ترتعش.

- «سيس» قال أبوها ثانية.

- «قولي نعم» همست السيدة باورز.

- نعم، يا أبي. إنني قادمة.

- «حسنٌ» تكرر صوت وقع الأقدام وسحبت السيدة باورز سيسلي باتجاه الباب. أبدت الفتاة مقاومة.

- «لا يمكنني الذهاب هكذا» قالت بهستيرية.

- نعم، يمكنك. لا بأس بهذا تعالي.

كانت السيدة سوندرز تجلس على كرسي متوثبة للنزول، متصنعة الكياسة، متصلبة الأطراف كانت تقول عندما دخلتا:

- هل لي أن أسأل ما علاقة هذه.. هذه المرأة بالأمر.

كان زوجها يلوك سيكاراً. وكان الضوء الساقط على وجه الكاهن

يخفيه وكأنه قناع رمادي متآكل. ركضت سيسلي نحوه «العم جو!» صاحت.

- «سيسلي!» قالت أمها بحدة. «ما الذي تعنيه بالنزول هكذا؟»

نهض الكاهن، بجسده الهائل القاتم وعانقها «العم جو!».

قالت ثانية، متعلقة به.

- «حسنٌ، روبرت» بدأت السيدة سوندرز. لكن الكاهن قاطعها.

- «سيسلي» قال ورفع وجهها. أدارت حنكها عنوة وأخفت وجهها في معطفه.

- «روبرت» قالت السيدة سوندرز.

تكلم الكاهن بكآبة «سيسلي، لقد تحدثنا بالأمر مع بعضنا، ونحن نفتقد.. أمك وأباك..».

تحركت في ثوبها السخيف، المكشوف، «أبي؟» هتفت، وهي تحدق في أبيها. لم ينظر إليها لكنه جلس يفتل سيكاره ببطء، واستمر الكاهن يقول:

- تعتقدين أنك فقط سوف.. أنك.. يقولون أن دونالد سيموت، يا سيسلي» أنهى كلامه.

دفعت نفسها إلى الوراء برشاقة كشجيرة لدنة على ذراعه، انحنت لكي ترى وجهه، حدقت فيه، «أوه، عم جو! هل تخليت عني أنت أيضاً؟» صاحت بانفعال عاطفي عنيف.

(٨)

كان جورج فار ثملاً تماماً طوال أسبوع. تصور صديقه، عامل متجر الأدوية إنه قد جن جنونه. كان قد أصبح علامة مميزة، تقليداً، حتى أن سكارى البلدة بدأوا ينظرون إليه باحترام، يدعونه باسمه الذي أعطوه له، يقسمون يمين الولاء والإخلاص الأبدي له.

خلال الفترات التي تتخلل النزاع أو المرح أو السكرحتى الثمالة كان يمر بفترات يأس مدمرة كأنها نشوة رهيبة كتلك التي يحس بها حيوان حبيس، أو رجل يعذب ببطء حتى الموت، أصبح الألم رتيباً وثانوياً من حيث المبدأ، مع ذلك، فقد تمكن من البقاء ثملاً إلى حد ما. جسدها النحيل يتجزأ بعذوبة عارياً.. خذ كأساً أخرى.. سوف أقتلك إذا ما بقيت تلاحقها هنا وهناك.. فتاتي، فتاتي.. جسدها النحيل.. كأس أخرى.. أوه، رباه، أوه، رباه.. يتجزأ بعذوبة إلى شيء آخر.. خذ شراباً لست أبالي بحق الجحيم، أوه، رباه، أوه، رباه، أوه، رباه، أوه، رباه..

بالرغم من أن الناس (الطيبين) لم يعودوا يتكلمون معه في الشوارع إلا أنه بطريقة ما كان يتلقى عناية وحماية من معارف وأصدقاء طارئين سواء كانوا من السود أو البيض، مثلما هو العرف السائد في المدن الصغيرة على وجه الخصوص والطبقات (الدنيا) في أي مكان.

جلس ينظر بعينيه الكامدتين وسط روائح الأطعمة المقلي، وسط الضوضاء، إلى منضدة مغطاة بقماش زيتي.

- «كلو.. هوفر.. بلا.... سومز، كلو.. منريلا.. سم م م ز ز ز» غنى بصوت حاد، بفظاعة، رن اللحن في فترات فاصلة متعاقبة من صوت صغير رتيب،

كأنه قنبلة موقوتة تتكتك، هكذا:

كلو (تك) مز (تك) ررر (تك) (تك) بل (تك) ررز (تك) س س س (تك) وم م (تك) ز ز ز.

بجانبه جلس اثنان من رفاقه الجدد، يتخاصمان، يبصقان، يتجاذبان بالأيدي، وينتجان على أسطوانة الفونوغراف المشروخة التي تطقطق بلا تناه. «كلو.. فررر بلار.. سومز» تكرر صوتها بانفعال عذب؛ عندما توقفت ذهبوا إلى زقاق قذر خلف المطبخ الأكثر قذارة لكي يشربوا من ويسكي جورج فار. عندما عادوا وأداروا الأسطوانة من جديد، متماسكين بالأيدي، بينما كانت الدموع الصريحة تسيل على خدودهم التي كانت قبلها غير مغسولة. «كلوووووومز بلااااارسوم م م ززز..».

الرذيلة حقاً هي شيء ممل ومحتشم؛ لا حياة في العالم تماثلها في القوة، تتطلب الكثير من القوة الجسدية والأخلاقية المحصنة كما هي الحالة فيما يسمى بـ (طريق الشهوات). أن يكون المرء (خَيِّراً) فذلك شيء أقل صعوبة بكثير.

- كلو.. مزبلار... سومز..

... بعد فترة وجيزة تحول انتباهه إلى حقيقة أن شخص ما كان يضايقه لبعض الوقت، ركز عينيه وتعرف أخيراً إلى صاحب المحل الذي يرتدي مئزراً لابد أنه كان قد جفف به صحوته لأسابيع.

«ما الذي تريده بحق الجحيم؟» سأل، بنزعة قتالية ضعيفة سلسة، ووضح الرجل له أخيراً أن أحداً ما كان يطلبه على الهاتف في متجر أدوية مجاور. نهض، محاولاً أن يجمع أطراف جسده إلى بعضها.

- كلو.. هووووو مز بلار... سومز..

بعد سنوات قليلة انتهى إلى سماعة الهاتف بوهن محاولاً أن يبقى منتصباً، يتفحص بلا اهتمام كرة ضوئية فوق مكتب الصيدلي ترسم دوائر متحدة المركز.

- «جورج؟» كان هناك شيء ما في الصوت المجهول الذي يتفوه باسمه، ألم مبرح، يكاد يعيده إلى صوابه، «جورج».

- هذا جورج.. هلو..

- جورج، أنا سيسلي، سيسلي...

تشتت عنه السكر مثل موجة متكسرة. كان في وسعه أن يحس بقلبه وقد توقف، ثم يندفع بصخب يكاد يصم أذنيه، يعمي بصره بدقة المتدفق.

- «جورج.. هل تسمعني؟» (آه، جورج، لو أنه كان سكرناً الآن!) (سيسلي، أوه، سيسلي!) «نعم! نعم!»

أمسك بالسماعة كما لو أن هذا سيمنعها من الفرار «نعم، سيسلي؟ سيسلي! إنه جورج..

- تعال لي، الآن. حالاً.

- نعم، نعم، الآن.

تعال، جورج، حبيبي. أسرع، أسرع...

- «نعم!» صاح ثانية. «هلو، هلو!» لم يرد الخط. انتظر لكن الصوت تلاشى. خفق قلبه بقوة، خفق بحرارة؛ كان في وسعه أن يحس بطعم دمه المرئي بلعومه (سيسلي، أوه، سيسلي!).

اندفع بتهور على طول المتجر، بينما كان موظف متوسط العمر يدون وصفة ويمسك زجاجته باتزان لكي يراقب بذهول فاتر جورج فار، وهو يمزق قميصه من العنق ويدفع رأسه كله تحت حنفية ماء متدفقة في نوبة نشاط مفاجئة.

(سيسلي، أوه، سيسلي!).

(٩)

كان يبدو كهلاً، منهكاً تماماً، وهو يجلس عند رأس المائدة يلهو بطعامه، كما لو أن نسيج جسده ذاته قد فقد كل مرونته.

أكل جيليجان بشهيته العادية غير المتكلفة وجلس دونالد وإيمي جنباً إلى جنب بحيث تتمكن إيمي من مساعدته، كانت إيمي تجد متعة بعنايتها به كأمه، الآن لم يعد بإمكانها أبداً أن تحظى به ثانية كحبيب؛ اعترضت بحماسة ملتهبة عندما عرضت عليها السيدة باورز المساعدة دونالد الذي كانت تعرفه قد مات؛ وهذا كان مجرد بديل بائس، لكن إيمي ستبذل قصارى جهدها معه، مثلما تفعل النساء عادة كانت قد اعتادت على تناول طعامها بعد أن يكون قد برد.

جلست السيدة باورز تراقبهما. كتلة شعر إيمي الكثة التي ليس لها لون محدد كانت تقترب من رأسه المصاب في إصرار وتفان، ويدها التي أنهكتها الأعمال تبدو وكأن فيها عين من ذاتها، عين سريعة، ودقيقة، بحيث نتمكن من توقع رغباته وإرشاد يده التي تحمل الطعام الذي كانت قد أعدته له. تساءلت السيدة باورز عن دونالد الذي تحبه إيمي أكثر، تساءلت إن كانت لم تنسَ دونالد السابق بعد إلا كونه رمزاً للأسى. ثم خطرت لها فكرة منطقية مذهلة وهي أن هذه المرأة المناسبة لكي يتزوجها دونالد.

بالطبع هذا هو الشيء المناسب. لماذا لم يفكر أحد بهذا من قبل؟ ثم قالت لنفسها إن أحداً لم يفكر بالأمر ملياً طوال هذه المدة، إن هذا قد مر من دون أن يكلف أحد ما نفسه عناء التفكير به بجدية. لماذا نعتبره شيئاً

مُسَلَمَاً به إنه يجب أن يتزوج من سيسلي، وليس من غيرها؟ ومع ذلك فنحن جميعاً تقبلنا ذلك كحقيقة اعتباطية ومضينا وقد أغلقنا عيوننا وفتحنا أفواهنا مثل كلاب الصيد في زفرة واحدة.

لكن هل ستقبل إيمي به؟ ألن ترتعب من احتمال أنها ستكون مترددة جداً معه فيما بعد لأن تعتني به بمثل المهارة التي هي عليها الآن؛ التي يجعلها ذلك ترتبك في ذهنها أمام انفصامه المزعج هذا إلى شخصين - الحبيب والمعوق؟ أتساءل عن رأي جو بهذا.

نظرت إلى إيمي بتجرد، تساعد دونالد بمهارة مطموسة، وتبدو كأنها تطوقه، إلا أنها لا تلمسه أبداً. على كل حال، سوف أسألها، فكرت وهي تأخذ رشفة من شايها.

كان الليل قد هبط، عادت ضفادع الأشجار إلى صباغة خرز أصواتها السائلة برتابة وقد تذكرت مطر ليلة البارحة؛ واكتست أوراق العشب والأشجار التي فقدت صلابتها بقوالب صوتية، المباغتة الساكنة للأرض، الأرض التي تستعد للنوم؛ زهور النهار، أشواك البراعم، أصبحت مع قدوم الليل أشواكاً تفوح بالأريج؛ الشجرة الفضية التي عند ركن المنزل كتمت نشوتها الهائجة المعتدة أبداً. كانت ضفادع الطين ما تزال تتقافز على الأرصفة الإسمنتية وتتشرب بحرارة مكبلة من خلال بطونها المسحوبة على الأرض.

فجأة أفاق الكاهن من حلمه «عجباً، عجباً، إننا نعمل جبالاً من ركام التراب كالمعتاد، إذا كانت تريد أن تتزوج دونالد فأنا واثق أن أهلها لن يمتنعوا عن إعطاء موافقتهم دائماً، لماذا ينبغي عليهم الاعتراض على زواج ابنتهم منه؟ هل تعرفين..»

- «اسكت!» قالت. نظر إليها باندهاش، وبعدها عندما رأى نظرتها المحذرة تقع على رأس ماهون المشوه، فهم السبب رأت عيني إيمي المليئتين بالاستغراب مصوبتين عليها ونهضت من مكانها «لقد انتهيت، أليس

كذلك؟» قالت للكاهن:

- «ما رأيك في أن نذهب إلى غرفة القراءة»

جلس ماهون بهدوء، يمضغ شيئاً ما. لم تستطع أن تعرف إن كان قد سمع أم لا. عبرت من خلف إيمي وانحنت عليها وهمست:

- «أريد التحدث معك. لا تقولي شيئاً لدونالد»

سبقها الكاهن تلمس بيديه حتى تمكن من إشعال الضوء في غرفة القراءة. «يجب أن تكون حذراً» قالت له: «الطريقة التي تتحدث بها أمامه، الطريقة التي تخبره بها».

- «نعم» قال موافقاً باعتذار «كنت مستغرقاً تماماً في أفكاري».

- أعرف ذلك. لا أعتقد أنه من الضروري إخباره أبداً، إلى أن يسأل هو.

- وذلك لن يحدث أبداً. إنها تحب دونالد، لن تسمح لأهلها بأن يمنعوا زواجها منه، إنني أفضل عادة مثل هذا الإجراء على تحريض فتاة شابة على الزواج ضد رغبات والديها، لكن في هذه الحالة.. إنك لا تعتقدين بأنني متقلب الآراء، بأنني متحيز لأن هذا الأمر يتعلق بولدي!

- كلا، كلا، بالطبع لا.

- ألا تتفقين معي، إن سيسلي سوف تصر على الزواج؟

- بلى، في الواقع، ما الذي تستطيع قوله غير هذا؟

كان جيليجان وماهون قد انصرفا، وكانت إيمي تنظف المائدة عندما عادت. اندفعت إيمي نحوها بسرعة.

- إنها لن تأخذه؟ ما الذي كان العم جو يقوله؟

- أهلها لا يحبذون الفكرة. هذا كل شيء. إنها لم ترفض. لكني أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نحسم الأمر الآن يا إيمي. كانت قد غيرت رأيها كثيراً ولا أحد يستطيع أن يعرف ما الذي ستفعله.

عادت إيمي إلى المنضدة، أحنت رأسها وأخذت تدعك طبقاً. تفحصت السيدة باورز مرفقها المنشغل، سمعت الضوضاء المقعقعة الضعيفة الأطباق

الصيني والفضة. كانت هناك مزهرية تضم وروداً بيضاء مبعثرة ببطء على منتصف المنضدة.

ـ ما رأيك، يا إيمي؟

ـ «لا أدري» ردت إيمي بتجهم «إنها ليست مثلي، لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر».

اقتربت السيدة باورز من المنضدة. «إيمي» قالت. لم ترفع الأخرى رأسها، لم ترد بشيء، أدارت الفتاة برفق من كتفها.

«هل تتزوجينه، يا إيمي؟»

اعتدلت إيمي بعنف وهي تمسك بصحن وشوكة «أنا؟ أنا أتزوجه؟ أنا آخذ فضلات الآخرين؟ (دونالد، دونالد) وفضلاتها هي، علاوة على ذلك، هي التي كانت تجري وراء كل شاب من البلدة، وهي ترتدي ملابسها الحريرية؟»

رجعت السيدة باورز إلى الباب وأخذت إيمي تدعك الصحون بشدة. أصبح هذا الصحن ملطخاً، طرفت عيناها ورأت شيئاً ما يتناثر عليه. يجب ألا تراني أبكي! همست بانفعال، وحنت رأسها أكثر، وهي تنتظر أن تسألها السيدة باورز ثانية (دونالد، دونالد).

عندما كانت صغيرة، تذهب إلى المدرسة في الربيع، كانت تضطر لارتداء ملابس وأحذية رديئة، بينما الفتيات الأخريات كن يرتدين الحرير والجلد الناعم؛ لأنها غير جميلة إطلاقاً بينما الفتيات الأخريات كن جميلات..

كانت تعود مشياً إلى البيت حيث يكون بانتظارها العمل الكثير بينما الفتيات الأخريات كن يركبن في سيارات أو يتناولن المثلجات أو يتحدثن مع الصبيان ويرقصن معهم، مع الصبيان الذين لم يكونوا يولونها اهتماماً؛ أحياناً كان يمشي بجانبها، صامتاً، مسرعاً على حين غرة.. ولم تكن تبالي بعدم لبسها للحرير.

وعندما كانا يسبحان ويصيدان السمك ويطوفان في الغابات معاً كانت تنسى أنها لم تكن جميلة أيضاً. لأنه كان جميلاً، بجسده الأسمر الرشيق الحركة، بصمته وسكوته... الشيء الذي يجعلها تشعر بأنها جميلة أيضاً.

وعندما قال لها تعالي، يا إيمي، ذهبت إليه، وكانت تحس بالعشب الرطب وقطرات الندى تحتها ومن فوق رأسها والسماء كلها تاجاً، والقمر يهرول وراءهما كالماء الذي لم يكن رطباً والذي لا تستطيع الإحساس به..

أتزوجه؟ نعم! نعم! ليكن مريضاً، سنعالجه؛ ليكن دونالد الذي كان قد نسيها.. إنها لم تنسى بوسعها أن تتذكر ما يكفيهما هما الاثنان. نعم! نعم! صمت، بلا صوت، وهي ترصف الأطباق، وتنتظر من السيدة باورز أن تسألها ثانية. كانت يداها الورديتان خاملتين والدموع تنهمر بغزارة على معصميها. نعم! نعم! حاولت أن تفكر في ذلك بصوت عالٍ يمكن أن تسمعه الأخرى. يجب ألا تراني أبكي! همست ثانية. لكن المرأة الأخرى وقفت في الباب فحسب تراقب ظهرها وهي منشغلة. لذلك فقد جمعت كل الأطياف ببطء. بعد أن لم يبق ثمة أي سبب للتباطؤ أكثر. أشاحت برأسها بعيداً وحملت الأطباق نحو باب الخزانة ببطء، بانتظار أن تتكلم الأخرى ثانية. لكن المرأة الأخرى لم تقل شيئاً، وتركت إيمي الغرفة، منعها كبرياؤها من أن تجعل الأخرى ترى دموعها.

(١٠)

كانت غرفة القراءة معتمة عندما مرت بها، لكن كان في وسعها أن ترى رأس الكاهن وقد ترك ظلاً باهتاً على الظلام الأكثر اتساعاً في خارج النافذة. مرت ببطء متجهة نحو الشرفة. أحنت جسدها الطويل الهادئ على أحد الأعمدة في الظلام خلف مروحة الضوء المتسرب من الباب، وأصغت إلى مظاهر الحياة المكتومة التي لا تعد ولا تحصى المنبعثة عن الأشياء في الليل، والأصوات البطيئة للناس الذين يمرون من دون أن تراهم على شارع لا تراه، راقبت العيون المزدوجة المحدقة العجولة للسيارات كأنها حشرات هائجة. اقتربت سيارة متباطئة من الزاوية، وبعد مدة قصيرة جاء شخص غير واضح الملامح على طول ممشى الحطب الشاحب، كان مستعجلاً ولكن بتردد. توقف وصرخ بصوت ناعم في منتصف الممشى، ثم أسرع يمشي باتجاه الدرجات، حيث توقف ثانية، وتقدمت السيدة باورز عن العمود الذي تقف بجانبه.

- «أوه» قالت الآنسة سيسلي سوندرز لاهثة، وقد جفلت فجأة، رفعت يدها برقة على ثوبها الداكن «سيدة باورز؟»

- نعم. ادخلي من فضلك.

ركضت سيسلي برشاقة عصبية صاعدة الدرجات. «كان ذلك ضـ.. ضفدعاً» قالت موضحة فيما بين أنفاسها السريعة. «كدت أدوس.. تباً!» ارتجفت وخفت وميض واهن مكتوم بخفاء في الملابس الداكنة» هل العم جو هنا؟

«أتسمحين لي..» تلاشى صوتها بعيداً بتردد وحياء.

-«إنه في غرفة القراءة» أجابت السيدة باورز. ما الذي حدث لها؟ فكرت.

وقفت سيسلي. بحيث كان الضوء المتسلل من الصالة يسقط عليها. كان في صوتها يأس عصبي ضعيف، طيش يائس، وحدقت في وجه المرأة الأخرى المظلل لفترة طويلة. ثم قالت: «أشكرك، أشكرك» فجأة، وعلى نحو هستيري، وركضت مسرعة إلى داخل المنزل. نظرت السيدة باورز وراءها، ثم رأت وهي تتبعها ثوبها الداكن. إنها تمضي، فكرت السيدة باورز، باقتناع.

ركضت سيسلي إلى الأمام كأنها طير أسود ضعيف، باتجاه غرفة القراءة غير المضاءة. «أيها العم جو؟» قالت وهي تقف بثبات وتلمس جانبي إطار الباب. أصدر كرسي الكاهن صريراً فجأة.

ـ «ماذا؟» قال، وطارت الفتاة عبر الغرفة كالخفاش، مخيفة قامة في الظلام، حطت عند قدميه، تعلقت بركبتيه. حاول أن يرفعها لكنها تشبثت بساقيه بقوة أكثر، وطمرت رأسها في حضنه.

ـ عم جو، سامحني، سامحني؟

ـ نعم، نعم. كنت أعرف أنك ستأتين إلينا. لقد قلت لهم..

ـ «كلا، كلا. أنا.. أنا.. لقد كنت دائماً طيباً جداً، ولطيفاً جداً معي، بحيث أني لا أقدر...» تشبثت به ثانية بعنف.

ـ «سيسلي، ما الأمر؟ مهلاً، مهلاً، يجب ألا تبكي بسبب ذلك. تعالي هنا، ما الأمر؟» راوده هاجس داخلي حاد فرفع وجهها، محاولاً أن يراه. لكنه كان مجرد بقعة رقيقة مبهجة أحس بدفئها في يديه.

ـ «قل إنك تسامحني أولاً، عزيزي العم جو. هل تسامحني؟ قلها، قلها. إذا لم تسامحني فلا أعرف ما الذي سيحدث لي».

انزلقت يده إلى الأسفل وأحس بملمس كتفيها الناعمين المتوترين وقال:

ـ بالطبع، أسامحك.

ـ «أشكرك، أوه، أشكرك. إنك كريم جداً..» أمسكت يده، ووضعتها على فمها.

ـ «ما الأمر، سيسلي؟» سأل بهدوء، محاولاً تهدئتها، رفعت رأسها. «إنني

راحلة».

- إذن لن تتزوجي دونالد؟

خفضت رأسها إلى ركبتيها ثانية، وتمسكت بيده بأصابعها الطويلة العصبية، وضعتها على وجهها. «لا أستطيع، لا أستطيع، إنني.. لم أعد امرأة صالحة، عزيزي العم جو. سامحني، سامحني..».

سحب يده وتركت نفسها تقف على قدميها، أحست بذراعيه بجسده الهائل الحنون «اهدئي، اهدئي» ربت على ظهرها بيده الوديعة الثقيلة «لا تبكي».

- «يجب أن أذهب» قالت أخيراً، وتحركت بخفة وخفاء على جسده البدين. أطلقها، أمسكت بيده ثانية بحدة، ثم تركتها «وداعاً» همست وفرت بسرعة وخفاء كأنها طير، سارت برشاقة على وقع عقبيها الواهن، مثلما جاءت.

مرت بالسيدة باورز على الشرفة من دون أن تراها ومشت بخطوات سريعة نازلة الدرجات. راقبت المرأة الأخرى شبحها النحيل المعتم إلى أن اختفى.. بعد فترة سكوت أضيئت مصابيح السيارة التي كانت قد توقفت عند ركن الحديقة وتحركت بعيداً..

ضغطت السيدة باورز على مفتاح الضوء ودخلت غرفة القراءة، جفل الكاهن منها وهي تقترب من المكتب بهدوء وقنوط:

- سيسلي قد فسخت الخطوبة، يا مارغريت. لهذا فإن الزواج قد ألغي.

- «هراء» قالت بحدة، وهي تلمسه بيدها القوية «سوف أتزوجه أنا. كنت أنوي القيام بذلك طول الوقت. ألم تنتبه إلى ذلك؟»

(١١)

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا

٢٥ نيسان ١٩١٩

عزيزتي مارغريت:

لقد أخبرت أمي ليلة البارحة وهي بالطبع تعتقد بأننا ما نزال صغاراً. لكني وضحت لها كيف أن الأمور قد تغيرت منذ أن بدأت الحرب وكيف أن الحرب تجعل المرء أكبر من المعتاد. إنني أرى أشخاصاً من سني لم يخدموا في الطيران خاصة وهذا شيء يتعلم منه المرء بحد ذاته وهم يبدون كأطفال بالنسبة لي لأنني أخيراً وجدت المرأة التي أريدها وانتهت أيام طفولتي. بعد أن عرفت الكثير من النساء وجدت أنك بعيدة جداً عني بينما لم أكن أتوقع هذا.

أمي تقول لي أن أمارس الأعمال وأجني المال إذا كنت أتوقع أن تتزوج مني أية امرأة لذلك فأنا سوف أبدأ غداً لقد حصلت على المكان الآن. لذلك فلن يمر وقت طويل حتى أراك وأخذك بين ذراعي أخيراًوإلى الأبد. كيف يمكنني أن أقول لك كم أحبك إنك مختلفة عنهن. حبك قد جعلني رجلاً جاداً ليتحمل المسؤولية. إنهن جميعاً سخيفات مقارنة بك يتحدثن عن الجاز والذهاب إلى مكان ما حيث أني طول الوقت كنت مدعواً إلى حفلات لكني أرفض لأني أفضل الجلوس في غرفتي أفكر فيك وأسطر أفكاري على الورق وأتركهن لمرحهن السخيف. أفكر بك طوال الوقت وإن لم يجعلك ذلك تعيسة جداً فأنا أريدك أن تفكري بي دوماً. لكن لا تفعلي ذلك فأنا لا أريد أن أجعلك تعيسة أبداً يا عزيزتي. لذا فكري بي وتذكري أني أحبك وحدك وسأبقى أحبك وحدك وسأبقى أحبك دوماً.

المخلص لك إلى الأبد

جوليان

(١٢)

حضر القس المعمداني، وهو درويش شاب يرتدي ربطة بيضاء مخضرة، لأنه كان متيسراً دوماً، وقام بواجبه وانصرف. كان شاباً حي الضمير وطيب القلب إلى حد فظيع؛ مستقيماً ومتلهفاً بحماس لعمل الخير، إلى حد جعله يغدو حملاً. لكنه كان قد خدم في الجندية وفقاً للأصول وكان يحب الدكتور ماهون ويحترمه، ويرفض أن يصدق ذلك ببساطة لأن الدكتور ماهو كان أسقفاً وسيذهب إلى الجحيم حالما يموت.

تمنى لهم الحظ السعيد وفر منهم على عجل، مستجيباً لغرائزه القسرية المبهمة. أخذوا يراقبونه من الوراء وهو يمشي بحيوية واستعجال إلى أن اختفى عن الأنظار، ثم ساعد جيليجان ماهون في نزول الدرجات وعبر المرج إلى مقعده المفضل تحت الشجرة. تمشت السيدة ماهون الجديدة بصمت بجانبهما. كان الصمت هو الشيء الذي اعتادت عليه، ولكنه لم يكن عادة عند جيليجان. إلا أنه لم يكن قد تفوه بكلمة معها. تمشت بالقرب منه ومدت يدها ولمست ذراعه، أدار لها وجهاً كئيباً، مكفهراً، بحيث أنها أحست باشمئزاز حاد، قرف من كل شيء. (دك، دك، يا لحسن حظك لأنك بعيد عن هذه الورطة!) نظرت بعيداً بسرعة، نحو الحديقة، إلى ما وراء البرج حيث كانت الحمائم تهدل مع انحسار الظهيرة، غير ملفتة للنظر كالنوم، عضت على شفتيها، لقد تزوجت، ولم تكن بمثل هذه الوحدة في حياتها أبداً.

أجلس جيليجان ماهون في كرسيه بعناية متجردة شبه متهورة. قال ماهون:

ـ حسنٌ، جو لقد تزوجت أخيراً.

ـ «نعم» أجاب جيليجان. كانت عفويته اللامبالية قد تلاشت، حتى أن ماهون لاحظ ذلك بطريقته الغامضة غير الواعية «أقول يا جو».

ـ ما الأمر، أيها الملازم؟

كان ماهون صامتاً، وحين أخذت زوجته كرسيها المعتاد، انحنت إلى الوراء أخذت تحدق إلى الأعلى في الشجرة. قال أخيراً: «استمر، جو».

ـ «ليس الآن، أيها الملازم. لا أشعر بأني على ما يرام. أعتقد أني سأتمشى» أجاب، وهو يشعر بعيني السيدة ماهون تخترقانه. واجه نظرتها بخشونة وتحدٍ.

ـ «جو» قالت بهدوء، بمرارة.

رأى جيليجان وجهها الشاحب، عينيها المعتمتين التعيستين، فمها الذي يشبه جرحاً منهكاً، وعندها أحس بالخجل.

ـ «حسنٌ، أيها الملازم» قال وهو يحاول مجاراة نبرتها بهدوء، مع أثر لتهوره الغامض القديم، «ما الذي سيحدث؟ تتصدع بعض الإمبراطوريات التافهة الأخرى، هه؟».

أثر باهت فحسب، لكنه كان هناك. نظرت السيدة ماهون إليه ثانية، بامتنان وبتلك السعادة الرزينة القديمة التي يعرفها جيداً، غير مبتهجة لكنها قانعة، والتي افتقدها منذ أمد طويل، وكان ذلك كما لو أنها قد وضعت يدها القوية الثابتة عليه. نظر بسرعة بعيداً عن وجهها، كان حزيناً وسعيداً، لم يعد متعصباً.

ـ استمر، جو.

الفصل الثامن



(١)

سان فرنسيسكو، كاليفورنيا

٢٧ نيسان ١٩١٩

عزيزتي الغالية:

أكتب لك كلمات قليلة فقط لكي أعلمك بأني قد بدأت أعمل في ميدان المصارف وأكسب المال من أجلك. من أجل أن نكوّن لأنفسنا موقعاً في العالم الذي تستحقينه ومنزلاً خاصاً بنا. العمل عبارة تتخللها محادثات ملائمة مع الناس الآخرين في الميدان نفسه والذين لا يعرفون أي شيء عن الطيران. كل ما تفكر به الفتيات هو الذهاب للرقص مع الرجال. كل يوم - يمر يعني يوماً أقل لنا لكي أكون معك إلى الأبد، مع كل حبي.

حبيبك إلى الأبد

جوليان

(٢)

أحاسيس الأيام التسعة أو الأيام التسعين أو الأيام التسعمئة لها قدرة ممتعة على الزوال والتحول إلى النسيان الذي تعبر إليه عاجلاً أم آجلاً كل إبداعات الإنسان. تمنع من تحول العالم إلى فوضى تامة. أنت تقول في الحال: إن هذا هو من عمل الرب. لكن لابد أن تكون هناك امرأة، ليس هناك رجل يمكن أن يكون بمثل هذه المنفعية. لكن عندئذ، النساء يستحققن فقط تلك الأشياء التي يمكن أو يحتمل أن ينتفع منها ثانية. إذن هذه النظرية تنفذ أيضاً.

بعد فترة قصيرة لم يبق أحد هناك من المعارف الفضوليين المتلهفين للزيارة؛ بعد فترة قصيرة نسي الأمر كله أولئك الذين كانوا قد قالوا: «لقد أخبرتكم بهذا» عندما جعلت الآنسة سيسلي سوندرز الكل يعرف أنها سوف تتزوج من ابن الكاهن، والذين قالوا «لقد أخبرتكم بهذا» عندما لم تتزوج من ابن الكاهن. كانت هناك أشياء أخرى يفكرون فيها ويتحدثون؛ هذه كانت فترة مخاض الكوكلوكس(❖) وفترة صعود السيد ولسون، وهو رجل ديموقراطي مهذب يعيش في مقاطعة واشنطن.

إلى جانب هذا كان كل شيء شرعياً حتى الآن. كانت الآنسة سيسلي سوندرز قد تزوجت بسلام - بالرغم من أن أحداً لم يكن يعرف أين كانا منذ الوقت الذي رحلا فيه عن البلدة في سيارة جورج فار، إلى أن تزوجا كما ينبغي بحضور قسيس من أتلانتا في اليوم التالي (لكني عند ذاك كنت دائماً أخبرك بشأن تلك الفتاة) كانوا جميعاً يتأملون وقوع الأسوأ.

(❖) جمعية سرية نشأت بعد الحرب الأهلية لترسيخ سيطرة البيض على الزنوج.

وتلك السيدة التي لا أعرف اسمها. تلك المرأة الطويلة السوداء الرأس التي تعيش في منزل ماهون كانت قد تزوجت أحدهم، ووضعت نهاية لذلك الوضع المريب.

وهكذا تحول أيار إلى مايس. كانت هناك أيام صافية حيث كانت الشمس حينها تغدو أكثر دفئاً، عندما تشرق وتمتص قطرات الندى، وتتفتح الأزهار كالفتيات اللواتي يتهيأن لحضور حفلة راقصة، ثم تتدلى نحو الأفق، عندها تبددها الأرض؛ مثل امرأة بدينة، تجرب بطيش واستهتار قبعة بعد أخرى، تحاول ترتيب التفاح، والكمثرى، والخوخ؛ تجرب النرجس والأقحوان والسوسن، ثم ترميها.. وهكذا فقد تفتحت الأزهار المبكرة ورميت وبعدها تفتحت الأزهار لكي تذبل وتسقط، وتفسح المجال لأزهار أخرى تأتي بعدها. كانت أزهار الفواكه قد اختفت، والكمثرى نسيت، الأشياء التي كانت ذات يوم شمعدانات طويلة، تلمع ببريق فضي أبيض، بدتالآن شمعدانات طويلة بالية من الأوراق تحت الكاتدرائية الزرقاء.

نمت أوراق الأشجار أكثر، وازدادت اخضراراً إلى أن تلاشى كل أثر لازوردي وفضي وقرنفلي منها، غردت الطيور ومارست الحب وتزاوجت وبنيت الأعشاش فيها كما في الشجرة التي عند ركن المنزل، والتي كانت ما تزال تلف أوراقها البيضاء بنشوة مقيدة أبداً باتجاه السماء؛ اخترقت أسراب النحل البرسيم فوق المرج، وقاطعتها في فترات متعاقبة جزازة العشب والعامل الكسول الذي يشغلها.

لم يتغير نمط حياتهم. لم يكن الكاهن سعيداً ولا تعيساً، لا مستسلماً ولا معترضاً. بين حين وآخر كان يستغرق في حلم يقظة مع نفسه، أنجز واجباته في جوف الكنيسة السندياني المعتم، بينما كان أبناء رعيته يتهامسون بخفوت فيما بينهم أو ينامون فيما بين الأجوبة(*)، في حين كانت

(*) الجواب: عبارة أو كلمة ينشرها أو ينطق بها جمهور المصلين أو جوقة المرتلين بعد الكاهن.

الحمائم قد حبست طقوس هديلها في هجوع مسموع في البرج الذي كان يبدو في تقوسه عبر غيوم صغيرة ساكنة وكأنه يهتز ببطء ويوشك أن ينهار. لقد زوج شخصين ودفن واحداً؛ وجد جيليجان أن هذا كان شيئاً ينذر بالشؤم وأعلن ذلك بصوت مرتفع: وجدت السيدة ماهون هذا شيئاً سخيفاً وعبرت عن ذلك أيضاً بصوت مرتفع.

أرسلت السيدة وورثفتون سيارتها إليهم عدة مرات وقد ذهبوا بها إلى الريف متأسفين لفراق شجرة القرانيا، ثلاثتهم (اثنان منهم كانا يحسان بذلك، ماهون كان قد نسي ما هي شجرة القرانيا)؛ جلسوا تحت الشجرة، بينما كان أحدهم يتلعثم بإصرار بكلمات متعددة المقاطع، والآخر يجلس بلا حراك، لا نائماً ولا مستيقظاً. لم يكن بوسعهم أبداً أن يعرفوا إن كان يسمع أم لا. ولم يكن بوسعهم أيضاً مطلقاً، أن يعرفوا إن كان يعرف من هي المرأة التي تزوجها. ربما لم يكن يبالي. كانت إيمي تهتم به مثل أمه بنشاط ورقة، بخضوع لا يخلو من التفاهة. نام جيليجان بسكوت على غطائه عند قدم سرير ماهون، خشية أن يحتاج إليه.

- «أنتما معاً كان ينبغي أن تتزوجا» علقت زوجته بسخرية واهنة.

(٣)

كانت السيدة ماهون وجيليجان قد استردا صحبتهما القديمة والنشوة الهادئة التي يشعران بها خلال وجودهما معاً، الآن بعد أن لم يعد يأمل في الزواج منها كان بوسعها أن تتصرف بحرية أكبر معه.

- ربما هذا ما كنا نحتاج إليه، جو، على كل حال، لم أعرف في حياتي رجلاً أحببته بنصف هذا المقدار.

مشيا على مهل في الحديقة على طول ممر الورود الذي كان يعبر من تحت شجرتي البلوط، خلف ذلك كانت أشجار الحور تتكئ على جدار في صف منتظم كأنها أعمدة معبد.

- «إنك سهلة الإرضاء، إذن» أجاب في مناكدة مريرة زائفة، لم يكن مضطراً لأن يخبرها بمدى حبه لها.

- «أيها المسكين جو» قالت: «سيكارة أرجوك».

- «المسكينة هي أنت» أجاب بسرعة، وأعطاها واحدة «إنني على ما يرام. لست متزوجاً».

- لا يمكنك الفرار إلى الأبد مع ذلك. إنك لطيف جداً، مصدر أمان للعائلة؛ سوف تتحمل أن تبقى مشدوداً إلى عربة.

- «هل أعتبر تلك مساومة؟» سأل.

- هذا يكفي اليوم، جو..

بعد وهلة أوقفها بيده. «اسمعي» توقفا وحدقت فيه باهتمام.

- ما الأمر؟

- ها هو الطائر المحاكي اللعين ثانية؟ ما الذي سيحكي عنه، برأيك؟

- لديه الكثير مما يمكن أن يغني عنه. لابد أن ينجلي نيسان ويأتي مايس، والربيع أيضاً لم يكد ينتهي نصفه بعد. اسمع..

(٤)

كانت إيمي قد أصبحت هاجساً يقض مضجع جانيواريوس جونز، ذلك الهاجس الفظيع الذي كان قد خرج من عالم الجنس إلى عالم الرياضيات، وأصبح أشبه بالمجنون. اختلق فرصاً لرؤيتها، فقط لكي يصاب بخيبة الأمل؛ بقي يتربص بها كأنه قاطع طريق، كان يتوسل، يهدد، جرب القوة الجسدية، وكان يتعرض للصد باستمرار. بلغ الأمر حداً بحيث أنها لو كانت قد وافقت فجأة، لكان قد فقد أحد دوافعه المحرضة، دافعه الأساسي للاستمرار في الحياة، ربما كان سيموت، إلا أنه كان يعرف بأنه إذا لم يحصل عليها في وقت قريب فسوف يغدو مجنوناً، معتوهاً.

بعد فترة اكتسى ذلك بسحر الأرقام. كان قد أخفق مرتين، هذه المرة يجب أن يكون النجاح من نصيبه وإلا فإن نظام الكون كله سوف ينهار، سيقذف به وهو يصرخ، نحو الظلمة، حيث لا ظلمة هناك، نحو الموت حيث لا موت. كان جانيواريوس جونز بطبيعته ونزعته تركياً، وأحياناً أخرى كان يصبح شرقياً. أحس بأن رقمه لابد أن يأتي، كانت حقيقة أنه لا يمكن أن يأتي تجعله معتوهاً.

رآها في الحلم ليلاً، تخيلها في صورة النساء الأخريات، تخيل صوتها في أصوات الأخريات؛ كان يمشي خلسة في أرجاء الأبرشية في كل الساعات، منفعلاً إلى درجة لا يستطيع معها الدخول إلى مكان ربما يكون عليه فيه أن يتحدث مع أناس عاقلين. أحياناً كان الكاهن يمشي في أحلامه متثاقلاً بجسده الضخم غير الواعي، ما يجعله يجفل فجأة في الزوايا البعيدة التي يختبئ فيها، و يصاب بالاهتياج من دون أن يدهشه.

- «آه، سيد جونز» كان يقول له، وهو يفيق فجأة كأنه فيل نخسته شوكة «صباح الخير».

- «صباح الخير، سيدي» يقول جونز، وعيناه ملصقتان على المنزل.

- هل أنت خارج لتتمشى؟

ـ «نعم، سيدي، نعم سيدي» ويمضي جونز مسرعاً بعيداً باتجاه معاكس لمسير الكاهن، الذي كان يستغرق في حلمه ثانية، يستأنف حلمه ذاته.

أخبرت إيمي السيدة ماهون بهذا معبرة لها عن احتقار واستهزاء.

- «لماذا لا تقولي لجو، أو دعيني أقل له؟» سألت السيدة ماهون.

استنشقت إيمي الهواء بتجرد بارع. «عن تلك الدودة؟ بإمكاني أن أتولى أمره كما ينبغي. يمكنني الدفاع عن نفسي».

- أراهن على أنك قادرة على ذلك.

قالت إيمي: «أتصور ذلك»

(٥)

كان نيسان قد تحول إلى مايس.

أيام صاخبة، ومع ذلك فقد كانت هناك أيام كان المطر يهطل فيها بما يشبه الرماح الفضية على المرج، كان المطر فيها يقطر من ورقة إلى ورقة بينما كانت الطيور تغرد في الاخضرار الندي الساكن تحت الأشجار، وتمارس الحب وتتزاوج وتبني الأعشاش وتغرد أيضاً؛ أصبح المطر فيها أكثر رقة كأنه حزن فتاة شابة حزينة من أجل الحزن وحده.

لم يكن ماهون ينهض الآن إلا نادراً. كانوا قد أحضروا له سريراً متحركاً وكان يستلقي عليه، أحياناً في المنزل، وأخرى على الشرفة حيث كانت زهور الوستاريا تعكس بريقها الأرجواني البارد، بينما جيليجان يقرأ له. كان قد انتهى من روما، وهما الآن يسبحان خلال السحر الممل لاعترافات روسو. وأضمر جيليجان ابتهاجاً طفولياً.

كان الجيران المحبون يأتون للاستفسار والسؤال؛ جاء الطبيب الأخصائي من أتلانتا ذات مرت بطلب منهم، ومرة أخرى من تلقاء نفسه، قام بزيارة ودية وخاطب جيليجان بوسوسة على أنه (دكتور)، وأمضى ما بعد الظهيرة يثرثر معهم ثم انصرف. كان هو والسيدة ماهون معجبين ببعضهما إلى حد كبير. زارهم الدكتور جاري مرة أو مرتين ووجه لهم الإهانات جميعاً ثم انصرف برشاقة وهو يدخن سكائره الرفيعة الملفوفة. لم تكن السيدة ماهون ولا هو يحبان بعضهما بعضاً أبداً. ازداد الكاهن كآبة وهدوءاً، لم يكن سعيداً ولا تعيساً، لا معترضاً ولا مستسلماً.

- «انتظري حتى الشهر القادم. سيكون أقوى عندئذ. هذا شهر مرهق بالنسبة للمعاقين. ألا تعتقدي ذلك؟» سأل زوجة ابنه.

- «نعم» قالت له، وهي تنظر إلى الخارج نحو العالم الأخضر، الربيع الجميل، الجميل، «نعم، نعم».

(٦)

كانت تلك بطاقة بريدية. تشتريها ببنس، تضع عليها طابعاً وينتهي كل شيء. ويتولى مكتب البريد كتابة المادة مجاناً.

(استلمت رسالتك، سوف أكتب إليك لاحقاً. تذكريني عند جيليجان والملازم ماهون) جوليان.

(٧)

كان ماهون نائماً على الشرفة، والثلاثة الآخرون يجلسون تحت الشجرة في المرج، يراقبون الشمس وهي تغرب. وأخيراً أصبحت الحافة المحمرة لقرصها مقطوعة بالحائط المشبك المغطى بالوستارية، فبدت كشريحة جبن، وكانت البراعم الخالية من اللون تهتز بوهن إزاء الظهيرة الميتة. وسرعان ما تكون نجمة المساء هناك فوق قمة شجرة الحور، تشوش صورتها، تلك الصورة النقية إلى درجة تفوق الوصف، وكانت شجرة الحور عقيمة كفتاة تعتريها نشوة انفعال مقيدة بشكل غامض. كان نصف قرص القمر عملة معدنية مكسورة بوهن قرب الرأس وعند نهاية الحديقة كانت أولى اليراعات مثل شرر متطاير من نيران باردة. ترنمت امرأة سوداء عابرة بأغنية دينية، بصوت رخيم وبارد وحزين.

جلسوا يتحدثون بهدوء. كان العشب قد أصبح رمادياً مع سقوط الندى وأحست بقطرات الندى على حذائها الخفيف. فجأة استدارت إيمي نحو جانب المنزل، ركضت واندفعت صاعدة الدرجات واجتازت المدخل بسرعة في الغسق.

- «ما الذي دهاك..» بادرت السيدة ماهون إلى القول، ثم شاهدوا جونز، كأنه ساطير(*) سمين، يثب وراءها، ويعجز عن اللحاق بها. عندما رآهم تباطأ فوراً ومشى بتثاقل نحوهم بمظهره الرث كالعادة. كانت عيناه الماكرتان كامدتين بهدوء لكن كان بوسعها أن تحس بلهاثه وهو يلتقط أنفاسه. اعترتها نوبة ضحك متشنجة وأخيراً وجدت صوتها.

(*) ساطير: إله من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذن فرس وكان يتميز بولوعه الشديد بالعربدة وانغماسه في الملذات.

ـ مساء الخير، سيد جونز.

ـ «ترى» قال جيليجان باهتمام «ما الذي كنت..».

ـ «اسكت، جو» قالت له السيدة ماهون. كانت عينا جونز صاخبتين وماكرتين، فاحشتين كعيني معزاة، تطوفان بينهم.

ـ «مساء الخير، سيد جونز» صار الكاهن واعياً فجأة لوجوده. «تتمشى ثانية، ها؟»

ـ «بل يركض» قال جيليجان مصححاً وقال الكاهن ثانية ها؟ وهو ينظر إلى جونز ثم إلى جيليجان.

أشارت السيدة ماهون إلى كرسي، «اجلس، سيد جونز، لا بد أنك منهك القوى تماماً، كما أتصور».

حدق جونز باتجاه المنزل، حول عينيه بعيداً، وجلس. تراخى قماش القنب تحته ونهض وأدار كرسيه بحيث يكون قبالة الواجهة الحالمة للأبرشية. جلس ثانية.

ـ «قل لي» سأله جيليجان: «ما الذي كنت تفعله على كل حال؟».

نظر إليه جونز عن كثب وقال بتثاقل «أركض» قال بسرعة وحدة، وحول عينيه ثانية إلى المنزل المظلم.

ـ«تركض؟» قال الكاهن ثانية.

ـ أعلم هذا، رأيت ذلك من هنا. لكن لماذا كنت تركض، سألتك؟

ـ «لكي يخفف وزنه، ربما» علقت السيدة ماهون بشيء من الخبث.

حول جونز نظراته الماكرة إليها. كانت حمرة الأفق تزداد كثافة بسرعة. وبدا جونز أشبه بكتلة سمينة مبهمة المعالم تكتسي بصوف شاحب اللون. «أخفف وزني. نعم. لكن ليس من أجل الزواج».

ـ «لن أكون واثقة هكذا بشأن ذلك لو كنت مكانك».

قالت له: «إن مغازلة كهذه ستؤدي إلى تخفيف وزنك بسرعة».

ـ «نعم» قال جيلجيان مصححاً: «إذا كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تناسبك للحصول على زوجة، فمن الأفضل لك أن تختار امرأة أخرى بدل

إيمي، سوف تكون مجرد ظل في الوقت الذي تمسكها فيه. هذا» أضاف «إذا كنت تهدف إلى القيام بمغازلتك وأنت تمشي».

- «ما هذا؟» سأل الكاهن.

- «ربما كان السيد جونز يتهيأ لكتابة قصيدة ليس إلا. يعيشها أولاً، كما تعرف» هتفت السيدة ماهون. نظر جونز إليها بحدة «أتلانتا» قالت مقترحة في الغسق.

- «أتلانتا؟» كرر جيليجان «ما..».

- «جرب أن تأكل تفاحة في المرة القادمة، سيد جونز» قالت تنصحه.

- «أو قليلاً من الملح، سيد جونز» أضاف جيليجان بصوت متكلف. ثم بصوته الطبيعي «لكن ما علاقة أتلانتا..».

- «أو ثمار الكرز، سيد جيليجان» قال جونز بوحشية. «لكن على أي حال، فأنا لست الرب، كما تعلم».

- «أغلق فمك يا هذا» قال له جيليجان بخشونة.

- «ما هذا؟» قال الكاهن ثانية، استدار جونز نحوه وقال موضحاً بتثاقل.

- ذلك يعني، يا سيدي، أن السيد جيليجان لديه انطباع أن فطنته ذات أهمية بالنسبة إلي تماثل أهمية أفعالي بالنسبة إليه. «لست أنا» قال جيليجان رافضاً بشدة «أنا وأنت ليست لدينا الأفكار نفسها حول أي شيء يا هذا».

- «لماذا لا ينبغي أن يحصل ذلك؟» سأل الكاهن «لكن من الطبيعي أن نتصور أن أفعال المرء وأفكاره مهمة بالنسبة للآخرين بقدر أهميتها بالنسبة إليه هو، أليس هذا صحيحاً؟».

أولى جيليجان هذا اهتمامه بالكامل. كان ذلك شيئاً بعيداً عن أن يصل إلى ذهنه، شيئاً خارج نطاق مدياته. لكن جونز كان شيئاً ملموساً، و الآن كان قد اختار جونز لنفسه.

- «إنه شيء طبيعي» قال جونز موافقاً: «كانت هناك علاقة مشتركة بين الوسائل البشرية لكل الأفعال والأفكار والعواطف. لقد فكر نابليون أن أفعاله كانت مهمة، وفكر سويفت أن عواطفه كانت مهمة، وفكر سافونا

رولا أن معتقداته كانت مهمة. وكانت هكذا بالفعل. لكننا نناقش السيد جيليجان».

- «قل لي..» بدأ جيليجان بالكلام.

- «ذكي جداً، سيد جونز» تمتمت السيدة ماهون من فوق المثلث الإيحائي لطرفي ردينها وياقتها «جندي، قسيس، ورجل مصاب بعسر الهضم».

- «قل لي» قال جيليجان ثانية: «من هو سويفت، على أية حال؟ لقد عجزت عن المتابعة هناك».

- السيد جونز، حسب كلماته هو، وأنت نابليون، جو.

- «هو؟ ومع ذلك فهو ليس سريعاً(*) إلى درجة كافية ليمسك تلك الفتاة. الطريقة التي كان يركض بها وراء إيمي.. ينبغي لك الحصول على دراجة هوائية» قال يقترح عليه.

- «ذلك هو الرد المناسب عليك، سيد جونز» قال له الكاهن. نظر جونز باتجاه صورة جيليجان المضمحلة باحتقار، كنظرة مبارز جرده من سيفه فلاح بمذراة.

- «ذلك ما نجنبه من العلاقة مع رجال الدين» قال مؤكداً.

- «ما الأمر؟» سأل جيليجان. «ما الخطأ الذي تفوهت به». انحنت السيدة ماهون وضغطت على ذراعه. «لم تتفوه بأي خطأ، جو. أنت رائع».

حملق جونز في الغسق وهو متجهم الوجه. «بالمناسبة» قال فجأة: «كيف حال زوجك اليوم؟».

- مثل العادة، أشكرك.

- «إنه يتحمل حياة الزوجية بشكل جيد كما هو متوقع، أليس كذلك؟» تجاهلت هذا. تفحصه جيليجان بارتيابٍ مكتوم. وتابع يقول: «ذلك شيء سيء تماماً. كنت تتوقعين أشياء كثيرة من الزواج».

- «اخرس، يا هذا» قال له جيليجان. «ما الذي تقصده على أية حال؟»

- لا شيء، يا سيد جالاهاد، لا شيء مطلقاً. لقد كنت أستفسر بتهذيب

(*) سويفت روائي انكليزي. وتعني **swift** (سريع).

فحسب.. يظهر أن الرجل عندما يتزوج، فإن متاعبه تستمر. أليس كذلك؟

- «إذن لا ينبغي لك أبداً أن تقلق بشأن متاعبك» قال له جيليجان بوحشية.

- ماذا؟

- أعني، إذا لم يكن لديك أي حظ أفضل، فإن حظك أفضل مرتين مما أعرف عن..

- «لديه عذر جيد عن فشل واحد، جو» قالت السيدة ماهون. نظرا معاً باتجاه صوتها. كان ما يزال يشوب السماء ضوء متناثر لا يلقي ظلالاً. وكانت أغصان الأشجار ثابتة كالمرجان في بحر صاف عديم المد. «يقول السيد جونز ستكون ممارسة الحب مع الآنسة سوندرز أمراً خنثوياً».

- خنثوي؟ ماذا يعني ذلك؟

- هل أخبره، سيد جونز؟ أم تخبره أنت؟

- طبعاً. إنك تريدين ذلك على أية حال، أليس كذلك؟

- خنثوي هو شيء تريده ولا تستطيع الحصول عليه، جو.

نهض جونز بضراوة «اسمحوا لي، أعتقد أني سوف أخلد إلى فراشي» قال بوحشية. «طاب مساؤكم».

- «حسنٌ» قال جيليجان موافقاً بخفة، ونهض أيضاً. «سوف أوصل السيد جونز إلى البوابة. ربما تختلط عليه الأمور ويتجه إلى المطبخ خطأ. ربما تكون إيمي واحدة من أولئك الخنثويين أيضاً».

ابتعد جونز برشاقة من دون أن يبدو عليه الاستعجال. قفز جيليجان خلفه. أحس به جونز فاستدار بسرعة في الغسق وأحنى جيليجان رأسه إليه.

- «من أجل مصلحتك الخاصة» قال له جيليجان بابتهاج.

«ربما يمكنك القول إن ذلك ما يسببه لك الجري وراء الكهنة، أليس كذلك؟» نزل وهو يلهث.

مشيا وهما يتمرغان في الندى وضربه بمرفقه بعنف تحت الذقن. كان جونز قد وقف فوراً وقفز جيليجان يركض وراءه، وهو يحسُّ بألم في لسانه. لكن جونز حافظ على تقدمه «لابد أنه قد تعلم كيف يهرب من شخص ما»

نخر جونز كالخنزير. «أتصور أنه تدرب على إيمي كثيراً، أتمنى لو كنت إيمي الآن.. إلى أن أمسك به».

ارتد جونز إلى المنزل واقتحم الحديقة الحالمة بتهور. رأى جونز وهو ينعطف من ركن المنزل الفسحة الخالية التي كان فيها عدوه، لكن عدوه نفسه لم يكن مرئياً، كانت الورود متفتحة بهدوء تستقبل الليل الوشيك، والزنابق تؤرجح كؤوساً شاحبة، بانتظار يوم آخر. كان الغسق حلماً، من الزمن المقيد، والطائر المحاكي يجعله يترقرق مؤقتاً، وفي كل مكان كانت الزهور تنام بعمق، بانتظار الغد. لكن جونز قد اختفى.

توقف لكي يصغي فوق حصى السياج الخشبي، بين الورود التي ينبعث منها لحن خافت لا يمكن تمييزه، ورأى القمر كأنه عملة معدنية شاحبة مكسورة يكتسي ببريق أكثر بهاء على السماء غير الملفتة للنظر. هدأ جيليجان من حركة رئتيه اللاهثتين لكي يصغي، لكنه لم يسمع شيئاً. ثم بدأ يشق طريقه ويدوس باستمرار على الحديقة المغطاة. بحمرة الغسق، المرصعة باليراعات، التي تفوح منها روائح الورود، يدوس على كل شيء مغطى أمامه، لا يترك عوداً من العشب منتصباً. لكن جونز كان قد ابتعد؛ كانت الأيادي البطيئة للغسق قد أزالت كل أثر له تماماً مثلما يخفي مشعوذ أرنباً في قبعة فارغة.

وقف في وسط الحديقة ولعن جونز بشدة كأنه يتوقع أن يكون الآخر ضمن مدى سمعه، ثم رجع جيليجان ببطء من حيث أتى، مقتفياً أثر سباقهما خلال الغسق البنفسجي الواضح، اجتاز المنزل غير المضاء، حيث كانت إيمي قد ذهبت إلى مكان ما لتتجز واجباتها، وحيث كان ماهون عند ركن الشرفة بالقرب من الشجرة الفضية المنتشية بلحن الشفق ينام على سريره المتحرك. ومضى يندفع عبر الحديقة، بينما كان المساء الذي يشبه سفينة ذات أشرعة بلون الشفق يحلم من فوق العالم.

كانت الكراسي مثل لطخات غير واضحة المعالم تحت الشجرة وكان وجود السيدة ماهون محسوساً بالأساس من خلال ياقتها وكميها البيضاوين.

عندما اقترب استطاع أن يرى بوهن الكاهن وهو ينام منحنياً إلى الوراء، وثوب المرأة القاتم يوحي بشكلها على القنب الأبيض الكالح لكرسيها. كان وجهها شاحباً، يحيط به شعرها من الجانبين، رفعت يدها عندما صار قريباً منها.

- «إنه نائم» همست وهو يجلس بجانبها.

- «لقد هرب عليه اللعنة» قال لها بسخط.

- شيء سيء جداً. حظاً أفضل في المرة القادمة.

- أراهن على ذلك. وسوف تكون هناك مرة قادمة حالما أراه ثانية.

كان الليل قد هبط تقريباً. الضوء، كل الضوء، عبر من العالم، من الأرض، وكانت أوراق الشجر ساكنة. كان الليل قد هبط تقريباً، لكن ليس تماماً؛ النهار ولى تقريباً، لكن ليس تماماً. كان حذاؤها مخضل تماماً بالندى.

- «مضى عليه الكثير من الوقت وهو نائم» حطمت الصمت بتردد «علينا أن نوقظه بعد قليل للعشاء».

تململ جيليجان في كرسيه وما أن تكلمت حتى جلس الكاهن واعتدل جسده الضخم فجأة.

- «انتظر، دونالد» قال وهو يتحرك بتثاقل على قدميه. وذهب مسرعاً بخطوات فيل عبر الحديقة باتجاه المنزل المعتم الحالم.

- «هل صاح له؟» أخذا يتكلمان معاً، في نذير شؤم غامض، نهضا جزئياً وحدقا صوب المنزل، ثم في الوجوه الباهتة، الشاحبة لبعضهم. «هل..؟» تعلق السؤال بتوازن في الغسق فيما بينهما، وهنا كانت نجمة السماء تشع بروعة على قمة شجرة الحور وكانت الشجرة النحيلة أتلانتا المورقة، المشبوبة العاطفة، تحمل تفاحتها الذهبية باتزان.

- «كلا، هل سمعت أنت؟» أجاب.

لكنهما لم يسمعا شيئاً.

- «كان يحلم» قالت.

- «نعم» قال جيليجان مؤيداً. «كان يحلم».

(٨)

كان دونالد ماهون واعياً على نحو حالم بالربيع غير المرئي، يقبع في زوايا النسيان، بالاخضرار الذي لم يتذكره ولم ينسَه، بعد مدة من الزمن استولى عليه الإحساس بالعدم الذي كان يعيش فيه كلياً ثانية، ولكن بلا هوادة. كان ذلك اشبه ببحر لم يكن يتمكن من اجتيازه كلياً ولا يبتعد عنه كلياً. أصبح اليوم ظهيرة، أصبح غسقاً ومساءاً وشيكاً، المساء كأنه سفينة، ذات أشرعة بلون الشفق، تحلم من فوق العالم بغموض في طريقها إلى الظلام. وفجأة وجد أنه كان يعبر من العالم المظلم الذي كان يعيش فيه لمدة من الزمن لا يستطيع تذكرها، مرة ثانية نحو يوم كان قد ولى منذ أمد طويل، كان قد بدده هؤلاء الذين عاشوا وبكوا وماتوا، وهكذا هو يتذكره، هذا اليوم كان له وحده، التذكار الوحيد الذي كان قد سلبه من الزمان والمكان **(Per ardua ud astra)**.

لم أكن أعرف أبداً أنني أستطيع أن أحمل هذه الكمية من البنزين. فكر في حالة من شمولية الوجود لا تشوبها الدهشة، تاركاً ظلاماً لم يكن يتذكره من أجل يوم كان قد نسيَه منذ أمد طويل، ووجد أن اليوم، يومه المألوف الذي له وحده، كان يقترب من الظهيرة. لابد أن تكون الساعة حوالي العاشرة، لأن الشمس كانت قد أصبحت فوق الرأس وخلفه ببضع درجات. وكان بوسعه أن يرى ظل رأسه يشطر في إلفة قديمة اليد التي أمسكت بعصا القيادة وظل إطار المقصورة على جانبيه، يملأان حضنه. بينما كان ضوء الشمس يسقط مباشرة تقريباً إلى الأسفل على يده الأخرى التي تتمدد بلا فائدة على حافة بدن الطائرة. حتى الجناح الأسفل المتمايل

كان مظللاً بالجناح الأعلى.

نعم، إنها حوالي العاشرة، فكر مع نفسه، بإحساس بالتآلف. عما قريب سينظر إلى الساعة ويتأكد، لكن الآن.. بالمهارة السريعة المكتسبة من التمرين والعادة رمق الأفق بنظرة شاملة قصيرة، ألقى نظرة للأعلى، انحرف إلى الجانب قليلاً لكي يرى ما خلفه. كل شيء واضح. كانت الطائرة الوحيدة التي يمكنه أن يراها بعيدة عنه إلى جهة اليسار. طائرة مراقبة بطيئة تؤدي مهمة توجيه المدفعية، كشفت له نظرة عاجلة عن زوج من طائرات الاستكشاف تحلقان فوقها، وبالإضافة إلى هذه الطائرات أحس أنه ربما كان هناك اثنتان أخريان.

ربما ألقى نظرة، فكر مع نفسه، وهو يعرف غريزياً أنهم كانوا ألمان، تساءل إن كان يستطيع أن يصل إلى مقصده قبل أن تراه طائرات الاستكشاف والحماية أم لا. كلا، لا أتصور ذلك، توصل إلى قرار. من الأفضل أن أستمر في طريق العودة. الوقود قليل. رتب وضع إبرة البوصلة المتأرجحة. رأى أمامه وإلى اليمين، من مسافة بعيدة جداً، ما كان يسمى ذات مرة ييبرس، كانت تشبه قشرة متصدعة على جرح قديم متقيح؛ وإلى الأسفل منه كانت هناك جروح أخرى لامعة مزرقة على جثة لن تترك أبداً لكي تموت.. استمر في التقدم وحيداً أو منعزلاً كأنه نورس.

بعد ذلك، وعلى حين غرة، كان ذلك كما لو أن ريحاً باردة قد عصفت به، ما الأمر؟ فكر. ذلك لأن الشمس كانت قد حجبت عنه فجأة. كان العالم أجوف، السماء، ما تزال مضائة بضوء الشمس الربيعية الخامل، لكن الشمس التي كانت مكتملة من فوقه كانت قد مسحت تماماً كما لو أن يداً قد أزالتها في لحظة إدراكه لهذا، انقض بحدة وهو يلعن غباءه، وانزلق إلى اليسار. مرت خمسة خيوط من الدخان ما بين الجناحين الأعلى والأسفل. كل واحد منها أقرب إلى جسده من الآخر، ثم أحس بصدمتين مميزتين عند قاعدة جمجمته وتلاشى بصره كما لو أن زراً

في مكان ما قد انضغط، رفعت يده المدربة مقدمة الطائرة للأعلى بمهارة، وعثرت على كتلة إطلاق مدفع فيكرز في الظلام، صار يطلق النار على الصباح الرقيق المتعرق كالرخام.

ومض بصره ثانية، كأنه تماس كهربائي ضعيف، تفحص ثقوباً محفورة في النسيج الذي قربه كأنها آثار جدري عجيبة وعندما كان معلقاً بتوازن ويطلق النار على السماء انفجر قرص على لوح المقاييس محدثاً صوتاً واهناً. ثم أحس بيده، رأى قفازه يتفجر، رأى عظامه العادية. بعدها انطفأ البصر ثانية وأحس بنفسه يترنح، يهوي إلى أن أمسكه حزامه بحدة على البطن، وسمع شيئاً ما يقرضه خلال العظم الجبهي مثل الفئران سوف تتحطم أسنانكم اللعينة هناك، قال لهم، وفتح عينيه.

كان وجه أبيه الضخم يتعلق فوقه في الغسق مثل وجه قيصر القتيل.

أحس ببصره ثانية، فيما كان المساء، كأنه سفينة ذات أشرعة بلون الشفق، يسدل ستائره على العالم، يمتد بهدوء على بحر لا حدود له. «هكذا حدث كل شيء» قال وهو يحدق فيه.



الفصل التاسع

(١)

الجنس والموت: البوابة الأمامية والبوابة الخلفية للعالم. كم هما متأصلان فينا برباط لا فكاك منه! في فترة الشباب يرفعاننا بعيداً عن طبيعتنا البشرية، وفي الكهولة يخضعاننا ثانية إلى طبيعتنا البشرية؛ أحدهما يسمننا، والآخر يسلخ جلودنا، يتركنا وكأننا دودة. في أي وقت تلبي فيه طلبات غرائزنا الجنسية على عجل وبسهولة أكبر مما هي عليه أكثر من زمن الحرب أو المجاعة أو الفيضان أو الحريق؟

رأى جونز وهو يترصد عبر الشارع أن الساحل صار خالياً أخيراً (في البداية، تقدم حارس عيّن نفسه بنفسه يرتدي زياً نظامياً، ويضع ثلاث علامات خطية على شكل حرف V على كمه وبواق كشاف أحضرهما القس المعمداني الشاب، وهو درويش تتقد عيناه كاللهب، والذي كان قد خدم في جميعة الشبان المسيحيين).

ثم ترك جونز نفسه ينسل من خلال البوابة الحديدية بجسده السمين وغطرسته كأنه قط.

(سارت آخر سيارة ببطء على الشارع وتجمع المارة الفضوليون:

- يتوجب على البلدة أن تقيم نصباً تذكارياً لدونالد ماهون، مع تماثيل لمارغريت ماهون - باورز وجو جيليجان تقوم مقام الأعمدة - وجاء الصبية قليلو التربية، سود وبيض معاً، ومن ضمنهم روبرت سوندرز لكي يحسدوا البواق الصغير، الذي انجرف بعيداً).

واستمر جونز يتسلل كالقط في ارتقاء الدرجات ودخل المنزل المهجور. أصبحت عيناه الماكرتان مثل عيني معزاة خاويتين عندما توقف وهو يصغي.

ثم تحرك بهدوء باتجاه المطبخ.

(تحرك الموكب ببطء عبر الميدان. تلقت الأشجار القادمون من الأرياف إلى البلدة للتسوق ليحدقوا ببلاهة، وجاء التجار والأطباء والمحامون إلى الأبواب والنوافذ ليلقوا نظرة؛ والرجال كبار السن في البلدة، الذين كانوا يمضون الوقت بالنوم والكسل في ساحة المحكمة، بعد أن تمكنوا من التملص من غريزة الجنس، بعد أن وصلوا إلى النقطة التي سيهتم فيها الموت بهم بدلاً من أن يهتموا هم بالموت، أفاقوا ونظروا حولهم ثم ناموا ثانية. نحو أحد الشوارع، وفيما مرت الخيول والبغال المربوطة بالعربات، نحو شارع تحيط به مخازن ومحلات السود الذين يرتدون أسمالاً بالية، وهنا كان يقف لوش بصلابة ويؤدي التحية عندما مروا. «من هنا لوش؟» «السيد دونالد ماهون» «حسنٌ، بحق السيد المسيح! إننا جميعاً سوف نمضي بتلك الطريقة، ذات يوم كل الطرق تؤدي إلى المقابر»).

جلست إيمي إلى منضدة المطبخ، كان رأسها يستند إلى مرفقيها القويين، ويداها متماسكتان خلفها على شعرها. كم مضى عليها من الوقت وهي تجلس هناك، لم تعرف، لكنها كانت قد سمعتهم وهم يحملونه بإهمال من المنزل ووضعت يديها على أذنيها، كي لا تسمع. لكن أبداً وكأنها استطاعت أن تسمع بالرغم من أذنيها المغلقتين تلك الأصوات الرهيبة، المتخبطة، غير المحترسة تماماً: وقع مكتوم لخطوات متعثرة، خائفة، ضربات ثقيلة للخشب، والتي عندما عبرت تركت خلفها خلاعة مبتذلة لا تطاق كأنها الزهور الذابلة - كما لو أن الزهور ذاتها بعد أن بلغتها إشاعة الموت أضحت فاسدة - كل المراسيم المعذبة للتخلص من الجيفة البشرية. لذلك فإنها لم تكن قد سمعت السيدة ماهون حتى لمست الأخرى كتفها. (كنت سأعالجه! لو كانوا تركوني أتزوجه بدلاً منها!) لدى ملامستها رفعت إيمي وجهها المتورم الملطخ، متورم لأنها لم تكن قادرة على البكاء. (لو أستطيع فقط أن أبكي. أنت أجمل مني، بشعرك الأسود،

وفمك المصبوغ. ذلك هو السبب).

- «تعالي، إيمي» قالت السيدة ماهون.

- «اتركيني وشأني! اذهبي!» قالت بعنف: «لقد قتلته، الآن ادفنيه بنفسك».

- «كان يريد منك أن تأتي، إيمي» قالت المرأة الأخرى برقة.

- «اذهبي، اتركيني أقل لك!» أسقطت رأسها على المنضدة ثانية، ارتطمت جبهتها..

لم يكن هناك صوت في المطبخ عدا صوت الساعة. الحياة. الموت. الحياة. الموت. الحياة. الموت. دائماً وإلى الأبد (لو يمكنني فقط أن أبكي!) كان بوسعها أن تسمع الصوت المغبر للعصافير وتخيلت أن بوسعها رؤية الظلام وهو يزداد طولاً عند العشب. عما قريب سوف يأتي الليل، فكرت وهي تتذكر تلك الليلة منذ زمن بعيد، بعيد مضى، المرة الأخيرة التي رأت فيها دونالد، دونالد الذي كان لها - ليس ذلك الشخص! وكان يقول: «تعالي إلى هنا، إيمي» وذهبت إليه، دونالد الذي كان لها قد مات منذ زمن بعيد، بعيد مضى.. استمرت الساعة: الحياة، الموت، الحياة، الموت. كان هناك شيء متجمد في صدرها. كأنه قماشة الصحون في الشتاء.

(تحرك الموكب من تحت الحروف الحديدية المقدسة في قالب متكرر، شعارنا واحد في كل مقبرة، وهناك مقبرة للجميع في أنحاء الأرض. على كل حال، كانت نظرات الحمائم تتبع الجهة التي تشير إليها أصابع ضوء الشمس المنتشر وسط أشجار الأرز، كانت هاجعة، غير ملفتة للنظر في هديلها المغمغم وسط سكون الموتى).

- «اذهبي» قالت إيمي ثانية بعد لمسة أخرى على كتفها، وفكرت بأنها كانت تحلم. كان ذلك حلماً! فكرت وذابت خرقة الصحون المتجمدة في صدرها وأحست بارتياح لا يطاق، ثم غدا ذلك دمعاً. كان الشخص الذي لمسها هو جونز، لكن أي أحد آخر سيكون سواء والتفتت في نوبة انفعال

باكية، وتعلقت به.

(إنني النشور والحياة، قال الرب..)

طوقتها نظرة جونز الماكرة كأنها الكهرمان، نظر إلى شعرها الذي لوحته الشمس وفخذها القصير، التف بجانب جسدها المستدير بارتياح شديد.

(كل من يؤمن بي، ولو كان ميتاً..)

رباه، متى تكف عن البكاء؟ في البداية تبلل بنطلوني، ثم معطفي، لكن في هذه المرة سوف يحققها لي، وإلا فإني سوف أعرف السبب الذي وراء ذلك.

(... إلا أنه سوف يعيش، وكل من يعشْ ويؤمن بي لن يمت أبداً..).

تلاشى صوت نحيب إيمي، لم تكن تحس بشيء إلا دفء الاطمئنان الواهن، الفراغ، حتى عندما رفع جونز وجهه وقبلها. «تعالي، إيمي» قال وهو يرفعها من إبطيها. نهضت بامتثال، أحنت رأسها عليه بدفء وخواء، وقادها عبر المنزل وساعدها في صعود الدرجات إلى غرفتها. خارج النافذة، تحولت الظهيرة إلى مطر مفاجئ، من دون سابق إنذار، من دون خفقة جناح ولا نفخة بوق تبشيرية.

(كانت الشمس قد اختفت، استعيدت على عجل كأنها كمبيالة مرابي، وهمدت الحمائم، أو ولت هاربة بعيداً. نفخ كشاف الدرويش المعمداني بوقه، قرع طبولاً طنانة).

(٢)

ـ «مرحباً، بوب» صاح صوت مألوف، أحد أبناء البلدة. «لنذهب إلى منزل ميلر، إنهم يلعبون الكرة هناك». نظر في وجه صديقه، لم يرد على التحية بشيء، وكانت تعابير وجهه غريبة بحيث أن الآخر قال: «لماذا تبدو سخيفاً هكذا؟ لست مريضاً، أليس كذلك؟».

ـ «ليس عليّ أن ألعب الكرة إذا لم أكن راغباً بذلك أليس كذلك؟» رد بحماس مفاجئ. استمر في المشي ببلاهة.

وقف الفتى الآخر يراقبه وقد فتح فمه. بعد وهلة استدار هو أيضاً وذهب، توقف مرة أو مرتين لينظر ثانية إلى صديقه الذي أصبح فجأة غريباً وشاذاً في أحواله. بعد ذلك، اختفى عن الأنظار، نسيه تماماً.

كان كل شيء يبدو غريباً! هذا الشارع، هذه الأشجار المألوفة ـ هل كان هذا بيته ها هنا، حيث تسكن أمه وأبوه، حيث تعيش حبيبته سيسي، حيث كان يأكل وينام، حيث كان يطوف في أرجاء المكان بأمان وثقة، حيث كان الظلام يبدو له لطيفاً وعذباً عندما ينام؟ صعد الدرجات ودخل، كان يجب أن يرى أمه، لكن بالطبع فهي لم تكن قد عادت من.. وجد نفسه يركض فجأة خلال الصالة باتجاه صوت ارتفع في أغنية عزاء مدندنة. هنا كان صديق ضخم يرتدي قماشاً أزرق، فخذاها السمينان المتموجان، فاتنتان كأنهما أثر معدّية على الماء وهي تتحرك بين المائدة والفرن.

قطعت أغنيتها الرخيمة البهيجة، وهتفت: «بورك في قلبك حبيبي، ما الذي حدث؟».

لكنه لم يكن يعرف. لقد تعلق فحسب بتنورتها المريحة الفضفاضة في نوبة حزن لم يسيطر عليها، بينما أخذت تفرك عجينة البسكويت عن يديها بمنشفة. ثم حملته وجلست على كرسي صلب الظهر، وأخذت تتأرجح إلى الأمام والخلف وتضمه إلى صدرها الذي يشبه البالون إلى أن ضعفت نوبة بكائه.

خارج النافذة تحولت الظهيرة إلى مطر مفاجئ، من دون سابق إنذار، من دون خفقة من جناح طائر ولا نفخة بوق تبشيرية.

(٣)

لم يكن هناك شيء مزعج في هذا المطر. كان كئيباً وهادئاً كأنه بركة ما بعد الصلاة. لم تتوقف الطيور حتى عن الغناء، وكانت جهة الغرب قد ترققت إلى لون ذهبي مخضل وقريب.

مشى الكاهن ببطء وهو حاسر الرأس غير واع للمطر والأشجار المقطرة بجانب زوجة ابنه عبر البرج، متجهاً إلى المنزل، وصعدا الدرجات معاً، عبرا من تحت النافذة المروحية المعتمة، غير المغسولة. داخل الصالة وقفت، بينما كانت قطرات الماء تتساقط من وجهه وملابسه مرسلة أصواتاً متتابعة ضعيفة. أمسكت ذراعه وقادته إلى غرفة القراءة وإلى كرسيه. جلس بإذعان وأخرجت منديله من صدر معطفه ومسحت قطرات المطر من صدغيه ووجه. استسلم لها وأخذ يبحث عن غليونه.

تفحصته وهو ينشر التبغ بسخاء على سطح المكتب محاولاً أن يملأ التجويف، ثم تناولته بهدوء من يده. «جرب هذه إنها أكثر بساطة» قالت له، وأخرجت سيكارة من جيب سترتها ووضعتها في فمه. «لم تدخن واحدة منها في حياتك، أليس كذلك؟».

ـ ماذا؟ أوه، أشكرك، الإنسان مهما كبر فهو يبقى يتعلم، ماذا؟

أشعلتها له وبعد ذلك أحضرت قدحاً من الخزانة، انحنت بجانب المكتب وسحبت درجاً إلى أن وجدت زجاجة الويسكي. بدا أنه قد نسيها إلى أن وضعت الكأس في يده.

بعد ذلك رفع رأسه ونظر إليها من أعماق نفسه المكروبة بامتنان وجلست فجأة على ذراع كرسيه، وسحبت رأسه ووضعته على صدرها.

كان يمسك بكأسه التي لم يتذوقها بيد وسيكارته المحترقة ببطء ترسل خيطاً غير مهتز من الدخان من بين أصابع يده الأخرى؛ بعد وهلة توقف المطر وكانت الطنف التي تقطر ماء تضيف إلى الصمت المتجمد، تضبط إيقاعه، تباعد بين أجزائِه؛ وألقت الشمس التي كانت تخترق الغرب نظرة أخيرة على الأرض قبل أن تختفي.

- «إذن أنت لن تبقي» قال أخيراً، وأشار إلى قرارها الذي لم تصرح به.

- «كلا» قالت وهي تمسك به.

(٤)

قبل نزولها، كان التل زاخراً باليراعات؛ عند أسفل التل وسط الأشجار الداكنة كانت هناك مياه غير مرئية، ومشت إيمي ببطء للاستحمام، أحست بأنها تنغمس داخل العشب الطويل الندي حتى ركبتيها، تلطخت تنورتها بالوحل.

استمرت في المشي وبعد قليل أصبحت وسط أشجار وكانت أثناء حركتها، تحس كأن الأشجار تتحرك من فوقها كأنها سفن قاتمة ترحل عن النهر المليء بالنجوم للسماء، تاركة المياه المتفرعة تلتقي ثانية من ورائها من دون أن تترك أثراً لموجة، كانت البركة تمتد بشكل مبهم الملامح في الظلام: سماء وأشجار من فوقها، أشجار وسماء من تحتها. جلست على الأرض الرطبة، تحاول أن ترى من خلال الأشجار صورة القمر الذي كان يزداد إشراقاً على الدوام في السماء التي تزداد ظلاماً. رأى أحد الكلاب القمر أيضاً وأخذ ينبح عليه، صوت رخيم طويل انزلق بنقاوة على تل الصمت، إلا أنه بدا في الوقت نفسه تباطأً من حولها كأنه إشاعة عن يأس بعيد.

انعكس ضوء القمر على جذوع الأشجار، سقطت أشرطة ضوئية نحيفة في الماء - كان بوسعها تقريباً أن تتخيل أنها تراه يقف هناك عبر البركة وهي بجانبه؛ تنحني على الماء وتكاد تستطيع أن تراها تندفع كالسهام بحدة وسرعة ووضوح، تومض تحت ضوء القمر.

كان بوسعها أن تشعر بالأرض تخترق ملابسها حتى ساقيها وبطنها ومرفقيها.. نبح الكلب ثانية، بيأس وحزن، تلاشى صوته، تلاشى بعيداً.. بعد وهلة نهضت ببطء، أحست بملابسها الرطبة، فكرت بالمسافة الطويلة التي عليها أن تقطعها مشياً إلى البيت. الغد سيكون يوم الغسيل.

(٥)

ـ «اللعنة!» قالت السيدة ماهون، وهي تحدق في لوحة البيانات. وضع جيليجان حقائبها الجلدية الأنيقة على الأرض قرب جدار المحطة، وقال باقتضاب:

ـ تأخرنا؟

ـ ثلاثين دقيقة. يا للحظ البغيض!

ـ حسنٌ، ذلك ليس بأيدينا. تريدين الرجوع إلى المنزل والانتظار هناك؟

ـ «كلا. لا أريد ذلك. لا أحب مثل هذه السفرات المحبطة. اجلب لي تذكرة، رجاءً» أعطته جزدانها ووقفت على أطراف أصابعها لكي ترى انعكاس صورتها على نافذة مرتفعة وعدلت بعض الشيء في وضع قبعتها بحركة رشيقة. ثم تمشت الهوينى على الرصيف وهي تثير إعجاب أولئك الأشخاص الطارئين الذين تجدهم دائماً يتسكعون في المحطات الصغيرة في أي مكان من الولايات المتحدة، ومع ذلك فإن السياسيين يخدعوننا بالقول إننا نقضي كل أوقاتنا في العمل!

الحرية تأتي مع القرار لنيلها: إنها لا تنتظر مرسوماً. أحست بحرية أكبر بأنها في حالة انسجام مع ذاتها أكثر مما كانت لأشهر مضت. لكن لن أفكر في ذلك، قررت ذلك بتأن من الأفضل أن يكون المرء حراً فحسب، وألا يترك ذلك يتسلل إلى عقله الواعي. أن يكون المرء أي شيء بوعي منه فذلك ينم عن إجراء مقارنة، علاقة مع النقيض، عش داخل حلمك. لا تحققه، وإلا حصلت تخمة. أو حزن، وذلك شيء أسوأ، إنني أتساءل؟ الدكتور ماهون وحلمه، سلب منه، استرده، سلب منه ثانية. أتصور بأنه شيء مضحك بالنسبة لشخص ما؛ ودونالد، مع جرحه ويده المشلولة كالحجر يرقد بهدوء هناك في

جوف الأرض الدافئة، في الدفء والظلام، حيث لا يمكن لأحدهما أن يؤذيه والآخر لن يحتاج إليه، لم تعد لديه أحلام! الذين ينام معهم الآن لا يبالون بالشكل الذي بدا عليه وجهه **Per ardua da astrai\u**، وجونز، أي نوع من الظلام يراه؟ «كابوس، آمل أن يحصل له ذلك» قالت بصوت مرتفع، بشراسة، وقال أحدهم وكان يرتدي قميصاً بلا ياقة ويبصق التبغ سيدتي؟ بدا عليه الاهتمام.

عاد جيليجان مع تذكرتها.

ـ «إنك ولد لطيف، جو» قالت له، واستردت جزدانها. تجاهل شكرها. «تعالي، لنتمش قليلاً».

ـ هل ستكون حقائبي بأمان هناك. تعتقد ذلك؟

ـ «طبعاً» نظر حواليه، ثم أومأ إلى شاب زنجي يتكئ بشكل عجيب على سلك فولاذي معلق من الأعلى بعمود هاتف. «تعال، يا ولد».

قال الزنجي سيدي؟ من دون أن يتحرك «اذهب إلى هناك، يا فتى. ذلك الرجل الأبيض يتحدث معك» قال رفيق له كان يجلس القرفصاء ويستند إلى الحائط، نهض الغلام ورنت قطعة معدنية وهي تنتقل بحركة مقوسة من يد جيليجان.

ـ راقب تلك الحقائب إلى أن أعود. موافق؟

ـ «حسنٌ، أيها النقيب» مشى الفتى بتكاسل نحو الحقائب وجلس بارتياح وتراخٍ بجانبها، وغط في النوم على الفور، كأنه حصان.

ـ اللعنة عليهم، إنهم يفعلون ما تقولين لهم، لكنهم يجعلونك تشعرين بـ...

ـ «إنهم سذج، أليس كذلك؟» قالت مبدية رأياً آخر.

ـ هكذا، كأنك كنت طفلة أو ما شابه ذلك، وهم يهتمون بك وحتى إذا كنت لا تعرفين تماماً ما الذي تريدين.

ـ إنك شخص ممتع، جو. ولطيف، لطيف جداً بحيث يصعب التفريط بك.

كانت ملامحها تبدو حادة من الجانب، شاحبة قبالة مدخل مفتوح معتم. «إنني أمنحك فرصة لئلا تفرطي بي».

- «هيا، لنتمشَ قليلاً» أمسكت ذراعه وتحركت ببطء على الممشى، أدركت بأن كاحليها كانتا تتلقيان نظرات متفحصة. تحرك خيطا الفولاذ وهما يضيقان ويميلان بعيداً خلف الأشجار. لو كان بوسعك أن تراهما إلى أبعد مما يمكنك أن ترى، أبعد مما يمكنك أن ترى..

- «ماذا؟» سأل جيليجان وهو يمشي كئيباً بجانبها.

- انظر إلى الربيع، جو. انظر في الأشجار، الصيف حلّ تقريباً هنا، جو.

- نعم، الصيف حل تقريباً هنا. إنه شيء مبهج، أليس كذلك؟ أتعجب إلى حد ما لأن أجد الأشياء تمضي من حولنا على المنوال ذاته، رغماً عنا. أتصور بأن الطبيعة العجوز تقوم بعمل جبار شامل لتجعلنا نصاب بالذهول أبداً، دع عنك القلق الذي نعانيه إذا لم نكن الأشخاص الذين نتصور بأننا يجب أن نكون عليهم.

أمسكت ذراعه، اجتازت السكة الحديدية: «أي نوع من البشر نتصور بأننا يجب أن نكون، جو؟».

- لست أدري أي نوع من البشر.. أعني الفتاة التي تعتقدين أنك هي ولست أدري أي نوع من البشر أعتقد أني هو، لكني أعرف بأننا، أنا وأت حاولنا مساعدة الطبيعة في أداء عمل طيب من شيء يائس من دون أن يكون هناك أمل يرتجى منه.

امتصت كل ورقة من أوراق الشجر المسطحة قطرة من ضوء الشمس وبدت الأشجار متوهجة ببرود مع حلول المساء. هنا كان جسر مشاة خشبي يعبر جدولاً ورصيفاً ويرتقي تلاً. «دعنا نجلس على حاجز الجسر» قدمت له اقتراحاً، وقادته إلى ذلك الاتجاه. قبل أن يتمكن من مساعدتها كانت قد أدارت ظهرها للحاجز ورفعت ذراعاها المستقيمتان بسهولة على الحاجز. علقت عقبها على حاجز أوطأ وصعد بجانبها. «لندخن سيكارة».

أخرجت علبة سكائر من حقيبة يدها وأخذ واحدة، أشعل عود ثقاب. «مَنْ المحظوظ في هذه المسألة؟» تساءلت.

- الملازم محظوظ.

ـ كلا، ليس محظوظاً، عندما تتزوج فأنت إما أن تكون محظوظاً أو تعيساً، لكن عندما تموت فأنت لا هذا ولا ذاك، لست أي شيء.

ـ ذلك صحيح. ليس عليه أن يقلق بشأن حظه بعد الآن.. الكاهن محظوظ، بالرغم من كل شيء.

ـ كيف؟

ـ حسنٌ، عندما يكون حظك تعيساً ويختفي ذلك الحظ، ألا تكونين محظوظة؟

ـ لا أدري، إنك صعب الفهم جداً بالنسبة لي الآن، جو.

ـ وماذا عن تلك الفتاة؟ رفيقها لديه نقود، سمعت هذا، ومن دون مقدرة عقلية معينة. إنها محظوظة.

ـ «هل تعتقد بأنها راضية؟» حدق جيليجان فيها باهتمام من دون أن يرد. «فكر في مقدار السعادة التي كان بوسعها أن تحققها من وراء كونها أرملة مشبوبة العاطفة وفي ريعان الشباب. أراهن بأنها تلعن حظها في هذه اللحظة».

نظر إليها بإعجاب: «كنت دوماً أفكر بأني أحب أن أكون شخصاً أحمق» قال، «لكني الآن أعتقد أني أحب أن أكون امرأة».

ـ تبارك الرب، جو. لماذا تقول ذلك؟

ـ حسنٌ، ما دامت واحدة من تلك العرافات. أخبرتني عن ذلك الشخص جونز. إنه رجل محظوظ.

ـ إلى أي حد هو محظوظ؟

ـ حسنٌ، إنه يحصل على ما يريده ، أليس كذلك؟

ـ ليس المرأة التي يريدها.

ـ «ليس تماماً، حتماً هو لا يحصل على كل النساء اللواتي يريدهن. لقد فشل مرتين حسب علمي. لكن لا يبدو بأن الفشل يشغل باله. ذلك ما أعنيه بأنه محظوظ» اتخذت سيكارتيهما مجرى قوسياً معاً باتجاه الجدول، أصدرتا هسيساً. «أتصور أن الضباط يتذكرون أمرهم على نحو جيد مع النساء مثلما يفعلون مع أي شيء آخر».

ـ تعني أنهم أغبياء؟

ـ كلا، لا أعني ذلك. الغباء هو السبب في أني لا أتمكن من الحصول على المرأة التي أريدها.

وضعت يدها على ذراعه. «لست غبياً، جو ولست جريئاً أيضاً».

ـ نعم، إني جريء. هل يمكن أن تتصوري بأني أراعي شعور الآخرين عندما يأخذون مني الشيء الذي أريده؟

ـ لا أستطيع أن أتصورك تفعل أي شيء من دون أن تراعي شعور الآخرين.

تضايق، أصبح متجرحاً. «بالطبع أنت حرة في اتخاذ آرائك الخاصة. أعرف بأني لست جريئاً مثل الرجل في تلك الحكاية. هل تتذكرين؟ تعرف إلى امرأة في الشارع وكان زوجها معها وقد ضربه. عندما نهض، ونفض التراب عن ملابسه، كان هناك رجل ما يقول: (بحق السماء، يا صديقي، هل تفعل ذلك كثيراً؟) وقال الرجل: (حتماً، بالطبع لقد تعرضت للضرب من حين لآخر، لكنك سوف تستغرب) أتصور بأنه قد أشبعه ضرباً حتى قمة رأسه» أنهى كلامه بروح دعابته التهكمية القديمة.

ضحكت ثم قالت: «لماذا لا تجرب ذلك، جو؟».

نظر إليها بهدوء لفترة من الوقت. واجهت نظرته المحدقة بصلابة وانزلقت إلى قدميه في مواجهتها، لف ذراعه حولها. «ما الذي يعنيه ذلك مارغريت؟».

لم ترد بشيء وحملها ثم أنزلها، وضعت ذراعيها فوق كتفيه. «إنك لا تعنين شيئاً من وراء ذلك» قال لها بهدوء ولامس فمه فمها، أصبحت قبضته متراخية.

ـ ليس هكذا، جو.

ـ «ليس مثل ماذا؟» تساءل بغباء. رداً على ذلك جذبت وجهه نحو وجهها وقبلته بحرارة بطيئة. ثم أحسا بأنهما بالرغم من كل شيء غريبين عن بعضهما. أسرع لكي يملأ فترة الصمت الفاصلة غير المريحة. «هل ذلك يعني بأنك موافقة؟».

ـ «لا أستطيع، جو» أجابت وهي تقف بسهولة بين ذراعيه.

ـ لكن لم لا ، مارغريت؟ إنك لا تعطني أي سبب أبداً ، كانت صامتة وهو ينظر إليها جانبياً إزاء اخضرار يلمع تحت أشعة الشمس. «لو لم أكن أحبك كثيراً ، لما قلت لك. لكنه اسمك، جو، جيليجان. لا أستطيع أن أتزوج من رجل اسمه جيليجان».

انزعج حقاً. «أنا آسف» قال بفتور. وضعت خدها على خده. على قمة التل كانت جذوع الأشجار حاجزاً مشبكاً خلفه كانت ألسنة لهب المساء في طريقها للاضمحلال. «لا أستطيع أن أغيره» اقترح عليها.

عبر المساء جاء صوت طويل «هو ذا قطارك» قال.

دفعت نفسها برقة بعيداً عنه، لكي ترى وجهه «جو، سامحني، لم أقصد ذلك..».

ـ «لا بأس» قاطعها ، ربت على ظهرها برقة سمجة. «هيا ، لنرجع».

ظهرت القاطرة بقتامة عند المنعطف؛ يتبعها خيط من الدخان كأنه فارس مقرفص منحوس تزداد قامته كبراً من دون أن يبدو عليها أنها تتقدم. لكنها كانت تتحرك وتهدر وهي تمر بالمحطة في أيامها الخوالي، وتنطلق وهي تحمل الشخص الضعيف الذي يسيطر على مصيرها كأنه زائدة شحمية ناتئة في مقدمتها.

ارتج القطار فجأة وتوقف ثم اندفع الحمالون الذين يرتدون ستراً بيضاء صوبه.

وضعت ذراعيها حوله ثانية باحتشام أمام نظرات المتفرجين »جو، لم أقصد ذلك، لكن ألا تفهم، لقد تزوجت مرتين لحد الآن، يصاحبني حظ تعيس في كل مرة، وليست لدي الشجاعة لأن أجازف ثانية فقط، لكني إذا كنت سأتزوج شخصاً معيناً ، ألا تعرف بأن ذلك سيكون أنت؟ قبلني، جو» استجاب لها «بورك في قلبك، يا حبيبي، إذا تزوجتك سوف تموت خلال سنة، جو. كل الرجال الذين تزوجوني ماتوا ، تعرف».

ـ «سوف أجازف» قال لها.

ـ «لا لكني لن أجازف. إنني ما زلت صغيرة على أن أدفن ثلاثة أزواج» لما

نزل الناس من القطار، مروا بهما، وصعد أناس آخرون، فوق كل هذا وذاك كان يسمع صراخ سائقي سيارات الأجرة مثل عزف منفرد. «جو، هل تتألم حقاً لأنني سوف أرحل؟» نظر إليها ببلادة، «جو!» هتفت به، ومرت بهما جماعة. كان ذلك السيد والسيدة جورج فار، شاهدا وجه سيسلي المكروب وهي تذوب برقة وليونة وتتحب بين ذراعي والدها، هنا كان السيد جورج فار يبدو كئيباً ولاهثاً خلفها. تجاهلوه.

- «ماذا قلت لك؟» قالت السيدة ماهون، وهي تمسك ذراع جيليجان.

- «أنت على حق» أجاب من أعماق نفسه اليائسة. «لقد قضى شهر عسل جميل، ذلك المسكين».

مرت الجماعة على المحطة ونظرت إلى وجه جيليجان ثانية.

«جو، تعال معي»

- «إلى كاهن؟» سأل بأمل بُعِثَ من جديد.

- «كلا، سنبقى على حالنا. وبعد ذلك عندما نسأم فإن كل ما نحتاج لأن نفعله هو أن نتمنى لبعضنا حظاً سعيداً ويذهب كل منا في طريقه» حدق فيها. وقد أحس بصدمة. «اللعنة على روحك المشيخية(❖)، جو. الآن أنت تعتقد بأني امرأة سيئة».

- كلا، لا أعتقد ذلك، يا سيدتي، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك..

- ولم لا.

- لست أدري، فقط لا أستطيع.

- لكن ما الفرق في ذلك؟

- حقاً، لا شيء، إذا كان ما أريده هو جسدك فحسب. لكني أريد.. أريد..

- ما الذي تريده، جو؟

- سحقاً، هيا، لنصعد.

(❖) مسيخي: صفة لكنيسة بروتستانتية يدير شؤونها شيوخ منتخبون يتمتع كل منهم بمنزلة متساوية.

- سوف تأتي إذن؟

- تعرفين بأني لن آتي معك. كنت أعرف بأنك بأمان عندما قلت ذلك.

التقط حقائبها. انتزعها حمال بمهارة منه وساعدها هو في الصعود إلى العربة. جلست على مقعد أخضر وثير ورفع قبعته بشكل أخرق، ومد يده «حسنٌ، وداعاً».

كان وجهها شاحباً وهادئاً تحت قبعتها الصغيرة البيضاء والسوداء، من فوق ياقتها الناصعة. تجاهلت يده.

- انظر لي، جو. هل كذبت عليك ولو لمرة واحدة أبداً؟

- «كلا» قال معترفاً.

- إذن ألا تعرف بأني لا أكذب عليك الآن؟ كنت أعني ما قلته، أجلس.

– كلا، كلا، لا أستطيع أن أفعلها بتلك الطريقة. تعرفين بأني لا أستطيع.

- «نعم، ولا أستطيع أنا حتى أن أغويك، جو. أنا آسفة. كنت أرغب بأن أجعلك سعيداً لفترة قصيرة، لو استطعت ذلك. لكني أعتقد بأن ذلك قدرنا، أليس كذلك؟» رفعت وجهها وقبلها.

- وداعاً.

- وداعاً، جو.

لكن لم لا؟ أخذ يفكر وهو يحس بجمرات حارة عديمة اللهب تحت قدميه، لم لا ينالها بهذه الطريقة؟ يمكنني أن أقنعها مع مرور الوقت، ربما قبل أن نصل إلى أتلانتا. استدار وقفز صاعداً ثانية إلى القطار. لم يكن لديه الكثير من الوقت عندما رأى أن مقعدها كان فارغاً، اندفع عبر العربة وهو في حالة اهتياج متفاقم. لم تكن في العربة التالية أيضاً.

هل نسيت في أية عربة هي؟ فكر. لكن لا، في ذلك المكان كان قد تركها، لأن الشاب الزنجي كان ما يزال هناك يقف ساكناً قبالة النافذة. أسرع راجعاً ليلقي نظرة أخرى على مكانها، نعم، هنا كانت حقائبها. ركض متخبطاً بالمسافرين الآخرين على طول القطار كله. لم تكن هناك.

لقد بدلت رأيها ونزلت، إنها تبحث عني، فكر في صراع عنيف مؤلم ومحاولة عقيمة، فتح أحد الأبواب بقوة وقفز إلى الأرض عندما بدأ القطار بالتحرك. قفز باتجاه ردهة الانتظار غير مبال بالوضع الذي يبدو عليه أمام المسافرين في المحطة. كانت الردهة فارغة، ألقى نظرة عاجلة في أرجاء الرصيف ولم يعثر لها على أثر، فاستدار بيأس نحو القطار المتحرك.

لابد أنها فيه! فكر بغضب عنيف، لعن نفسه لأنه لم يبق فيه إلى أن ترجع. الآن كان القطار ينطلق بسرعة بالغة وكل الأبواب موصدة. بعدها اندفعت العربة الأخيرة بسلاسة مارة به ورآها تقف على المنبسط الخلفي، حيث كانت قد ذهبت لكي تراه ثانية، وحيث لم يفكر في البحث عنها هناك.

- «مارغريت!» صاح وراء الكائن الفولاذي المتغطرس، ركض بلا جدوى على السكة الحديدية وراءه، رآه يبتعد بنعومة عنه. «مارغريت!» صاح ثانية، وهو يمد ذراعيه إليها، إلى المسافرين وكأنه يلتمس منهم مساعدته بأصواتهم.

- «أسرع قليلاً، يا سيدي» قال صوت ناصح. «عشرة إلى واحد يفوز القطار» قال صوت مراهناً. لكن لم يكن ثمة من أحد يستعد للمجازفة.

توقف أخيراً، في الواقع كان ينتحب بغضب ويأس، يتفحص صورتها، وهي بثوبها الداكن الأنيق وياقتها وكميها البيضاوين، وقد غدت أصغر ثم أصغر مع تلاشي أثر القطار، الذي خلّف وراءه صافرة ساخرة وأثر دخان باهت كأنه إهانة، كان يتحرك على خطين توأم من الفولاذ بعيداً عن نظره وعن حياته.

.. أخيراً ترك خط السكة الحديدية في زاويتين قائمتين وتسلق سياجاً من الأسلاك متجهاً نحو الغابات حيث كان الربيع قد غدا واهناً أمام الصيف الذي اتخذ سبيله بعذوبة باتجاه الليل، بالرغم من أن الصيف لم يكن قد أتى تماماً بعد.

(٦)

في أعماق أجمة كثيفة كان المساء يتلاشى بشكل بطيء. غرد طائر سُمُنْ أربع مرات بصوت مائع من العذوبة. كأنه شكل فمها، كان يفكر، وأحس بحرارة آلامه تصبح باردة مع برودة الغرب. دمدمت مياه الجدول الصغير وهي تمضي باستمرار كأنها تعويذة ضعيفة وعكس أغصان جار الماء(*) المنحنية عليه مثل نرسيسوس. فزعه طائر السمن وانطلق كأنه شريط ضوئي بني رفيع في أعماق الغابة، ثم غرد من جديد. دار البعوض حوله، من دون أن يحاول إبعاده، كان يبدو كما لو أنه قد أحس بالارتياح من هيجانه الحاد. شيء آخر يمكن أن يفكر فيه.

كان بوسعي أن أسوي خلافاتي معها. كنت سأسوي خلافاتي معها وكل ما يمكن أن يزعجها بحيث أنها عندما تتذكر الأشياء التي أزعجتها ذات مرة ستقول: هل كنت أنا؟ لو كان بوسعي فقط أن أقول لها! لكن يبدو أني لم أستطع أن أفكر فيما أقوله. أنا، الذي يتحدث طوال الوقت، تأبى الكلمات أن تسعفني.. تبع الجدول بلا هدف، بعد قليل انساب الجدول وسط ظلال بنفسجية، بين أشجار الصفصاف، وسمع المياه تتدفق بصوت أعلى. عندما ابتعد عن الصفصاف وصل إلى قناة تتدفق فيها المياه وتدير دولاب طاحونة وبحيرة صغيرة تعكس بهدوء صورة السماء الصافية والأشجار القاتمة المقابلة. رأى أسماكاً تلمع بشكل باهت على الأرض، ورد في رجل.

ـ «هل فقدت شيئاً؟» سأل، وراقب موجات صغيرة تنتشر من ذراع الرجل المغمورة في الماء. رفع الرجل نفسه بإجهاد على يديه وركبتيه، ونظر من فوق كتفه.

(*) جار الماء: شجر حرجي يألف الماء.

- «لقد سقط مني غليوني» رد في تشدق غير مؤكد. «هل يمكنني أن أجد واحداً لديك؟».

- «لدي سيكارة، إذا كانت تنفعك» عرض عليه جيليجان علبة وأخذ الآخر واحدة وهو يجلس القرفصاء.

- ممتن جداً. الإنسان يجب أن يدخن قليلاً بين حين وآخر، أليس كذلك؟

- الإنسان يحب الكثير من الأشياء الصغيرة في هذا العالم بين حين وآخر.

قهقه الرجل الآخر من دون أن يفهم المغزى، لكنه شك بأن هناك إشارة إلى الجنس. «حسنٌ، ليس لدي شيء من ذلك، لكن لدي شيء قريب منه» نهض، وانحنى مثل كلب صيد، ومن تحت أجمة صفصاف أخرج وعاء صغير، سعته غالون وعرضه على جيليجان بحركة خرقاء. «دائماً آخذ القليل منه معي عندما أذهب لصيد السمك» قال موضحاً. «يبدو أنه يجعل السمك يأكل أكثر ويقلل البعوض».

تناول جيليجان الوعاء بشكل أخرق أيضاً. ما الذي تفعله بحق الجحيم؟ «حسنٌ، دعني أرك» قال مضيفه وهو يأخذه منه. عقف الرجل إصبعه الأولى على المقبض ورفع الوعاء بحركة مائلة بظاهر يده إلى ذراعه المرتفعة أفقياً، مد عنقه للأمام إلى أن التقى فمه بفتحة الوعاء. كان بوسع جيليجان أن يرى عقدة حنجرته المنتفخة إزاء السماء الشاحبة. خفض الوعاء ومسح فمه بظاهر يده. «هكذا افعل أنت» قال وهو يمد الوعاء إلى جيليجان.

حاول جيليجان ذلك وكان حظه في النجاح أقل، أحس بالسائل بارداً بنساب على ذقنه، وبلل مقدمة صدرته. لكن في بلعومه كان ذلك مثل الحريق؛ بدا أن جوفه يتفجر بنشوة حالما لامس معدته. خفض الوعاء وهو يختنق بالسعال.

- رباه، ما هذا؟

ضحك الرجل الآخر بصوت أجش، ضرب على فخذيه. «لم تشرب ويسكي الذرة من قبل أبداً، أليس كذلك؟ لكن كيف تشعر به من الداخل؟ أفضل من الخارج، أليس كذلك؟».

اعترف جيليجان بأن ذلك صحيح. كان بوسعه الشعور بأن كل أعصابه أصبحت كأنها شعيرات كهربائية في مصباح، لم يكن يعي أي شيء آخر. بعد ذلك أحس بالدفء والانتعاش. رفع الوعاء ثانية وشرب بشكل أفضل.

سوف أذهب إلى أتلانتا غداً وأعثر عليها، الحق بها قبل أن تستقل قطاراً من هناك، قال معاهداً نفسه. سوف أعثر عليها، لا يمكنها أن تهرب مني إلى الأبد. شرب الرجل الآخر ثانية وأشعل جيليجان سيكارة. أحس هو أيضاً بشيء من الحرية، وبأنه سيد مصيره. سوف أذهب إلى أتلانتا غداً، أعثر عليها، أجعلها تتزوجني، قال ثانية. لماذا تركتها تذهب؟

لكن لم لا أذهب الليلة؟ نعم، لم لا أذهب الليلة؟ أستطيع أن أعثر عليها! أعرف بأني أستطيع ذلك. حتى في نيويورك. كان شيئاً سخيفاً إني لم أفكر في ذلك أبداً. لم يكن يحس بساقيه وذراعيه، انزلقت سيكارته من بين أصابعه الواهنة ومد يده إلى الجمرة الضئيلة بارتعاش، وجد أنه لم يكن قادراً الآن أن يسيطر على جسده. تباً، لست ثملاً إلى هذه الدرجة، كان يفكر. لكنه كان مجبراً لأن يعترف بأنه ثمل. «قل لي، ماذا كان ذلك الشراب، على أية حال؟ أكاد لا أقوى على الوقوف».

قهقه الرجل الآخر من جديد، شعر بالإطراء على شرابه «ألم أقل لك؟ إنني أصنعه بنفسي، وهو ممتاز. سوف تعتاد عليه مع كل شيء. تناول جرعة أخرى» ازدرد جرعة كما يشرب الماء، باستمتاع بالغ.

- اللعنة عليّ إن فعلت ذلك. يجب أن أذهب للبلدة.

- خذ جرعة صغيرة - سوف أوصلك إلى الطريق بنفسي.

إذا كانت جرعتان قد جعلتني أشعر بمثل هذه النشوة فسوف أصرخ إذا أخذت جرعة أخرى، كان يفكر. لكن صديقه أصر فشرب ثانية. «لنذهب» قال وهو يعيد الوعاء.

التف الرجل حول البحيرة وهو يحمل الوعاء. تخبط جيليجان وهو يمشي خلفه، بين سيقان السرو، في الوحل بين حين وآخر. بعد فترة استرد شيئاً من سيطرته على جسده ووصلا إلى فسحة بين أشجار الصفصاف انشقت عن

طريق ممتدة على التربة الرملية المائلة للون الأحمر.

ـ لقد وصلت، يا صديقي. اتبع الطريق فحسب. المسافة لا تبعد أكثر من ميل.

ـ حسنٌ. إنني ممتن لك. لديك شراب لعين حقاً.

ـ «لا بأس به، أليس كذلك؟» قال الآخر موافقاً.

ـ «حسنٌ، طابت ليلتك» مد جيليجان يده وأمسك الآخر بها باحترام وهو يترنح وهزها مرة واحدة من مرفق صلب.

ـ كن حذراً.

ـ «سأحاول ذلك» قال جيليجان معاهداً. اختفى الرجل المترنح الذي كان يعاني بصمتٍ من لسع البعوض ثانية بين أشجار الصفصاف. اندفع الطريق متموجاً كأنه جرح بليغ عبر الأرض، امتدت تعرجاته وهدوء أمامه، وإلى الجهة السفلى من الشرق كان ثمة وعد بضوء القمر كإشاعة. مشى قُدُماً في الغبار بين أشجار داكنة كأنها حبر مسكوب على صفحة السماء الشاحبة الصافية، وسرعان ما أصبح القمر أكثر من مجرد وعد. رأى حافته تزيد أطراف الأشجار حدة، رأى بعد قليل قرص القمر كله، رقيقاً كأنه صحن. كانت طيور السيد الأمريكي(*) مثل عملات معدنية ضائعة وسط الأشجار وتخبط أحدها بشكل أخرق في الغبار الذي تحت قدميه تقريباً. تلاشى أثر الويسكي من معدته، وسرعان ما عاد يأسه الضائع مؤقتاً إلى مكانه مرة أخرى.

بعد فترة وجيزة عبر من تحت أذرع سياج واجتاز السكة الحديدة وتبع ممراً ضيقاً يقع بين أكواخ يسكنها الزنوج، تفوح منها روائحهم المألوفة. كانت تنبعث من الأكواخ المظلمة ضحكات رقيقة لا معنى لها وأصوات بطيئة غير معبرة عن شيء، أصوات مرحة إلا أنها مليئة بشكل ما بكل أنواع اليأس القديم من الزمن والولادة.

تحت ضوء القمر، كان شيء ما يرتعش بهيام مع انفعالات الربيع

(*) طير السيد الأمريكي: طائر يطير في الغسق أو الليل ذو ريش مختلف الألوان.

والجسد وسط جدران مبيضة مغطاة من الداخل بورق الجرائد القديمة، شيء ما بدأ يستخدم تقاليد الرجل الأبيض مثلما يستخدم ملابسه، شيء مكبوت ومفعم بالقوة من دون أن يعرف حقيقة قوته الذاتية:

ـ إنها عربة جميلة.. جاءت لتأخذني إلى البيت..

مر به ثلاثة شبان، يجرجرون أقدامهم وسط الغبار، كأنهم يقلدون ظلالهم الخفيفة على الطريق الترابية، تبدو ملامحهم جادة بعد ساعات العمل المرهقة: «ربما تكون خطواتك سريعة، لكنك لن تقدر على الاستمرار طويلاً؛ لأن أمك سوف تؤخرك».

تابع المسير وكان ضوء القمر يسقط على وجهه، رأى الساعة ذات القبة تربض كأنها إله عطوف على بناية المحكمة قبالة السماء، تحدق عبر البلدة بوجوه أربعة. ومر بالمزيد من الأكواخ حيث تناهت إلى سمعه أصوات مرحة عذبة تصيح من باب إلى باب، نبح كلب على القمر بصوت صاف وحزين، ولعنه صوت تردد بمقاطع رقيقة.

.... إنها عربة جميلة، جاءت لتأخذني إلى البيت.. نعم، بحق المسيح، جاءت لتأخذني إلى البيييييت..

لاحت الكنيسة بسقفها الفضي وهي ترسل ظلاً قاتماً عبر المروج، مر الظل من تحت جدران نباتات مقرشة ناعسة، في الحديقة كان تغريد الطائر المحاكي الذي يعشعش في شجرة المنغوليا يرقرق السكون، وعلى طول جدار الأبرشية الذي يعكس ضوء القمر، من إفريز إلى آخر، كان هناك شيء ما يزحف بغموض. ماذا بحق الجحيم، فكر جيليجان وهو يراه يتوقف عند نافذة إيمي.

قفز من فوق أحواض الورود بسرعة من دون ضجة. هنا كان ثمة ميزاب ملائم ولم يسمعه جونز إلا أنه كان قد وصل إلى النافذة تقريباً التي تعلق فيها الآخر. نظر أحدهما إلى الآخر بحذر وتردد، الذي يتعلق بالنافذة، والآخر المتشبث بالميزاب.

ـ «ما الذي تحاول عمله؟» سأل جيليجان.

ـ «تسلق إلى هنا قريباً. أكثر وسأريك» قال له جونز مزمجراً وهو يكشر عن أسنانه الصفراء.

ـ ابتعد عن هناك، يا رجل.

ـ عليّ اللعنة، إن لم يكن ذلك مرافق السيدات ثانية. كنا جميعاً نأمل أن تكون قد رحلت مع تلك المرأة السوداء.

ـ هل ستنزل، أم أصعد وألقي بك إلى الأرض؟

ـ لا أعرف، هل أنزل؟ أم تصعد؟

رد جيليجان على ذلك بأن رفع نفسه بجهد إلى الأعلى، وقد أمسك بإفريز النافذة. حاول جونز وهو ما يزال معلقاً، أن يركله في وجهه لكن جيليجان أمسك بقدمه، وحرر قبضته من الميزاب. تأرجحا للحظة مثل بندول ضخم أمام جانب المنزل، ثم انفلتت يد جونز المسكة بالنافذة وسقطا بتهور معاً داخل مزهر خزامى. كان جونز قد سقط أولاً على قدميه وركل جيليجان على جنبه وولى هارباً. قفز جيليجان راكضاً وراءه وداهمه ببراعة.

هذه المرة سقطا داخل مزهرزنبق. قاتل جونز كأنه امرأة، ركل، نشب أظافره، عض، لكن جيليجان سحبه وأوقفه على قدميه وصار يكيل له الضربات. نهض جونز ثانية ثم سقط. في هذه المرة زحف وتمسك بركبتي جيليجان وحاول جذبه إلى الأرض. حرر جونز نفسه بالركل ونهض وولى هارباً من جديد. جلس جيليجان وهو يفكر باللحاق به، لكنه تخلى عن ذلك عندما رأى جسم جونز الصعب المأخذ لضخامته يقفز هارباً تحت ضوء القمر.

انعطف جونز عند الكنيسة فجأة بسرعة جيدة وألقى بنفسه على البوابة. لم ير أحداً يلاحقه لذلك تباطأت خطواته حتى أخذ يمشي. تحت أشجار الدردار الهادئة أصبح تنفسه أسهل. كانت الأغصان المورقة بلا حراك ما تزال ساكنة بالمقارنة مع النجوم، وأخذ يمسح وجهه وعنقه بمنديله ثم مشى على شارع مهجور. توقف عند ركن لكي يغمس منديله في حوض لإرواء الخيل، وغسل وجهه ويديه. خفف الماء من ألم الضربات التي تلقاها وعندما عاد للمشي ثانية بخطوات وئيدة ثقيلة من الظل إلى ضوء القمر ثم إلى الظل. تبعه

ظله المتسلل المشوه، كان الليل الساكن يمحو كل أثر لبليته الأخيرة تماماً من ذهنه.

من الشرفات المظللة التي خلف أشجار السنديان والقبقب أشجار الدردار والمنغوليا، من خلف كرمات متشابكة مرصعة بأزهار أقل شحوباً. تناهت إلى سمعه نتف من حديث بصوت واطئ وضحكات عذبة متقطعة.. ذكر وأنثى خلقهما الله، شابان، كان جونز شاباً أيضاً. «لكن، آه ذلك الربيع ينبغي أن يتلاشى من الوردة! محظوظة الشباب تلك التي تفوح منها رائحة عطرة ينبغي أن تغلق العندليب الذي غرد في الأغصان، آه، من أين أتى وإلى أين حلق ثانية، من يدري!..» أتمنى لو كانت معي فتاة الليلة، أخذ يتنهد.

كان القمر صافياً «آه، قمر بهجتي، الذي لا يعرف أن يتضاءل، قمر النعيم يرتفع مرة أخرى، كم مرة سيرتفع فيها فيما بعد ويظل يبحث عني خلال الحديقة ذاتها بلا جدوى!» عندها يغدو الربيع ذاته وشيكاً مع الخريف، مع الموت، «عندما يجتذب الخريف وقمر الموت أيام الصيف الطويلة الحزينة التي ترقد ها هنا فهو يغدو أيضاً دافئاً بالأسى تحت الأشجار ويتحول إلى الليل وينتحب، ويتوق لأن يموت، وفي سحر الربيع والشباب وضوء القمر رفع جونز عقيرته بالفناء.

- حبيبتي، حبيبتي، حبيبتي.

كان ظله البطيء يخفي خطوط الأوتاد الحديدية لكن عندما مر من هناك، ظهرت تلك الخطوط على العشب الرقيق الداكن كانت كتل البطونية(*) والقنا(*) تعكر الامتداد السلس للمرج وفوق أكثر أوراق المنغوليا البرونزية ارتفعت أعمدة ساكنة لمنزل أبيض، أكثر جمالاً في بساطتها من الموت.

وضع جونز مرفقيه على البوابة، محدقاً في ظله الضخم عند قدميه، استنشق رائحة الياسمين، سمع صوت طائر محاكي يغرد في مكان ما، مكان ما... تنهد جونز. كانت تلك تنهيدة ضجر خالص.

(*) البطونية: نبات أمريكي من الفصيلة الباذنجانية.

(*) القنا: عشب استوائي مزهر عريض الأوراق.

(٧)

على مكتب الكاهن كانت هناك رسالة معنونة إلى السيد جوليان لوي، شاري...، سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، تخبره فيها عن زواجها وعن موت زوجها. كانت الرسالة قد أعيدت من قبل مكتب البريد وختم عليها: «تم استبعادها. العنوان الحالي غير معروف».

(٨)

جلس جيليجان في مزهر الزنبق وهو يراقب هرب جونز «إنه ليس رديئاً بالنسبة لرجل بدين» قال معترفاً ونهض «لابد أن إيمي سوف تضطر لأن تنام بمفردها هذه الليلة» غرد الطائر المحاكي في شجرة المنغوليا ثانية، كما لو أنه كان بانتظار توقف العراك.

- «ما الذي تغرد له بحق الجحيم؟» هز جيليجان قبضته أمام الشجرة. تجاهله الطائر ونفض التراب الداكن عن ملابسه. على كل حال، قال يناجي نفسه، إنني أشعر بتحسن. أتمنى لو تمكنت من الإمساك بالوغد بالرغم من ذلك. عَبَرَ من الحديقة وألقى نظرة أخيرة على مزهر الزنبق المخرب. لاح له الكاهن بشكله الضخم، التقى به عند ركن المنزل، تحت الشجرة الفضية الغافية على حزنها المكتوم.

- هذا أنت، جو؟ كنت أتصور أني سمعت ضجة في الحديقة.

- أنت على حق. كنت أحاول ضرب ذلك الرجل البدين، لكني لم أستطع الإمساك به... لم أستطع الإمساك به. لقد ولى هارباً.

- أنتما تتقاتلان؟ يا ولدي العزيز!

- لم يكن قتالاً؛ كان منشغلاً جداً بمحاولة الفرار. يتطلب القتال وجود شخصين، أيها القس.

- القتال لا يحسم أي شيء، جو. أنا آسف لأنكما لجأتما إليه. هل أصيب أحدكما بأذى؟

- «كلا، لسوء الحظ» رد جيليجان بحزن وهو يفكر بملابسه المتربة وانتقامه المحبط.

ـ إنني سعيد بذلك. لكن الأولاد هم الذي يتقاتلون، إيه جو؟ دونالد قاتل في أيامه.

ـ أنت على حق تماماً في ذلك، أيها المقدس. أراهن أنه كان مقاتلاً شجاعاً في أيامه.

أضيء وجه الكاهن المليء بالتجاعيد فجأة بعود ثقاب متوهج بين يديه المفتوحتين وأخذ يمص غليونه. تمشى ببطء تحت ضوء القمر عبر المرج، نحو البوابة. تبعه جيليجان. «أشعر بعدم الارتياح الليلة» قال موضحاً: «هل نتمشى قليلاً؟»

سارا بخطوات وئيدة، بطيئة تحت أشجار مقوسة تعكس ضوء القمر، يجرجران أقدامهما على ظلال الأوراق. تحت أضواء القمر في المنازل كان ثمة تفاهات صفراء تحدث.

ـ حسنٌ، جو. لقد عادت الأمور إلى طبيعتها من جديد. الناس يأتون ويذهبون، لكن أنا وإيمي نبدو كأننا صخور توراتية ما هي خططك؟

أشعل جيليجان سيكارة متباهياً، مخفياً ارتباكه «حسنٌ، أيها القس، لكي أكون صادقاً معك، ليس لدي أية خطط. لكن إذا كنت لا تمانع فأعتقد أني سأبقى معك لفترة قصيرة.».

ـ «مرحباً بك، ولدي العزيز» أجاب الكاهن بمودة. ثم وقف وأخذ يحدق في الآخر بحدة. «بارك الله فيك، جو هل قررت البقاء من أجلي؟».

حول جيليجان وجهه وهو يشعر بالذنب. «حسنٌ، أيها القس..».

ـ لا ضرورة لذلك. لن أقبل. لقد فعلت كل ما بوسعك من قبل. هذا ليس بالمكان المناسب لشاب، جو.

كانت جبهة الكاهن الملساء وأنفه المتورم تشكل سطوح متقاطعة في ضوء القمر. كانت عيناه غائرتين. أحس جيليجان فجأة بكل الأحزان القديمة للجنس البشري، سود أو صفر أو بيض، ووجد نفسه يقول للكاهن كل شيء عنها.

- «مهلاً، مهلاً» قال الكاهن: «هذا شيء سيء، جو» أحنى جسده بتثاقل على حافة الممشى وجلس بجانبه.«الأمور تجري بشكل عجيب، جو»

- كنت أتصور بأنك ستتذكر اسم الرب، أيها المقدس.

- الرب هو الظروف، جو. الرب موجود في هذه الليلة. إننا لا نعرف أي شيء عن الأمور الأخرى. هذه الأشياء ستسوى في الوقت المناسب. (مملكة الرب موجودة في قلب الإنسان نفسه) هكذا يقول الكتاب المقدس.

- أليس ذلك اعتقاد غريب ليؤمن به إنسان؟

- تذكر، إنني رجل عجوز، جو. كبير جداً على المشاحنة أو التهور. إننا نصنع جنتنا أو جحيمنا بأيدينا في هذا العالم. من يدري؛ ربما عندما نموت قد لا نحتاج للذهاب إلى أي مكان ولانفعل أي شيء إطلاقاً. تلك ستكون هي الجنة.

- أو أن الناس الآخرين يصنعون لنا جنتنا وجحيمنا.

وضع الكاهن ذراعه الثقيلة على كتف جيليجان «إنك تعاني من الإحباط، لكن هذا سوف يزول. الشيء الأكبر حزناً في الحب، يا جو، هو ليس فقط أن الحب لا يمكن أن يدوم إلى الأبد، لكن حسرة القلب سرعان ما تنسى. كيف يحدث ذلك؟ (الناس ماتوا وأكلتهم الديدان، لكن هذا لا يحدث للحب) كلا، كلا» وأضاف كما لو أن جيليجان أراد مقاطعته، «أعرف أن هذا الاعتقاد لا يطاق لكن الحقيقة كلها شيء لا يطاق. ألا يعاني كل منا في هذه اللحظة من حقائق الصراع والموت؟»

أحس جيليجان بالخجل. إنني أضايقه الآن، بالإحباط الخواء الذي أعاني منه! تكلم الكاهن ثانية «أعتقد أنها ستكون فكرة جيدة لك أن تبقى، مهما يكن الأمر، إلى أن تتوصل إلى قرار بشأن مستقبلك. إذن لنعتبر هذا شيئاً منتهياً إيه؟ ما رأيك أن نتمشى أكثر.. إلا إذا كنت منهكاً؟

نهض جيليجان بتردد مسرف. بعد قليل أصبح الشارع المحاط بالأشجار مثل نفق ملتوٍ، وتركا البلدة خلفهما ونزلا وهبطا تلاً. تسلقا إلى قمة التل تحت ضوء

القمر، شاهدا العالم ينفصل عنهما ويتجه إلى الظلام، كانت المنحدرات الفضية فوق الوديان كأنها سديم متدلي بتكاسل، مرا بمنزل صغير، يغط في نومه وسط ورود متسلقة. فيما وراءه كان ثمة بستان فاكهة يقضي الليل في صفوف متناسقة، جاثماً على الأرض ومثقلاً بحمله. «ويلارد فيها فواكه طيبة» تمتم الكاهن.

نزل الطريق ثانية بين ممرات مائلة إلى الحمرة، واجتاز فسحة مستوية مضاءة بالقمر، تقطعها مجموعة من الشجيرات، وسمعا نغمات موسيقية مرتعشة صافية، صافية ونائية.

- «إنهم يقيمون الصلوات، الزنوج» قال الكاهن موضحاً.

تابعا المشي في الغبار، مارين بمنازل أنيقة منتظمة قاتمة غافية. مرت بهما جماعة عابرة من الزنوج، يحملون فوانيس تبعث ألسنة لهب صغيرة عقيمة نحو ضوء القمر بلا جدوى. «لا أحد يعرف لماذا يفعلون ذلك» رد الكاهن على سؤال جيليجان. «ربما لكي ينيروا كنائسهم».

اقتربت أصوات الغناء أكثر فأكثر؛ وأخيراً جثما وسط كتلة من الأشجار بجانب الطريق، وشاهدا الكنيسة المتداعية ببرجها المائل البائس. من داخلها كان يتسلل وهج رقيق من الكيروسين لا يفيد إلا في جعل الظلام والحرارة أشد كثافة، يجعل الرغبات الجنسية المكبوتة الوشيكة التفجر أشد ضراوة بعد العمل الشاق على الطرق الحالمة؛ ومنها كانت تنبع كل آلام الجنس الأسود في ترانيم رقيقة غارقة في الفقر والشقاء. لم يكن ذلك شيئاً يذكر، كان كل شيء؛ ثم تصاعد ذلك إلى نشوة، تأخذ كلمات الرجل الأبيض بسهولة ويسر مثلما تأخذ ربه النائي وتجعل منه أباً شخصياً.

أطعم غنمك، أيها المسيح. كل اشتياق الجنس البشري للتعلق بشيء ما، بمكان ما. أطعم غنمك، أيها المسيح.. وقف الكاهن وجيليجان جنباً لجنب في الطريق المغبر. استمر الطريق يندفع تحت ضوء القمر، ثم تلاشى بغموض من دون أن يعطي وعداً أن بالإمكان رؤيته بوضوح. كانت الحقول البائسة،

بأحشـائها الحمـراء تمثـل الآن لطخـات متعاقبـة مـن اللـون الأسـود الرقيـق والفضي؛ الأشجار كانت تحيط بكل واحدة منها هالـة نورانيـة فضية، عدا تلك التي كانت باتجاه القمر من جانبهم، فقد كانت حادة كالبرونز.

أطعم غنمك، أيها المسيح. تصاعدت الأصوات بحدة ورقة. لم يكن هناك أرغـن، لم تكـن ثمـة حاجـة لأرغـن لأنـه مـن فـوق اللحـن المتنـاغم للأصـوات الرجاليـة الجهورة ارتفعـت أصـوات نسـاء نديـة وصـافية كأنهـا أسـراب طيـور ذهبية وسماوية محلقة وقفـا معـاً وسـط الغبـار، الكـاهن بردائـه الأسـود المبهم المعـالم، وجيليجـان بملابسـه الصـوفية الثقيلـة الجديـدة، يسـتمعان، يشـاهدان الكنيسة البائسة وقد أضحت جميلة مفعمـة بشـوق وابتهـاج، مشـبوبة العاطفـة وحزينة. ثم تلاشى الغناء، أضحى من الأرض الحالمة بشـكل محتوم مـع الغد والعرق، مع النشوة الجسـدية والمـوت والخطيئـة؛ ثـم عـادا متـوجهين نحـو البلـدة تحت ضوء القمر، وهما يحسان بذرات الغبار تتخلل حذاءيهما.

انتهت

أطعم غنمك، أيها المسيح.

تصاعدت الأصوات بحدة ورقة. لم يكن هناك أرغن، لم تكن ثمة حاجة لأرغن لأنه من فوق اللحن المتناغم للأصوات الرجالية الجهورة ارتفعت أصوات نساء ندية وصافية، كأنها أسراب طيور ذهبية وسماوية محلقة، وقفا معاً وسط الغبار، الكاهن بردائه الأسود المبهم المعالم وجيليجان بملابسه الصوفية الثقيلة الجديدة، يستمعان، يشاهدان الكنيسة البائسة وقد أضحت جميلة مفعمة بشوق وابتهاج، مشوبة العاطفة وحزينة. ثم تلاشى الغناء، أضحى من الأرض الحالمة بشكل محتوم مع الغد والعرق، مع النشوة الجسدية والموت والخطيئة؛ ثم عادا متوجهين نحو البلدة تحت ضوء القمر، وهما يحسان بذرات الغبار تتخلل حذاءيهما.

علي مولا


ISBN 978-9933-407-05-6

